بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الخليـــــــل

عمادة الدراسات العليا

قسم اللغة العربيـــــة

صورة مجزرة كفر قاسم في الشعر الفلسطيني

إعداد الطالبة

سارة محمود أحمد صالح

إشراف

الدكتور ياسر أبو عليان

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير بقسم اللغة العربية بعمادة الدراسات العليا في جامعة الخليل

أيلول /2005

بسم الله الرحمن الرحيم

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة يوم الخميس بتاريخ 2005/9/8م الموافق

4/ شعبان/ 1426هـ وأجيزت

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1- الدكتور : ياسر أبو عليان	....
2- الأستاذ الدكتور: عادل الأسطة	....
3- الدكتور: نادر قاسم	....

الإهداء

- ❖ إلى روح كل شهيد خضّب بدمائه ثرى فلسطين
- ❖ إلى روح والدي ووالدتي وزوجي رحمهم الله
- ❖ إلى بهجة روحي وفلذة كبدي ابنيّ العزيزين
- ❖ إلى إخوتي وأخواتي وأبنائهم أدامهم الله

المحتويات

ملخص

كانت القوة العسكرية أهم المنطلقات الإستراتيجية لتحقيق أهداف الحركة الصهيونية، وتنفيذ برامجها التوسعية في فلسطين والمناطق العربية ، فكانت المجازر المنظمة من العصابات الصهيونية والجيش الإسرائيلي ضد أهل القرى والمدن الفلسطينية المسالمين، أبرز عنوان للتوجهات الصهيونية ،خصوصا حمل عدد كبير من الفلسطينيين على الرحيل عن أرضهم ، وإحلال اليهود مكانهم ، وقد واصلت الحكومة الصهيونية ممارسة المجازر والإرهاب حتى بعد أن استتب لها الأمر في دولة مستقلة، فجاءت مجزرة كفر قاسم امتداد لمجازر دير ياسين والطنطورة والدوايمة وحيفا وعشرات المجازر الصهيونية التي حصلت إبان النكبة،ومنطوية تحت الهدف العام للحركة الصهيونية، الذي يقوم على (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) .

خضعت قرى المثلث –ومنها قرية كفر قاسم – للحكم الإسرائيلي بموجب اتفاقية (رودس)، ومن يومها عانى سكانها الفلسطينيون من صنوف الإرهاب وتقييد الحريات والقتل والاعتقال،وقام الصهاينة بتتويج هذه الممارسات بارتكاب مجزرة على يد قوات من حرس الحدود، قامت بتطبيق قرار منع التجول في قرى المثلث عشية العدوان الثلاثي على مصر، في 1956/10/29، ومع بدء عودة العمال من الحقول والمستعمرات المجاورة إلى القرية في الساعة الخامسة مساء، بدأت آلة الحقد والعنصرية تحصد أرواح هؤلاء العمال ، فلم توفر شابا أو شيخا أو امرأة أو طفلا، وعلى مدخل كفر قاسم الغربي وفي أزقتها، وبأمر من أعلى السلطات العسكرية، أزهقت أرواح "49" فلسطينيا ، جريمتهم الوحيدة هي انتماؤهم لشعب لم يشف غليل الصهيونية ما فعلته به عام نكبته من تشريد وإبادة.

وقف الشعر الفلسطيني معبرا عن هذه المأساة المتكررة ضد الشعب الفلسطيني بألوان وأشكال مختلفة، وقد جاء هذا الشعر غزيرا متجددا مفصلا لصور القتلة المنفذين ،والخصال التي تربوا عليها، فأصبحت جزءاً من شخصيتهم ، وأهمها الحقد والقسوة والظلم...، ولإظهار قتامة هذه الصورة رسم الشعراء صوراً مشرقة للشهداء، مركزين على صورة الدماء والجراح ومكانة الشهداء، والآلام التي تركتها المجزرة على ذوي الشهداء والفلسطينيين عامة، بعد أن ذبحت العدالة في ساحة القضاء الصهيوني، وتغريم المسؤول عن قتل خمسين ضحية بقرش.

وتناولت الأشعار أبعادا متعددة، منها البعد الوطني بكل ما يحمله الوطن من أرض وإنسان، كما برز البعد القومي في أشعار المجزرة لارتباطها بالعدوان الثلاثي على مصر ، وسيطرة القومية العربية في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، وقد نحا هذا الشعر منحيين:الاعتزاز بالعروبة والأمجاد

العربية، والحث على التمسك بالخصال العربية الأصيلة، والمنحى الآخر النقمة على الحكام العرب الذين تخلوا عن فلسطين للأعداء الطامعين.

أما البعد الثالث فهو البعد الديني، وقد برز بقوة في أشعار مجزرة كفر قاسم نتيجة ارتباط فلسطين بالديانات السماوية الثلاث، وكان الدين الإسلامي أكثر حضورا في هذه الأشعار ، وقد ركز الشعراء على مكانة الشهيد مسترشدين بالقرآن والسنة، وأشاروا إلى كثير من القصص القرآني ، والمقدسات الإسلامية.

البعد الرابع الذي ظهر في شعر المجزرة هو البعد الإنساني، لما تشكله هذه المجزرة وغيرها من المجازر من خروج على القيم الإنسانية، وتجريد المنفذين من المشاعر الإنسانية .

وقد قسم البحث إلى ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد، تناول الفصل الأول صور القتلة – صور الشهداء. وتناول الفصل الثاني أبعاد المجزرة في الشعر الفلسطيني من وطني وقومي وديني وإنساني، أما الفصل الثالث فكان دراسة فنية، تناول اللغة – الأسلوب – الصورة الشعرية ، وانتهى بدراسة الموسيقى والأوزان الشعرية.

تمثل أشعار المجزرة الشعر الفلسطيني بكل ما فيه من توجهات وتطورات، والذي يعتبر انعكاسا حقيقيا للوضع الفلسطيني المؤلم، نتيجة وقوع فلسطين في أيدي عدو متغطرس حاقد يتفنن في أساليب الإجرام والإرهاب، ولكن الشعب الفلسطيني شعب متمرد على الظلم ، يرفض الخنوع، ويدعو إلى استمرار المقاومة كطريق وحيد لاسترداد الحقوق المسلوبة.

مقدمة

حظيت القضية الفلسطينية بكل أبعادها :السياسية والاجتماعية والأدبية والفنية،باهتمام الباحثين والدارسين، منذ مطلع القرن العشرين، حين أعطى "بلفور" –وزير الخارجية البريطاني آن ذاك– وعده المشؤوم بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، وأكملت الحكومة البريطانية وعدها بأن سمحت بتدفق السلاح الأوروبي على يهود فلسطين خلال فترة الانتداب، كما سمحت بإقامة جمعيات سرية تعمل تحت أغطية مختلفة ، بهدف التدريب على السلاح، تلك الجمعيات التي تحولت إلى عصابات صهيونية، اتخذت العنف وإراقة الدماء وسيلتها في تنفيذ مخططاتها القائمة على إبادة عدد كبير من الفلسطينيين، وحمل معظمهم على الرحيل عن أرضهم ووطنهم، لإحلال المستوطنين اليهود مكانهم، وسلكوا لتحقيق ذلك أسرع الطرق بارتكابهم الجرائم والمجازر الواحدة تلو الأخرى، وكانت مجزرة دير ياسين سنة 1948 م من العمليات المنظمة والمدروسة والمخطط لها بدقة في هذا المجال ، وجاءت مجزرة كفر قاسم سنة 1956م لتخدم الهدف نفسه.

تركت هذه المجازر بصماتها الواضحة على الفنون الأدبية باختلاف أنواعها، وكان الشعر أسرع الفنون استجابة للتعبير عن هذه المآسي ، كيف لا وقد بات الشعر فناُ للحياة، وسلاحاُ في المعركة، وتصويرا للواقع، ورباطا يربط الشاعر مع أبناء أمته، وهو ما زاد تعلق الباحثة بالأدب عامة والشعر خاصة.

وعندما عزمت الباحثة على تقديم دراسة لنيل درجة الماجستير ، سار قطارها ليحط في محطة المجازر الصهيونية في الشعر الفلسطيني بأشكاله المتنوعة، ولما كان عدد المعروف منها يفوق المائة، آثرت أن يقتصر البحث على واحدة منها تحاشيا للإطالة والسطحية، فكان البحث بعنوان "**صورة مجزرة كفر قاسم في الشعر الفلسطيني**" ولهذا الموضوع موضع في نفس الباحثة للأسباب التالية:

أولا: أن الباحثة عربية فلسطينية تخوض مع أهلها وإخوانها كفاحا يوميا ضد عدو غاصب لا يقيم وزنا لحق أو مبدأ أو قيمة مهما كانت، يمارس الإرهاب بكل أشكاله صباح مساء، يقتل ويسلب الأرض ويهدم المنازل ويشرد أهلها ويعتدي على المقدسات ويحاول تهويدها، يرتكب المجازر تحت سمع العالم وبصره، ويجد من يحتضنه من النظم الاستعمارية الظالمة أمثال أمريكيا ومن سار في ركبها.

ثانياُ: أن هذه المجزرة تفرّدت عن غيرها بأنها نفّذت بأيدي من يُعوّل عليها حماية الضحايا بموجب القانون الدولي الذي ينص على وجوب حماية المدنيين المسالمين من القوة المحتلة.

ثالثا: على الرغم من وفرة الأبحاث في الشعر الفلسطيني، واهتمام باحثين معاصرين بالجوانب الوطنية والقومية والدينية، ودراستها دراسة منهجية مستفيضة ، بيد أن صورة مجزرة كفر قاسم– في الشعر الفلسطيني لم تنل ــ على أهميتهاــ الدراسة الأكاديمية التي تستحقها ، فرأت الباحثة أن تخصها بالبحث والتحليل، أملاً في إنارة جوانبها المعنوية والفنية، وأن تسد ثغرة في دراسة الشعر الفلسطيني والعربي.

ولمّا سعت الباحثة إلى الإطلاع على أهم المصادر والمراجع لجمع المادة المتصلة بالبحث، واجهت صعوبات من أهمها:

1- شح المصادر والمراجع التي تتناول موضوع البحث في مكتبات جامعات الضفة ، إضافة إلى صعوبة الوصول إليها ، نظرا لاضطراب الأحوال السياسية وكثرة الإغلاقات ومنع التجول الذي تفرضه القوات العسكرية الإسرائيلية، لذا قامت الباحثةــ لتعويض ذلك ــ بالسفر مرتين إلى مكتبات الجامعات الأردنية والبحث في المكتبات الخاصة.

2- صعوبة الاطلاع على المواد الأدبية والتاريخية والصحف والدوريات التي صدرت فترة ارتكاب المجزرة،والمتعلقة بموضوع البحث، نظرا لوجودها في مكتبات داخل الأراضي المحتلة عام 1948م، لاشتعال نيران انتفاضة الأقصى ، وكثرة التعقيدات والعراقيل الإسرائيلية التي جعلت من شبه المستحيل دخول هذه الأراضي والتنقل فيها.

وبعد جمع جزء كبير من مادة البحث، علمت الباحثة أن مجلس محلي كفر قاسم قام بتنظيم مسابقة شعرية في الذكرى الــ 43 للمجزرة، وتشكلت لجنة لفرز القصائد مكونة من نخبة من الشعراء والنقاد على رأسهم دكتور " فاروق مواسي" والأستاذ "شكيب جهشان" ، والأستاذ " علا عيسى"، حيث قامت هذه اللجنة بالإعلان عن القصائد الفائزة ، واختار القصائد التي ستنشر في مجموعة شعرية تحت عنوان (ديوان الشهيد) بالإضافة إلى كتابات شعرية منذ عام 1957م ، وقد شكل هذا الديوان مع كتاب آخر بعنوان (كفر قاسم الأحداث والأسطورة) – وهو مجموعة من المقالات والأبحاث تتناول المجزرة من الناحية التاريخية وتحليل الحدث- المصدرين الرئيسين لمادة البحث، بعد أن استطاعت الباحثة الحصول عليهما عن طريق الاتصال الهاتفي مع مجلس محلي كفر قاسم، ممثلا في الأستاذ"علا عيسى" الذي قام مشكورا بإرسالهما عن طريق البريد، وقد استغرق وصولهما ما يقارب خمسة أشهر.

وكانت الباحثة تعود إلى طبعة واحدة للكتاب عدا ديوان سميح القاسم الذي اعتمدت على طبعة الأعمال الكاملة بشكل أساسي ولكن هناك بعض القصائد المحذوفة وجدتها في طبعات أخرى مثل ديوان الحماسة وديوان سميح القاسم مما اضطرها إلى العودة إليهم جميعاً

و استفادت الباحثة من دراسات في الشعر الفلسطيني من أهمها:

- الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968 للدكتور محمد عبد عبد الله عطوات

- صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر للدكتور عبد البديع عراق

قسمت الباحثة دراستها إلى ثلاثة فصول صدرتها بتمهيد ، ويلحق بها خاتمة وملحق لصورة النصب التذكاري وأسماء الشهداء والجرحى، تحدثت في **التمهيد** عن معنى المجزرة لغة واصطلاحا ، ثم انتقلت إلى المجازر في الشعر العربي ، حيث عرضت فيه لبعض المجازر التي تعرض لها العرب والمسلمون على أيدي أعدائهم ، مع الاستشهاد ببعض المقطوعات الشعرية ، وختمته بنبذة عن مجزرة كفر قاسم ،

استعرضت فيها الأجواء العامة للمجزرة ومقدماتها، ومكان وقوعها وزمانه، مع إشارة إلى موقع كفر قاسم وتاريخها.

الفصل الأول: يتضمن دراسة حركة *المجزرة في الوعي الفلسطيني*، ويقسم إلى قسمين:

الأول : صورة الجزار الذي انحدر من فكرة الصهيونية القائمة على الصراع والقتل واغتصاب الحقوق، ثم عرضت الباحثة إلى الصلحة المفبركة التي فرضت على أهل الشهداء،والمحاكمة الصورية

الثاني: صورة الشهيد الذي خرج في الصباح الباكر لجلب رزقه، وهو غارق في هموم أهله ووطنه، وما آل إليه مصير إخوانه في المنافي، ليأتيه الغدر في صورة جنود مدججين بالسلاح، تحصد أرواح الشهداء وتجعلهم كومة واحدة، وقد درست الباحثة صورة الشهداء من خلال صورة الجراح والأشلاء، كما تناولت صورة السائل الأرجواني المتدفق من جراح الشهداء، والصفات التي اكتسبها كونه دم شهيد، وانتقلت إلى قبور الشهداء وما يعلوها من نصب تذكاري، أصبح شاهدا على جرائم العدو، وأن الشهيد حي مخلد ، ودوافع الشهادة.....وغيرها.

الفصل الثاني: يتضمن دراسة *أبعاد المجزرة في الشعر الفلسطيني*، وقد بدأ بتمهيد يظهر أن شعر المجزرة أشبه بنهر تصب في مجراه روافد مختلفة، منها ما هو:

- **وطني،** يظهر مدى ارتباط الفلسطيني بأرضه وثباته عليها ، أمام مخططات العدو لاستلابها وتهويدها، ويأتي ذلك من منطلق اعتزاز الشعراء بفلسطين أرضا وشعبا.
- **قومي،** ويتضمن الاعتزاز بالعرب والعروبة وعلى رأسهم داعية القومية العربية " جمال عبد الناصر" ويخلص إلى إظهار العلاقة بين المجزرة والعدوان الثلاثي على مصر، ويصب الشعراء نقمتهم على الزعماء والحكام العرب الذين تخلوا عن نصرة فلسطين.
- **ديني،** ويغلب عليه الطابع الإسلامي، من خلال تضمين القصص القرآني ، وإسقاطها على واقع المجزرة، ورسم صورة لمكانة الشهيد والجزاء الذي ينتظره في جنات النعيم، والإشارة إلى الأماكن المقدسة وانعكاس الأحداث عليها.
- **إنساني،** وله حضور كبير في شعر المجزرة، نظرا لأن اغتصاب أرواح الأبرياء منافٍ للإنسانية ومعانيها، ولما لهذه الأعمال المشينة من أثر سلبي على المشاعر الإنسانية خاصة مشاعر ذوي الشهداء.

الفصل الثالث: ويتناول دراسة *التشكيل الفني لشعر المجزرة* ، وتشتمل على الجوانب التالية:

1- اللغة، يبحث في خصائص لغة المجزرة مثل استخدامها للغة الدارجة، وتواصلها مع الموروث الديني والأدبي، واستقائها ألفاظا وتعابير وأسماء من وحي المجزرة، ترتبط بالواقع وتعطي الشعر إيحاءات وقوة تأثير، كما تبحث في الأنماط اللغوية المختلفة من تكرار- ترادف- تضاد- تجانس والمراوحة في استخدام الأفعال والأسماء ودلالة كل منهما.

2-**الأسلوب،** تتم دراسته من حيث:-أ) *بنية القصيدة* بما تشتمل عليه من مطولات شعرية ومقطوعات قصيرة، ب) التعبير:فكانت بأساليب تعبيرية متنوعة، من القصة الشعرية إلى الغنائي ، والخطابي التقريري، والإيحائي، والإنشائي.ج) الوحدة الموضوعية.

3- **الصورة الشعرية،** وتتكون من الصورة المفردة الجزئية التي تظهر في التشبيه- الاستعارة- الكناية- التجسيد والتشخيص والتجريد- وتراسل الحواس.وقد ترتبط عدة صور جزئية لتكوين الصورة الكلية التي تأخذ ألوانا عدة:من المركبة – التعددية المتسلسلة- التفصيلية – النفسية المتحركة- والصورة المكثفة. كما تم إظهار تعاطف الطبيعة مع أحداث المجزرة .

4- **الموسيقى والأوزان،** تضمنت دراسة **الموسيقى الخارجية** التي تعتمد على الوزن والقافية بأشكالها المتنوعة، **والموسيقى الداخلية** التي تقوم على تناسق الحروف والكلمات، والاهتمام باللغة والتكرار والتجانس والترادف والصورة الشعرية وغيرها من العناصر التي ترفد الموسيقى.

وفي الخاتمة: عرضت الباحثة لأهم النتائج التي توصلت إليه، وألحقت بالبحث ملحقا لصورة النصب التذكاري وآخر لأسماء الشهداء والجرحى، وثبتا بالمصادر والمراجع التي استعانت بها .

حاولت الباحثة اتخاذ المنهج التكاملي أساسا في دراسة البحث ، فعملت على تحليل بعض النصوص والشواهد، وتركت أخرى ، مستعينة بالجانب التاريخي والنفسي والفني في ترتيب المادة والولوج في أعماق الصورة الشعرية، والربط بين النصوص المختارة.

وكان الأساس في اختيار النصوص: جودة الشعر وقيمته الفنية، واتساق النص المختار مع المعنى المطلوب إيضاحه في الصورة الشعرية، فإذا تساوى النصين في التعبير عن المعنى، اختارت الأكثر فنية، رغم أن الباحثة وجدت نفسها مضطرة – فيما ندر- للاستشهاد ببعض النصوص في موضعين نظرا لتعبيره الدقيق في الموضعين .

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان، إلى أستاذي المشرف الدكتور "ياسر أبو عليان"، الذي أمدني بفيض من علمه، ونصحه الوفير، مما شجعني وساعدني على إنجاز هذه الرسالة على الوجه الذي انتهت إليه، كما أتوجه بالشكر وأصدق مشاعر التقدير إلى مجلس محلي كفر قاسم وخاصة الأستاذ "علا عيسى" ، لما أمدني به من كتب كانت عونا لي على إتمام الدراسة وإغنائها بالنصوص الشعرية، والمعلومات والتفصيلات الدقيقة التي قد لا تتوافر في مراجع غيرها. وأتقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي في قسم اللغة العربية في جامعة الخليل، الذين غذوا فيّ روح البحث ولم يبخلوا بنصح أو إرشاد كما واشكر كل من قدم لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الدراسة.

وبعد ، فقد بذلت في هذا البحث جهداً كبيراً، وأمضيت في إعداده وقتا طويلا، ولست أزعم أني بلغت الكمال، ففوق كل ذي علم عليم، والكمال لله وحده.

الباحثة

تمهيد

المجزرة:

كلمة المَجْزَرة كلمة تطورت لتأخذ معنى اصطلاحياً منبثقاً من المعنى اللغوي، فهي مشتقة من الفعل ــ جَزَرَ يَجْزُرُ ويَجْزِر جَزْراً أي قطع ([1])، والجَزْر له معان كثيرة منها:" نضوب الماء وذهابه ونقصه"([2])، "وشور العسل من خليته واستخراجه منها"([3])، "ونحر الجَزّار الجَزُور"([4])، كما يطلق الجَزْرُ "على ما يذبح من الشاء"([5])، وهي معان تفيد القطع والسلب.

يطلق على موضع الجَزْر المَجْزِر([6]) أو المَجزَرة والمَجزِرة([7]) والجمع مجازر، وقد وردت على لسان عمر بن الخطاب-رضي الله عنه- في قوله: "اتقوا هذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر"([8]) أراد موضع الجزّارين التي تذبح فيها الإبل والبقر والشاء وتباع لحمانها. لأجل النجاسة التي فيها من دماء الذبائح وأرواثها. كما تطلق المجازّر على نديّ القوم وهو مجتمعهم، لأن الجزور إنما تنحر عند جمع الناس([9]).

انتقلت هذه الكلمة من معناها اللغوي الخاص بمكان ذبح الحيوانات لتدل على قتل وذبح المدنيين العزل: من النساء والأطفال والشيوخ، أو من هم في حكم المدنيين من المسلحين الذين تخلوا عن أسلحتهم واستسلموا لعدوهم، وقد طغى هذا المعنى الأخير لنجده يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة مَجْزَرة.

أما عمليات القتل في ساحات المعارك بين الجيوش النظامية، فلا يطلق عليها اسم مجزرة مهما كَثُر عدد القتلى، وفي ذلك يقول" جواد الحمد" عن المجازر والممارسات الصهيونية:"ومارس -أي الجيش- المجازر بالقوات البرية، تماماً كما مارسها بالقصف الوحشي عبر البحر... تلك الممارسات التي لم تكن موجهة لجيش منظم، وإنما لأطفال ونساء وشيوخ عزّل من السلاح" ([10]).

---

[1] / ابن منظور، لسان العرب، مادة جزر، 4/ 132. والزبيدي، تاج العروس، مادة جزر، 3/ 97

[2] / الزبيدي، نفسه، مادة جزر، 97/3

[3] / نفسه ، مادة جزر، 3/ 97، وابن منظور، لسان العرب، مادة جزر، 132/4

[4] / الفراهيدي، العين، مادة جزر، 62/6. وابن منظور، نفسه، 4/ 132

[5] / الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة جزر، 364. وابن منظور، نفسه، 132/4. والزبيدي، نفسه، مادة جزر، 3/ 97.

[6] / الزبيدي، نفسه، مادة جزر، 97/3

[7] / ابن منظور، نفسه، 132/4

[8] / نفسه.

[9] / اسماعيل بن حماد الجوهري،تاج اللغة وصحاح العربية، 2/ 613

[10] / جواد الحمد، المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، ص3 من المدخل في هذا الكتاب

وهنا نجد الربط ماثلاً بين الأصل اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة المجزرة، فهي تمارس من القوي المسلح تجاه الضعيف المجرد من وسائل الدفاع عن النفس، لذا نجد سمة القسوة هي البارزة للقائمين على المجازر،ومن هنا نهي عن التردد على أماكن الذبح، "لأن إلفها ومداومة النظر إليها ومشاهدة ذبح الحيوانات مما يقسي القلب ويذهب الرحمة منه"([1]) يضاف إليها صفة الغدر ونقض المواثيق والعهود.

ولا يوجد هناك معيار للمجزرة من حيث أدوات التنفيذ، فقد تختلف من مجزرة إلى أخرى، بحسب زمان وقوع المجزرة ومكانها، فهي في بعضها أسلحة نارية، بنادق، طائرات، صواريخ، وفي أخرى سكاكين، فؤوس، نار وغيرها، لكن المحصلة النهائية هي مجزرة. كما "لا تقاس المجازر بعدد الضحايا"([2]) فقد تكثر في واحدة وتقل في أخرى، فالعبرة لا تكمن في العدد، إذ أن قتل عدد قليل من المدنيين العزّل من السلاح يعتبر مجزرة نظراً لتوفر النية في ارتكابها، وإن كنا لا نطلق كلمة مجزرة على حال القتل الفردي.

المجازر في الشعر العربي:

اتسع نطاق الشعر في العصر الجاهلي، فشمل بالإضافة إلى التعبير عن الخيال والوجدان، ذكر المفاخر والفضائل العربية، ووصف المعارك والأيام بدقائقها، وتعداد الحوادث، حتى سُمّي بحق " ديوان العرب " وسجل تاريخهم.

وللبيئة العربية الصحراوية، دور أساسي في رسم ملامح الحياة الاجتماعية الجاهلية، وتكوين مجموعة الخلال والخصال العربية الكريمة، التي يمكن أن تجمعها كلمة – المروءة – من حلم وكرم ووفاء وإغاثة الملهوف وسعة الصدر والشجاعة والعفو عند المقدرة، إلى غير ذلك من خصال مجّدها الشعر، وأثبتها في سجلّ ممدوحيه. فهذا "المهلهل" يرثي أخاه " كليباً " الذي كان مقتله سبباً في اشتعال نار حرب ضروس، استمرت – فيما يقال – أربعين سنة يقول:

أجبني يا كليـــــــــب خلاك ذمّ   لقد فُجعت بفارسهـــــا نــــــزار

وإنك كنت تحلم عن رجـــــــال   وتعفو عنهم ولـــــك اقتــــدار([3])

فكليب يحلم عن الشجعان والأبطال عن قوة واقتدار. وإذا كان هذا شأنه مع الرجال الأبطال، فكيف سيكون مع الضعفاء من النساء والشيوخ والأطفال!

---

[1] / ابن منظور، لسان العرب، مادة جزر، 135/4

[2] / محمد طارق الخضراء، المجازر الصهيونية المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني، 60

[3] / أبو تمام، الحماسة، 1/ 39-392

وللشجاعة والفروسية عند العرب منزلة ليس فوقها منزلة، وهي لا تكتمل إلا إذا ظهرت في ساحة الوغى، في أثناء حرب الكماة المدججين بالسلاح ، الثابتين في ساحة المعركة، يقول عنترة مخاطبا ابنة عمه:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالـــك إن كنت جاهلة بما لم تعلمـــــــي
يخبرك من شهد الوقيعـــة أننـــي أغشى الوغى وأعف عند المغنـــم
ومدجج كره الكمـــــاة نزالــــه لا ممعن هربا ولا مستســـــلـم
جادت يداي له بعاجــــل طعنـــة بمثقف صدق الكعوب مقـــــدّم
فشككت بالرمح الأصم ثيابــــــه ليس الكريم على القنا بمحـــــرم
فتركته جزر السباع ينشنـــــــه يقضمن حسن بنانه والمعصــــم ([1])

ولم يقدر العرب شيئاً كما قدروا الوفاء، فإذا وعد أحدهم وعداً وفّى به، ووفت معه قبيلته، وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف، فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب. وبلغ من اعتدادهم بهذه الخصلة، أنهم كانوا يرفعون لمن يغدر منهم، لواء في مجامعهم وأسواقهم، حتى يُلحقوا به عار الأبد، يقول الحادرة لصاحبته سميّة:

أسميّ – ويحك – هل سمعت بغدرةٍ رفع اللواء لنـــا بهـــا في مجمـــع([2])

عندما جاء الإسلام، وجد فيضاً من الخصال الحسنة، التي التزم بها العربي، بدافع البقاء والمحافظة على النوع، وأثبتها الإسلام بأن جعلها واجباً دينياً، بل زاد عليها وهذبها، وحارب كل ما يتناقض مع المروءة والوفاء، وترسّم المسلمون خطا معلمهم– بل معلم البشرية جمعاء – في كل ما من شأنه السمو بالإنسانية، فقد ضرب الرسول الكريم أروع الأمثلة في التعامل مع الأمم المغلوبة سلماً وحرباً، فهو يوصي جنده في حروبهم بأن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأةً، ولا من اعتزل الحرب وتعبد في صومعته." اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تعرضوا لهم... ولا تقتلن امرأة ولا صغيراً مُرضَعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تفرقن نخلاً، ولا تقطعن شجراً ولا تهدموا بيتـــاً "([3]). كما أن العهد الذي قطعه لنصارى نجران بأن لا تمس كنائسهم ومعابدهم، وأن تتـــرك لهم الحرية في ممارسة عباداتهم([4])، أصبح الأساس في التعامل مع أهل الذمة، وهو بهذا يكون قد سبق كل القوانين الوضعية الحديثة المتعلقة بحقوق الإنسان.

ومضى الخلفاء الراشدون من بعد الرسول الكريم يقتدون به في معاملة الشعوب المغلوبة، واتبعوا نهجه في حقن الدماء وحماية الضعيف وعدم التعرض للمدنيين المسالمين، وخير ما يصور ذلك العهد الذي أعطاه "عمر بن الخطاب" لأهل بيت المقدس، حيث "أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم

[1] / عنترة بن شداد، الديوان ، 25–26
[2] / المفضل بن محمد بن يعلي الضبي، ديوان المفضيليات، 45.
[3] / محمد بن عمر الواقدي، المغازي، 2 /758
[4] / انظر ابن هشام، سيرة النبي، 266/4

وصلبانهم،...لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا خيرها، ولا من صلبانهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم ". ([1])

بقيت هذه الخصال متأصلة في نفوس العرب والمسلمين، رغم الحروب الطاحنة التي دارت والهفوات التي وقع فيها بعض القادة المسلمين في حروبهم مع بعضهم بعضاً، إلا أن اخترق صفوفهم من يتخذ الإسلام قناعاً، ينفذ من خلاله إلى تنفيذ مخططاته الدنيئة الحاقدة، وينفث سمه ليحصد به أرواح آلاف المسلمين، وينشر الرعب والفزع بين المدنيين العزل، يهدفون بذلك إلى تقويض دعائم الدولة الإسلامية، بعد أن أصبحت دولة مترامية الأطراف، وتغلبت على ملك فارس والروم.

وسنعرض إلى بعض المحطات السود في تاريخ الأمة الإسلامية التي ارتكب فيها أعداؤها أبشع المجازر، وخلّدها الشعر في موضوعاته. منها ما بات يعرف في التاريخ الإسلامي، باسم "**<u>ثورة الزنج</u>**" وخاصة استيلاءهم على البصرة، هذه الثورة التي شغلت الدولة الإسلامية أربع عشرة سنة "270/255هـ" وقد أشعلها رجل فارسي زعم في أول الأمر أنه من بني عبد القيس في البحرين، وفيها بدأ ينشر آراءه الثورية ضد الدولة، فتبعه نفر قليل، ثم تركها إلى البصرة سنة 254هـ، وأخذ ينشر فيها آراءه، فطلبه الوالي، ولكنه أسرع بالخروج إلى بغداد، وفي العام التالي، عاد بفكرة جديدة، وهي أن يثير الزنج الذين كان يسخرهم كبار الملاك الإقطاعيين في كسح السباخ وزراعة الأرض، لقاء أجر يسير، وحتى يكمل خطته، أسبغ على دعوته سبغة دينية، فزعم أنه يوحى إليه، وأن العناية الإلهية بعثته واختارته لإنقاذ الزنج من الجور، وأشاع أن اسمه على بن محمد، وانتسب إلى يحيى بن زيد بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ليثبت حقه الشرعي في قتال العباسيين([2]) ويجمع حوله أكبر قدر ممكن من معارضي الدولة العباسية، ضارباً على الوتر الحساس لكل جماعة من الزنج والشيعة... "وهو كاذب بالإجماع لأن يحيى بن زيد لم يعقب إلا بنتاً ماتت وهي ترضع" ([3]).

في ليلة الرابع عشر من شوال سنة 257 هـ، دخل جيش صاحب الزنج إلى البصرة قهراً، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً، وهرب نائبها ومن معه، ثم نادى منادي "إبراهيم بن المهلب": – وهو أحد أصحاب الزنجي – من أراد الأمان فليحضر دار إبراهيم، فحضر أهل البصرة قاطبة، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم، وأمر أصحابه بقتلهم، فلم ينجُ منهم إلا النادر، وكان لا يسمع إلا قول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله من أولئك المقتولين.([4])

تسامع الناس والشعراء في بغداد، وبقية أنحاء الدولة العباسية، بهذه النكبة المروعة التي حلت بالبصرة، فبكوها بدموع غزار، وفي مقدمتهم "ابن الرومي"، الذي ندبها ندباً حاراً، وتفجع وتوجع لما نزل بها من كارثة، لا تكاد أن تتخيلها الأوهام، يقول:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنـــــــام شغلها عنه بالدموع السجـــــــام

---

[1] / الطبري، <u>تاريخ الطبري</u>، 105/3

[2] / انظر <u>تاريخ الطبري</u>، 9/ 410، والمسعودي، <u>مروج الذهب</u>، 194/4، وابن تغري بردي، <u>النجوم الزاهرة</u>، 21/3-22

[3] / ابن كثير، <u>البداية والنهاية</u>، 11/ 29

[4] / نفسه،11/ 29 – 28، وابن الأثير، <u>الكامل في التاريخ</u>، 362/5

أي نوم من بعد ما حل بالبصـــ رة ما حل من هنات عظـــــــام

أي نوم من بعد ما انتهك الزنـــ ـــج جهاراً محارم الإســــــلام

إن هذا من الأمور لأمـــــــــر كـــاد ألا يقوم في الأوهــــــــام

أقدم الخائن اللعين عليهـــــــــا وعـــلى الحق أيّما إقـــــــــدام([1])

ثم أخذ يفصّل ما اقترفه الزنوج بحق البصرة وأهلها، "وأحرقت الزنج جامع البصرة ودوراً كثيرة وانتهبوها، ... وأحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل، فكانت النار تحرق ما وجدت من شيء، من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك، وأحرقوا المسجد الجامع، وقد قتل هؤلاء جماعة كبيرة من الأعيان والأدباء والفضلاء والمحدثين والعلماء" ([2]) ومضى يصور جرائم الزنج وانتهاكهم الحرمات، وتجردهم من كل معنى إنساني يقول:

كم أغصوا من شارب بشراب كم أغصوا من طاعم بطعـــــام

كم ضنين بنفسه رام منجـــــى فتلقوا جبينـــه بالحســـــــــــام

كم أخ قد رأى أخاه صريعـــاً ترب الخـــد بيـــن صرعى كرام

كم أب قد رأى عزيز بنيـــــه وهو يعلى بصـــارم صمصــــام

كم مفدى في أهله أسلمـــــوه حين لم يحمه هنـــالك حــــــــام

كم رضيع هناك قد فطمـــــوه بشبا السيف قبل حين الفطــــام

كم فتاة بخاتم الله بكـــــــــر فضحوها جهراً بغير اكتتـــــــام

كم فتاة مصونة قد سبوهـــــا بارزاً وجهها بغير لثـــــــــام ([3])

ويدلل الشاعر على كثرة الجرائم وتكرارها باستخدام "**كم**" الخبرية.

ومن المجازر التي خلدها الشعر العربي، مجزرة " **بيت المقدس** " التي حصلت عام 492هـــ، بعد أن تغلب الفرنج على الحامية الإسلامية في القدس، ولجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة. ولما تبين للمسلمين انهيار أسباب دفاعهم بادروا إلى التسليم والإذعان، ووعدوا قائد الفرنج أن يبذلوا له فدية كبيرة، كما أخذوا علَمَه ورفعوه فوق المسجد اعترافاً بالتسليم والهزيمة([4])، ولكن كيف يفي من جبل على الغدر والخديعة، ومن تعميه نشوة النصر عن كل خُلقٍ نبيل، فقد انطلق جنود الفرنج في شوارع المدينة وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز.

استمرت المذبحة طوال يوم وليلة، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، أقتحم باب المسجد الأقصى ثلة من الصليبيين، وأجهزت على جميع اللاجئين حتى وصلت الدماء إلى الركب([5]) وتذكر الروايات:

---

[1] / ابن الرومي، الديوان ، 2377/6

[2] / ابن كثير، البداية والنهاية، 11/ 28-29

[3] / نفسه، 2378/6

[4] / انظر كاستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، 425

[5] / انظر نفسه، 426

أن عدد من قتل في ساحة المسجد الأقصى وحده يزيد على سبعين ألفاً([1])، "منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف"([2]).

خرج المستنفرون من الشام إلى بغداد بصحبة القاضي "أبي سعيد الهروي" فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا، وذكروا ما حل بالمسجد الأقصى من قتل وتخريب، قال "أبو المظفر الأبيوردي" قصيدة يستنهض بها همم الأمة الإسلامية، ويثير فيها الحمّية والنخوة بحمل السلاح، والدفاع عن إخوانهم في الشام بدل ذرف الدموع والتحسر عن بعد، ثم الخلود إلى الدعة والراحة، يقول:

مزجنا دماء بالدموع السواجـــــم	فلم يبق منا عرضة للمراجـــــم
وشر سلاح المرء دمع يفيضـــــه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيهاً بني الإسلام إن وراءكـــــم	وقائع يلحقن الذرى بالمناســـــم
أتهويمة في ظل أمن وغبطــــة	وعيش كنوار الخميلة ناعـــــم
وكيف تنام العين ملء جفونهـــــا	على هفوات أيقظت كل نائـــــم
وإخوانكم بالشام أضحى مقيلهـــم	ظهور المذاكي أبو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتـــــم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم([3])

ويمضي الشاعر في وصف هذه المجزرة التي يشيب من هولها الولدان، ويذكّر الأمة الإسلامية بأن هذه الحروب لن ينجو منها أحد، وستدور الدائرة على الجميع إن لم يستعدوا لها وينصروا إخوانهم، يقول:

وكم من دماء قد أبيحت ومن دُمـــى	توارى حياء حسنها بالمعاصـــم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبـــا	وسمر العوالي داميات اللهـــازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة	تظل لها الولدان شيب القـــوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارهـــا	ليسلم يقرع بعدها سن نـــــادم ([4])

ويقول "ابن الخياط" في حث المسلمين على الجهاد لتحرير البلاد الإسلامية وعلى رأسها بيت المقدس من أيدي الفرنجة:

فحاموا عن دينكم والحريـــــم	محاماة من لا يرى المــوت فقـــــدا
وسدوا الثغور بطعن النحـــور	فمـــــن حــق ثغر بكم أن يســـدّا([5])

لذلك كان لاستعادة بيت المقدس رنة فرح، تجاوبت أصداؤها في أرجاء العالم الإسلامي كله.

---

[1] / ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، 67/4

[2] / ابن الأثير ،الكامل في التاريخ، 189/8

[3] / ابن كثير ، البداية والنهاية، 12/ 156-157

[4] /نفسه 156/12-157 . وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 151

[5] /ابن الخياط، الديوان، 182

ما كاد المسلمون يفرحون بفتح بيت المقدس، وتحرير الكثير من الثغور الإسلامية من أيدي الفرنجة، حتى سلط الله عليهم عدواً حاقداً، عاث في الأرض فساداً ودمر حضارة لو قدّر لها البقاء لتغير وجه التاريخ، ألا وهم (التتار)، ففي سنة 656هـ، بليت الدولة العباسية بوزير خائن يصانع التتار في الخفاء ويحجب عن الخليفة أخبار الجيوش الغازية، إلى أن دخلت بغداد وحاصرت دار الخلافة، كما زيّن للخليفة أن يخرج إلى "هولاكو" قائد التتار في جَمْع من العلماء والأدباء والفقهاء والأعيان، لعقد صلح معه. فخرج هؤلاء من بغداد، ولكن "هولاكو" أمر بضرب أعناقهم، ونال الخليفة من المهانة والمذلة ما جعل كلامه يضطرب، ثم قتل بطريقة بشعة، قيل خنقاً وقيل غمّ في بساط، وقيل جعل هو وولده في عدلين، وأمر برفسهما حتى ماتا. ثم دخل التتار بغداد، وبذلوا السيف فيها، واستمر القتل والنهب والسبي بضع وثلاثين يوماً، فلم ينجُ من أهل بغداد إلا من اختفى. ويقال إن عدد القتلى بلغ ألف ألف وثمانمائة ألف وكسرا، وقيل ثمانمائة ألف، وبقيت الجثث في العراء إلى أن تحلّلت وانتشر الوباء حتى وصل إلى الشام.([1])

وقد صور الشعراء كل هذه الأهوال والجرائم في شعرهم، ومنهم الشيخ "تقي الدين إسماعيل التنوخي"، الذي يبدأ قصيدته بالبكاء والتحسر على أفول شمس الخلافة وعلى خلو الديار من أهلها، وخراب مساجدها وتحويلها إلى كنائس يقول:

لسائل الدمع عن بغداد أخبـــــار	فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفـدوا	فما بذاك الحمى والدار ديـــار
تاج الخلافة والربّع الذي شرفـت	به المعالم قد عفّاه إقفـــــار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر	وللدموع على الآثار آثـــــار
يا نار قلبي من نار لحرب وغـى	شبت عليه ووافى الربّع إعصار
علا الصليب على أعلى منابـرها	وقام بالأمر من يحويه زنـــار
... ...	... .
وكم حدود أقيمت من سيوفـهـم	على الرقاب وحطـت فيه أوزار
ناديت والسبي مهتوك يجرهـــم	إلى السفاح من الأعداء دعّــار
وهم يساقون للموت الذي شهـدوا	النار يا ربي نصلاها ولا العـــار ([2])

ومما تقدم يتبين أن أعداء الأمة الإسلامية يتحينون الفرص من أجل نفث سمومهم وقتل أكبر عدد ممكن من المسلمين، لا يرعون عهداً ولا ميثاقاً، واستمرت مجازرهم في أوقات وأشكال متباينة .

وإن توقفنا عند بعض المجازر في تاريخ الأمة الإسلامية قديما، وأكثرها دموية وغدراً من قِبَل أعدائهم، فإن(***لمجازر اليهود ضد الفلسطينيين***) ما يغني الباحث عن النظر إلى غيرها في التاريخ الحديث، نتيجة لكثرتها ووحشيتها وتنوع أساليبها ، وقد بدأت منذ مطلع القرن العشرين، بعد أن أعطى

[1] /انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،51-49/7 ، ابن كثير ، البداية والنهاية، 204-200/13

[2] / ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 52-51/7

(بلفور) وعداً لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، فأخذ هؤلاء يخططون لتفريغ الأرض من أصحابها الشرعيين، ليسهل تحقق ذلك الوعد.

وتذكر بعض الدراسات أن العصابات الصهيونية، ارتكبت في أثناء فترة الانتداب البريطاني اثنتيٍ عشرة مذبحة([1]). وتابعت هذه العصابات مجازرها وتدميرها للمنازل، والضغط على الفلسطينيين في القرى والمدن الفلسطينية جميعها، خاصة في الفترة الواقعة بين كانون الثاني من عام 1948م وحتى أيار من العام نفسه، وكان لإحدى هذه المجازر صدى واسع وأثر واضح على الشعب الفلسطيني وعلى مجريات الأمور التي تلتها، وهي(**مجزرة دير ياسين**)، تلك القرية من قرى القدس التي دخلتها العصابات الصهيونية ليلاً في 1948/4/9م، بقيادة مناحيم بيغن([2]) وارتكبت فيها مجزرة رهيبة، قتل فيها ما يزيد على(250) شخصاً([3]) من العرب، وفي رواية أخرى ما يقارب (350) شخصاً –من أصل (400) شخص عدد سكانها– ([4]) وأكثر هؤلاء الضحايا من الشيوخ والنساء والأطفال، ومثّلوا بالعجزة والجثث ،ثم دمّروا القرية وشرّدوا أهلها، متعمّدين أن يدب الرعب والهلع واليأس في قلوب السكان العرب ،وكان لهم ما أرادوا، فأصبحت القرى والمدن العربية تفرغ من أهلها قبل أن تدخلها العصابات الصهيونية ([5]).

كانت قرية دير ياسين تغفو آمنة مطمئنة، بعد أن عقد أهلها هدنة مع العصابات الصهيونية تقضي بعدم الاعتداء([6]) لكن هذه العصابات– كعادتها– نقضت العهد، فقامت بمهاجمة القرية في منتصف الليل من ثلاث جهات، مسلحة بكل أنواع الأسلحة، حتى الكلاب والنار استخدموهما في تنفيذ مخططهم، وهو: إزالة القرية من الوجود ليسهل لهم الوصول إلى القدس، ويصور "أحمد غطاشة" الجرائم التي اقترفها المهاجمون ضد أهل القرية، من تدمير لجميع المنازل، وقتل للسكان، ومحاربة للإنسانية بكل صورها، فلم ينجُ شيخ ولا امرأة ولا طفل، حتى من كان في رحم أمه، فقد قاموا ببقر بطون النساء الحوامل وكان عددهن خمساً وعشرين امرأة([7])، كما أحرقوا الحقول والمحاصيل، يقول:

هدموا كل المنازل
وغدت كل الشواهد قائمات كالمقاصل
ذبحوا الأطفال ذبحاً
وبأرحام النساء
زرعوا ناباً ورمحاً
بذروا النار الغضوب

---

[1] www.qudsway-com/links/Felisteenyiat/4/Html-Felisteenyiat 4/4hfe-htm/

[2] /الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام، 432/2

[3] /صبري جريس، العرب في إسرائيل، 237

[4] / الموسوعة الفلسطينية ، القسم العام، 435/2

[5] /انظر عارف العارف، النكبة، 169/1–176

[6] /انظر وليد الخالدي،كي لا ننس قرى فلسطينية دمرتها إسرائيل عام 1948م،621

[7] / صبري جريس، العرب في إسرائيل،237

في حقول مائجات كالجدائل
وغزاة الليل تسكرهم مع الأنخاب نشوة
علّقت فوق صدورهم
نياشين الظفر
دير ياسين ... وآه
وأنا علقت فوق الصدر جرحاً كالقدر. ([1])

ويندرج تحت هذا الهدف، المجازر التي ارتكبت بعد ذلك في العديد من القرى والخِرَب الفلسطينية: قبية، أم الفحم، بلد الشيخ، الدوايمة ... أما مجزرة **(كفر قاسم)** فلها خصوصية تختلف عن غيرها، من حيث المكان والزمان ووضعية الضحايا القانونية ، وسيأتي تفصيلها لاحقاً.

على الرغم من فرض الهوية الإسرائيلية على العرب الذين صمدوا في ديارهم منذ عام 1948م، إلا أنهم لم يتساووا في حقوق المواطنة مع اليهودي، فعمدت إلى مصادرة أرضهم، وأدت المواجهات مع الجيش الإسرائيلي في 30/ آذار/ 1976م (يوم الأرض) إلى استشهاد ستة فلسطينيين من "سخنين" و"عرابة" دفاعاً عن أرضهم، وأصبح يوم الأرض يوماً وطنياً لكل الفلسطينيين أينما وجدوا.

تعدّت المجازر الصهيونية فلسطين إلى المناطق العربية، وكان من أهم فصولها وأبشعها، المجزرة التي ارتكبت بحق المدنيين الفلسطينيين في مخيمي **(صبرا وشاتيلا)** عام 1982م، بعد أن أجبر المقاتلون الفلسطينيون على الرحيل من بيروت، وترك المخيمات بلا غطاء يحميها، مما مهد الطريق أمام القوات الإسرائيلية لمحاصرة المخيمين، والسماح بدخول قوات الكتائب وقوات سعد حداد إليهما، وبدأوا بتنفيذ عمليات ذبح جماعي للفلسطينيين، وكان مهمة القوات الإسرائيلية منع سكان المخيمين من الخروج، وتقديم المساعدة للقوات المهاجمة، والمشاركة المباشرة في ذبح المدنيين.([2])

واستمرت المجزرة يومين، وسط تعتيم إعلامي شديد، ولم ترعوِ القوات المهاجمة إلا بعد أن غطت جثث الشهداء والجرحى شوارع وأزقة المخيمين، فقد بلغ عدد الشهداء ما يزيد على 2500 شهيداً ([3]) من النساء والأطفال والشيوخ ([4]).

رسم الشعراء صورة واضحة لمأساة العصر، فالقذائف انهالت على المخيمين من جميع الاتجاهات، والحصار مطبق عليهما، والقوات الإسرائيلية وأعوانها اقتحمت المخيمين فعاثت فيهما فساداً. الأمهات فقدن أطفالهن، الأولاد فقدوا آباءهم، الأشلاء متناثرة في كل مكان، تقول " دلال العلمي":

وقد سجل التاريخ مأساة عصرنا   روتها دموع الحر والخطب مفجـــع

---

[1] / أحمد غطاشة، اشتعالات الدم والزنابق، 151-152
[2] / أُنظر مجلة شؤون فلسطينية، ، عدد 138-139،أيلول 1984، ص 64-65
[3] / تعددت الروايات حول عدد الشهداء في مجزرة صبرا وشاتيلا،وتراوحت الأعداد بين 627 إلى 7000شهيداً . انظر مجلة شؤون فلسطينية ،عدد 138-139،أيلول 1984 ، ص 92
[4] / انظر نفسه

نعى الشيخ أنباءً إلينا تسارعــت وجرماً يفوق الوصف والكل سامــع
بصبرا وشاتيلا منينا بنكبــــــة تذيب الحشا منا تدوي وتقـــــــرع
فكم قاتل بات الليالي مخططـــــاً وكم مجرم يدعى رقيب يخـــــادع
فشارون مصاص الدماء بريئـــة وبيغن عدو الله يمضي يـــــــروع
سرى في المخيمين يذبح أهلنـــــا ويمشي على الأجساد يطغى ويُفــزع
وألقى قذائف تسقط الشر كلـــــــه تداعت بها الأركان والموت فـــاجع
فسالت دماء الطفل حرى بحضنها وراحت تلم الجرح حيرى وتدمـــــع
وظلت تناجي.. يا وحيدي تركتني وغابت إلى الباري تشكي تنـــــازع
فماذا عســاها أن تقـــول بنيــة بصبرا تقاسي من جحيم ..تــــــروع
وباتت تنادي يا أبي أين أختفــي ويا أم كم أشلاؤك اليوم تقطـــــــع
صريع أبوها لا يرد النـــدا لهــا ضجيع الأسى نام المعّنى مـــــودع([1])

وتذكر الشاعرة أسماء قادة العدو الصهيوني، ودورهم في ترويع الفلسطينيين، فهؤلاء لهم باع طويل في الإجرام والوحشية. ونجد شعراء آخرين يشيرون إلى قوى معادية أخرى، تواطأت على إبادة الشعب الفلسطيني، وعلى رأسها أمريكا، بوصفها راعي الإرهاب، وقاتل الأطفال ومدمر المدن،" فأمريكا هي وباء الجريمة"([2]) في كل مكان، سواء في هيروشيما أو بيروت التي صارت هيروشيما أخرى تحت القصف والدمار.يقول محمود درويش:

وأمريكا على الأسوار تهدي كل طفل لعبة للموت عنقودية
يا هيروشيما العاشق العربي أمريكا هي الطاعون، والطاعون
أمريكا ([3])

وكانت النساء عرضة للاغتصاب والاعتداء، وهناك العديد من الجرائم روتها الناجيات من المجزرة، وقد وصف جواد حسني بعض هذه الجرائم، يقول:

أخته العذراء أردوها، أراحوها من الحزن
على غال توارى
إذ على مرآه قد فضت جهاراً
في مسيل من دم قان وجرح لم يوار
راحة تحجب نهداً، ويداً تستر عارا ([4])

استمر الإسرائيليون في رسم خططهم، وتدمير المنازل والمزارع ،وقتل وملاحقة الحركات الوطنية – بل كل فلسطيني مناضل– داخل الوطن وخارجه،وزاد ذلك زيادة ملحوظة مع انطلاق الانتفاضة

---

[1] /دلال العلمي، الأقصى الجريح ،71-73
[2]/ أسماء أبو غيث،صورة العدو في شعر محمود درويش،112،رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية، 1999 .
[3] /محمود درويش، الديوان،38/2
[4] / جواد حسني ، المجزرة علامة الإعصار ،مجلة فلسطين الثورة ، عدد 449 ، 1983، 47

الأولى عام1987م ،وابتكر القتلة أساليب خاصة بهم في ملاحقة الشباب وتعذيبهم ،وهو ما بات يعرف بسياسة (تكسير الأطراف)، غير عابئين بالقوانين والمعاهدات العالمية الخاصة بحياة المدنيين، ومعاملة الأسرى. حتى المساجد ودور العبادة لم تسلم من دنس هؤلاء المرتزقة، واتخذوها مسرحاً لعملياتهم الإجرامية، يهجمون على المصلين الخاشعين لربهم يعملون فيهم السلاح . فهذا (**المسجد الأقصى**) ترتوي ساحاته بدماء الشهداء الزكية، ينتشر عبقهم في شوارع القدس وأزقتها، بل في كل مكان مبشراً ببداية عهد جديد من التحرر والنضال، يعيد لفلسطين حريتها وللعرب كرامتهم، فيوم استشهادهم هو يوم عرسهم، كما يظهر في قول شهاب محمد:

جاء العريس، فاحتفلي بأقمار الدم المسفوح يا أنهار
هللت الحشائش في شقوق السور
في نور الأزقة والحوانيت القديمة
دمهم أريق على المداخل عاشقاً للأرض
يوقظ سرها ومقابر العشق القديم
القدس بواباتها شهدت على دمهم يعانقها
فقالت: هيئوا الأعراس
جاء الغيث بالفرسان
جادت أعين الزيتون بالبشرى
وضاق الفجر بالغرباء
ها دمنا أُريق على الشوارع
أصبح العنوان للفتح الفلسطيني
أصبح شارة العهد الجديد([1])

وإن كانت المجازر التي اقترفت بحق الفلسطينيين بعد نكبة 1948 قد تمت بأيدي الجيش النظامي، إلا أن العصابات الصهيونية عادت لتظهر من جديد في صورة المستوطنين الحاقدين، وتمارس أبشع صور الإجرام بحق المصلين الساجدين لصلاة الصبح في شهر رمضان المبارك في (**الحرم الإبراهيمي الشريف**)، فهذا (باروخ غولدشتين) بالتعاون مع الجيش الإسرائيلي يزهق أرواح تسعة وعشرين مصلياً بين طفل وشيخ وشاب، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون فلسطينيون. ويربط "حسن الجعبري" بين مجازر الأقصى وحرم الخليل:

من الأقصى إلى حرم الخليـــل مذابح تجتبى في كل حيـــن
مجازر تستمر بكل يـــــــــوم ومن فجر إلى بعد الأصيــل
كأنا للمهالك قد خلقنـــــــــا فلا يوم يمر بلا قتيـــــــــل
بلينا باليهود وأي بلـــــــــوى كمن يبلى بأعداء الرســـول

[1] / شهاب محمد ،شعراء فلسطينيون، 140

وأعداء لأحمد بعد موســــــــى وأعداء لعيسى والبتــــــول([1])

فلا تنفصل عداوتهم اليوم وحقدهم على الفلسطينيين عن عداوتهم في الأمس لكل الأنبياء والرسالات السماوية وتعذيبهم للأنبياء والمؤمنين.

ويشير الشعراء إلى زمان وقوع الجريمة ومكانها، وكلاهما له خصوصية دينية عند المسلمين. يوم الجمعة العيد الأسبوعي للمسلمين. شهر رمضان شهر العبادة والطاعة والتقرب إلى الله في بيت من بيوت الله، يقول أبو النصر التميمي:

يا جمعة الشهداء كوكبة سمت بدم زكي طـــــاهر الأبـــــدان

في مسجد ضم الخليل وآلـــه في فجر يوم النصف من رمضـــــان ([2])

أجمل "معروف رفيق محمود" أشهر المجازر التي اقترفها الصهاينة ضد الشعب الفلسطيني، والشعوب العربية الأخرى، موثقاً أسماء المسؤولين عن هذه المجازر بقوله:

واذكر مذابح قد تتابع ذكرهـــا في كل مذبحـــة لنـــا شهـــــداء

كم (كفر قاسم) أرّخت في شعرنـــا هي في الجرائم فعلـــة نكـــــرّاء

أمر(ابن غوريون)عصابته اذبحـــي وأشاع فرّوا أيهـــــا الجبنـــــاء

لا تنسى (مائيراً) تكشف حقدهـــا (بحر البقر) أطفالهـــا أشـــــلاء

واذكر (مناحم بيجين) في غـــدره صبرا وشتيلا لظـــى ودمـــــاء

واذكر (لشارون) مروّع شعبـنـــا ومروّع الأطفال فهـــو بـــــلاء

لا تنسى (دير ياسين) يوم تعرضت وبأمر(بيجين) إذ تمـــوت نســـاء

بُقرت بطون حوامل في عهـــده سالت بها من حزنهـــا الدأمـــاء

من قاتل العشرات في رمضان فـــي فجر تضمخ(فالخليـــل) دمـــاء

سجدوا لرب الناس لم يتوقعـــوا غدراً و(باروخ) هـــو الرقطـــاء

سجّل(لرابيـــن) ذبيح تشـــددٍ من ذابح الأســـرى أيا ســـيناء

واذكر(لبيريز) مذابـــح عهـده (قانا) بلبنـــان لهـــا أصـــداء

أخشى(نتن ياهو) يقـــوم بمثلها يا ليته يقضـــي فـــلا نستـــاء

من أين جاءوا من بـــلاد عدة من حقدهم ضاقـت بهـم غبـــراء

المفسدون بكل أرض بـــل هم داء تفشى بئـــس ذاك الـــداء

متعجرفون وكاذبـــون وعنـدهم لسوى اليـــهودي كراهة وعـــداء

إن كان (هتلر) قد تعـــدى حـده فعلام نذبح نـــحن يـــا أعـــداء([3])

لم تنته فصول الاغتيالات والمجازر الصهيونية، وأخذت منحىً جديداً مع انطلاق الانتفاضة الثانية، مع بداية الألفية الثالثة، فخلال هذه الانتفاضة استخدمت الدولة العبرية القصف والاغتيالات

---

[1] / حجازي الشيوخي ، الجمعة الحمراء ،المجزرة،101

[2] / أبو النصر التميمي ،شموخ النخيل ،51

[3] / معروف رفيق محمود، القدس قصيدتي، 21-23

والتدمير، بشكل مكثف في كل بقعة من الضفة الغربية وقطاع غزة. فمجزرة في جنين وجريمة في غزة، قصف في نابلس واغتيال في الخليل...، مسخرة آخر ما توصلت إلية من وسائل التدمير والقتل.

بعد هذه الإطلالة الموجزة على مجازر صوّرها الوعي الشعري العربي، سنقوم بتسليط الضوء على مجزرة كفر قاسم من منظار الشعر الفلسطيني.

كفر قاسم

أجواء المجزرة:

ظل الكيان الصهيوني على مدار ثماني سنوات تلت هزيمة العرب سنة 1948 م، يبحث عن طريق للتعامل مع مئات آلاف العرب الذين تمسكوا بأرضهم وآثروا البقاء فيها ،على الرغم من الصعاب التي يعيشونها. واستوطن عشرات الآلاف منهم مناطق حساسة بالقرب من خطوط الهدنة مع الضفة الغربية. وحتى يضمن الإسرائيليون عدم عودة الفلسطينيين إلى قراهم التي اجبروا على تركها، كانوا لا يسمحون لسكان القرى العربية بمغادرة قراهم إلا بتصاريح خاصة. ويعمل معظم هؤلاء السكان في الحقول والبيارات المجاورة ،بمن فيهم النساء والأطفال برفقة أهليهم. كما فرض الصهاينة نظام حظر التجول على القرى العربية من الساعة التاسعة مساء إلى صبيحة اليوم التالي([1])، تشرف على تطبيق هذا الحظر قوات ما يسمى بحرس الحدود، وهي مكونة من أبناء الأقليات، لأن خدمتهم في الجيش قد رفضت أو أن المجتمع نبذهم([2])، وهم على استعداد لعمل أي شيء من شأنه إثبات ولائهم للدولة الناشئة.

بالإضافة إلى هذا الجو العام، دخل مؤثر أخر يسهل للصهاينة تنفيذ مخططاتهم يتمثل بالعدوان الثلاثي على مصر، فقد حدثت مجزرة كفر قاسم قبل ساعات من تنفيذ العدوان، لذا نجد الربط ماثلاً بين هذه الأحداث في شعر الشعراء الفلسطينيين، يقول "محمود الدسوقي" في ذكرى المجزرة:

يا كفر قاسم ما نسيت ألا أذكري
ذكرى لمجزرة تهز مشاعري
يا كفر قاسم ما نسيت جريمة
قامت بها أيدي لئيم غـــادر
... ...
سيناء تذكر غزوة وتـــآمراً
والنيل يُضرب بالثلاثي الماكر([3])

---

[1] / انظر، روبيك روزنتال،من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة ،21

[2] / نفسه والصفحة نفسها.

[3] / محمود الدسوقي، ذكريات... ونار، 34-35

وفي وسط الاستعداد للحرب على مصر، وضع الجيش الإسرائيلي خطة أطلق عليها مخطط "خلد"أو(س59)، ويشير الصحفي الإسرائيلي"روبيك روزنتال" إلى هذه الخطة بقوله:"إنه ليس من الممكن فهم المذبحة دون معرفة المخطط العسكري المذهل الذي شكل الخلفية لها، والذي يحمل اسم "خلد"، ويستهدف هذا المخطط إخلاء المواطنين العرب من المثلث، ليس واضحاً إلى أين وذلك في إطار حرب محتملة مع الأردن" ([1]).

وسط هذه الأجواء جميعها اقترفت مجزرة كفر قاسم، لاقتلاع العرب من أرضهم، وأخذها لقمة سائغة، ومن هنا أرى أنهم كانوا موفقين في إطلاق كلمة "الخلد" – الحيوان الذي يقتلع النباتات من جذورها ــ على خطتهم.

يشير "حاتم جوعية" إلى تشبث أهل كفر قاسم بأرضهم، وصمودهم أمام عدو غاصب محتل يهدف إلى تحويلهم إلى لاجئين غرباء، وهم بهذا مثال يقتدي به الشعب الفلسطيني داخل الوطن المحتل يقول:

يا كفر قاسم والكفاح طريقنـــــــا خضت الكرامة سؤدداً ورداء
كنت الطليعة.. بل ضحية غدرهــم وصمودك العلني كان عنـــاء
وتوهم المحتل سوف يخيفنـــــــا برصاصه ونهاجر الأحيـــاء
نبقي له الأرض الطهور وخصبها خلف الحدود سننتهي غرباء
لكننـــا متشبثـــون بأرضنـــــــا من كفر قاسم هدينا قد جـــاء
هذي البلاد بلادنـــا ونعيمنـــــــا هيهات نترك جنـــة غنـــــاء([2])

ومما يؤكد التوجه الصهيوني القائم على تفريغ الأرض من أهلها الشرعيين، شهادة أحد الجنود الذين شاركوا في المجزرة يقول: "إنهم يفكرون في احتلال المثلث، والتحركات ستكون باتجاه الأردن"([3])

ويرى "منيب مخول" أن العروبة أصبحت ذنباً يستحق من ينتمي إليها القتل والتعذيب ،على يد من يفترض أن يكون حافظاً للأمن وحامياً للضعفاء:

خمسون نعشاً توالت عند مطلعه
في كل نعش فقـــيد الروح مفقود
... ...
وليس ذنـــبهم حتى يُـــكاد لهـــم
غير أنهم عرب من أجل ذا كيدوا
وما الجناة سوى البوليس واعجبا
عليهم أمر حفظ الأمن معقود([4])

---

[1] /مجلس كفر قاسم المحلي، كفر قاسم في الذكرى ال 44لمجزرة، 17ــ18 نقلا عن صحيفة "حداشوت" بتاريخ1991/10/25

[2] /حاتم جوعية، قصيدة عرس الشهيد، ديوان الشهيد، 198

[3]/ روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 30

[4] / منيب مخول، عيد ومأساة ، ديوان الشهيد ،88

فذنب هؤلاء الضحايا أنهم عرب تجذّروا في أرضهم ووطنهم، رغم المضايقات والنظرة المحتقرة من الدولة التي يعيشون في ظلها، فهم عندها أعداء وهم الطابور الخامس في الدولة([1]) يجب القضاء عليهم والتخلص منهم.

مكان المجزرة وزمانها:

تقع كفر قاسم في أقصى جنوب المثلث، على بعد نحو (23)كم للجنوب من طولكرم وهي آخر أعمالها من الجنوب ، ولهذه القرية أرض مساحتها(12765) دونماً تشتهر بزراعة الحبوب والبقول والبطيخ والزيتون والبرتقال والموز، وبلغ عدد سكانها في عام 1945م (1460)عربياً، ويقدر عدد سكانها عام1999م (14000) نسمة([2]).وتقع على الخطوط التي تفصل بين ما يسمى بدولة إسرائيل والضفة الغربية التي كانت تقع تحت السيطرة الأردنية، وقد سُلّمت لإسرائيل مع بقية قرى المثلث بحكم (اتفاقية الهدنة في رودس)، التي أبرمت بين الأردن والكيان الصهيوني، وتقضي بتجزئة فلسطين بين الطرفين، بعد أن وضعت حرب 1948م أوزارها([3]).

ولكن أهالي هذه القرى – كغيرهم من الشعوب المستضعفة – لم يستشاروا في تقريـــر مصيرهم، بل أصبحوا ريشة في مهب الريح، تتقاذفهم الأمواج لتحط بهم في مصلحة القوة المسيطرة المهيمنة. ومنذ ذلك اليوم بدأت المعاناة اليومية لأهالي هذه القرى، من مصادرة الأراضي والسجن والقتل وتقييد الحريات ... وبلغت المعاناة ذروتها في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين 1956/10/29م،حين حصدت أيدي الغدر (تسعة وأربعين) شهيداً وشهيدةً من أبناء كفر قاسم العائدين من العمل، يحدوهم الأمل والشوق لرؤية أسرهم، وأخذ قسطً من الراحة بعد يوم شاق في قطف الزيتون، أو قطع الحجارة من المحاجر، أو رعي الأغنام، وكانوا قد فرضوا حظر التجول على القرية– في هذا اليوم– فجأة قبل الموعد المعتاد بأربع ساعات، وتتساءل غالية أبو شباب مستنكرة هذا الاجراء

منعوا التجول عصر ذاك اليوم – والعمال

تصدر ... ويحهم

هل عامل في الحقل يسمع صوتهم ([4])

ويؤرخ " وليد محمد" للمجزرة، بذكر اليوم والشهر الذي وقعت فيه:

في اليوم التاسع والعشرين

تشرين يسلم كرم التين

إلى تشرين

---

[1] / روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 22-23

[2] /انظر مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين،405/2/3-406

[3] /انظر عبد الله التل، كارثة فلسطين، 515. و مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين،406/2/3

[4] / غالية أبو شباب ،ذكرى مجزرة كفر قاسم ،ديوان الشهيد ،260

… …

أطفال – أجداد – نسوة

ذبحوا ويلاه بلا رحمة ([1])

ويستلم محمود مرعي ظاهرة التأريخ الشعري من العصر العثماني في تخليده لذكرى مجزرة كفر قاسم يقول:

وإلى الآتين المجازر أرخ "ضلّ شرّ، زال انتهى، أم يعود؟"([2])

فمجموع أحرف الشطر الثاني تعادل سنة 1956م

وحاولت السلطات الإسرائيلية إخفاء أنباء المجزرة، غير أن قادة الحزب الشيوعي (توفيق طوبي ومئير فلنر) وآخرين استطاعوا من التسلل إلى داخل كفر قاسم، ونشر تفاصيل ما حدث، مما اضطر رئيس الحكومة (بن غور يون) إلى كشف الحقيقة أمام الكنيست([3]).

وإن كان القتلة قد اختاروا الشريان الرئيسي للقرية ليقفوا فيه، فإنهم اختاروا نقطة مناسبة لتنفيذ جريمتهم، وهي مفترق طريق يطلق عليه "المزلكان" أو" الفلمانية"،([4]) لا يستطيع الداخل فيه أن يرى ما يجري أمامه، فيقع فريسة سهلة في أيديهم، وقد ذكر محمود الدسوقي هذا المكان من خلال تصويره لهول هذه المجزرة، وتحسره على هؤلاء الشباب الذين راحوا ضحية الحقد المبيت ضد الشعب الفلسطيني، يقول:

سالت دماء الأبرياء غزيرة

في كفر قاسم سيلها كالأنهر

قد كان في عمر الورود شبابها

ذبلت على أرض الحصاد الماكر

و"المزلكان" يعيد وقع جريمة

شعبي أيبقى للشقاء فريسة

رهن القيود بظل حكم جائر([5])

ولكي يضمن القتلة تحقيق الهدف، أخذوا يوقفون كل مجموعة من العمال العائدين قبل التي سبقتها بمسافة كافية، لا تسمح لها برؤية الجثث الغارقة في دمائها المكدسة على جانب الطريق وفي الحقول المجاورة .

---

[1] / وليد محمد، مجزرة كفر قاسم ،ديوان الشهيد ،255-256

[2]/ محمود مرعي، جلّ الشهيد ، ديوان الشهيد ،124

[3] / مجلس كفر قاسم المحلي، كفر قاسم في الذكرى ال 44 للمجزرة 15-16. وروبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور– كفر قاسم الأحداث والأسطورة ، 57

[4] / داليا كار بل، نعم إننا من نفس القرية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة،، 163

[5] / محمود الدسوقي، ذكريات... ونار،34

وقف الجنود مسلحين بأنواع عديدة من الأسلحة المتقدمة، يضاف إليها الحقد والكره الذي يطلقونه مع كل طلقة رصاص يوجهونها إلى صدور العرب العزل، وإذا نجا أحد من العرب أظهر (عوفر) –المنفذ الأول لمجزرة كفر قاسم ــ وجنوده الألم والحسرة "يا للأسف لقد خسرناهم"([1]) خسروا صيداً ثميناً يضيف رقماً جديداً إلى سجل بطولاتهم المزعومة، فقتل الأبرياء من الأطفال والنساء والشيوخ، يعد في عرف جيشهم رجولة، فهذا الملازم (نمرود لمبارت)– قائد كفر برا– المجاورة لكفر قاسم يخجل من نفسه لأنه لم يقتل في القرية التي تحت مسؤوليته أي شخص، وعند سؤاله لماذا خجل قال:"هناك مصطلح في الجيش يسمى رجولة" ([2]) .

في الساعة الرابعة والنصف من مساء يوم المجزرة، استدعى رقيب من حرس الحدود مختار قرية كفر قاسم، وأبلغه بفرض منع التجول، وطلب منه إعلام أهالي القرية بذلك، فقال له المختار: إن هناك مجموعة كبيرة من العمال في العمل خارج القرية، ولن تكون مدة نصف الساعة الباقية كافيةً لإبلاغهم، فوعد الرقيب أن يدع جميع العائدين من العمل يمرون على مسؤوليته ومسؤولية حكومته،([3]) وفعلاً أبر بوعده وجعلهم يمرون، ولكن إلى الدار الآخرة بأسرع وقت، وفي خلال الساعة الأولى بلغ عدد الشهداء 48 شهيداً، 43 منهم على المدخل الغربي والباقي في مناطق أخرى من القرية كما سقطت شهيدة في قرية مجاورة .

وتشير شهادات الناجين إلى أن الضحايا سقطوا على تسع موجات، حسب وصولهم، وكان (ميلنكي) في ذلك الحين في جلجولية، ووصلت تقارير باللاسلكي من (دهان) على صيغة "ناقص أربعة" " ناقص عشرة" " ناقص 15 عربياً"، وكانت هذه الموجة السادسة، ثم أتبعها بنداء آخر بعد أن سقط ضحايا الموجة السابعة وعددهم عشرة شهداء، "من الصعب عدهم" هنا أمر ميلنكي بإيقاف إطلاق الرصاص والتصرف باعتدال، وحين وصل الأمر إلى دهان كان عدد الشهداء قد وصل إلى ما يقارب الخمسين.([4])

ويشير "محمود درويش" إلى عدد الشهداء من خلال تصويره لدمهم الذي أضاء الدروب وأصبح رمزاً للعطاء والخصب يقول:

آه يا خمسين لحناً دموياً

كيف صارت بركة الدم، نجوماً وشجر ([5])

لم تكن رشاشات الجيش الإسرائيلي تميز بين طفل وشيخ ورجل وامرأة، فكانت حصيلة المجزرة (49) شهيداً منهم "14 امرأة وثلاث فتيات تبلغ أعمارهن من 12–14 عاما ، و11 طفلا تبلغ أعمارهم

---

[1] / وروبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور ــ كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 49

[2] / نفسه، 43

[3] / انظر نفسه،19–82

[4] / انظر الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، 653/3 .

[5] / محمود درويش، الديوان ،207:1

12-16 عام، والباقي من الرجال"([1]) وإن كانت بعض الدراسات تشير إلى أن من بين الأطفال من كانوا دون التاسعة ([2]) وكانت إحدى النساء تبلغ من العمر 65 عاماً ([3]).وهناك دراسات تبين أن عدد الشهداء من الذكور 36 شهيداً ومن النساء 13 شهيدة([4])

---

[1] /www.palestineinfo-info/arabic/terror/alfikr/altatbigat-htm/4

[2] / انظر وروبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور ــ كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 50-52 ومحمد منير الجنباز، الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين، 244

[3] / إميل حبيبي، كفر قاسم المجزرة السياسية، 37

[4] /انظر مجلس محلي كفر قاسم، ديوان الشهيد 295

الفصل الأول

حركة المجزرة في الوعي الفلسطيني

1-: صورة الجزار

2-: صورة الشهيد

1- صورة الجزار

الصهيونية ورؤية الصراع:

ربما تخيل الصهاينة أن الصراع هو الأساس للسلوك الإنساني، عن طريقه يستطيعون حفظ كيانهم، وتحقيق أحلامهم وآمالهم. لذلك نجد فكرة الصراع ماثلة في معظم نواحي حياتهم، وهي عندهم "فكرة بدائية فيها رواسب كثيرة من حياة الصيد والقنص، وأخطار المعيشة في البادية. فهناك كل غريب يعتبر عدواً يجب قتله أو أسره، وتسخيره على الأقل، يستوي في ذلك الحيوان والإنسان" ([1])

أصبحت فكرة الصراع لدى الصهاينة جزءاً من عقيدتهم، والضابط لسلوكهم، ولم تكن وليدة العصر الحاضر، بل نجدها تضرب جذورها في عمق التاريخ، فالناظر في الكتاب المقدس، يجد أمثلة عديدة تدل على فكرة الصراع عندهم، منها قول يعقوب علية السلام لابنه يهوذا:" من صراع نشأت يا بني"([2]) ويصفه مرة أخرى بقوله:"يهوذا جرو أسد"([3]). وعندما أراد "يوشع بن نون" أن يدخل بقومه إلى فلسطين – بعد موت موسى علية السلام – عسكر حول مدينة أريحا، وأمر بالنفخ بالأبواق "وكان حيث سمع الشعب صوت البوق، أن الشعب هتف هتافاً عظيماً، فسقط السور من مكانه وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع وجهه، وأخذوا المدينة وأبادوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف" ([4]) وهذا يدل على تأصل فكرة الصراع في الشخصية الصهيونية، ومحاربة كل مظاهر الحياة للوصول إلى أهدافهم. وإلى ذلك يشير "سميح القاسم" في خطابة "ليوشع بن نون" الحالي المتمثل في جزّار ضحايا كفر قاسم، ويؤكد لهم أن أعناق الشهداء منارة تسير عليها الأجيال القادمة، تتخطى بواسطتها كل المآسي والمجازر التي سببها أعداء الأمة الإسلامية والعربية، وعلى رأسهم الكيان الصهيوني:

يا يوشع بن نون
اسمع
يا يوشع
أوقفت الشمس على أسوار أريحا
أرضيت الرب القاتل؟
لا نعلم

---

[1] / حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية، 41

*/ في رواية أخرى " من فريسة نشأت يا بني"

[2]/ التكوين، 9:49 وفي رواية أخرى من فريسة نشأت يا بني

[3] / نفسه، والصفحة نفسها

[4] / يشوع، 20:6 ــ 21

لكنا نعلم أن الشمس تسير
نعلم أن الشمس تسير على أعناق الشهداء
من بحر البقر إلى .... حطين([1])

تستقر فكرة الصراع في الشخصية الإسرائيلية، تغذيها النظرة الاستعلائية التي يتمسك بها الإسرائيليون، فيرون في أنفسهم شعب الله المختار، وكل من سواهم عبيداً لهم، لذلك فرض اليهود على أنفسهم العزلة داخل المجتمعات التي يعيشون فيهاــ أو فرضت عليهم ــ يتحكمون في اقتصاد الدول عن طريق التعامل بالربا.([2])

وقد أشار إليهم الروائي الروسي الشهير(فيودور دوستويفسكي) باعتبارهم القبيلة اليهودية التي يعيش أفرادها فيما يسميه "حالة الجيتو([3])" وهو ما يعرف بالعربية بحي اليهود " يربطهم ميثاق الجيتو وهو ميثاق يطالبهم بعدم إظهار الرحمة نحو الغير، وبالتعالي عليهم، وبالعيش في عزلة عن كل الشعوب عبر آلاف السنين ... وهو الشعب اليهودي، تحركه القسوة والرغبة في شرب الدماء"([4]) مما أثار المجتمعات عليهم وحاولوا التخلص منهم بطرق مختلفة، كانت تتسم أحياناً بالقسوة والشدة " فخرج الغلاة من الصهاينة يقلدون أولئك السفاحين " ([5]).

آمن كثير من مفكري الصهاينة بفكرة الصراع، وبنوا عليها فلسفتهم، ورؤيتهم المستقبلية، واعتبروها الوسيلة الوحيدة في الوصول إلى أهدافهم، نجد ذلك ماثلاً في آرائهم وكتاباتهم، ومنهم (فلاديمير جابوتنسكي) الذي " رفض كل المُثل الإنسانية وأعلن أن العالم إن هو إلا ساحة لصراع الجميع ضد الجميع" ([6]) لذلك كان يطالب أن يتعلم اليهودي الذبح "ذبح الآخرين" ([7]) وهو بذلك يرسّخ مفهوم الصراع، واستخدام القوة، ضارباً بعرض الحائط كل القيم الإنسانية، أو أي فكرة عن إمكانية التفاهم والتفاوض. وعلى ماذا يتفاوضون إذا كانت الفكرة الصهيونية الأصلية تقوم على شعار " أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ([8]) وهي تعني تحريك اليهود من المنفى إلى أرض فلسطين، وتحريك السكان الأصليين من الأرض إلى المنفى. وهذا بالطبع لا يتأتى إلا باستخدام العنف والصراع والقوة.

ويؤكد الدكتور "حسن ظاظا" هذه الفكرة عند الصهاينة في وصفه لهم بقوله:" لم يلجأ الصهاينة إلى العلم ولا المنطق، وخالفوا وصايا موسى والأنبياء والأحبار، وتحدوا كل قواعد السلوك الإنساني الفاضل، لأنهم كانوا يعلمون منذ بدايات الصهيونية المتفرقة في أواسط القرن الماضي، والمتحدة مع

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 2 / 364
[2]/انظر محمود شاكر ،موسوعة تاريخ اليهود،262
[3] / الجيتو كلمة تطلق على الأحياء اليهودية المغلقة في المناطق التي هاجر إليها اليهود، نفسه 235
[4]/ عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 2 / 282
[5] / حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية، 103
[6] / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، 6/ 258
[7] / نفسه، والصفحة نفسها
[8] / نفسه، 6/ 21

أواخره، أن العملية في جوهرها إنما هي **اغتصاب،** وأن الاغتصاب لن ينجح إلا بالاعتماد على الإرهاب، وأن الإرهاب لا يقوم إلا على صنع الرعب عند الضحية "([1])

وهناك قائد من قادة الصهاينة هو (هرتزل) يكتب لصديقه (تشامبر لين) عن مصير السكان الأصليين في قبرص إن وقعت في الدائرة الصهيونية: "سيرحّل المسلمون، أما اليونانيون فسيبيعون أرضهم بكل سرور نظير سعر جيد، ثم يهاجرون إلى أثينا أو كريت"([2]) أي أن الاستيلاء على الأرض وإخلائها من سكانها هو الافتراض الكامن في كتاباته، فالعنف رابض بين السطور يتحين الفرصة لكي يتحقق وينتظر اللحظة المواتية كي ينهمر الرصاص.

وفي بروتوكولات حكماء صهيون – إن صحت نسبتها إليهم – تظهر أن الصهاينة رمز لكل الشرور، لا يرعوون عن إراقة الدماء أنهاراً من أجل تحقيق مآربهم وأهدافهم، فيذكرون مثلاً في "البروتوكول التاسع " إن لنا طموحاً لا يحد، وشرهاً لا يشبع، ونقمة لا ترحم، وبغضاء لا تحس، إننا مصدر إرهاب بعيد المدى، وإننا نسخر في خدمتنا أناسا من جميع المذاهب والأحزاب....... لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين، وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادئ"([3]).

كل هذه العوامل مزجت مع بعضها، فكونت الشخصية الصهيونية الحديثة، التي " تحمل اضطرابات في الشخصية سببها وراثة ثقيلة من أمراض الأسلاف "([4]) لذلك أصبحت مشكلة الصهاينة مشكلة إنسانية مستعصية، كثرت الحلول المقترحة لها. وعقدت عدة معاهدات سرية بين زعماء الصهاينة والزعماء الأوربيين ([5]) لوضع حل لمشكلة اليهود في أوروبا، وقد تمخضت هذه المعاهدات عن تجميع اليهود من أصقاع العالم، وإرسالهم إلى فلسطين، ليقيموا دولة لهم على أنقاض دولة فلسطين وشعبها، وأظهر الصهاينة إبداعاتهم الإجرامية، وقدرتهم على استخدام الحيلة والتدبير، لاغتيال أعدائهم أو إيقاعهم في كمين، أو الحيلولة بينهم وبين مصادر قوتهم ([6]) وهو صراع بعيد عن التنافس المتكافئ بين طرفين كل منهما يدافع عن حقه الذي يراه، ويحميه. ولم يحد الصهاينة عن هذا المنهج، الذي اختطوه لتحقيق مآربهم وأهدافهم، فبدأوا بحلقة من المجازر مثـــــــل دير ياسين، نحالين، قبية، الطنطورة، خان يونس، كفر قاسم..... تلك المجازر التي تشير إلى تاريـــــخ بشع من الإبادة، قامت عليه الدولة الصهيونية، تقول "وداد البرغوثي" في حديثها عن مجزرة كفر قاسم:

فصارت كفر قاسم وصمة للعار

في تاريخ" دولتهم " وفي باب الغد المشرع

وصارت شاهداً حياً على تاريخ دولتهم

---

[1] / حسن ظاظا، الشخصية الإسرائيلية، 65

[2] / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، 242/6

[3] / نفسه، 372/2

[4] / حسن ظاظا، ، الشخصية الإسرائيلية ، 103

[5] /انظر محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود ، 268 وما بعدها.

[6] / انظر حسن ظاظا، ، الشخصية الإسرائيلية ، 41

بحبر الموت بالقتلى غداً مترع

برائحة الدماء وبالمجازر قد غدا مشبع([1])

ويشير "عبد الوهاب المسيري" إلى قيام الدولة الصهيونية بقوله: " قامت الدولة الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي، عليه أن يلجأ إلى الحد الأقصى من العنف ليتخلص من السكان الأصليين بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل، وقد سمّت هذه الدولة نفسها "الدولة اليهودية" فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب"([2]).

وهنا يجب أن نميز بين اليهودية عقيدة وديانة وأخلاقاً، لا دخل فيها للعنصرية، وبين الصهيونية التي رضع اتباعها روح التعصب والعنصرية، خاصة أنهم عاشوا في أقليات معزولة، وإن أعضاء الأقليات يخضعون دائماً لرقابة شديدة من أعضاء الأغلبية، خاصة في فترة التعصب والتمييز العنصري، هذه الرقابة تجعلهم حذرين، يراقبون سلوكهم، ولا يقدمون على ارتكاب جرائم، بل يختزنون كل ذلك في تكوينهم، لينطلق مع أول فرصة سانحة لهم و" تزايد انعتاق أعضاء الجماعات اليهودية واندماجها يؤدي إلى تزايد معدل الجريمة بينهم" ([3]) لذلك ما إن وطئت أقدامهم أرض فلسطين حتى تفننوا في ارتكاب الجرائم وسفك الدماء. وتاريخهم ينبئ بمستقبل مليء برائحة الدم والأشلاء، لا يميزون بين ضحاياهم، رجالاً كانوا أو نساء، أطفالا أو شيوخا، بل تعدى ذلك إلى تدمير كل مظاهر الحياة من زروع وأشجار ودور عبادة ومساكن..... يقول تيسير محمد فريد:

لقد ذبحوا النساء بكل حقـــــــد	وطفلا قاوموه مدججينــــــــــــا
وشيخ طاعن لم يرحمـــــــــــوه	فويـــــل للغزاة المجرميـــنــــا
لقد حرقوا الزروع ودمــــــــروها	بنيران وحقد مسعريــــــــــــنا
وقد ألقوا القنابل في بيــــــــوت	على من كان فيها عابدينـــــــا
وأصبحت الشوارع مقفـــــــــرات	سوى من بعض أشلاء رمينــــا
وأصبحت البيوت تلال صــــخـــــر	لترمـــز عن فعال الظالمينـــــــا([4])

ومن هنا نرى أن القتل والتدمير أصبح شغل الصهاينة الشاغل والسلعة التي يرجونها، لا يرتوون إلا من دماء ضحاياهم، لديهم شهية قوية في القتل والتخريب.

التحضير للمجزرة:

تُظهر النظرة المبدئية في مجريات مجزرة كفر قاسم، وتسلسل حوادثها ، إنها لم تكن عشوائية فجائية، ناتجة عن تطوير ديناميكي، ولكنها خطوات مخطط لها بدقة، ومحبوكة بعناية، بهدف القتل والتدمير –كما بينا في التمهيد– ويربط "معتصم توفيق الخضر" بين قَتَلَةَ كفر قاسم المتغطرسين المغترّين

---

[1] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 207

[2] / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 2/ 394

[3] / عبد الوهاب المسيري، نفسه، 47/2

[4] / تسير محمد فريد قدري، مجزرة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 231

بقوتهم، وأول قصة صراع وقعت على سطح الأرض بين ابني آدم– عليه السلام – قابيل وهابيل، والرابط بينهما الظلم والعداوة:

قابيل يأتي كفر قـــــــــا	سم قاصدا قتل البشـــــــــــــــر
مترصـــدا ومدججـــــــــاً	عيناه ترمي بالشـــــــــــــــرر
متوشحا بخناجـــــــــــرٍ	رشاشه رمز الضـــــــــــــرر
ظمآن إن شرب الدمـــــــا	ء من الذبيح قضى الوطـــــــــر
... .	....
سُدوا مداخل كفـــــــر قـــا	سم واسفكوا دم من حضـــــــــر ([1])

فهؤلاء الجزارون أتوا كفر قاسم مدججين بكل أنواع الأسلحة المادية، من خناجر ورشاشات.....، قاصدين القتل، وليس هذا غريباً عليهم بل هو شرعتهم في الحياة، يزرعون به الحزن والألم في كل بقعة يطأونها. ويتابعون ضحاياهم في كل مكان تلتقي فيه مصلحتهم مع مصلحة القوى المستعمرة المعتدية. تقول غالية أبو شباب:

قد اعتدوا
لحقوا بقية أهلنا بخيامهم
مع عصبة الأشرار في عدوانهم
بئساً لهم([2])

ضيق اليهود الخناق على العرب الذين تجذروا في بلادهم، باقتطاع أجزاء كبيرة من أرضهم لإقامة تجمعات سكانية يهودية، وتعرض عدد كبير من العرب للقتل والسجن والتعذيب، وتقييد الحركة بين القرى والمدن. لا بل داخل القرية نفسها، بمنعهم من مغادرة بيوتهم في ساعات الليل، واستطاع العرب معايشة هذه الأوضاع القاسية، وتنظيم أعمالهم بما يحفظ عليهم حياتهم وكرامتهم. فيحرصون على العودة إلى بيوتهم قبل الموعد المضروب. ولكن لصوص الحياة باتوا يحبكون خيوط المؤامرة، ويلفون حول ضحيتهم لإيقاعها في الشَرِك الذي نصبوه لها. فشددوا الحصار، وتدججوا بالنار والبارود يسيّرهم حقدهم نحو هؤلاء العمال الذين خرجوا مسافة بضع كيلومترات بحثاً عن لقمة العيش التي نغّصها الاحتلال كما في قول غالية أبو شباب:

واللص يرصد ظله
ويلف راعي الجرم حول ضحيته
فتملعنوا وتجبروا
شدوا الحصار ــ تدججوا بالنار بالبارود
....

---

[1] / معتصم توفيق الخضر، هابيل ينتصر على قابيل في كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 240 ــ 239

[2] / غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 259

أحقادهم عاشت تعشش

مع فراخ عداوة في دمهم ([1])

ركز الشعراء على تصوير منع التجول بشكل فجائي لإثبات النية للمجزرة، رغم ما حاوله الجزارون من تزيين الصورة، بالأخبار عن هذا الأمر العسكري قبل تطبيقه بوقت قصير، ولكن سرعان ما تتقشع الغمامة الزائفة، وتظهر الحقيقة الراسخة، المتمثلة في قتل طيور كفر قاسم الباحثة عن أرزاقها، كما في قول محمود مرعي:

يومها طير كفر قاسم كانت رهن أرزاقها وكان الجحود

قد أقروا منع التجــول ليلاً دون علم الطيور بئس العبيد([2])

إن قتل البريء جريمة غير مبررة على أية حال، فكيف إذا كان عائداً بعد يوم عمل شاق، تظهر علية علامات التعب والإرهاق، يمشي في ظلمة الليل، يمنٍّي النفس بالراحة والسعادة، فإذا كل ذلك ينهار أمام ضربات الرصاص الغادر، فتميل الجثث الواحدة فوق الأخرى وقد صورت وفاء خزّان في قولها:

ودعنا الزيتون الأخضر

في عتم الليل بتشرين

تعلو الضوضاء مواكبنا

ما بين الفينة والحين

وعلى الأجساد بدا تعبٌ

والظلمة مثل التنين

بدلاً من بيتي وفراشي

حيث الأحلام توافيني

ضربات رصاص قاتلة

تدخل في صدري وجبيني

فأميل على جثة جاري

قد جاء الموت يناديني([3])

اختار القتلة طريقتهم في تنفيذ جريمتهم، عن عمد وسبق إصرار. وقر قرارهم على قتل العمال المنشغلين بعشق الوطن وهم عائدون، واختاروا الزمان والمكان اللذين يسهلان لهم تنفيذ خطتهم، وقتلوا ضحاياهم بعد غروب شمس الأصيل التي ترتبط في أذهان الملتحمين برحم الأرض بفرحة لقاء أحبائهم، ومعانقة أجسادهم للراحة، يقول هشام أبو صلاح:

كان الوقت غروباً

وجموع الملتحمين برحم الأرض تعود

---

[1] / غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 260/259

[2] / محمود مرعي، جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 121

[3] / وفاء حزان، حديث الشهيد، ديوان الشهيد ، 216215

الشمس تحاورهم باللهفة والفرح الموعود
كم كانت طرقات القرية صامتة
خالية إلا من تعب المشغولين بعشق الوطن المفقود
وكمين جنود([1])

كمن الجنود لضحاياهم القادمين، وراء الصخور وسط هدوء تام، يوحي أن كل شيء على ما يرام، لا وجود لأي علامة تنذر بالخطر الذي ينتظرهم، وما إن وقع الضحايا في المصيدة، حتى انطلق الجزارون يقتلون ويمثلون بكل قسوة، تخرجهم عن السلوك الإنساني السوي إلى من أصابته لوثة من جنون يقول توفيق زيّاد:

وفي مدخل القرية الواجمة
وجوم القبور
على جانبيه، وبين الصخور
أقام الجنود متاريسهم
على أهبة للقتال
لسحق " العدو اللعين"
كأن بهم لوثة من جنون
وسارت إلى الفخ تلك الضحايا
وما حسبت النسوة المنايا
ترصدها في الطريق الرهيب
لتقصف زهر الحبيب ([2])

لم تشكل الضحايا أي خطر على الجزارين، بل كانوا ملتزمين باستصدار تصريح يُمكّن لصاحبه الخروج والعودة إلى القرية، والتنقل بين القرى المجاورة، ولم يحمل أي من الضحايا سلاحاً ولو بدائياً، يمكن أن يتخذه القتلة ذريعة لقتل حامله، بل هم أُناس فقراء يسعون لالتقاط لقمة العيش، يقول "محمود درويش":

وجدوا في صدره قنديل ورد ... وقمر
وهو ملقى، ميتاً، فوق حجر
وجدوا في جيبه بعض قروش
وجدوا علبة كبريت، وتصريح سفر
على ساعده الغض نقوش ([3])

[1] / هاشم أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد، 171
[2]/ توفيق زياد، الديوان ، 310-311
[3] / محمود درويش، الديوان ، 217/1

من يبيت النية للقتل، يضع خطة ويحبك خيوطها بدقة، وهو ما أتقنه جزارو كفر قاسم حين أوقفوا العمال والسيارات العائدة إلى كفر قاسم بشكل هادئ عادي، يسألونهم عن وثائقهم، ومن أين هم؟ دون إظهار أية ريبة، ثم يوقفونهم بجانب بعضهم إلى الحائط، ويطلقون الرصاص دفعة واحدة حتى لا يتسنى لأحد منهم النجاة والفرار يقول "محمود درويش":

أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب

وكانوا هادئين

وأداورنا إلى الشرق وكانوا هادئين([1])

ويبين "أحمد محمد أبو مرشود" أن مجزرة كفر قاسم كانت نتيجة مؤامرة محكمة بين القادة والجنود المنفذين للمجزرة، لذلك شحذ الجنود أسلحتهم وتمترسوا منتظرين عودة ضحاياهم:

واكتملت فصول الجريمة

فشحذ القاتل سيفه

وتحفز منتظراً عودة الضحية([2])

من يقدم على هذه الأعمال، لا بد أن يتصف بخصال تساعده على ذلك، وتيسّر عليه أمره، وتسهل عليه القيام بمخططه ومؤامرته. وهي ما نستشفه من الأشعار التي قيلت في المجزرة.

صفات الجزارين:

رسم الشعراء الفلسطينيون صورة واضحة للقتلة من خلال تصويرهم لأبعاد مجزرة كفر قاسم، فقد أصر هؤلاء الشعراء على إيقاظ الغافلين وتنبيه النيام، ومقاومة الاحتلال، وفضح أساليب خداعه ومراوغته، وكشف القناع عن دسائسه، وإزاحة الستار عن مناهج الإبادة والإفناء التي اتبعها، فمن يعود إلى مجموعة الأشعار التي كتبت في مجزرة كفر قاسم، يجد كمّاً هائلاً من الأوصاف التي أسبغها الشعراء على القتلة، تتلخص كلها في أن الصهاينة بعامة دأبهم الشر والحقد على البشرية، بل القتل هو سلعتهم المفضلة يحصدون به روح كل من يوصله حظه السيئ إليهم، شيخا كان أو طفلا أو امرأة، يقول معتصم توفيق الخضر:

القتل سلعته بهـــــــــــــــــا ... حزناً وأحقـــــــــــاداً بــــــذر

قابيل أصدر أمـــــــــــــــره ... والحقد فيه قـــــــد استـــعر

اجعل سلاحك مشرعـــــــــــا ... واجعــــــل فؤادك من حجـــر

أطلق رصاصك نحــــــــو أط ... ــفال وشيــخ لا تـــــــــذر

صاحت عساكـــــره سيـــــقـ ... ــتل من تجـــــــول أو ظهر([3])

---

[1] / محمود درويش، الديوان، 214/1

[2] / أحمد محمد أبو مرشود، جمرة تحت رماد الذاكرة، ديوان الشهيد، 277

[3] / معتصم توفيق الخضر، هابيل ينتصر على قابيل في كفر قاسم، ديوان الشهيد، 240

تشير الأبيات السابقة إلى الأمر الذي أصدره قائد اللواء (شدمي)– المسئول عن قرى المثلث – قبيل المجزرة يقضي هذا الأمر بإطلاق النار على كل من يرى خارج بيته بعد فرض نظام منع التجول، وعندما سئل عن مصير العمال العائدين من الحقول أجاب: "بدون عواطف"، وأتبعها بعبارة " الله يرحمهم". ([1]) وهو ما يدل على الحقد المتأصل في قلوب القادة قبل الجنود، ويوثق "محمود مرعي" هذا الأمر شعراً حين قال:

ويل " شدمي" وويل من أمـــــــروه ويل "ميلنكي" كيف لم يستعيدوا

كيف قالوا [الله يرحمهم] كيف ـــ م ـــ ولم يذكروا قريباً أبـــــــيدوا([2])

انتقلت عدوى الحقد إلى قلوب الجنود، فأخذوا يتفننون في تنفيذ الأوامر ويضيفون على حقد رؤسائهم حقداً أخر. يقول "تيسير محمد قدري":

فمذبحة أصابت كفر قاســـــــم على أيدي جنود حاقديـــــــــنا ([3])

وقسوة قلوب يهود لازمتهم في كل تاريخهم، يلحظها كل من تعامل معهم، وهي أبرز ما تكون عند يهود هذا الزمان([4])، ويتساءل "سميح القاسم" مستنكراً، عن أولئك الذين أراقوا دم كفر قاسم، وتركوا جرحها ينزف دون أن تجد لها حامياً أو مدافعاً يحميها من القتلة غلاظ الأكباد، قساة القلوب:

يا كفر قاسم...... عز جرح ناغر في صدرك العاري وعز البلســــم

ومن الأولى تركوك صدراً عارياً ومن الأولى سفكوا دماءك... من هم

أهم الغلاظ الغُبر غلّ غليلـــــــهم أهما يداي...؟ سألت لكن أعـــــلم ([5])

جمع "أسامة أحمد شواهنة" إلى صفة الحقد، جملة من أخس الصفات وأنذلها، جبلت جميعها فكونت شخصية متآمرة على قتل الشعب الفلسطيني وترويعه، عله يرحل من بلاده ويتركها لهم، يقول:

والأبــــريـــــــاء

يتسابقون إلى السمـــــــــاء

شهداء آن الغدر قاموس الدنية والبغاء

والحاقدون على السمــــاء

من يأكلون دم البشـــــــر

من ليس يحمل من سلاح أو خطـــر

يتسابقون إلى الجريمة والنُكـــــــر

يتآمرون على أذى شعب أبـــــر

---

[1]/ أنظر روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 33 وما بعدها

[2] / محمود مرعي، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 122

[3] / تيسير محمد فريد قدري، مجزرة كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 231

[4] / صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية، 282

[5] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة،416/2

بل يأملون له الرحيـــــــــل([1])

ونجد ترابطاً بين التفكير الذي يتمتع به قتلة كفر قاسم –من قتل عدوهم والتخلص منه نهائياً – وتفكير أجدادهم " إخوة يوسف علية السلام " " وهم أُصول أسباط بني إسرائيل وأجدادهم الأوائل ([2]) " وتأمروا على قتل أخيهم يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم، قال تعالى: (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم) ([3]) ولا يفوتنا أن ننوه أن كثيراً من اليهود الذين استقدموا إلى أرض فلسطين اعتنق أجدادهم الديانة اليهودية في العصور الوسطى، حيث استغل اليهود الظروف الاقتصادية والدينية التي كانت سائدة في أوروبا، من هنا نجد أن اليهود في ألمانيا خرجوا بحصة الأسد في الحروب الدينية. "ولما وجد اليهود عدم ثقة الشعب الألماني بالكنيسة، فاستعملوا في دعوتهم كل أساليب التعزيز المادي والمعنوي لجذب الألمان إلى الدين اليهودي"([4]) وظل اليهود في حالة تشكك اتجاه اليهود الجدد، فقام الأخيرون بأكثر مما قام به اليهود الأصليون لإثبات ولائهم للدولة.

وأشار "عبد الناصر صالح" إلى هذه الصفة المتأصلة في تكوين الشخصية الصهيونية، بحيث أخرجت أعمالهم وأفعالهم المسمومة إلى حد الأسطورة، يقول:

ناديتك والحزن نديمي
آلهةٌ رسمتها الأيدي المسمومة
أعطاها الحقد المتجذّر مفتاح التكوين
وأدخلها دنيا الأسطورة ([5])

إن القيم الأخلاقية الدينية (الإسلامية ــ المسيحية ــ اليهودية)، تحرم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وتحترم آدمية الإنسان، وقد جاء في كتابه العزيز (من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً) ([6]). لكن أيدي الخراب والتحريف تناولت آيات التوراة والإنجيل، فبدلت أحكاماً وضعية تتناسب مع أهدافهم ومصالحهم العدوانية بالأحكام الربانية كما يقول"عقل ربيع":

قالت لي التوراة قبل خرابهـــــا	وروى الحكاية بعدها الإنجيــــــل
سرقوا عيوني واستعاروا كُحلها	للغانيات إذ القدود تمـــــــــــيل
فصنعن ديناً للخراب به الدمـــا	والحقـــــد، والظلم البهيم أصول([7])

توافقت المصالح بين الصهاينة وزعماء أوربا، ولعل أكبر دليل على أن الصهيونية جزء أصيل من الحضارة الغربية، "أن الغرب يحاولون تعويض اليهود عما لحق بهم على أيدي النازيين بإنشاء الدولة

[1] / أسامة أحمد شواهنة، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد، 228–229

[2] / صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية، 127

[3] / سورة يوسف، 9

[4] / محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، 262

[5] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 126

[6] / سورة المائدة، 32

[7] / عقل سليمان ربيع، القاسمية، ديوان الشهيد، 193

الصهيونية.على جثث الفلسطينيين" ([1]) وكأن ما ارتكب من جرائم في حق اليهود في الغرب يمحى بإراقة الدماء في دير ياسين، وكفر قاسم، وصبرا وشاتيلا..... وظلت هذه العلاقة قوية بين الكيان الصهيوني والدول الغربية، ممثلة في فرنسا وبريطانيا...،وظهر ذلك جلياً في العدوان الثلاثي على مصر.

ولعل تصوير اليهود على أنهم **شياطين**، من الصور النمطية المتوارثة في أدبيات معاداة اليهود، فالشر لصيق بطبيعة معظمهم "فهم يخربون أي مجتمع يعيشون في كنفه، ويحيكون المؤامرات عبر التاريخ للقضاء على الجنس البشري"([2]) وربما مثلهم في ذلك مثل إبليس منذ خروجه من الجنة. يقول "وليد محمد طه" في وصف حلبة المجزرة:

طحن الأبناء كحبة قمح مغتصبة
فانساب العسل على أطراف أصابعهم
يزعق مذعوراً في لهفة
رقص الشيطان على الأشلاء
تراقصت الأيدي العفنة
أطفال، أجداد، نسوة
ذبحوا، ويلاه، بلا رحمة([3])

وإضافة صفة شياطين على جميع اليهود يعطي حكماً عاماً، فيه تجاوز للواقع، فلابد من وجود أناس لديهم بذور الخير والصلاح، شأنهم في ذلك شأن أي مجتمع إنساني، ولكن أصوات هؤلاء خافتة لا تكاد تسمع، مقارنة مع أعضاء الجماعات الصهيونية المتعصبة المسيطرة على مجريات الأحداث.

تبدو صفة الحقد والقسوة والظلم متكررة في وصف القتلة، تظهر في معاملتهم للضحايا، وطريقة قتلهم لهم، فقد ذبحوهم على قارعة الطريق ذبح البهائم، وألقوا الجثث فوق بعضها، في جريمة تخرج عن حد التصديق فيظن الإنسان ذلك أضغاث أحلام وهو ما أكده توفيق زيّاد في قوله:

ألا هل أتاك حديث الملاحم
وذبح الأناسي ذبح البهائم
وقصة شعب تسمى
حصاد الجماجم
ومسرحها
قرية

---

[1] / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، 457/2

[2] / نفسه، 370/2

[3] / وليد محمد طه، مجزرة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 255-256

اسمها

كفر قاسم

حديث أفاق عليه الجميع

فظنوه أضغاث حلم مريع([1])

وقد استخدم بعض الشعراء فعل "ذبح" للدلالة على بشاعة ما يتعرض له الشعب الفلسطيني على أيدي أعدائه، خاصة إذا كانت الجرائم جماعية.

يحل موسم الحصاد في كل عام في شهري حزيران وتموز، يجمع فيه الفلاحون ما زرعوه من قمح وحبوب فرحين مستبشرين بالخير والعطاء، ولكنه في سنة 1956م حل موسم آخر، لم يحصد فيه سنابل القمح ولا أعواد البقول، بل حصدت أرواح الشهداء العائدين من أعمالهم، فلم ينج منهم إلا من استطاع الهرب أو ظن القتلة أنه فارق الحياة. وقد ألح الشعراء على ذكر هذه العبارة (أحصدوهم) وهو الأمر العسكري الذي ألقاه (عوفر) ([2]) ـــ قائد الفرقة المرابطة على المدخل الغربي لقرية كفر قاسم – على جنوده عندما كان يأمر العمال العائدين بالوقوف صفاً واحداً، ثم يطلق ذلك الأمر المشؤوم فتميل جثث الشهداء فوق بعضها بعضاً، كما تميل السنابل يوم حصادها، يقول "محمود درويش" في وصف المجزرة:

كفر قاسم

قرية تحلم بالقمح، وأزهار البنفسج

وبأعراس الحمائم

احصدوهم دفعة واحدة

احصدوهم

حصدوهم

آه يا سنبلة القمح على صدر الحقول. ([3])

قدم لنا الشاعر مجموعة من الصور البهية العذبة لقرية كفر قاسم، قرية يحلم أهلها بالخير الوفير، وبمستقبل زاهر يعمه الأمن والسلام، إلى أن جاء الأمر الغادر"أحصدوهم" فحول هذه الصور إلى ذكريات مؤلمة، وقد استوحى هذه الصور من البيئة الفلسطينية– حصاد– سنابل القمح– أزهار البنفسج– الحقول.

يرى "سميح القاسم" أن أمر "احصدوهم" يدل على الهمجية التي انحط إليها القتلة يقول:

لمن الموال

من تلك الصبية؟

بين شرياني ونصل الهمجية

---

[1] / توفيق زياد، الديوان ، 306–307

[2] / أنظر روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 46 وما بعدها

[3] / محمود درويش، الديوان ، 208/1

احصدوهم

احصدوهم

حصدوا

وتلوت كفر قاسم([1])

هذه العبارة الرهيبة، تركت أثرها العميق في نفس الإنسان الفلسطيني، ولم تستطع كل قوى القهر والظلم، أن تكبح جماح ثورته وسخطه على الغاصب، الذي كان يهتف بجنوده"احصدوهم" وبها حصد ما يقارب الخمسين من أبناء كفر قاسم كما لو أنه يذبح حيوانات، يقول "عصام العباسي":

هيا احصدوهم لعلعت في كفر قا	سم وارتمى الخمسون فوق تـــــــــــراب
دون الشياه فللشياه كرامـــــــــة	عند التجار، ومسلـــــــــــــخ القصـــاب([2])

وهذا الوضع المؤلم الذي حصد فيه الشهداء، جعل أرواحهم تعود إلى أجسادها وتروي مجريات المجزرة، وتتوعد قائد القتلة بالويل، يقول محمود الدسوقي:

تحت النصائب أسمع الأرواح

تروي قصة الحقد "احصدوهم"

ويل " شدمي" ([3])

ويرى "فراس عمر الحاج محمد" أن قتل الشهداء بهذه الطريقة الهمجية الوحشية والغدر بالأبرياء هو الذي أجج المشاعر وأذكى نيران الذكرى على مدى السنين بصور ومشاهد تثير الأسى والحزن في النفوس، وتنهمر الدموع الغزيرة كلما مر ذكر هذه الجريمة المفجعة. يقول:

لولا الدماء التي في الأرض فجرها	غدر العدو ، لما كانت لنا ذكـــــــر
يا" كفر قاسم"ضمينا على مهـــــــل	واروي العيون بأطلال لها صـــــور
بات البكاء حديث النفس من حـــدث	يدمي الفؤاد فآهات الأسى زفـــــــر
عدنا إليك وأشلاء لنـــــا ســـردت	وقع "الجريمة" يحكي سفرها الخبـــر
عدنا نفتش يا آهات أزمنـــــــــــة	البوم لحنها في نـــــــعّقه أثــــــر([4])

يعتبر "البوم" رمز الشؤم والخراب أينما حل، لذلك استعار الشعراء صورة هذا الطائر للقتلـــــة، كما استعاروا صورة الغُراب الذي يشارك البوم هذا الرمز، فأطـــــلق عليـــهم "محمودمرعي"، "غرابين الموت " تصطاد الأطفال والشيوخ والنساء، يقول:

أغلقوا الدرب كفر قاسم ويلـــــي	خبري أين الكهــــل أين الوليد؟؟
والنساء، والرجال، قولي،أعادوا؟	فغرابين الموت حطت تصـــــــيد([5])

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 2/194-195

[2] / عصام العباسي، لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد، 85

[3] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين ، ديوان الشهيد، 72

[4] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد، 225

[5] / محمود مرعي، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 122

بدأ يوم المجزرة بصور محببة إلى النفس الإنسانية، توحي بالهدوء والجمال. كان صباح ذلك اليوم، ندياً تنتشر فيه الصبايا النشيطات الذاهبات إلى العمل، يعطره شذا الغناء الصادر من الفلاحات الفرحات بقطف الثمار، وهي صورة أخاذة تملأ النفس فرحاً وحبوراً، وقد تناول الشعراء هذه الصور لتكون تمهيداً لتقديم مظهر آخر يفسد هذا المجال ويحطم سكونه، لإظهار بشاعة ما قام به الأعداء، منهم هشام أبو صلاح في قوله:

في ذاك اليوم
أجمل ما في الدنيا كان
ذات صباح مبتل بصبايا الحنطة
بغناء الفلاحات السمراوات ازدان
لكن الطوفان
اجتاح مواويل الشجر المثقل بالعطر
غربت شمس القرية وانتشرت أسراب الغربان
وأوامر "دهان"
تنعق في الأرجاء جراحاً راقصة
جثثاً ملقاة في الطرقات المغتالة
فاختبأ الأولاد
فزعوا... فالغول اغتال طفولتهم جهراً
آه يا فلذات الأكباد
القرية والشمس على ميعاد
الشمس انطفأت
والقرية أشلاء وجراد
القرية في دمها المسفوح قطاف حصاد([1])

فإن جمال الطبيعة وسكونها اللذين صورهما الشاعر في بدء قصيدته، لا تلبث أن تفسدهما صور قاتمة تبدد كل ما فيه من هدأة وجمال ، فما أن تبدأ الشمس بسحب خيوطها الذهبية، حتى تنتشر جنود الأعداء محملة بأوامر عسكرية ألقاها عليهم قائدهم (دهان)، فتمتلئ الطرقات بالجثث والأشلاء والدم المراق، ويعمّق الشاعر مفهوم الظلم بتضمينه مجموعة من صور الموروث الشعبي، ليدلل بها على منفذي المجزرة، فهم أسراب **الغربان** التي تنعق بالخراب والدمار، مؤكداً دلالته في الصورة الشعبية، ويدعّمها بصورة من الموروث (المثيولوجي): صورة "**الغول**"، وهو" رمز تجمعت حوله الكراهية الشعبية، وهو الذي يباعد بين الإنسان وسر الخلود"([2]) وللغول إيحاءات دلالية كثيرة منها المستغل ــ

---

[1] / هشام أبو صلاح،أوراق، ديوان الشهيد ، 173

[2] / نمر سرحان، الحكاية الشعبية الفلسطينية، 70

الظالم ــ الطاغي ــ القاتل ــ المغتصب لحقوق الإنسان .... ولكي يؤكد على هذه الدلالات أتى بصورة ثالثة، تصور القتلة **بأسراب الجراد**، تأكل الأخضر واليابس. وقد حشد الشاعر كل هذه الصور القاتمة بإظهار فظاعة الجرم الذي اقترفه القتلة.

تكررت صورة الجزارين التي تظهر حقدهم وغدرهم عند معظم الشعراء، الذين صوروا المجزرة، وأضاف إليها شعراء آخرون صور من الموروث التاريخي، فلم يكتف "هشام أبو صلاح" بوصفهم **بالغول والجراد والغربان** حتى أضاف إليهم صورة ***التتار*** الذين دخلوا البصرة وبغداد، وحاولوا القضاء على كل مظاهر الحضارة والجمال، مظهرين حقيقتهم التي يحاولون إخفاءها وراء شعارات زائفة، يقول:

أذكر أني شاهدت الغول المحموم
يمتص دمائي شرهاً مسعوراً
راح يعيث فساداً وهواء موبوء
مزق دمية طفلة
ذرفت من عينيها فله
وامرأة تبحث عن بعل ما عاد من الحقل الملغوم
....
لم تعلم أن الغول المحموم
قد أنشب أظفار الغدر بصدر من صخر وغيوم
لم تعلم أن التتر انتشروا مثل جراد
حرقوا الأخضر واليابس في ذاك اليوم المشؤوم([1])

و لقسوة الأعمال التي قام بها القتلة، فقد وصفهم "عبد السلام محمود موسى" بمن أصابه داء الكَلَب، وبشر أهل كفر قاسم بزوالهم، وأن نهايتهم ستكون كنهاية قوم عاد لاشتراكهما في البغي والظلم، يقول:

يا من نعيت إلى الدنيا براءتها   لما استبتك نفوس شانها الكَلَب
تبقى ويهلك عاد في حقارتــه   فما الخلود لبـــاغ ظالم أرب([2])

وعلى الرغم مما يحمله القتلة من أسلحة فتاكة، فهم جبناء يتسترون بالليل لتنفيذ جرائمهم، شأنهم في ذلك شأن **الخفافيش** التي تنشط في الظلمة، يظهرون بطولاتهم في قتل الأطفال الأبرياء، فتصيبهم حالة من الرقص المهووس، إثر ما حققوه من نصر زائف، يقول "هشام أبو صلاح":

داسوا بالقدم المحقونة بالورم المنتن

---

[1] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد، 175 ــ 174

[2] / عبد السلام محمود موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 179

وانتشروا في الليل خفافيش خراب

ينتعلون جماجم أطفال القرية رقصاً مهووساً([1])

فهؤلاء القتلة –عند هذا الشاعر– خفافيش خراب، وهم –عند "أحمد يوسف ياسين"– **أفعى** تبث سمها في طرقات القرية، فينتشر الظلم والحزن والعداوة، وتغرق بيوت كفر قاسم في الصراخ والعويل وطرقاتها بالدماء الزكية المراقة،

تشرين جاء محملاً بمصائـــــــب	جعلت ظهور الشامخـــات تمــــــيل
والليل جاء ملثماً متحفــــــــــزاً	يخفي الحراب اللامعـــات نصــــول
أفعى تبث الســم في طرقاتنــــــا	فالعـــدل يذبح والسلام قتـــيـــــــل
هبت رياح الموت إذ حل المســـــاء	وتربــــــص الغدر اللعيـــن يــقــول
يا كفر قاسم بالدمـــاء ألا اغرقـــي	في كل بيت صرخةً وعويـــــــــل([2])

ويدعو "نزيه ناجي" كفر قاسم إلى النهوض مرة أخرى، ولمّ الصفوف والثبات في الأرض بعد أن هجمت عليها الوحوش الكاسرة وعاثت فيها فساداً وأراقت الدماء، يقول:

يا عذراء نامت في حلم الإنسان

انهضي وضمي شلال شعرك المنكوش

فقد تلاعبت فيه يد الوحوش

ولون الدم غاب

خلف مجهول الشآن([3])

وتماهت صورة القتلة في صورة الفاشيين، التي تمجد الدولة والعرق وتدعو إلى إقامة "حكم أوتوقراطي مركزي على رأسه زعيم ديكتاتوري" ([4]) وشرع الفاشيون في تطبيق سياستهم إبان صعود نجمها في إيطاليا في عهد (موسوليني). وكانت هناك علاقات وثيقة مع الصهيونية، حيث "أصدر موسوليني قراراً بدمج كل التجمعات اليهودية في إيطاليا في اتحاد فاشي يمثل كل يهود إيطاليا بغير استثناء، وأصبح هذا الاتحاد إحدى الوكالات الرسمية للحكومة الفاشية. فقد نصت المادة 35 من قانون تأسيس هذا الإتحاد على أن اليهود هم سفراء الفاشية للعالم" ([5]) وفي ألمانيا في ظل **(هتلر)**، الذي أذا**ق** اليهود صنوفاً من الويلات، فجاء المضطهدون الحاقدون يضطهدون شعباً أخر، وكان الفلسطينيون مجالاً لتفريغ ذلك الحقد المختزن، فداسوا على كل القيم الإنسانية، كما يذكر "عبد الناصر صالح":

رأيت الفاشيين بأقنعة سوداء

---

[1] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 176

[2] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة، ديوان الشهيد ، 209

[3] / نزيه ناجي، ساحر الشيطان، ديوان الشهيد ، 245

[4] / منير البعلبكي، موسوعة المورد، 105/4 ــ 106

[5] / عبد الوهاب المسيري،موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 456/2

يدوسون الإنسان([1])

وتذكر بعض الدراسات أن الصهاينة هم الذين علّموا العالم الإجرام، باعتبار " أن (هتلر) نفسه كان طفلاً غير شرعي لأب يهودي" ([2]) وإن كانت معظم الدراسات تشير إليه على أنه زعيم نازي ألماني، وآياً كانت الحقيقة فقد كانت هناك علاقة وثيقة بينه زعماء الصهاينة، فهجرة اليهود من ألمانيا، تمت بالاتفاق معه، وحركة الاضطهاد كانت تنظم على علم دعاة الصهيونية في القارة الأوروبية. ([3])

وقام القتلة بضرب حصار على قرية كفر قاسم في ذكرى المجزرة، يريدون خنق المشاعر الوطنية لدى الفلسطينيين، الذين تدفقوا من مختلف أنحاء البلاد إلى القرية المذبوحة لإحياء الذكرى وتجديد العهد، وكان من بين هذه الوفود "سميح القاسم" في الذكرى العاشرة للمجزرة، وقد استطاع المجازفة والوصول إلى ساحة الشهداء في القرية، وألقى قصيدة في أهل كفر قاسم المحتشدين، يتحدى فيها القائد العسكري وجنوده المدججين بالسلاح، يقول:

رغم ليل الخنى ونير المظالــــــــم حل وفد الكفاح يا كفر قـــــــــاســــم

رغم عسف الطاغوت يزبـــــــد سمـــاً رغم سد الأسلاك في الدرب جاثــــــم

رغم حقد الرشاش يشهره الباغـــــــي أتينا فليلعق الخزي حاكــــــــــــــم

نحن من شعبك المقيم على عهد الضـــ حايـــا وذكـــــريات المـــــــــآتــم([4])

نلمح في الأبيات السابقة التحدي والإصرار على النضال والمقاومة، فكل القيود، لم تمنع الشاعر من مشاركة إخوانه مشاعر الحزن والألم، التي سببها العدو الباغي الظالم، الذي بدا في صورة طاغوت يزرع الفساد في الأرض بذريعة الأمن لشعبه، ويغتصب حقوق الآخرين، وما يدر العدو أن كل ذلك ينقلب محناً ومصائباً عليه، يقول "سامي إدريس" عن قائد مجزرة كفر قاسم (شدمي):

و" شدمي" فاغر فاه

رأيت الجسر يحمله على جبل من الرؤيا

فيسقي شعبه ... أمنا

يفلسف قومه الأشياء تفتتهم

وتعمر فتنة زمنا وتلك حضارة الطاغوت أعمتهم

وتزرع جيلهم محنا([5])

ويتساءل"توفيق زياد" عن الحضارة التي يدعيها الجزارون، كيف تكون حضارة وهي تقوم على قوة السلاح وسفك الدماء واستلاب الخيرات، ودفن أحلام الآخرين، وتفرض بديلاً منها الخراب

---

[1] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 127 ــ 128

[2] / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، 389/2

[3] / أنظر محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، 265 ــ267

[4] / سميح القاسم، ديوان الحماسة، 60/3

[5] /) سامي إدريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم، ديوان الشهيد، 186

والدمار، إن هي إلا شريعة الغاب يؤمن بها الصهاينة ويطبقونها على الشعوب المستضعفة، وأول هذه الشعوب الشعب الفلسطيني، يقول:

لها الويل رجعية تستبد

تحكم سيف الردى في الرقاب

وتدفن أحلامنا في التراب

وتجبله بالدماء الرطاب

وتفرض في أرضنا بالحراب

شريعة /غاب / وظفر / وناب([1])

ويشبه "عبد الرحيم عمر" الجزارين "**بجالوت**"، –العملاق الفلسطيني – ويطلب من أهل كفر قاسم الصبر والثبات، لأن الدموع لا تفيد ما دام الحاكم والقاتل واحداً، يقول:

أطفئي شهوة "جالوت" لطعم الدم والقتل وصبراً

كفر قاسم

واحبسي دمعك ما جدوى دموع القهر في حضرة ظالم

يا صبايا كفر قاسم([2])

ومما يزيد وقع الجريمة في النفوس بشاعة ومرارة، استهتار الجنود بأرواح الشهداء، فهي عندهم لا تساوي رصاصة، يقول توفيق زيّاد:

ويصرخ ضابطهم صرخة آمرة

يشير لكومة الضحايا

" كفى: إنهم سقطوا كالنشارة"

" كفى: فالرصاصة فيهم خسارة"([3])

ويصور الشاعر احتفال القتلة بنصرهم المزيّف، وتسيطر على حلبة المجزرة قهقهات الجنود، وهم يمشون بخيلاء وأقدامهم تدوس جثث الأبرياء، وتغطس في دمائهم الزكية، لا يرعون حرمة الموت، وكيف ذاك وهم الذين يقلّبون الجثث بحثاً عن شيء ثمين يسرقونه:

وخيم صمت ثقيل مديد

على حلبة المجزرة

وتقطعه قهقهات الجنود

لنصر بمعركة ظافرة

....

ويمشي الجنود بكل إباء

---

[1] /توفيق زيّاد، الديوان ،319–320

[2] /عبد الرحيم عمر، رغم حصار الكلمات، مخطوط

[3] / توفيق زياد، الديوان ، 317

مشي الإوزة في خيلاء
فتغطس أقدامهم في الدماء
سراعاً إلى جثث الأبرياء
تقلبها دون أي حياء
وتخطف ساعاتها في خبال
وما حملت من ثمين وغال([1])

ويرحب "محمود درويش" ساخراً بهؤلاء المفتخرين بفعلتهم، المحتفلين بنصرهم الوهمي، المبني على قتل الطفولة والبراءة :

مرحى لفاتح قريـــــة   مرحى لسفاح الطفولــــــــة([2])

ويختلط ضحك الجنود وقهقهاتهم بأزيز الرصاص الذي يطلقونه يصطادون به أرواح الشهداء فيخرّون دفعة واحدة، وهو ما صوره محمود مرعي في قوله:

" احصدوهم " خروا بطرفة عيـــــن   جثثاً فوق بعضها والبليـــــــــد
يطلق الضحك والرصاص ويعـــــلو   وجهه الأربد الغليظ الجليـــــد
وأتم الرصاص قولاً وفــــــعـــــلاً   وتردى فوق الشهيد الشهيــــــدُ([3])

ويكرر الشعراء صورة هؤلاء الجنود الذين يطلقون الضحكات الشامتة، وقلوبهم مليئة بالحقد والضغينة، أدخلتهم في رقصة بدائية كمن أصابه مس من جنون أو خبل، يقول عقل ربيع :

هم قتلونا يضحكون كأنـــما   لعبت بأقفال الرؤوس شمول
هم قتلونا يرقصون وكلهـــم   جند عظام في الوغى وفحول
يتسابقون لقتل طفلٍ لم يــزل   يحبو وعمّا يفعلون غفـــول([4])

ويتنبأ "أسامة أحمد شواهنة" بنهاية دولة الظلم.

وتقهقهوا: نصر جليل
هذي بداية فرط عقد المستحيل([5])

ويتساءل "حنا أبو حنا" مستنكراً عن مصدر هذه الشرور التي أتى بها القتلة، ويعيدها إلى أنها صفات متوارثة من ماض غابر، بقيت تقوى وتشتد، حتى وصلت إلى القمة، وظهرت في أفعال القتلة

---

[1] / توفيق زياد، الديوان ، 317ـــ318
[2] / محمود درويش، الديوان ، 213/1
[3] / محمود مرعي، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد ، 122
[4] / عقل ربيع، القاسمية ، ديوان الشهيد، 194
[5] / أسامة أحمد شواهنة، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد ، 228

الوحوش، الذين يستمتعون بدحرجة الجثث المغدورة، ويطربون بسماع أنين الجرحى وصراخهم، ــ يشير بذلك إلى جر جثث الضحايا ووضعها كومة واحدة على قارعة الشارع ــ يتفاخرون بهذه الأعمال الدنيئة، وهم بذلك مصدر الشرور بل منجم الإجرام، الذي لم يعرفه العالم بعد. يقول:

من أي طين آســـــــــــــنٍ   جبلت قلوب الغادريـــــــــــــن
أعصابها الديـــــــــــــــدان   من مستنقع اللؤم الزمـــيــــــن
تتعفن الأحقـــــــــــــاد والأ   ثام فيهــــا والجنـــــــــــــون
سكرت على نغـــم الأنيـــــن   وولولات الثاكليـــــــــــــــــن
تلهو بدحرجة الجســـــــــوم   غريقةً بدم الوتـــــــــــــــين
فكأنها أُكر تدحـــــــــــــرج   بالشمال وباليمـــــــــــــــن
وتذيع أنباء " الحصـــــــاد "   تزفها للآخريـــــــــــــــن
في لهجة الظفر الفـــخـــــور   ونبرة الإثم الرزيـــــــــــن
سل منجم الإجــــــــــــرام   مـــــن أي المعادن يصــــهــرون
واسأل وحـــــوش الغـــــــاب   عن مـــأوى ضمير الحاكميــــــن([1])

لم تكن هذه الصفات حكراً على المنفذين ،بل هي نمط حياة للقادة ذوى الضمائر الميتة، الذين أمروا بهذه الأعمال أو سمحوا بحدوثها، وأن أسماء بعضهم إذا نطقت بالعبرية تدل على فعلهم المشين، وهو ما أشارت إليه "غالية أبو شباب" في قولها:

طارت حروف العز
من اسميهما
الأغبر الملعون
غبرائيل دهان
غدا وحش المنية تنتشي
بالدم معه عوفر([2])

وتذكر الشاعرة نفسها، أن اسم أحد قادتهم يناقض شخصيته، فاسمه " شالوم" أي سلام بالعربية، وأفعاله أبعد ما تكون عن السلام:

أسموه " شالوم" فهل شالومهم
أن يذبح العمال
غدراً أن يراهم عزلاً([3])

---

[1] / حنا أبو حنا، نداء الجراح، 81
[2] غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 260 ــ 26
[3] / نفسه ، 261

لم تتوقف المجازر والمذابح ضد الشعب الفلسطيني، منذ أن وطئ الصهاينة أرض فلسطين، وتعددت الذرائع والدوافع، وأسماء المنفذين، وكلهم حاقد متعصب، ففي كل يوم يظهر(شدمي) جديد يفوق معلمه الأول في الغدر والإجرام،يقول "سميح القاسم": ([1])

ما غاب "شدمي" والزمان شهيدنا   فـــي كل يوم سافل يتشـــــــــدم

تنص الأعراف والقوانين الدولية، على وجوب حماية المدنيين من قبل الدولة المحتلة، لكن هذا المفهوم يبدو أنه لم يصل بعد إلى قادة الصهاينة، الذين ظلوا يمارسون هواياتهم المحببة وهي إطلاق أوامر القتل، بل والتلذذ بقتل الآخرين وتعذيبهم، يتساوى في ذلك قادة مجزرة كفر قاسم وما سبقها وما تلاها من مجازر حتى يومنا هذا، وهو ما أشار إليه " سامي إدريس" في قوله:

فقد كانت هوايتهم أوامر قتل
و" شدمي" ذلك السادي شيخ القتل
ورغم تقلب الأزمان نلقاه
على صفحات دفاترنا
كموت فاغر فاه ([2])

لم تكن مسؤولية أحداث المجزرة تقع على عاتق المنفذين من أمثال (دهان) ومن تحت إمرته– الذين كانوا أداة في يد الساسة المسؤولين – بل مسؤولية القائد ومن حوله من راسمي السياسة العامة للكيان الصهيوني، الذين فرضوا الحكم العسكري، وحولوا المواطنين تحت الاحتلال، في تلك الفترة إلى سكان " جيتوات" منبوذين ومهانين، ومن زرع، في أوساط حرس الحدود مفهوم كراهية العرب، والإهمال الدائم من الحكومة لحقوق هؤلاء المواطنين، يضاف إليها " التربية القومية الشوفينية " ([3]) للصهاينة ويستغرب "عصام العباسي" أن تكون هذه المجزرة تحدث مع أُناس تمرغوا في ويلات المجازر والاضطهاد على يد النازيين:

أشغوف قتل كان " دهان" تـــــرى   أم حربة في كفك الضـــرّاب؟
أُولست قائد رهطه وفريـــــــــقه   والحاكم المختار في الأحزاب
أولست من رسم السياسة يا رئيس   وساسها من بابها للبــــــــاب
أيجوز قتل الأبرياء وأنــــــت من   شعب تمرغ بالدم المنســـــاب([4])

جاء القتلة من دهاليز الجريمة التي تعرض لها الصهاينة في أوربا، وضخمها قادتهم بنشر إشاعات وأخبار مرعبة، ليصلوا من خلال ذلك إلى تحقيق أسطورة إسرائيل الكبرى، على أرض فلسطين وما حولها، يقول بسام أبو شاويش:

جاء القاتل من دهاليز الجريمة

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 415/2

[2] / سامي إدريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم، ديوان الشهيد، 184 ــ 185

[3]/ مصطفى كبها، مجزرة كفر قاسم في الرواية التاريخية العربية الفلسطينية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 87

[4] /عصام العباسي، لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد، 85

مسكوناً برعب القرون

وذكريات أليمة

جاء القاتل مستتراً بالليل

مبشراً بخرافات وأساطير قديمة([1])

استغل الصهاينة عملية الإبادة الجماعية التي قام بها النازيون ضد كثير من الشعوب والأقليات الدينية والعرقية في أوروبا، أسوأ استغلال، واحتكروا دور الضحية، فأخذوا يصورون هول المذابح، ويستصرخون ضمير العالم، وأقاموا الأرض ولم يقعدوها حول أسطورة " الأفران " أو " غرف الغاز" التي أدّعوا أن ألمانيا النازية أبادت الجماعات اليهودية فيها، ويرى "محمود شاكر" أن هذه الدعاية " ليست سوى بدعة صهيونية، ذات أبعاد سياسية ونفسية واقتصادية واستراتيجية،هدفها إقامة الدولة اليهودية في فلسطين" ([2]) ويفند زيف هذا الادعاء بالأدلة والإثباتات التاريخية، كما أشار إلى عدد من الباحثين والمفكرين الغربيين انبروا لفضح هذه الأكذوبة التاريخية من أبرزهم: (روبير فوريسون) و (ماري بول ميحي) و (روجية غارودي) و (الأب ميشال لولون) وغيرهم. ([3]) ويشير "ابن زيدون" – الناصرة– إلى نهم الصهاينة في سفك الدماء، ورغبتهم الجامحة في قتل الآخرين في الوقت الذي يستنصرون ضمائر الشعوب لإنصافهم وإنقاذ أطفالهم ونسائهم من هول المذابح والمجازر، يقول:

وفي كفر قاسم فيم الحصاد	أيرضيكم "الثمر الأحمر"
ألم تمتلئ كأسكم بالدماء	ومن خمرة العار لم تسكروا
أتستنصرون ضمير الشعوب	وبطن النساء هنا يبقروا
وتستصرخون لأطفالكم	ويحصد طفلٌ لنا أصغر
أمن ذهب صيغ أبناؤكم	ومن حجر طفلنا المزهر
أفيكم يسيل دم أحمر	وفينا يسيل دم أصفر
ليشنق أولئكم المجرمون	وحتى مع الموت لن يظهر([4])

هذه القصيدة من أوائل القصائد التي قيلت في تصوير مجزرة كفر قاسم، متحدية، رافضة لأعمال القتلة وسياسة الدولة الصهيونية، القائمة على التفرقة العنصرية، وسلب حقوق الآخرين ، لذلك يطالب الشاعر بمعاقبة المجرمين وقتلهم جزاء ما جنته أيديهم.

يصر القتلة على ارتداء ثوب الضحية، بل برعوا في ذلك أيّما براعة، يقومون بجرائمهم ويسارعون إلى التباكي والشكوى بأنهم أقلية مستهدفة، تعرضت للإبادة من الشعوب الأخرى، وكل ما يقومون به دفاعاً عن النفس لحفظ كيانهم ووجودهم، يهدفون منه إلى استدرار عطف العالم ومساعدته، فيقلبون بذلك الحقائق رأساً على عقب، ويجدون من يصدقهم ويدافع عنهم، ونجد ذلك ماثلاً إلى يومنا

---

[1] / بسام عبد ربه أبو شاويش، حكاية قرية اسمها كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 264

[2] /محمود شاكر، موسوعة تاريخ اليهود، 267

[3] / أنظر نفسه، 267 ــ 271 وعبد الوهاب المسيري،موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ، 438/2 ــ 442

[4] /ابن زيدون، مجلة الجديد، كانون الثاني، 1957م، 16

الحاضر. يقتلون الأبرياء صغاراً وكباراً، يهدمون البيوت فوق رؤوس أصحابها، تحت ذريعة ضربات وقائية، ودفاعاً عن النفس. ولكن وإن استطاع الصهاينة خداع العالم زمناً، إلا أنهم لن يستطيعوا خداع كل العالم إلى الأبد، فهذه الدماء التي تنزف وهذه الأرواح التي تزهق غدراً وظلماً في عز الظهيرة، ستفضح تاريخهم، وتظهر الحقيقة التي لا يمكن إخفاؤها مهما اجتهد صاحبها في ذلك، وهذا ما عبر عنه سميح القاسم في قوله:

تقتل في عز الظهر وترث المقتول ــ على عينك يا تاجر ــ
تقتل وتصلي. تلتمس الغفران فأي إله فاجر
يقبل كفارة عارك. لن تنعم بالصفح. استرسل
كل شفاعات الأرباب هراء
واسترسل
دمع تماسيح التاريخ هراء
واسترسل
كل محيطات العالم لن تغسل كفّيك
دم أهلي ينزف من رأسك حتى قدميك([1])

يقول "مجاهد ريان" على لسان الجزارين:

ما عودتنا حرقة التاريخ أن نرحم
"ونبوخذ" ذاك الذي هتف له أرواحكم
قد أيقظ الأحقاد فينا([2])

يشير الشاعر في السطر الثاني إلى إعجاب كثير من الفلسطينيين، بملك الكلدانيين " نبوخذ نصر" الذي قضى على دويلة يهودا سنة (586 ق.م)، فدمر العاصمة تدميراً تاماً، واحرق الهيكل، وساق الكثير من حكامها ورؤسائها وجنودها، مع الآلاف من سكان البلاد إلى بابل، وأصبحت فلسطين كلها ولاية كلدانية، وما هذا الإعجاب نابعاً من حب سفك الدماء، أو رغبةً في التدمير، بل لما عاناه الفلسطينيون من ظلم على أيدي الصهاينة المستوطنين.

اعتادت الحكومة الصهيونية تبرير كل جريمة ترتكب بحق الفلسطينيين، إذ لا مجال للدفاع عنها، بأن مرتكبيها يعانون من أمراض نفسية، يريدون بذلك تبرئة ساحة القادة والمسؤولين من تبعات هذه الأفعال المشينة، يقول راشد حسين:

أو كلما انطلقت رصاصة قاتـــــــــــل قالوا غرير كفه رعنـــــــــــاء
خلّ الغرير إلى الطبيب وهــــــــات لي ذا حكمة أفعاله بيضـــــــــــاء

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 362/2

[2] / مجاهد ريان، من ذكريات مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 281

لن ترجع الأمن الشهيد سياســــــــــة فيها التعقل والجنون ســـــواء([1])

هذه جملة من الصفات التي أسبغها الشعراء على القتلة من خلال رسمهم صوراً متعددة لمجزرةِ كفر قاسم، تضافرت مع بعضها فأخرجت لوحة فنية تبين نفسية القتلة وما ربوا عليه من مبادئ عنصرية.

الصلحة

ما كادت دماء الشهداء تجف، حتى تابعت الحكومة الصهيونية جريمتها بجريمة أخرى، قد لا تقل عنها خبثاً، ففي 20/11/1957م فرضت الحكومة الصهيونية صلحة مفبركة على أهالي الضحايا، وهم لا يزالون تحت وطأة الحكم العسكري، ووظفت لذلك بعض الأحزاب، مثل حزب(مباي) والأحزاب التي تدور في فلكه، وبعض الشخصيات العربية. وكانت الشخصية الفعالة وراء تنظيم مراسم الصلحة "بنحاس رشيش" رئيس بلدية بيتح تكفا. وقامت الدولة بتمويل تكاليف المراسم الاحتفالية، وأعد رجال القرية الطعام الذي جلبت احتياجاته من المحلات التابعة للجيش، آن ذاك كتبت الصحف أنه ذبح في تلك المناسبة "15" خروفاً و"100" دجاجة حسب الشريعة اليهودية.([2])

لم يكن أمام عائلات الضحايا، إلا التظاهر بالقبول والموافقة على الاشتراك في مراسم الصلحة، أمام الضغوطات والتهديدات التي تعرضوا لها " بما فيها التهديد بالطرد وبالفصل من العمل" ([3]). ومن هنا انتقد الشعراء الشخصيات العربية التي ساعدت الحكومة الصهيونية، في فرض الصلحة، كما انتقدوا الزعامة التقليدية لكفر قاسم، التي وقفت لفترة طويلة أمام تنفيذ إحياء ذكرى ضحايا المجزرة، واتهموهم بالتخلي عن القيم والأخلاق العربية الأصيلة، وبيع ضمائرهم وأرواح شهدائهم بثمن بخس، ويسجل "توفيق زياد" غضبه على العدو المحتل بقوله:

المتمادي في الظلم المتمادي بعسفه
وجاسوسه المستمد بسيفه
ومختاره
وسمساره
وأحباره
وتجاره

---

[1] / راشد حسين، الأعمال الشعرية، 379

[2] / أنظر إبراهيم صرصور، بين الصلحة والنصب التذكاري، كفر قاسم الأحداث والأسطورة،196 و كفر قاسم في الذكرى لـ 44 لمجزرة، 28

[3] /إبراهيم صرصور، بين الصلحة والنصب التذكاري، كفر قاسم الأحداث والأسطورة ، 198

وأشراره
وكل بني عاره
يلصون خيراتها الغالية([1])

وتناول "علا عيسى"المعنى نفسه، مقتبساً العبارة التي وردت في وسائل الإعلام عن "عدم وجود نقص في المأكولات والمشروبات وفقاً للعادات العربية." ([2]) يقول:-

حجاجنا خلع العمامة وارتدى
ثوباً حريرياً بتوقيع هزيل
ما كان نقص في الثريد ولا القديد([3])

والحكومة الصهيونية تحاول بهذه المراسم تصوير أحداث المجزرة، على أنها خلاف بين عائلات وحمائل، انتهت بعقد صلحة تقدم فيها المشروبات والمأكولات، ومن هنا حرصت على إجراء هذه الصلحة وفق العادات العربية، بأن نصبت خيمة في ساحة المدرسة، ودعت إليها وجهاء القرى المجاورة، وكل رجالات قرية كفر قاسم وعلى رأسهم المختار. ومن الجانب الإسرائيلي شارك قائد المنطقة الوسطى "تسفي تسور" -المسؤول الأول عن المجزرة- ، ووزير الشرطة، وضابط الحكم العسكري، وغيرهم كثير.([4]) وينتقد " توفيق زياد " الصلحة بقوله:"لأول مرة نسمع في حياتنا بصلحة بين الحكومة وقسم من الشعب . لأول مرة نسمع أن الحكومة اعترفت رسمياً بأنها خصم لشعب تدّعي تمثيله"([5])

ظن الصهاينة وأعوانهم أنهم بهذه الصلحة استطاعوا أن ينسوا أهل كفر قاسم ما حدث مقابل الخمسة عشر خروفاً، وأن يغفر أهالي الضحايا للحكومة فعلتها وكأن شيئاً لم يكن، ولم يعلموا أن الحرة تموت ولا تأكل بثدييها، وأن هذا التفكير الذي ينم عن استهتار تام بأرواح الشهداء ومشاعر أهل كفر قاسم عامة، يؤجج العواطف والمشاعر وينتقل من جيل إلى جيل مستصرخاً طالباً العدالةً، يقول "علا عيسى":

يا فاطمة
أمي تبيع ضناها
في أكلة من حاكم
لم يعترف أن الخراف صراخها

---

[1] / توفيق زياد، .الديوان ،312- 313
[2] / إبراهيم صرصور، بين الصلحة والنصب التذكاري، كفر قاسم الأحداث والأسطورة ، 197
[3] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 103
[4] / مجلس محلي كفر قاسم ،كفر قاسم في الذكرى ل 44 ،28 . إبراهيم صرصور، بين الصلحة والنصب التذكاري، كفر قاسم الأحداث والأسطورة،196-197
[5] / توفيق زياد،عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين،205

يمتد من جيل لجيل([1])

ويكني الشاعر باسم فاطمة([2]) عن كل شهداء كفر قاسم الذين علّموا الناس الحب والوفاء والفداء، ويعاهدهم على الوفاء بالعهد وعدم التنازل عن حقهم والأخذ بثأرهم مهما عرض عليهم من إغراءات أو تعرضوا لضغوطات وتهديدات:

يا فاطمة

قد غرت مني عندما

حاولت لمس خرافهم تحت السماط

لكنك

ناولتني طبقاً ومن الحلواء

صنع السماء

فأكلت حتى أتخمت أوصاليه

حباً.... فداءً وبقيت عالعهد الذي

كنا قطعنا من سنين

ألا أخونك في دمي

حتى وإن ملكت جنات النعيم([3])

بعد أن افتضح أمر المجزرة شكّل رئيس الوزراء الإسرائيلي (دافيد بن غوريون) لجنة تحقيق للنظر في أحداثها، وامتدت المحاكمة حوالي سنتين وكان (بن غوريون) معنياً بعقد الصلحة قبل الانتهاء من المداولات في محاكمة القتلة، ليتمكن من العفو عن (ميلنكي) والمتهمين الآخرين بهدف شراء صمتهم، فإذا صفح الأهالي عن حقهم، فلن يبقى لحكم المحكمة فاعلية، ولا يوجد سبب في إبقاء المجرمين في السجن، وهناك سبب آخر جعل(بن غوريون) يسارع إلى إجراء الصلحة، لإعفاء حكومة إسرائيل من أية مسؤولية إضافية تجاه الضحايا مثل التعويضات. ([4])

وجاء الفصل الثالث من فصول المجزرة المتمثل في المحاكمة الصورية التي عقدت للمجرمين وما صدر عنها من أحكام .

[1] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 104

[2]/ فاطمة صرصور، المرأة الحامل في شهرها الثامن، التي استشهدت يوم المجزرة، ثم أطلقوا النار على من في بطنها

[3] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 106 ــ 107

[4]/ أنظر إبراهيم صرصور، بين الصلحة والنصب التذكاري، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 197

المحاكمة

تجرّع أهالي الضحايا الغصة وراء الغصة، بفقدهم أحبابهم في ادعاء "لوثة جنون" أصابت الجنود المرابطين على مدخل القرية، والطريقة التي تعامل بها الجنود الحاقدون مع جثث الضحايا، وحرمان أهلهم من أبسط حقوقهم وهو إلقاء النظرة الأخيرة على أحبابهم المغدورين قبل مواراتهم في التراب على أيدي أشخاص من قرية جلجولية المجاورة، في قطعة أرض خاصة شرقي القرية- وكان قد تم استدعاء مختار القرية إلى محطة الشرطة ليتعرف على الشهداء- ([1]) فلعل النظرة الأخيرة تخفف كثيراً من لوعة الفراق.

وبقي الألم يعتصر قلوبهم، والحزن يظلل حياتهم، لا يستطيعون التعبير عن مشاعرهم خوفاً من سطوة الجزارين، الذين أبقوا القرية والقرى المجاورة تحت الحكم العسكري المشدد لفترة طويلة، حتى قبور الشهداء لم يقوموا بتشييدها. يقول "إميل حبيبي" عندما زار قرية كفر قاسم سنة 1969 " قمنا بزيارة المقبرة في القرية ووجدنا المقابر بحالة مزرية، عندما سألنا: ما هو السبب؟ أجابونا بأن عائلات الشهداء تخشى إغضاب الحكومة إذا ما شيدت القبور" . ([2])

وعندما أجبر أهالي الضحايا على الصلحة أصابهم اليأس وسيطر الحزن والأسى على حياتهم لما شعروا به من الاستهانة والاستهتار بهم وبأرواح الشهداء. ويصف "منيب مخوّل" حالة الحزن التي عمت كفر قاسم بعد المجزرة بقوله:

فكيف ينعم كبش بات يحرسه
ويظهر العزم في إخلاصه سيد
إمّا يرى ضاحكاً فالقلب مكتئب
أو أن يرى مغمضاً فالنوم مطرود
أو أن يكون قرير بالذي فعلوا
فله دون فقيد الحس رعديد
وأعجب القول أن قالوا لنا ابتسموا
وحبل طاغوتهم في العنق مشدود([3])

ويقسم الشاعر هنا أهل كفر قاسم إلى قسمين: قسم يتحامل على نفسه ويحاول التظاهر بالرضى وممارسة الحياة الطبيعية والجراح تقطّع كبدهم حسرة على الشهداء وما آلت إليه أوضاعهم في ظل الاحتلال الصهيوني، وقسم فاقد الإحساس راضٍ بالذي حصل يعتبره نزوة ومرت، ويشير بذلك إلى المتعاونين مع قوات الاحتلال في فرض الصلحة، وسلب الأراضي وتطبيق القوانين العسكرية الظالمة،

---

[1] / أنظر روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور،، ديوان الشهيد، 53.

[2] / مصطفى كبها، مجزرة كفر قاسم في الرواية التاريخية العربية الفلسطينية،، ديوان الشهيد ، 96.

[3] / منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 89

ويخلص إلى التعجب من الحكومة الصهيونية التي تطلب من العرب إظهار الرضى والعيش الطبيعي، وهي تشدد الخناق عليهم وتسومهم ألواناً من العذاب والظلم والقهر.

وسط هذا الظلام والركام من اليأس والحزن، برق أمل جديد في إنصاف أبناء الشهداء وأهلهم، عندما أعلنت الحكومة الصهيونية عن إجراء تحقيق في مجريات المجزرة، ومحاكمة المسؤولين عن ذلك. وتنفس أهل كفر قاسم الصعداء، وأخذ الأمل ينمو في ساحة العدالة التي ينصف فيها المظلوم، ويأمن في ساحتها الخائف. ولكن ظنّ الأهالي خاب، عندما رأوا أرواح الشهداء تباع بقرش، وظل "قرش شدمي" رمزاً للعدالة الصهيونية المقلوبة ولأحكامها الجائرة، تقول "شروق إبراهيم القيم" في ذلك::

أرغميني بيديك الحانية

أن أعُدّ خمسين نعشاً

فاليوم

تباع الأرواح بقرش([1])

ويُسقط "سميح القاسم" صفة القيصر على الحكومة الصهيونية، التي أصدرت الأحكام الهزيلة بحق المجرمين، مستخدماً في ذلك الأسلوب الهزليّ التهكميّ، الذي يعكس شعور الفلسطينيين بمرارة الظلم والإحباط من تحقيق العدالة في ساحة المحكمة الصهيونية وتغيير الواقع، لذلك ليس أمامهم إلا كظم غيظهم والاستمرار في المطالبة بحقوقهم من جيل لجيل، يقول:

دعني أهنّك على يوم البطولة

عش لعدل لا يضاهى

أيها القيصر عش

ثمن الخمسين..... قرش

أنت يا مولاي رحمن رحيم

والذي يغضب من عدلك يا مولاي

شيطان رجيم

والذي يحزن مخدوعاً ومن

ينزف الأدمع

موتور لئيم

سيدي يا قيصر العصر الجليل

كل ما قلناه يا هذا قليل

والذي في القلب.....في القلب

ومن جيل لجيل

وإلى أن يبعث النهر

---

[1] / شروق إبراهيم القيم، تشرين وحل الخطيئة، ، ديوان الشهيد ، 251

وتشدو في أغانيّ الحمائم

أوقظ الدنيا هتافاً لا يساوم

كفر قاسم([1])

ونرى الشاعر يلجأ إلى الاقتباس من القرآن الكريم، ويوظف الألفاظ الإسلامية"رحمن رحيم–شيطان رجيم" في تصوير عمق المأساة حين تدل الألفاظ على عكس معناها الحقيقي.

فقد الفلسطينيون الأمل في تحقيق العدالة في ساحة القضاء الصهيوني، فقد عبر عن ذلك "علا عيسى" بقوله:

عمق العدالة في بلادي مثل عمق اليأس في

عين ابن متى([2])أو يزيد([3])

لم يكن الحكم الذي صدر بحق مجرمي كفر قاسم، وعلى رأسهم قائدهم (شدمي) هو السابقة الوحيدة في تاريخ الدولة الصهيونية، ولن تكون الأخيرة، فقد أصبح المنهج الذي تسير عليه الأحكام الصهيونية بحق جنودها ومواطنيها المعتدين على حرمة الفلسطينيين والشعوب العربية الأخرى، فهي تصدر لهؤلاء تبريرات ومسوغات لفعلتهم، وإن أعجزتها الحيلة، أطلقت عليهم صفة الجنون والمرض النفسي وهم بهذه الأحكام يعيدون عقارب الساعة إلى الغرامة الغريبة التي صدرت بحق (شدمي) يقول حاتم جوعية:

ما زال "شدمي" قرشه متغطرس   كم مثل "شدمي" لا يباع حـــــذاء([4])

ونتيجة لما خلّفه الحكم الصادر بحق (شدمي) من ألم في نفوس الفلسطينيين، فقد ألحّ عليه الشعراء وكرروه في قصائدهم، كما استعار "أحمد سلامة" اسم" قراقوش" لقادة القتلة، معمّقاً بذلك رمز الظلم، حيث يطلق اسم " قراقوش"– مجازا– على كل رجل ظالم طاغٍ مستبدّ نسبة إلى قراقوش وهو "بهاء الدين المتوفى 1201م من رجال صلاح الدين الأيوبي ناب عنه في الديار المصرية، وكان رجلا مسعودا وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر بالجيزة......والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة في ولايته، وفي أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه"([5]) ويبدو أن خصومه ألصقوا به هذه الأحكام لثباته في تنفيذ الحق، وعدم موافقة هذه الأحكام لإغراض خصومه الشخصية، يقـــــول:

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة،103/1–104.

[2] / ابن متى، هو يونس "عليه السلام " ويطلق عليه "ذو النون" وقد يكون اسم" متى" لغة في ألفاظ أخرى مثل مدّ أو مطّ في سيره .... لأن يونس "عليه السلام"يئس من قومه فمضى على وجهه غاضبا ويائسا من إيمانهم وصلاحهم. أنظر http://www.geocities.com/albayan.2yunus>html

[3] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 105

[4] حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 197

[5] / ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 91/4– 92

قراقوش عاد

الظلم لم يمت

وقراقوش عاد

تحفه زبانيته

"ملينكي" و " شدمي"

وزمرة الأوغاد

لم يرتو من دم

أهل قبية

ودير ياسين

ولوبياء

ولكفر قاسم عاد([1])

ويبين الشاعر أن الإجرام والظلم ديدن الصهاينة من جريمة إلى جريمة ومن مجزرة إلى أخرى.

ويخاطب الشاعر "علا عيسى" – من أهل كفر قاسم – الشهداء، مستنكراً الأحكام التي صدرت بحق القتلة، يقول:

يا فاطمة

هل ساءلوا القرش الثمين

عن كفر قاسم أين ذاكرة السنين

هل ساءلوا القرش اللعين

ماذا جرى للمجرمين

كم ترقيات نال جانبهم وكم

ديمونة لعنت حاميها الأمين

والرملة العربية

فتحت لشدمي بابها

ضمته حباً ثم دفئاً

وكأنه الفتح المبين([2])

يعبر الشاعر بهذه الأبيات، عن مطالبة سكان القرية والفلسطينيين عامة بمحاكمة عادلة للمجرمين، بعد أن خفّضت الأحكام الصادرة عن المحكمة بحق المتهمين، فقد حكمت على (شموئيل ملينكي) بالسجن لمدة 17 عاماً، وعلى كل من (جبرائيل دهان) و (شالوم عوفر) بالسجن لمدة15عام مع تخفيض رتبتهم العسكرية إلى رتبة عسكري، أما باقي المتهمين فحكم

---

[1] / أحمد سلامة، المغيب الأحمر، ديوان الشهيد، 272 ــ 273

[2] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة،ديوان الشهيد ، 107 ــ 108

عليهم بالسجن لمدة 7 سنوات.([1]) كما قضت المحكمة بوجوب تقديم العقيد (شدمي) للمحاكمة، وجرت محاكمته سنة 1958م بتبرئته من التهم الموجهة إليه وحكم عليه بدفع قرش واحد فقط ، لأنه فرض حظر التجوال بدون صلاحيات. ([2])

تبدو الأحكام التي صدرت بحق منفذي المجزرة هزيلة إذا ما قورنت مع الأحكام التي تصدر على الفلسطينيين بقتل الإسرائيليين، أو حتى التخطيط لعملية عسكرية ضد الإسرائيليين، ولكنها مع ذلك تظل منطقية نوعاً ما، مقارنة مع الأحكام التي قضاها المتهمون في السجن، فقد قضى (ملينكي) ثلاث سنوات في السجن، بعدها أصدر رئيس الحكومة – بن غوريون– في تلك الفترة أمراً بالعفو عنه، وأعاد إليه رتبته العسكرية، كما عينه مسؤولاً عن أمن المفاعل النووي في ديمونة. أما (دهان) فقد أفرج عنه بعفو من رئيس الدولة، وكان هذا بعد الحكم عليه بسنة واحدة فقط أي أنه قضى في السجن ثلاث سنوات، وأعيدت إليه رتبته العسكرية، وحين خروجه أعدّت له بلدية الرملة استقبالاً حافلاً، وعيّن في وظيفة مهمة مسؤولاً عن شؤون المواطنين العرب في المدينة. وفي ديسمبر سنة 1959 م أفرج عن (عوفر) وأعيدت له رتبته، وعمل لفترة معينة مع مجموعة كانت مهمتها حراسة مؤسسة أمنية. كما أطلق سراح جميع المتهمين بعد قضاء ثلاث سنوات من سجنهم. ([3])

هذه المكافآت التي نالها القتلة لا يمكن فهمها بمعزل عن سياسة الدولة العامة، القائمة على قتل العرب وتهجيرهم من بلادهم، وهذا يعني أن أوامر القتل صدرت من رتب عالية في الدولة الصهيونية، يقول (عوفر): " كانت الأوامر واضحة. وكان واضحاً أنها صدرت من رتب أعلى ــ أعلى من العقيد(شدمي) بكثير" ([4]) وتؤكد هذا الأمر (نحاما) زوجة (ميلنكي) في حديثها عن المعاملة الدافئة التي يعامل بها (بن غوريون) زوجها، تقول: " لقد كان جزءاً من المحاكمة مغلقاً، وكان واضحاً أنه ليس هناك إمكانية لإلصاق تهمة بمن هو في رتبة أعلى ــ أي أعلى من رتبة (ميلنكي) ــ عند البحث عن المسؤولين، وليس هناك إمكانية للكشف عن دور قائد اللواء (تسفي تسور) و قائد الأركان (موشيه ديان) ودور الحكومة في هذه القضية، لأن هذا كان سيلطخ صورة الدولة أمام العالم ". ([5])

على الرغم من حالة الرعب والخوف والإرهاب، التي فرضتها الحكومة الصهيونية على قرية كفر قاسم، إلا أن المواطنين العرب الراسخين في وطنهم، ظلوا يطالبون بمعاقبة المجرمين، عقاباً يتناسب مع عظم الجرم الذي اقترفوه، حتى تهدأ النفوس، وينزع فتيل الحقد والضغينة، ويردع كل من تسول له نفسه قتل الأبرياء. وهم بذلك يعارضون إجراءات الحكومة الصهيونية: من فرض الصلحة على أهالي

---

[1]/ أنظر روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 17. وداليا كارمل، نعم أننا من نفس القرية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة ، 151 وما بعدها.

[2] / أنظر ، روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، نفسه، 68

[3] / أنظر داليا كارمل، نعم أننا من نفس القرية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة ، 151

[4] / أنظر نفسه، 159.

[5] / نفسه، 151. ويمكن الاستزادة في هذا الموضوع بالرجوع إلى كتاب كفر قاسم الأحداث والأسطورة صفحة 151 وما بعدها.

الضحايا وإصدار أحكام هزيلة على القتلة، بالظهور أمام العالم بمظهر مزيف من العدل والديمقراطية، وتضميد الجراح النازفة دون انتزاع الصديد وتنظيفها من الميكروبات والجراثيم المتمثلة في أعمال الجنود واعتداءاتهم المستمرة على الفلسطينيين، يصور ذلك "حنا أبو حنا" في قوله:

ضمدوا الجراح
ضمدوا الجراح على الصديد فكيف تلتئم الجراح؟
فإذا أمنا للضماد
تغلغل العفن المتاح
وتنفس الغدر المقنع بالعدالة واستراح
وتناومت "بعض الضمائر"
عند أعتاب الكفاح
وتخطر السفاح في برد العدالة والصلاح
قد حاكموا الحصاد
أما سيد الحقل المباح
ما زال يستوفي الحصاد....... دأبه شحذ السلاح
عامان مرا....... والجريمة ظلها فوق البطاح
والويل يفغر شدقه
متنمراً في كل ساح
ما يضمدون؟!
وكفهم سوداء توغل في الجراح؟([1])

يطالب الشاعر في هذه الأبيات بمحاكمة المسؤولين الكبار، الذين ما زالوا يوغلون في ظلم الفلسطينيين، واستباحة أرضهم، وإراقة دمائهم، لا أن يكتفي بمحاكمة الأيدي المنفذة للأوامر، مستلهماً قول "البحتري":

إذا ما الجرح رم على فســـاد   تبين فيه إهمـــال الطبيـــب([2])

وقد قال هذه القصيدة، بعد مرور عامين على أحدث المجزرة، وصدور الأحكام – قبل تخفيفها –على المتهمين، ولم يعلم أن هذه الأحكام ستفرغ من مضمونها، ويخرج القتلة بعد وقت قصير من سجنهم.

---

[1] / حنا أبو حنا، نداء الجراح، 77 ــ 78

[2] / البحتري ،الديوان ،100/1

2- صور الشهيد

رسم الشعراء الفلسطينيون صوراً موحية معبرة لشهداء مجزرة كفر قاسم، هؤلاء الشهداء الذين "نالوا عقاباً على جريمة غامضة"([1])، ربما كانت جريمتهم الكبرى أنهم فلسطينيون تمسكوا بأرضهم وثبتوا في وطنهم، أمام الإعصار الذي ضرب البلاد، واقتلع منها الجزء الأكبر من أصحابها: بطرد عدد كبير منهم وتشتيتهم في البلاد العربية، أو بإغراقهم في دمائهم، وترك جثثهم تنهشها الحيوانات الضارية، من هذا المنطلق يرى الصهاينة أن بقاء هذه الفئة من الفلسطينيين في أرضها تعكر صفاء الجنس اليهودي، وتعيق تنفيذ المخططات الصهيونية.

ويتساءل "محمود درويش" عن سبب قتل عمال كفر قاسم العائدين من عملهم بقوله: "فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد، ولو كان عدواً متطوعاً، لم يقاتلوا إلا الطبيعة القاسية والبؤس الأسود، فمن أجل ماذا ماتوا؟ لم يموتوا من أجلنا كثيراً. هم ضحايا لا شهداء، وتلك هي مأساتنا المزدوجة." ([2]). أما أنهم ليسوا شهداء فمسألة فيها نظر، لأن إقامة الفلسطينيين في وطنهم، رغم المخاطر التي يواجهونها، والمضايقات التي يتعرضون لها يومياً، تجعلنا نقول أنهم "ضحايا وشهداء" ([3]) وفق المعنى العام للشهداء حسب التصور الإسلامي. فهناك العديد من الأحاديث النبوية تبين أن الرباط جزء من الجهاد، ومن قُتل مرابطاً قُتل شهيداً منها:

عن سهل بن سعد – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها"([4]).

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول: "عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله".([5])

وقد أخبرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الإقامة في فلسطين رباط، في حديثه لمعاذ بن جبل: "يا معاذ إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدي، من العريش إلى الفرات رجالهم ونساؤهم وإماؤهم مرابطون إلى يوم القيامة، فمن اختار منكم ساحلاً من سواحل الشام أو بيت المقدس، فهو في جهاد إلى يوم القيامة".([6])

---

[1]/ محمود درويش، يوميات الحزن العادي، 107

[2] / نفسه والصفحة نفسها

[3] / ياسر أبو عليان، صدى مجزرة الحرم الإبراهيمي في الشعر الفلسطيني المعاصر، قضايا الأدب واللغة والتحديات المعاصرة، 487/2

[4] / البخاري، صحيح البخاري، 152/2

[5] / النووي، رياض الصالحين، 460

[6] / الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، 288/5

وإذا نُظر إلى مَنْ قتلوا في مجزرة كفر قاسم على أنهم ضحايا، بدعوى أنهم لم يشاركوا في قتال، ولم يختاروا موتتهم، ولا قصدوا لها، بل جاء أمر موتهم خارجياً. فإن هناك العديد من أنواع الشهداء لم تكن لهم إرادة في موتتهم ، كمن مات بالطاعون أو في حريق أو في هدم... لقوله عليه السلام: "الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله"([1]). فكل هؤلاء – عدا الذين يقاتلون في سبيل الله – لم يريدوا هذه النهاية لحياتهم، من هنا نرى أنهم شهداء.

مجريات المجزرة

"الاهتمام بالعائدين" هذه العبارة التي قالها الضابط العسكري الذي أخبر مختار القرية بأمر منع التجول الساعة الخامسة مساءً، وكانت الساعة بعد الرابعة والنصف، عندما اعترض المختار وبين أنه من المستحيل تبليغ الأهالي والأعداد الكبيرة من العمال والفلاحين الذين يعملون في الحقول والمدن خلال أقل من نصف ساعة. ويحرك الضابط يده قائلاً: أنتم اهتموا بتبليغ الموجودين في القرية، وأما الذين خارجها فسنهتم بهم نحن([2]). ترى كيف اهتم بهم ذلك الضابط؟ وماذا أحضر لهم؟ ماذا كانوا يحملون؟ وما هي الأحلام التي كانت تراودهم؟ يجيب "مشهور إبراهيم" على هذه التساؤلات في إطار زمكاني ، يقول:

عند المغيب على مشارف قريتـــي	والشمس تغزل في الغروب أصيلا
عاد الرجال إلى البيوت كعهـــدهم	لا يحملون سوى الحنين دلـــيـــــلا
شهداء قد سقطوا بغير خطيئـــــة	يا لهف قلبي بكرةً وأصــيـــــــلا ([3])

قتل شهداء كفر قاسم في ظروف أشبهت ظروف كثير من الفلسطينيين، الذين قتلوا وهم يمارسون حياتهم الاعتيادية، يذهبون في الصباح الباكر إلى أعمالهم ليعودوا في المساء إلى بيوتهم وعائلاتهم، تقول "غادة الشافعي":

الشهداء ما بين دم وسماء تهب نسائمهم

....

هم الذين خرجوا في صباح ككل الصباحات

يدفعون في الهواء دراجاتهم

معهم قليل من الزاد وفيض من الابتسامات سيكفيهم إلى آخر يومهم

وحين عادوا لم يعودوا إلى أهلهم ولا إلى أسرتهم في ليل أحلامهم

ولم تشهد الشرفات من بعدها مرورهم

ولا الأبواب عرفت طرقاتها أيديهم

---

[1] / البخاري، صحيح البخاري، 142/2

[2] / انظر توفيق زياد، عن الأدب و الأدب الشعبي في فلسطين، 187-188.

[3] / مشهور إبراهيم، كفر قاسم، ديوان الشهيد، 257.

فأين هم ثم أين هم؟ ([1])

وتشير الأبيات السابقة إلى العمال راكبي الدراجات، الذين شكلوا الدفعة الأولى من الشهداء. عادوا من عملهم بشكل اعتيادي، ألقوا التحية على الجنود "سلام أيها الضابط"([2]) وتلقوا رداً لم يشهد له التاريخ مثيلاً، طلقات من الرصاص جعلتهم كومه واحدة.

عاد الشهداء على دفعات، منهم من كان يركب دراجته، ومنهم مَنْ يركب في عربة تجرها الخيول وبعضهم يسير ماشياً على قدميه، ولكن الأغلبية تأتي من أماكن بعيدة راكبةً في شاحنات ففي إحدى الشاحنات "18" راكباً، بالإضافة إلى السائق ، وشاحنة أخرى فيها"17" راكباً، من بينهم"13"امرأة.([3])

ويرسم "محمود مرعي" صورة حية للشهداء راكبي الشاحنات قبيل استشهادهم، فقد سيطر عليهم النعاس، وراحوا في إغفاءة، يميلون على أكتاف بعضهم، بعد ما بلغ بهم التعب والجهد مبلغاً عظيماً، وينبههم صياح الجزارين عليهم بالوقوف، وترجّل الركاب من الشاحنة ليقفوا صفاً واحداً، سرعان ما يتحول هذا الصف إلى كومة من الجثث فوق بعضها بعضاً:

وبـــــدا الغائبون رحـــلة عــــود	وبـــــدا إعصار الفناء يميـــــد
قف: صاح الغراب نعقاً على شــا	حنة بالغفـــــاة ملأى تتـــــــود
بلغ الجهد مبلغـــــــاً فاق وصفــا	فإذا هـــم على الحديد رقــــود
احصدوهم: خروا بطرفة عيـــن	جثثـــــاً فوق بعضها والبليـــــــد([4])

توازن "غادة الشافعي" بين حال الشهداء في الصباح، وما آلت إليه في المساء، من خلال رسمها صورة جميلة مفعمة بالمشاعر المتدفقة لأحد الشهداء تجاه زوجته، سرعان ما تتحول هذه الصورة إلى صورة يظللها السواد، وتغرقها دموع الحزن والأسى، تسكبها هذه الزوجة على فقد زوجها الذي ودعته لحظة خروجه إلى عمله، تقول:

في الصباح لثم يد زوجته وخالطت أنفاسها أنفاسه
ثم في المساء الذي أتى في إثره كان الموت يتنفسه خلية خلية
في الصباح شرب القهوة من يدها
ثم سقاها في المساء دموعاً لا تحصى
في الصباح لوحت له بوداع قصير
دون أن تنتبه هي أو الأزهار في حوض النافذة

---

[1] / غادة الشافعي، طعنته أم زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد،، 150-151.

[2] / روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 47

[3] / انظر نفسه، 50-51.

[4] / محمود مرعي، كفر قاسم جل الشهيد، ديوان الشهيد 122

أنه كان الوداع الأخير([1])

ودّعت كفر قاسم أبناءها، الذين "كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر، ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر".([2]) يسعون خلف رزقهم من شروق الشمس إلى غروبها، وسط ما آلت إليه حياتهم من حزن وإذلال، يحاولون انتزاع ومضات مضيئة، تكون غذاءً لأرواحهم وقلوبهم، تعينهم على تخطي الصعاب، وتحمل المشاق، يتسلحون بجزء من هذا الضياء في الصباح قبل خروجهم إلى العمل، فيظل يغذي مشاعرهم ويؤججها إلى لقاء أهلهم وأبنائهم، حين عودتهم في المساء، وما يصاحب هذا اللقاء من فرحة وسعادة، ترتسم على وجوه الأبناء، تنسي الآباء شقاء اليوم، فيسرعون الخطى ويسابقون الريح في الوصول إلى بيوتهم، لكن أعداء الحياة صبوا عليهم الموت ليخروا مضرجين بدمائهم على ثرى الأرض التي أحبوها، وهذا ما يبدو في قصيدة "أسامة شواهنة" التي يقول في بعض أجزائها :

والأبرياء

يسعون خلف الرزق من عين الشروق إلى المساء

حتى إذا اقترب الضياء على انزواء

ومجاهد الرزق الشريف على السبيل

ويشد وهج خطاه يستبق الوصول

فبناته يرقبنه

وعيونهن على النوافذ بانتظار

والانفعال إذا وصل

والضحكة البيضاء في لحن القُبل

لا يحتمل

لكنه قبل الوصول

صبوا عليه الموت ناراً من صليل ([3])

وتطل صورة الفلاح الفلسطيني، يقطف الزيتون ويجمعه، ليعود به في المساء، وسط جو احتفالي يشارك فيه جميع أفراد العائلة من نساء وأطفال وشيوخ – وربما كان هذا هو العمل الوحيد الذي يشارك فيه جميع أفراد الأسرة الريفية إلى يومنا هذا– هو ما يفسر ارتفاع عدد ضحايا مجزرة كفر قاسم من النساء والأطفال، فـ"العائلة كلها عائدة من العمل"([4]) يقول "أحمد سلامة" عن قرية كفر قاسم التي ودعت أبناءها في الصباح على أمل اللقاء بهم في المساء:

في الصباح

تثاءبت، نفضت عن جفونها

---

[1] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 162

[2] / محمود درويش، يوميات الحزن العادي، 107

[3] / أسامة شواهنة، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد، 227–228

[4] / محمود درويش، يوميات الحزن العادي،107

الوسن

ودعت أبناءها قائلة

عودوا إليّ في المسا

حاملين زيتونكم الأخضر

عودوا إليّ

سمعوا

صافحتها عيونهم

وانسربوا

آمنين انسربوا

لكن عيونهم لم ترها

لم يخلفوا الميعاد

لكنما

قراقوش عاد([1])

لم يخلف الشهداء ميعادهم مع القرية، ظلوا على وفائهم لأرضهم وحبهم لقريتهم. ولكن المصيدة نصبت لهم في طريق عودتهم، قطعت عليهم فرحتهم بتوفير طعام لأبنائهم، وقضت على تفكيرهم في مصير أهلهم وشعبهم، الذين غرقوا في وحل الهزيمة، فأصبحت أكتافهم تئن بثقل الهموم والمآسي والأحزان. وجاء القاتل المحتل كما يقول "توفيق زياد" ليضيف مأساة أخرى، على سجل جرائمه:

وسارت إلى الفخ تلك الضحايا

وما حسبت النسوة المنايا

ترصدّها في الطريق الرهيب

لتقصف زهر الحبيب

مشت بعد كدح النهار

محملةً بالطعام لبعض الصغار

ومثقلةً بالهموم الكثار

وأجسام أطفالها العارية

وأكتاف شعب بأثقاله حانية([2])

تداعت الصور في عقول العمال العائدين من أعمالهم، وتداخلت مع بعضها لتأخذ بعداً شاملاً، فبينما يفكرون في مصيرهم ومصير أبنائهم تحت ظل الاحتلال الصهيوني، يأخذهم التفكير في مصير أهلهم

---

[1] / أحمد سلامة، المغيب الأحمر، ديوان الشهيد، 271

[2] / توفيق زياد، الديوان 311-312

وإخوانهم الذين شردهم زلزال نكبة 1948م، وشتتهم في البلاد العربية، فلا يعرفون أين قذفت بهم أمواج التهجير، أو حطت بهم الأقدار. وهل هم أحياء أم أن نهايتهم كانت كنهاية إخوانهم الذين سحقواُ تحت دبابات العدو وأسلحته؟ وهل سيعود هذا اللاجئ المشرد إلى أرضه ووطنه فتعود السعادة ترفرف على البلاد ويلتئم شمل العائلة؟ وهو ما يبدو أيضاً في قول "توفيق زياد":

وما رفعت كفها الصلبة البانية

وكدح السنين المخبأة الآتية

تفكر في من وراء الحدود

يجوب الدروب شقياً شريد

وهل هو حي ...؟؟

وهل سيعود ... ؟؟([1])

ويستمر الشاعر في تصوير أفكار الشهداء وأحلامهم، في لقائهم بأبنائهم المشردين اللاجئين، وما يصاحب هذا اللقاء من مشاعر جياشة، وعواطف حارة:

وكيف ستبصره من جديد

فتأخذه من بين تلك الزنود

تشم جوارحه لهفة

وتغرقه في حنان سعيد([2])

تمسك الفلسطينيون بحق العودة إلى وطنهم، فمن هجّر منهم ظل يحتفظ بأوراقه الثبوتية ومفتاح بيته، يخرجون من وقت لأخر في مظاهرات حاملين هذه المفاتيح، تأكيداً على تمسكهم بحقهم في العودة، ورفض كل التحركات والمحاولات الهادفة إلى تنازلهم عنه – خاصة بعد أن لاح في الأفق احتمال عقد اتفاقيات سلام مع الكيان الصهيوني– لكن الفلسطيني الذي ذاق مرارة الغربة والحرمان، وتعرض إلى صنوف من الذل والجوع والحصار، على يد أعدائه، وأحياناً على يد إخوانه العرب، جعله أكثر تمسكاً بحقه، والمطالبة به مهما واجه في ذلك من ويلات ونكبات، كما يقول "سميح القاسم":

من يملك كوشان الأرض وكوشان التاريخ وكوشان الإنسان

من يملك منا الكوشان

تملك أسلحة جيشاً بوليساً وهراوات

تملك علماً صحفاً ونشيداً وطنياً وسفارات

حقاً حقاً

لكن.. في جيبي... في عب القمباز أصون الكوشان([3])

---

[1] / توفيق زياد، الديوان، 313

[2] /نفسه، 314

[3] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة،367/2

تأخذ الأحلام هؤلاء العمال بعيداً، وتعود عقارب الساعة بهم إلى ما قبل النكبة، فيتصورون الوطن وقد تحرر من أيدي المغتصبين، وعاد المشردون إلى وطنهم، وعادت معهم الأماني والآمال في بناء مستقبل باهر يغمره الفرح والسعادة والهناء، تتوفر فيه كل ما يحتاجه الإنسان في حياته، وما يتمناه من بيت جميل وملابس ومتاع. وتسيطر عليهم أحلام وردية، وصورٌ مشرقة لمستقبلهم، ويغرقون في هذه الأفكار، فيتناسون الوضع الذي يعيشونه إلى أن تنبههم طلقات الرصاص فتحول الضياء في عيونهم إلى ظلام دامس، لا يرون النور بعده أبداً. يقول "توفيق زياد":

وتومض في فكرها المرهق
أمان رطاب
ومستقبل باسم ريّف
وبالغد كالزهر المورق
يضيء بخير غني كثيف
وعمر هني وريف
وثوبٌ جديدٌ نظيف
وبيت وسيع منيف
وإذ / بالرصاص / يشق / الفضاء
يحيل / الضياء / بأعينهم / ظلمة ([1])

كانت للشهداء طموحات، وآمال في الحياة – كغيرهم من البشر- يحلمون بالأمان والراحة والاستقرار، يكون ذلك عن طريق بناء بيت، حتى لو كان بسيطاً من خشب أو طين، وهذا يعكس عدم الشعور بالأمان لدى الفلسطينيين الذين ثبتوا في أرضهم بعد سقوطها في أيدي الصهاينة. فقد كان هاجس التهجير يسيطر عليهم، لذلك سعوا إلى الثبات، وإفشال كل المخططات التي تهدف إلى إبعادهم، وهم يعتبرون بناء البيوت جزءاً من محاربة التهجير ومصادرة الأراضي. تقول "وفاء حزان" في ذلك:

سأقول: " سلاماً يا وطني"
ففداؤك أجمل تكوين
كم كنت أود لأن أبقى
يوماً في داري يكفين
يوماً مسكيناً كي أبني
عشاً من خشب أو طين([2])

وتستدعي ذكرى استشهاد ضحايا المجزرة في كل عام مشاعر الحزن والألم، تؤججها ذكريات الماضي، حيث الجلسات العائلية، ومشاركة بعضهم بعضاً الأفراح وأحلام الصبا، وصخب الأطفال

[1] / توفيق زياد، الديوان ،314-315
[2] / وفاء حزان، حديث الشهيد ، ديوان الشهيد، 216

وسعادتهم.... يحاولون بذلك طرد الحزن، والتخفيف من وطأة الحياة تحت الاحتلال. وعندما اغتيل هؤلاء الشهداء ترسخ الحزن، بإضافة جريمة أخرى إلى سلسلة الجرائم التي ارتكبت بحق الفلسطينيين وما زالت ترتكب.يقول "فوزي عبد الله":

بيادر الحزن في العينين تتهـــــــم وفي القلوب جراح ليس تلتـــــــئـــــم
أين الذين مضوا في غير موعدهم أين الأماسي؟ والأحباب أين هـــــــــم؟
أين المواسم تهفو في مرا بعهـم يزينها قمر والكـــــــــون يبتســــــم
في كل أمسية تنهــــل أغنيـــــة ويسهر الحب والسمــــــار والنعـــم
ويكبر الصفو..والأطفال يطردهــم صوت الوجود ويحلو في الصبـــا حلــم
أين الصبا الغض والأسحار تلثمه؟ أين العذارى وسحر طاهـــــــر يســم
أين الطفولة؟ والذكرى ملوعـــــة في طيها عبـــــر، في طيهـــا ألـــــــم
يجيب تشرين ؟! أم أيلول ينقذهـــا من الضياع؟ أم الدنيـــا؟ أم الأمــــم ؟([1])

كل هذه المظاهر الجميلة للحياة توارت في نفس الفلسطيني الذي تعرض للعديد من المجازر والملاحقة، ويرى الفلسطيني أنه لم يكن ضحية الكيان الصهيوني وحده، بل ضحية مؤامرة بين العديد من الدول العربية والأجنبية، فحوّلت كل ذكرياته الجميلة إلى دم وأشلاء وجراح، لا تلتئم إلا باسترجاع حقوقه المغتصبة.

صورة الدم

لعل أول ما يلفت انتباه الإنسان العادي ــ فضلاً عن الشاعرـــ عندما يشاهد حادثة اغتيال أو قتل، أو حادثة سْير في شارع من الشوارع، أو حتى جُرح سكين، بل لعل أكثر ما يبقى محفوراً في الذاكرة، ذلك الأحمر القاني الذي يتدفق من الجرح دافئاً، ينساب على الأرض، مخلفاً خلايا الجسم تبرد شيئاً فشيئاً لتفقد الحياة، إن لم يدرك بعلاج يوقفه. " إنه الدم الدافق في الجسد الإنساني ليعانق الحياة وكأنه صِنوها."([2])

يسري الدم في الشرايين والأوردة موزعاً مقومات الحياة على جميع الخلايا في الجسم، فإن انقطعت هذه المقومات عن عضو أو جزء من الجسم، أخذ يفقد الدفء والحيوية ومن ثم فارق الحياة. من هذا المنطلق نظر الشعراء الفلسطينيون بإحساسهم المرهف، إلى هذا السائل الأُرجواني المتدفق من جراح الشهداء، الذين يدافعون عن الأهل والوطن، ويتلقون بصدورهم العارية أعتى آلات الدمار والقتل، نظروا إليه على أنه مشعل الحرية، وثمن الأرض، ورمز الفداء والتضحية. لذلك رسموا له العديد من الصور، ووضعوه في تشبيهات وكنايات ورموز مختلفة متعددة، في محاولة لإعطائه مكانته التي

[1] / فوزي عبد الله، الحزن الثائر، ديوان الشهيد ، 79-80
[2] / عبد البديع عراق، صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر،95

يستحقها، وشهادة فضله ورفعته. فهذا الدم ليس دماً عادياً، بل دم بطل مقاتل ضحى بنفسه ليسعد مَنْ يأتي بعده، وكافح من أجل الحرية والكرامة، يقول "سميح القاسم":

ولكل فجر شمسه ولفجرنـــــــا شمس من الشهداء يشعلها الـــدم([1])

واستمر الشاعر في وصف الشعب الفلسطيني الذي قدم آلافاً من خيرة أبنائه: شباباً وشيوخاً ونساءً وأطفالاً قرابين على مذبح الحرية، ليصبحوا شموساً تضيء الطريق نحو التقدم والعلم والأمن والسلام. ولم ترهبه كثرة التضحيات وهذه الدماء المراقة، بل زادته إصراراً وتصميماً على نيل حقوقه واسترجاع وطنه، يقول:

صقل الدم المصقول شعباً صامداً صَدَّ الصقور ذليلـــــة تتبـــــــرم ([2])

تظل صورة الدم ماثلة في الخيال، خاصة إذا شاهده الإنسان يتدفق في اللحظات الأخيرة لحياة الضحية، حيث تمتزج الدماء مع التراب، فتحيل لونه إلى اللون الأسود، وسط أنين مؤلم مفجع، وهو ما بدا في أبيات "محمود الدسوقي":

يا كفر قاسم

ما نسيت أتذكرين

فكيف أنسى... لست أنسى

طغمة الجلاد... والدم ... والبنين

روى الثرى واحمرّت الغبراء من دم الشهيد

....

فاختلط الرصاص

مع الدماء ... مع التراب ... مع الأنين

ما زلت أذكرهم

وأنت أتذكرين ؟؟

خمسون قد رويت

شعاب الأرض من دمهم ([3])

وتظل منطقة " الفلمانية" شاهداً حياً على إجرام الصهاينة ورمزاً للتضحية والفداء، تعيد إلى الذاكرة صورة الدماء الزكية التي روّت تربتها، وما صاحب سيلان هذه الدماء من سيلان لأرواح الشهداء، وسط أنين يتبعه شهيق عالٍ لهذه الروح الصاعدة إلى خالقها، الرافضة للظلم والهمجية والتعسف الذي لاقته على أيدي القتلة، تقول "غادة الشافعي":

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 414/2.

[2] /نفسه ، 416/2

[3] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم – و أنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 72–73

ها هنا أرض مسقية بالدم والشهقات العالية

وليس ينشف صوت النزيف الذي سالت فيه أجسادهم

ليس يهجرها أنين يسكن الثرى الذي توسدته وجوههم([1])

ربط الشعراء بين دماء شهداء كفر قاسم ***والماء*** الذي يروي الأرض، فهؤلاء الشهداء كانوا ينتظرون سقوط الأمطار، فجاءهم الموت في غزارة المطر، وروت الأرض بدمائهم الزكية، كما في قول "محمود الدسوقي" :

أنا ما نسيت ... فكيف أنسى ...لست أنسى

قصة الشعب المشرد من سنين

احمرت الغبراء من دم الشهيد

... ...

يا كفر قاسم ما نسيت ألا اذكري

خمسين من دمهم رووا أرض الطريق

بلا نصير

....

طالت المأساة واشتد الظلام

روي الثرى بدم الشهيد ([2])

ويشبه "فاروق مواسي" لون الأرض بلون الزناد الذي يقدح، من كثرة ما شرب من دماء شهداء كفر قاسم.

كفر قاسم قصـــــــــــــة دمها لا يمســــــــــــــــــح

روت الأرض دمـــــــــــاً وهجها لا يبـــــــــــــــــرح

سمـــــــرة الأرض غـــــدت مثل زند يقـــــــــــــــدح([3])

والدم يكون ***بركة*** لكثرة ووفرة ما سال منه على أرض كفر قاسم، يقول "محمود درويش":

آه يا خمسين لحناً دموياً

كيف صارت بركة الدم نجوماً وشجر([4])

وهنا يتعدى الدم كونه إخصاباً للأرض وتجسيداً للنضال " فيصبح تحقيقاً للطموحات التي يرمز إليها بالنجوم " ([5])

---

[1] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ، ديوان الشهيد، 162

[2] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم – و أنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 74- 75

[3] / فاروق مواسي، يستهان المسرح ،ديوان الشهيد،91.

[4] / محمود درويش، الديوان ، 203/1

[5] / محمد القاضي، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية، 210

ولعل استخدام الشاعر للفظة " **بركة**" يعطي الصورة وصفها الحقيقي أو ما يقارب الحقيقة، لأن الشهداء وضعوا في كومة واحدة، وشكلت دماؤهم شبه بركة لكثرة الشهداء، وتجمعهم في مكان واحد، ولقتلهم في وقت واحد تقريباً، فصاروا خمسين لحناً دموياً، ورمزاً للعطاء والخير والتضحية.

ويتصور أن هذه الدماء فاضت عن سعة البركة فانفجرت تجري في الأرض ***نهراً*** يروي ذرات التراب التي أحبها الشهداء، ورووها بعرقهم قبل أن تُروي بدمائهم، ومن المعروف أن الدم لا تشربه الأرض ولا يغوص فيها، بل يختلط مع طبقة سطحية من التراب على وجه الأرض. فقد روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– قوله لقاتل أخيه زيد:" لأنا أشد بغضاً لك من الأرض للدم". ([1])، فإذا كان هذا الدم كثيراً تجمع مع بعضه وسال، فيطلق عليه الشعراء مجازاً اسم ***نهر***، ويظهر ذلك في قول "محمود الدسوقي":

والدم يجري كالنهر الدافق

من شريان الجسم الطاهر

والجرح النازف يروي الأرض

تروي الأرض دماء الشهداء الأحرار

والقاتل ينظر للدم النازف مسروراً([2])

هذا الساديّ الذي يتلذذ بآلام الآخرين، ويجعل دماءهم تسيل كالأنهار، لابد أنه يتصف بالغدر واللؤم والنذالة، وهو ما يؤكده الشاعر نفسه في قوله :

يا كفر قاسم ما نسيت جريمة   قامت بها أيدي لئيم غـــــــــادر

سالت دماء الأبرياء غزيـــرة   في كفر قاسم سيلها كالأنهـــــر([3])

على الرغم من غزارة الدماء البريئة التي سقت ثرى كفر قاسم، فجرت أنهاراً على مدخل القرية، إلا أنها لم تثن عزم الفلسطينيين عن المطالبة بحقهم وتقديم مواكب الشهداء بشكل شبه يومي، فدماؤهم نهر جارٍ لا ينضب ما دام هناك ظلم واحتلال، يقول "عبد الناصر صالح":

عمدتك جسدي ودمي

ووهبتك عمري الباقي في اللوز وفي الزيتون

منحتك نهر دمي الجاري

ماء صافية لسهولك ([4])

وليس دم الشهداء نهراً لريّ الأرض وسقي المزروعات فقط، بل ***هو نهر تسير فيه زوارق*** عمر الفلسطينيين، ليصلوا إلى هدفهم المنشود من التحرر والاستقلال، المحاط بسياج كثيف من المصاعب، لا تتغلب عليها إلا الإرادة القوية، واستمرار بذل النفوس رخيصة في سبيل الوطن، تقول وداد البرغوثي:

---

[1] /ابن منظور، لسان العرب، مادة دمي،269/14

[2] / محمود الدسوقي، ذكرى.... و عهد، ديوان الشهيد، 67

[3] / محمود الدسوقي، ذكريات.... و نار ، 64.

[4] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 128

أنا يا " كفر قاسمنا" أسمي باسمك الأولاد
وباسمك صار تشرين يلون جبهة الأشهر
بلون الدم والطرقات إذ دمهم بها أزهر
صباح الخير يا أهلي
صباح الخير في دمكم
زوارق عمرنا تبحر
فهل ننسى؟ وهل نغفر؟؟([1])

ودم الشهداء ***ينبوع في حقل*** وهو أيضاً ***قمح وخبز*** يغذي الأجيال القادمة فيستمر النضال والفداء، ويصبح مقوماً من مقومات الحياة الفلسطينية الأساسية فلا حياة مع الذل والاستكانة، ينادي "علي إسماعيل الحلبي"أبناء كفر قاسم ليشد من عزيمتهم :

علمت أن دمي صار ورداً
صار قمحاً... صار خبزاً
علمت أن دمي ينبوع في الحقل
فلماذا تحزنون يا أولادي ؟!
دم الشهيد يصرخ كل صباح وينادي
فداءك يا أرض بلادي([2])

ولا يكتفي "توفيق زياد" بأن يسقى الثرى بالدماء، بل أعطاه بعض الألون والصفات الجديدة " **لتسقيه خمر الدم** "([3]) "**تجبله بالدماء الرطاب**" ([4]) ،فقدم لنا دماء الشهداء في صورة جميلة محببة إلى النفس على الرغم من الوضع المؤلم الذي قضى فيه الشهداء:

ومد الردى للضحايا ذراعاً
ليقصف خمسين روحاً تباعاً
لتسقط فوق الثرى الأسمر
لتسقيه خمر الدم الأحمر
....
تحكّم سيف الردى في الرقاب
و تدفن أحلامنا في التراب
وتجبله بالدماء الرّطاب ([5])

---

[1] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا ،، ديوان الشهيد، 204.
[2] / علي إسماعيل الحلبي، دم الشهيد ينادي، ديوان الشهيد،233
[3] / توفيق زياد، الديوان ،316
[4] / نفسه ،320
[5] /نفسه، 316-320.

ودم الشهداء يسقي الأرض فيخضّر الربع بما قدمه الشهداء فداءً للأرض ودفاعاً عنها، يقول "عبد السلام موسى":

دم يسيل فتخضر الرباع لــــــــه   وتلبس الأرض أبراد الرضى القشُبُ ([1])

إذا كان المطر ينبت سنابل القمح ويخضّر الأرض بالنباتات الجميلة، فإن دم الشهداء ينبت سنابل العطاء، وجراحهم مواسم الرضا، فليس هناك أكرم ممن جاد بنفسه ودمه، لذلك يزدهر الأمل في غدٍ مشرق ومستقبل واعد إذا استمر النضال والتضحية ، وهو ما يظهر في قول "هشام أبو صلاح":

الصاعدون نحو الله والحنين
أولئك الذين أورقت دماؤهم سنابل الندى
واخضوضرت جراحهم مواسم الرضا
فأمطرت في كفر قاسم الغيوم
بيادر النجوم
لم يسقطوا وغيرهم هوى كاليبس في الهزيمة
وفي فظاظة الجريمة([2])

وهذا الدم روى وما زال يروي أرض فلسطين، فهو متجدد متدفق لا يرضى الذل والهوان والاغتصاب، يسقي الثرى فينبت جيلاً من شباب المجد والتضحية، وقد راهن العدو الصهيوني على أن يكون الجيل الذي ولد في عهد الاحتلال جيلاً خانعاً مستسلماً، ولكن الواقع كّذب أماني الأعداء، وأثبت هذا الجيل أصالته، ومعدنه الجيد، ففجّر الانتفاضة الأولى والثانية، وأصبح مثالاً يحتذى في التمسك بحقه، والوقوف أمام عدو متمرس، يمتلك تكنولوجيا متطورة جداً في مجال التسليح. ويكسر هذا الفلسطيني إرادة العدو بأسلحةٍ بدائي ، يقول " تيسير محمد قدري ":

لقد روت دماؤك كل شبرٍ   بأرضٍ لم يمت فيها الجنينــا
لقد عانيت يا بلدي كثيراً   ولكن ما يئست من السنينــا
وأنبت الدماء شباب مجدٍ   بنوا فيك القصور مجددينــا([3])

فالدماء التي نزفت وخضبت أرض فلسطين في دير ياسين واللد والرملة وقبية وغزة وكفر قاسم ... لم تذهب سدى، بل أنبتت جيل الثورة، الذي يغسل كل يوم بدمائه عار الأمة وتخاذلها عن نصرة فلسطين وأهلها، تلك الأمة التي تركت فلسطين وحدها تصارع الحيتان في بحرٍ متلاطم مليءٍ بالمؤامراتِ لتصفية قضية الشعب الفلسطيني.

ودم الشهيد يحيل رائحة الثرى إلى **رائحة المسك** المحببة إلى النفس، فيود الإنسان تقبيل الثرى عله يقتبس شيئاً من جماله، على عكس الدماء الأخرى التي تتخثر وتطلق رائحةً كريهة منفرة يقول" احمد يوسف ياسين":

---

[1] / عبد السلام موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 180

[2] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 169

[3] / تيسير محمد قدري، مجزرة كفر قاسم،، ديوان الشهيد ، 231

يا كفر قاسم بالدمـــاء آلا اغرقي	في كل بيت صرخـــة وعويـــــل
لا تأبهي يا كفر قاسم أنت لـــي	جنات عدن والهواء علــــــــيل

....

وثرى رواه دم الشهيد معطــــر	ذاك الثرى يشتاقه التقبـــــــيل
نحن الذين استشهدوا ودماؤهم	لا لن يبدل مسكها تضلـــــــيل([1])

ودم الشهيد يجمع إلى جمال الرائحة جمال المنظر، فهو ***ورد*** يزين حدائق السماء، ويضيف أزهاراً جديدةً إلى هذه الحدائق الربانية المكونة من أرواح الشهداء، وهي تنادي من في الأرض ليلحقوا بها، لما يناله الشهيد من كرامة وحسن جزاء، تقول "غادة الشافعي":

الشهداء هذا المساء
يأوون إلى خيامهم من بعد أن رشقوا بورد دمائهم حدائق السماء
والحامل إليهم قطفه من زهور روحه
ليجد قريباً منه الباب الذي يفضي إليهم
فيدخل وإياهم في صلاة بلا منتهى ([2])

وقد ألح الشعراء على ذكر مكانة الشهداء في الآخرة، مستقين ذلك من التعاليم الإسلامية، فالشهيد ينال أعلى الدرجات في الجنة لقوله عليه السلام:"إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ـــ أراه ـــ فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة"([3]). لهذا تسابق الصحابة لنيل الشهادة في سبيل الله، وتبعهم التابعون وتابعوهم إلى يومنا هذا، طمعاً في الجنة ، يقول "عبد السلام موسى":

جرت دماؤك فازدانت بها الحقب	وبلغــــــتك ذراً أعلامها الرتــــب
شهادة شهد التاريخ نضرتـــــــها	وهتكت عن خوافي نـــورها الحـــجب ([4])

ودم الشهيد عند "فراس عمر الحاج محمد" ***عطرٌ*** ينتشر شذاه في كل مكان، يحكى قصة المجزرة، يقول :

يا "كفر قاسم "هذا دمنا عطرٌ	قد ساح يسردها ما عاد يحتضر([5])

---

[1] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة،، ديوان الشهيد ،209

[2] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 152/151

[3] / الحافظ أبو العباس الزبيدي، مختصر صحيح البخاري، 312 . وبدر الدين العيني، عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، 91/10

[4] / عبد السلام موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 179

[5] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد، 226

وقد شبه "سميح القاسم" دماء الشهداء ***بزهرة البرقوق*** ذات اللون الأحمر التي تنتشر في شمالي فلسطين، في وصفه لجو المجزرة الرهيب الذي سقط فيه الشهداء على قارعة الطريق، فانتشرت دماؤهم ليغطي الأرض، وترشق ما حول الشهيد، بعد ما تفجر من صدورهم وأجسادهم،يقول:

وعلى قارعة الدرب وعاءات نحاس
أيقظت بضع رصاصات
وألقت في جفون الإخوة النعاس
وعلى روث المواشي
بقع حمرٌ
وفي الدوار تعديد مأتم
كفر قاسم
كفر قاسم
وزهيرات من البرقوق في صدر امرأة
وعيون مطفأة ([1])

ودماء الشهداء " شقائق النعمان" عند " وداد البرغوثي" تصبغ أشعار الشعراء:

قصائدنا مدماة
مضرجة بلون شقائق النعمان([2])

يشبه "وليد محمد طه" دم شهداء كفر قاسم ***بالعسل*** المنساب، بعدما تدفق من أجساد الشهداء مذعوراً من هول المجزرة، فكما أن عسل النحل يشفي الأمراض الجسدية والجراح، كذلك دم الشهداء يشفي جراح الوطن، يقول :

طحن الأبناء كحبة قمح مغتصبة
فانساب العسل على أطراف أصابعهم
يزعق مذعوراً في لهفة ([3])

وهذا التشبيه يبين وجهة النظر القائلة، بأن تحرير الوطن وشفاء جروحه، واسترجاع الحقوق، لا يكون إلا بتقديم الشهداء وإراقة الدماء، من هنا ظلت المقاومة مستمرة، منذ أن وطئ الأعداء أرض فلسطين إلى يومنا هذا، يدعمها النضال السياسي المبني على توضيح أبعاد القضية الفلسطينية للعالم بطرق ووسائل دبلوماسية، وتوظيف الأدب للحث على الصمود والمقاومة والتشبث بالأرض.

والدم " **حبر**" كتب به الشهداء مسوّدة التاريخ للقضية الفلسطينية دون زيف أو تحريف، كما كتبوا وصاياهم للأجيال القادمة، بضرورة المقاومة لإزالة الظلم الجاثم على أرض فلسطين، كما تقول " نهاية عرموش" في شهداء كفر قاسم الذين رمزت إليهم باسم (دلال):

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 101/1

[2] /وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا،ديوان الشهيد ، 204

[3] /وليد محمد طه، مجزرة كفر قاسم،، ديوان الشهيد ، 256

قتلوها حيث كانت بدراً

تجول في السماء

وجعلوا دمها

مسودة التاريخ ([1])

ولم يكن تاريخ فلسطين هو الوحيد الذي كتب بدماء الشهداء، بل إن كل الدول العربية ضحت بالآلاف من أجل نيل استقلالها، لا سيما في الفترة الممتدة من الأربعينات إلى بداية الستينات من القرن العشرين، الذي نالت فيه الدول العربية استقلالها الممهور بالدم، ومنها دولة العراق التي استقلت عام 1958م، بعد أن قام الجيش العراقي بثورة أسقط النظام الملكي الموالي للإنجليز، يقول "توفيق زياد":

ونكتب تاريخنا في العراق

بسيل دم للحياة مراق([2])

كانت قرية كفر قاسم قرية صغيرة منسية، ولكن المجزرة انتزعتها من النسيان إلى عالم الشهرة والمعرفة، فأصبح الفلسطيني والعربي يعرف قرية كفر قاسم وما أصابها، بل أخذت تقفز إلى الذاكرة كلما انطلقت ضغينة من ضغائن العدو، وسالت جرّاها الدماء، فدماء شهداء كفر قاسم نقشت اسم قريتهم فوق الشمس عظمة وشهرة ،كما تقول" شروق القيم":

كفر قاسم

....

يا بلداً سُرقت ضحكته

سقطت في الماضي

وهل للماضي بأن يعود

أنقشك اليوم وكل يوم

فوق الشمس سطوراً من دمي([3])

يسيل الدم من الجسد منهياً حياة **لتبدأ حياة** جديدة، تنتهي حياة الشهيد لتتحرر الشعوب من الأغلال وتتخلص من الطغيان، وفي ذلك حياة لها([4]).:

وتكون هذه الدماء ***المنارة*** التي تهدي الأجيال إلى الطريق الصحيح، والمسلك السوي، نحو الحرية والاستقلال،بل هي القارب الذي يشق عباب الظلمات والمآسي ليصل بشعبه إلى بر الأمان، يقول "نديم حسين":

دمك المنارة كفر قاسم، قارب الناجين ما جنحت

---

[1] /نهاية عرموش، دلال،، ديوان الشهيد نفسه، 235

[2] / توفيق زياد، الديوان ، 324

[3] / شروق القيم، تشرين ... وحل الخطيئة، ديوان الشهيد، 250

[4]/يقول "أحمد شوقي" في هذا المعنى في نكبة دمشق:

بلاد مات فتيها اتحيا   وزالوا دون قومهم ليبقوا.   انظر ديوان أحمد شوقي،378/2

مقاصده إلى صخر السدى([1])

ويصور" محمود درويش" دم شهداء كفر قاسم ***باللافتة*** التي تدل على همجية الطغاة المحتلين وقسوتهم :

فلترفعي جيداً إلى شمس تحنّت بالدمـــــــاء

لا تدفني موتاك ؟ خلّيهم كأعمدة الضيـــــــاء

خلّي دمي المسفوك لافتة الطغاة إلى السمـــاء

خلّيه ندى للجبال الخضر في صدر الفضـــاء([2])

ويصور الشاعر نفسه، الدم في صورة ساخرة جميلة ومؤلمة في الوقت نفسه، فهو يصوره ***باللبن*** الذي يرضع ليبني منه الأعداء مجدهم القائم على الرذيلة، يقول:

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليل الخميلـــة

شرف الطفولة أنها خطر على أمن القبيلـــــة

إني أباركهم بمجد يرضع الدم والرذيلـــــــة

وأهنيء الجلاد منتصراً على عين كحيلـــــة([3])

أمعن العدو الصهيوني في قتل الفلسطينيين، وإراقة دمائهم بسبب وبغير سبب، لبناء دولته على جثث الشهداء ودمائهم الزكية، فكل بقعة من أرض فلسطين تشهد على جرم العدو يقول "سميح القاسم" مخاطباً العدو الصهيوني:

إني أبصره في عينيك

أبصره يلمع في أنفك ويورّد خديك

إني أبصره في شفتيك

دم أهلي

دم أهلي

أبصره يشخب في فكيك

دم أهلي

أسمعه يصرخ

لكني أعلم أنك أوصدت بلحمي أذنيك([4])

صورة معبرة على الرغم من قسوتها ،لكن الإنسان الفلسطيني لا يملك إلا دمه الذي يولد فيه، ويتجدد من خلاله، وبه يحقق آماله وأحلامه ،ويحافظ على وجوده ،لهذا تجد الدم يستثير الهمم ويطالب

---

[1] / نديم حسين، ما رش لكفر قاسم، ديوان الشهيد، 97

[2] / محمود درويش، الديوان ، 208/1

[3]/ نفسه، 209/1

[4] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة ،361/2

بأخذ الثأر، وعدم الرضوخ لمطالب الأعداء ،والمساومة على الحقوق ،ويؤكد "محمود درويش" أن الشهداء لا يريدون رثاء من أحد ،إنما يريدون الاستمرار في المقاومة لاسترداد الحقوق المغتصبة:

ماذا حملت لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم

غير المزيد، من النشيد، عن الحمائم

والجماجم؟

هي لا تريد....ولا تعيد

رثاءنا..... هي لا تساوم

فوصية الدم تستغيث بأن تقاوم([1])

ويجسم "محمود درويش" دماء الشهداء ويجعل لها أذرعا تنادي وتحث مَنْ بعدها إلى سلوك مسلكها والأخذ بثأر من سبقهم، يقول:

كان الخريف يمر في لحمي جنازة برتقال

قمراً نحاسياً تفتته الحجارة والرمال

وتساقط الأطفال في قلبي على مهج الرجال

كل الوجوم نصيب عيني... كل شيء لا يقال

ومن الدم المسفوك أذرعة تنادي... تعال([2])

هذه أهم الصور التي أسبغها الشعراء على دماء شهداء كفر قاسم، وغالباً ما يربط الشعراء بين صورة الدماء وصورة الجراح التي تتدفق منها هذه الدماء.

صورة الجراح والأشلاء

صوّر الشعراء الفلسطينيون جراح الشهداء، سواء الجراح الجسدية أو المعنوية، الممثلة في جرح الوطن، وجرح الكرامة، وجرح النفس لما أصابها من حزن وألم جرّاء المجزرة. كما صوروا أِشلاء الشهداء وجثثهم. وإن كانت النصوص الشعرية التي عثرنا عليها لم تتناول صورة الجراح الجسدية بشكل كبير ولم تركز عليها، وربما عاد ذلك إلى قلة عدد الجرحى في هذه المجزرة مقارنة مع عدد الشهداء ،لأن الهدف من المجزرة قتل عدد كبير من الفلسطينيين،بقتل الأسرى والإجهاز على الجرحى. وهذا ما صرح به (ميلنكي) عندما سأله صديقه وقائد أحد السرايا(يهودا فرنكنتال): " وماذا عن المصابين" أجاب :" لن يكون هناك مصابون" هذا الجواب الضبابي الغامض أدى إلى تعقيد الأمور أكثر،

---

[1] /محمد درويش، الديوان ،215/1

[2] / نفسه،208/1

فهذه الجملة مأخوذة من الجملة التي أطلقها" شدمي":" لا نريد اعتقالات" ومعنى ذلك أنه في حالة حدوث صدام يجب القضاء على كل قوة العدو حتى وإن أصيب أو استسلم.

وشهد قائد سرية أخرى هو(موشيه يتومكين) أمام المحكمة بقوله:"أوضحت إجابات "مالينكي" لسؤال(فرنكنتال) أنه في حال وجود جرحى يجب الإجهاز عليهم"([1]).وهذا ما حصل فعلاً وما أكدته شهادة الناجين – بأعجوبة – من المجزرة، الذين ظن القتلة أنهم قد فارقوا الحياة. وكان عدد الشهداء "49" شخصاً، في حين عدد الجرحى "13" شخصاً فقط، ([2]) ومنهم من استطاع الزحف إلى الحقول المجاورة والاختباء فيها رغم ألم الجراح، خوفاً من أن يكون مصيرهم كمصير إخوانهم الجرحى الآخرين.

يصور "عبد ربه أبو شاويش" الجراح التي أصابت الشهداء، وأدت إلى صعود أرواحهم إلى السماوات العلى، وتركت جثثهم مكدسة على أطراف الطريق، بعد أن قطعت أطرافهم و فقأت عيونهم، و بقرت بطونهم، بقوله:

في كفر قاسم طفل للشهادة فقط ...حنينه
الجثث في كل الأركان تتكدس
الحقد في القلوب السوداء يتكدس
....
وتكتمل فصول([3]) المجزرة
أطرافاً مقطعة ....عيوناً مفقوءة
بطوناً مبقورة
ورب في السماء ....يتقدس([4])

وتشير السطور الشعرية إلى تمثيل القتلة بجثث الشهداء، وبقر بطونهم، خاصة ما حصل مع المرأة الحامل في شهرها الثامن، من إطلاق الرصاص على بطنها بعد إصابتها بجراح قاتلة، وقد صور ذلك "توفيق زياد" بقوله:

ويأتي الجنود إلى جثة
لإنسانة.... في الثلاثين .....حُبلى
وفي شهرها الثامن
بوادر مجد الأمومة
برغم الردى تتجلى
على وجهها الواهن

[1] /انظر روبيك روزنتال،من قتل فاطمة صرصور ،كفر قاسم الأحداث والأسطورة،38 .

[2] / يوسف هيكل، فلسطين قبل و بعد، 153.وقد أثبت مجلس محلي كفر قاسم أسماء" 19"جريحا في ختام ديوان الشهيد

[3] /في الأصل كتبت(فصولاً)

[4] / عبد ربه أبو شاويش،حكاية قرية اسمها كفر قاسم، ديوان الشهيد،264.

فيزرع ضابطهم طلقة

في بطن

تبقت به

نطفة من حياة([1])

هذا الجنين الذي لم يرَ النور بعد، يُرهب القتلة، فلا ينتظرون عليه حتى يموت بموت أمه، فهل ظنوه يخرج وينتقم لدم أمه وأهله المراق غدراً وظلماً؟ لذلك عالجوه بطلقة قضت على حياته أملاً في القضاء على المستقبل الفلسطيني، المتمثل في الأجيال القادمة.

ويحرص القتلةُ على أن يصيبوا مقتلاً من ضحاياهم، مثل الصدر والرأس، ولما كانت العينان جاسوساً على نفس صاحبهما تترجمان ما يشعر به، دون زيف أو تغيير، لذلك ظلت عيون الشهداء مفتوحة مذهولة مما يجري، تتساءل عن السبب والجرم الذي اقترفته، لتلاقي هذا المصير المؤلم. تقول " غادة الشافعي":

يثقب الرصاص رأسك

والمرآة لم تعد تراك

حين ارتمت يداك

بقيت العينان مفتوحتان بلا نهاية

تحدقان هكذا في فراغ شائك ([2])

وتصور الشاعرة نفسها جو المجزرة: أجساد غارقة في الدماء، وأطراف مقطعة متناثرة، وعيون تتساءل مذعورة عن سر ما يحدث، تقول:

هو ذا جسد مكسو بأطلاله

يطفو على ماء الحديقة

والحديقة في جهة ما من القلب

ترعى بجع الدم في أنهارها السرية

هي ذي يد مقطوعة

معددة على فراغ لا يسمع ولا يرى

هو ذا وجه يرمي علينا نظرته اللامتناهية

كأنما يردنا إلى أزل المدى([3])

هذه الجراح النازفة والأشلاء المبعثرة، ترفع مكانة صاحبها إلى الدرجات العليا، لما تمثله من غذاء للروح، تدفعها إلى المطالبة بالحق، وتدل الآخرين على الطريق الصحيح للتحرير. لذلك يقسم بها "هشام أبو صلاح" تكريماً وتمجيداً ورفعة لمكانتها:

---

[1] / توفيق زياد ، الديوان ، 318-319

[2] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه ،ديوان الشهيد، 161

[3] / نفسه ، 163-164

بسم يدين من الضوء

وعينين من الحنطة والجرح المجروح

بسم الجرح الفاضح والمفضوح

جئت أقدم أسراري

أشعل في هذه العتمة ناري

وأبوح

كم كان لنا أفق؟

كم كان لنا عنق؟

لكن الحبل عليه التف([1])

ويصور "حنا أبو حنا" أجواء المجزرة، بحيث يجعل القارئ يشاهد ما حصل من خلال كلماته وتصويراته الشعرية. فالأشلاء متناثرة والجثث معفرة بدمائها، ترتعش كالطيور الذبيحة وسط حشرجة مرعبة، ثم تهوي خاوية القوى على قارعة الطريق، وتغيم عيونها وهي تودع الرمق الأخير من روحها لتصعد هذه الروح المظلومة إلى بارئها، يقول:

ما زال يرتعد المساء لهول ذكرى المجزرة

صور المآسي بالرصاص .. بمقلتيه مصورة

كتل من الأشلاء فاغرة الدماء .. معفرة

متوثبات كالطيور ...ذبيحة متعثرة

تنزو .. وتهوي في ارتعاش الحشرجات مزمجرة

وتخور واهنة على صدر الطريق مبعثرة

تتشنج الأجساد جامحة تصول مكشرة

فيدكها الموت الزؤام على التراب مكسرة

صفراء تقبض كفها في صدره مستنكرة

وتغيم أعينها وتستجدي لقاء المقبرة([2])

جسّم الشاعر نفسه، المساء الذي حصلت فيه المجزرة بصورة إنسان يرتعد خوفاً وفزعا، ويخنقه البكاء الحار حين يُسأل عما جرى، ويستعير الشاعر أعضاء الضحايا ليدل على عددهم وما أصابهم :

ما زال يرتعد المســــــــــاء ... لهول ما شهد المســــــــــاء

فإذا سألته أن يحـــــــــــــدث ... راح يخنقه البكــــــــــــاء

خمسون ثغراً دونـــــــــــــه ... فغرت نواجذها الدمــــــــــاء

مائة من القبضات راعــــــدة ... تلّــوح في الفضــــــــــــاء

---

[1] / هشام أبو صلاح، أوراق ،ديوان الشهيد ،170

[2] / حنا أبو حنا، نداء الجراح ،78-79

مائة من المقل الذبيحـــــــــة عالقات بالسمـــــــــــــاء
مستنجدات ضارعـــــــــات لا يجاب لها دعـــــــــاء
وجحيم حشرجة مروعـــــة يهدّر في العـــــــــــراء
يحبو أنين الطفل فيـــــــــه بين إعوال النســــــــــاء
تتزاحم الأنات فيـــــــــه كليلة نحو الفضـــــــــاء
والأفق شنجه الذهـــــــول وهول ذبح الأبريـــــــــاء([1])

صورة حية معبرة لحلبة المجزرة، يختلط فيها صراخ النساء وعويلهن مع بكاء الأطفال وأنين الرجال، الذين تساقطوا فوق بعضهم بعضاً، وهي صورة مؤلمة مفزعة لكل ذي قلب حي، أو مَنْ يحمل ذرة من شعور إنساني.

ذهل الشهداء من هول المفاجأة، وأخذت عيونهم تبحث عن أي سبب يبرر ما يجري، ولكنها ارتدت حزينة محتارة. ولم يمهل القتلة ضحاياهم حتى يجف عرقهم فاختلط دمهم المتدفق من جراحهم مع حبات العرق ، وغطتهم ثيابهم وكوفياتهم، الدالة على عروبتهم وفلسطينيتهم، ورفرفت أرواحهم تحملها الملائكة إلى جنان النعيم، يقول هشام أبو صلاح:

من هذا المتضرج بالدّم الوردي؟
والعرق المتنزي من جبهته الحرة سحّ على صدغيه كموال مجروح
الكوفية داعبها ريح الجنة
لتظلل هذا الجسد المسفوح
من وهج الشمس المحروقة
صب لله وللوطن المذبوح
وتعالى في الأفق الأزرق روحاً وملائكة تحمل قديساً
يصاعد في عمق سماوات النازف من خاصرة الأرض الثكلى([2])

تشارك المرأة الفلسطينية رفيق عمرها في معظم أعماله، وتقاسمه الحياة بحلوها ومرها، لا تتخلى عنه في أحلك الأوقات، وتحاول أن تفتديه بروحها، وليس هذا غريباً على امرأة تربت على التعاليم الدينية، تعرف حق الزوج والوفاء له، ويصف" عقل ربيع" مشهد امرأة فلسطينية أسرعت إلى زوجها الكهل، صارخة مولولة تضمه إلى صدرها تحاول إبعاد خطر الموت عنه، فيعاجلها القتلة بزخات من الرصاص فتعانق روحها روحه الصاعدة إلى السماء وتنتشر أشلاؤها على الطريق، يقول:

سّبابتان إلى السماء ودعــــــــوة عجلى وفي النجل الضعـــاف ذهــول
لم يرحموا كهلاً، ولم يشـــــفع له وجه تجعد جانباه علـــــيـــــــــل
قد عالجوه فمزقت منديلهـــــــــا سمراء، ترفل في الأسى وتصـــــول

---

[1] / حنا أبو حنا، نداء الجراح ،79–80

[2] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد،175

ضمته والصوت الحزين عواصف | تترى وفي سمع الدروب عــويـــل
ضمته مسفرة وأشهد أنهـــــا | خجلى إذا ذكر الهوى وجــفـــول
ضمته واعتصرت هواه وظنهـا | أن الفجيـــعة لــحظـــة وتزول
فمضى إليها الغدر يحسب أنـها | جزعت، وأخت الصابرين حمـــول
لكنها ما فارقـــته وأسلـــمت | روحاً توافـي روحـــه وتـنيـل
فالقاسمية قطعت أوصالهـــا | والقاسمـــي ممـــزق وقتيـــل([1])

وأشلاء الضحايا تتحدث وتسرد وقع الجريمة بأبلغ من أي كاتب أو بلاغي:

عدنا إليك وأشلاء لنا ســـردت | وقع الجريمة يحكى سفرها الخبـــر([2])

ويصور " توفيق زياد" حالة الفزع التي انتابت الضحايا لحظة استشهادهم، فأخذوا يصرخون لا خوفا على أنفسهم ، بل لتفكيرهم في مصير أبنائهم وأهلهم، وكيف سيتدبرون من بعدهم، فقد ورد في مقالة (لروبيك روزنتال) عن أحد الجرحى ويدعى" محمود فريج" "لقد خاف أن يتحرك...وتمدد هناك وانتظر رصاصة في رأسه... وما شغل تفكيره هذه نهاية الشهر ولم يحصل على المعاش بعد، ماذا سيكون مصير زوجته وأولاده الثلاثة الصغار في البيت"([3])، ولم يكن لديهم شيء يعبرون به عن سخطهم وفزعهم إلا الصراخ في الوقت الذي كانت صدورهم العارية وأيديهم الخالية إلا من أثار العمل والتعب، ترد زخات الرصاص القاتلة، يقول:

حديث أفاق عليه الجميع
فظنوه أضغاث حلم مريع
ولكن
تقضي هزيع... وجاء هزيع
وجمد أعيننا الحالمة
وصك مسامعنا الواهمة
صراخ الثكالى
صراخ الصبايا صراخ الحبالى
طغى وتعالى
صراخ الشباب الذبيح
ترد صدورهم العارية
وأيديهم الخشنة القاسية

---

[1] / عقل ربيع، القاسمية، ديوان الشهيد، 193- 194
[2] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد، 255
[3] / روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 47

بصاق الرصاص الجموح (1)

تركت مجزرة كفر قاسم **جراحاً معنوية** تمثلت في حزن الفلسطينيين العميق على فقد أبنائهم، واليأس من نصرة إخوانهم العرب بعد أن تركوهم فريسة سهلة في أيدي أعدائهم، فولّد في نفس الفلسطينيين النقمة والتصميم على استرداد الحقوق، والاستعلاء على الجراح النازفة، بالاستمرار في المقاومة وعدم المساومة على أرواح الشهداء والحقوق الوطنية الثابتة،وقد ظل"محمود درويش"ينادي بالمقاومة:

كفر قاسم

إنني عدت من الموت لأحيا، لأغنى

فدعيني أستعر صوتي من جرح توهج

وأعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحى

وأمشي

ثم أمشي

وأقاوم(2)

لم يعد باستطاعة الفلسطيني إحصاء جراحه، وحده يقف في الميدان يتصدى للريح العاتية التي تهب عليه باستمرار من مناطق متعددة، دون أن يأبه به العالم، إما لضعف أصاب الأمة العربية والإسلامية، فلم يعد لها وزن في المصالح الدولية، أو لدربة في العدو في تزييف الحقائق وقلب الموازين، فيظهر نفسه مظلوماً مغلوباً على أمره، أو لإهمال الفلسطيني المتعمد من إخوانه العرب، وقد تكون للأسباب جميعها أو أسباب أخرى، وإذا كان الإعلام العربي لم ينهض بدوره المطلوب ،فإننا نجد الشعر يستصرخ ضمائر العالم، ليأتوا إلى فلسطين ويروا الجرائم والمجازر التي يتعرض لها الفلسطينيون كباراً وصغاراً، على أيدي قتلة يمتلكون تكنولوجيا متطورة ، وهو ما يظهر في قول " "سميح القاسم":

فليأت العالم

ولير كيف يتفجر رأسي الجميل كثمرة الرمان

تحت جنازير الدبابات وخرافة العصر

كفر قاسم

لم أعد أحصي جراحي فقد تعبت(3)

وأصبحت الجراح مواويل تغني أحزان الفلسطينيين ومآسيهم المفجعة في نظر " هشام أبو صلاح":

كسروا محراث أبي

ورموا عكازة جدي في الريح المجنونة

---

1 / توفيق زياد، الديوان ، 307- 308

2 / محمود درويش، الديوان ، 205/1

3 / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 196/2

....

وأنا ذاك العصفور المثخن

بجراح مواويلي المغبرة جوعاً وسراب

اذكرهم كيف اقتلعوا أظفاري وانتحلوا أشعاري

سموني المنفي المنسي وقد جفلت من أعينهم أطياري ([1])

ومن الجراح التي أدمت قلوب الفلسطينيين، خروجهم من بلادهم، وتشتتهم في البلاد العربية غرباء أذلاء منسيين في المنافي والخيام، دون المطالبة بحقهم في العودة إلى وطنهم الأم فلسطين، والعمل من أجل تحقيق ذلك، بتجهيز الجيوش، واقتصر دور المسؤولين العرب على الادانات وإطلاق البيانات، وأصبح الفلسطينيون والقضية الفلسطينية وجبة دسمة للصحافة والإعلان، تجد فيها ضالتها من أخبار مثيرة وكثيرة، فتتسابق لاغتنام السبق الصحفي. وجد فيها الشعراء والخطباء مادة غزيرة، تفجر ينابيع الإبداع لديهم، فيصدرون باقات من القصائد والخطب الحماسية المثيرة، ولكن كل ذلك لم يغير من واقع اللاجئ الفلسطيني شيئاً، وظل ظمآن للحرية والعودة إلى بلاده، يقول "هشام أبو صلاح":

كان لنا جسد يتعرض للنهش وللقصف

صرنا أرقاماً وعناوين للصحف اليومية

وقصائد دموية

ومنابر للخطباء

صرنا أي قضية

أذكر أني ضاجعت النفي سنيناً عجفاء

منفياً من غير هوية

وأبي كان كذلك

جدي مات حزيناً يبحث عن كسرة حرية ([2])

وقد أصيب مَنْ شاهد المجزرة بحالات نفسية صعبة، خاصة الأطفال منهم، فأخذوا يفرون على غير هدى، لا يدرون أين تهوي أقدامهم، بعد ما شاهدوه من سقوط الضحايا الواحد فوق الآخر في طرفة عين، فهذا "محمود مرعي"يصور طفلا شاهد عيان على المجزرة:

وصغير طريد رعب تولـــــــــّى	إذ نجا صـــــــارخا ويبكي الطّريد
قد رآهم يساقطون تباعـــــــــاً	جثة فــوق جثـــــة لا تمـــــيد
لم تشاهد عيناه يوماً ضحايــــــا	تتهاوى كما تـــــهاوى الســجود
ينحني عن سقف الرصاص ويعدو	ليس يدري الجهات يهدي جنـــود ([3])

[1] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد، 176

[2] /نفسه ، 170- 171

[3] / محمود مرعي، كفر قاسم جل الشهيد ،، ديوان الشهيد ،123

ويصور الشاعر نفسه طفلة ذهب عقلها من هول ما رأت، أخذت تنادي أباها مستنجدة وأزيز الرصاص يطن في أذنيها، وحالها كحال كثير من أهل كفر قاسم لا يعرفون مصير أقربائهم، فسيطر عليهم القلق والخوف والفزع، يقول:

وعلا صوت طفلة في جـــــوار هاتفاً، يا أبـــي، أبـــي لا ردود
زهرة غضة رأتهم عــيـــانـــاً فمضى عقلها وهامـت تريـــــد
وتنادي أباها وأين أبـــــــوها ربما ضرجوه أو موجـــــــود
في عداد الأحياء في الدار يرجـو عودها فالظلام هول وبـــــــيد
وأزيز الرصاص في أذنيهـــــا وعلى شالها دخـــــان شديـــد([1])

سرعان ما نتشر الخوف والفزع بين سكان القرية، فقد تطايرت قلوبهم وعقولهم حيرة وفزعاً على مصير أبنائهم، وهو ما رسمه " عقل ربيع" في كلماته:

يا كفر قاسم إن جرحك هــــدني هداً وجرح المؤمنــــات دلـــــيل
خبر تناقله الأنـــين وصــــبية يتدافعون، وفي الوجـــوه نحــول
طافوا به فتخطفـــته عــــرائس وقلوبهـــن تفــــــر ثم تـؤول
وصرخن في شوق حبست لفرطــه وذهاب عقلي، ما لهــن عقــــول
فتطاير الغضب العظيم وزلـــزلت في كفر قاسم أجـــبل وســـهول
....
ولقد وصفت الموت فيك ولم أجـــد وصف الجراح فما عســاي أقـــول
نطقت جراحك في الدروب ورتلــت آيات مجدك والنشيـــد يـــــهول([2])

فالشاعر يجد نفسه عاجزاً عن وصف الجراح التي خلفتها المجزرة لهولها وعظم تأثيرها، وليس غريباً أن يصدر هذا النفس الشعري عن شاعر فلسطيني بعد مرور ثلاثة وأربعين عاماً من وقوعها، فما زال الشعب الفلسطيني يعيش الجراح النفسية يومياً من خلال حملات الاعتقال والقتل والاغتيال والإذلال التي يمارسها الكيان الصهيوني ضد أبناء هذا الوطن.

وتصف " غادة الشافعي" ما أصاب كفر قاسم في ذلك الغروب المشؤوم من حزن ساد بيوت القرية:

حين ناداها الغريب تدلى رأسها
مذبوحة من عنقها
حتى أصابع أقدامها([3])

---

[1] / محمود مرعي، كفر قاسم جل الشهيد ،، ديوان الشهيد، 123

[2] / عقل ربيع، القاسمية،، ديوان الشهيد ، 193- 194

[3] / غادة الشافعي،طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه،، ديوان الشهيد ، 161

أرواح الشهداء

تساقطت أجساد الشهداء على مدخل القرية كسنابل القمح في موسم الحصاد، وتكدست جثثهم بعد أن خرج منها سر الحياة. هذا السر الذي انُتزع ظلماً من جسد صاحبه، ظل يحلق فوق الحقول يتساءل عن ذنبه الذي استحق به هذا الجزاء. ولا أظن السبب إلا لإشباع رغبه لدى القتلة " لكي يمتلئ الصهيوني بالإحساس بأنه قادر على أن يمثل دوراً في التاريخ غير دور الضحية من أجل هذا البرهان يتلذذ بالقتل"([1]) يقول" محمود الدسوقي":

والقاتل ينظر للدم النازف مسروراً

يأمر بالقتل

"احصدوهم" فتخر الناس سنابل قمح

في الحقل المحصود

والروح تحلق فوق الحقل تنادي

رباه فما ذنب([2])

لم يعرف الشهداء جريمتهم، كل ما كانوا يحملونه حُباً وتعلقاً بأرضهم ووطنهم، وعطفاً وحناناً على أطفالهم وأبنائهم. وهذه جريمة في نظر أعدائهم، يستحقون عليها القتل بكل قسوة، فتسقط أجسادهم معفرة بالدماء، وتصعد أرواحهم الطاهرة محملة بالشهادتين، لتصل إلى جنان النعيم التي وعد الله بها شهداءه، يقول " أحمد سلامه":

وتساقطت أجساد

ضمّخها الحنين

للأرض، للزيتون

للأم الحبيبة

للبنين

وتصاعدت أرواح طهر

بالشهادة تستعين([3])

تأتي ذكرى المجزرة فيعم الفرح الجليل، على أهل كفر قاسم. لتوحد الشعب الفلسطيني من أقصى شماله إلى أقصى جنوبه، يخرج هذا الشعب في فعاليات تعبر عن سخطه واستنكاره لما قام ويقوم به العدو الصهيوني، ويثبت إصراره على حقه، فيسقط منهم الشهداء، تلتحق أرواحهم أرواح من سبقوهم في التضحية والفداء. وهذه المشاركة تسعد أرواح الشهداء في ذكرى استشهادهم، فتخيم على الوطن

---

[1] / محمود درويش، يوميات الحزن العادي،108

[2] / محمود الدسوقي، ذكرى وعهد، ديوان الشهيد، 67-68

[3] /أحمد سلامة، المغيب الأحمر، ديوان الشهيد، ،274

والأهل، تأبى مفارقتهم غبطة منها بما يقوم به هذا الشعب الصابر الموحَّد وهو ما أبرزه "علا عيسى" في قوله:

تشرين هلّ ونحن في فرح جليل
أرواحكم قد خيمت تأبى الرحيل
تأبى مفارقة الأحبة في المثلث والجليل
واستقطبت خلانها من غزة حتى الخليل
وتوحدت أرواحكم يا فاطمة ([1])

تتسابق طيور الجنة علها تفوز بروح أحد الشهداء، فتنال بذلك درجة رفيعة من التكريم لقربها من عرش الرحمن لقول الرسول عليه السلام عن الشهداء: "أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقه بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم فقال: هل تشتهون شيئا، قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسالوا ،قالوا، يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا"([2]) تقـــــــــول "غادة الشافعي":

الشهداء ما بين دم وسماء تهب نسائهم
طيور لا تحصى تتبعهم
عسى أن يمسها شعاع هارب من مراياهم
وأشجار لا حصر لها قبل اندلاع الفجر لتقطف من فاكهتهم
فيما الأنهار تجري على طول المدى لتروي ظمأها من ينابيع
لا تنقطع من شرايينهم([3])

تشير الأبيات السابقة إلى مكانة الشهداء في جنان الخلد، حيث الخير العميم، والنعيم الدائم، يفوق كل التصورات والتخيلات التي قد تخطر على بال إنسان، وله ما يقرب من هذه المكانة في قلوب الأحياء، الذين يتمثلون أعمال الشهيد وأقواله، وهم دائمو الثناء عليه، ويعبر الشاعر عن هذا المعنى بأن جعل مظاهر الحياة من طيور وأشجار ورياح وأنهار ....تحاول الاقتباس من أنوار الشهيد وخيراته.

وتظل أرواح شهداء كفر قاسم تطوف فوق الأحياء ليثأروا لها، وتستنهض الأمة العربية والإسلامية بالإضافة إلى أهلهم، فهم "يحملون ذراع نخلة"– رمز الأمة العربية – و"يرسمون بأعينهم أهلّة" – رمز الأمة الإسلامية– يثيرون فيهم الحمية والنخوة، لتحرير البلاد والعباد من دنس الأعداء، يقول "محمود درويش":

مرّوا على صحراء قلبي، حاملين ذراع نخلة

---

[1] /علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد ،103

[2] /مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم،1502/5

[3] /غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه،ديوان الشهيد، 150

مرّوا على زهر القرنفل، تاركين أزيز نحلة

وعلى شبابيك القرى رسموا بأعينهم أهلة

وتبادلوا بعض الكلام

عن المحبة والمذلة([1])

ويضيف في القصيدة نفسها:

في الليل دقوا كل باب

كل باب .....كل باب

وتوسلوا ألا نهيل على الدم الغالي التراب

قالت عيونهم التي انطفأت لتشعلنا عتاب

لا تدفنونا بالنشيد وخلدونا بالصمود

إنا نسمّد ليلكم لبراعم الضوء الجديد([2])

هذه الأرواح على اتصال وتواصل مع أهل الأرض، تحزن لما يصيبهم من قتل وتشريد وتدمير – قلما شهدت العصور السابقة مثيلاً له، كما قال "عبد الناصر صالح":

وماذا قالت أرواح الشهداء

ماذا قالت ؟

قالت :

يلجمني الحزن العصري

ودقات الساعات الأولى منذ الميلاد([3])

وكلما سقط شهيد دفاعاً عن أرض فلسطين، أو صعدت ثورة أو انتفاضة مطالبة بحق الفلسطينيين، ورافضة للوضع المأساوي الذي يُفرض على الشعب الفلسطيني، عادت الحياة إلى الشهداء السابقين وتربعوا في الذاكرة الفلسطينية، مذكرين بوحشية العدو وقسوته، كما صور لنا "محمود درويش" بقوله:

أحاور روح الضحية

ومن سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حية

ومن حسن حظك أنك أنت الضحية

هلا....يا هلا.... بالمطر([4])

ونرى من النماذج الشعرية السابقة وغيرها، أن قضية الموت لدى الشاعر الفلسطيني تعادل قضية الحياة، لأن من الموت تولد الحياة، الحياة الأخرى المتجددة، "فالموت بالنسبة لشاعر كدرويش هو موت

---

[1] /محمود درويش، الديوان ، 215/1

[2] /نفسه،215/1

[3] /عبد الناصر صالح،طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 127

[4] / محمود درويش، الديوان 207/1

الشهداء فقط، وهو الفعل الإنساني الذي يتم الحصول على الشهادة، لذا فان تمجيد الموت من قبل درويش هو تمجيد للحياة ذاتها" ([1]) وفي المفهوم الإسلامي الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والذي يغيب هو الجسد فقد، أما الروح فتنتقل إلى حياة أخرى متجددة، تعود بين الفينة والأخرى إلى الأرض، فيسعدها محافظة من بعدها على أمانتها المتمثلة في حب الوطن والثبات في الأرض، وهو ما ظهر جلياً في قول "سامر خير":

عندما عدت من غيبتي
ورأيت هنا ولدي
واقفا فوق ظلي القتيل
وفي كفه قبضتي
وعلى ظهره
لم تزل صخرتي
قال لي: يا أبي
جنة الخلد في بلدي([2])

وتأتي أرواح الشهداء لزيارة أهلهم في كل ليلة، تقدم لهم كل ما لم تستطع تقديمه في الحياة، حين اختطفتها أيدي القتلة، تنتشر البهجة والسرور في نفوس الأهل وإن كان ذلك حلماً، يقول "محمود درويش":

لك مني كل شيء
لك ظل لك ضوء
خاتم العرس، وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما في كل ليلة
أدخل الشباك، في الحلم، وأرمي لك فلة
لا تلمني إن تأخرت قليلا
أنهم قد أوقفوني ([3])

وترفض "غادة الشافعي" النظر إلى ذكرى شهداء كفر قاسم على أنه يوم لإعداد المراثي، وتبادل العبارة المنمقة، والأشعار الجميلة دون الاسترشاد بنجومهم والخوض في عمق الإحداث لاستخراج العبر من قتلهم، والاستفادة منها في مواجهة عدوهم:

يدخل الشهداء أو يخرجون

---

[1] /شاكر النابلسي، مجنون التراب، 405
[2] / سامر خير، أغاني شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد،113
[3] /محمود درويش، الديوان ،211/1

وليس ثمة من يرهف السمع لصدى خطواتهم وهي تذهب

في المنسي من أوقاتنا

ليس ثمة من يطرد من قلبه عتمته كي يبصر عن كثب

نجومهم العالية

يدخل الشهداء أو يخرجون

ونحن نعدّ المراثي لهم ونهجر أيامهم في ركام الزمن

وننسى في الأغاني صدى ابتسامتهم

ولا نلتفت لأنين ناياتهم حين يعزف الدم غربته في ليالي الحنين

يدخل الشهداء أو يخرجون

ونحن نعلق راياتهم مثلما تعلق في الخزانة قمصانهم

ومن لم ير إلا الموت في نظراتهم

كأنه ابدآ لم يبصر ولم ير([1])

فكل من يرى في ذكرى استشهادهم أنه يوم لرفع الرايات، وترديد العبارات، هو أعمى لا يبصر الحقيقة الكامنة وراء استشهادهم، ولا الوسيلة الصحيحة لتعزية أرواحهم عما أصابها على أيدي الأعداء، إذ أن العزاء الوحيد للخروج من هذه المأساة، هو التضامن والتكاتف واليقظة وتلبية نداء الفداء، فلا يقبل عزاء ما دام العدو جاثماً على أرض فلسطين والشعب ما زال يئن تحت الاحتلال، يقول "حنا أبو حنا":

كيف العزاء؟ ولم تزل ملء الـــــدروب حبائـــــــل

وتنوء بالغدر الوبيل مناكـــــب وكواهـــــــــــــــل

إن السبيل إلى العزاء تكاتـــــــــــــف وتكافـــــــل

ونداء أرواح الضحايا " فليـــــــــهب الغـــــــــافل"([2])

وفي الوقت الذي تدعو فيه الأرواح إلى التضامن، والتنبه لما يخططه العدو بليل، تحزن الأرواح على التغير السلبي الذي أصاب بعض الفلسطينيين، فهم ينجرفون أحياناً نحو التخلي عن القيم والعادات العربية الأصيلة، ويركضون وراء الموضة ووسائل الراحة، تاركين العدو ينهش أرضهم ويهدم بيوتهم ويقطع أشجارهم، يقول "سامر خير":

عدت يا منزلي

لم أجد في الطريق طريقي إليك

مضى زمني ومكاني مضى

لم أجدك بجانب زيتونتي

لم أجدها

---

[1] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد،152

[2] /حنا أبو حنا، نداء الجراح، 82

بحثت عن الظل

لا ظل لي

تحت شمس الدخان

ولا بيت لي

حيث كنت أعود

مكاني انقضى

لا أعرفكم

لا أعرف كيف تضيئون الليل، وترنون إلى نافذة

لا أعرف كيف تطلّ على كل مكان حتى قاع البحر

وليس تطلّ على الشجر يحرس باب البيت المغمض

....

لم تورق أغصاني هذي الأزياء. ولم ينبع من

حائط منزلنا غيم. كنا نمشي صوب العين عطاشى([1])

وبهذا نرى أن الشعراء قد عبروا عن تطلعاتهم تجاه أرواح الشهداء، والواجب الملقى على عاتق الأحياء تجاه هذه الأرواح الطاهرة، بالاستمرار على نهجهم ، والانغراس في الأرض لإفساد مخططات العدو، متخذين من قبور الشهداء دافعاً لذلك، وتثبيتاً للذكرى.

قبور الشهداء

لم يحفر أهل كفر قاسم قبوراً لأبنائهم، ولم يتعرفوا عليها إلا من خلال ورقة كتب الجزارون عليها اسم الشهيد، "وعند الدفن وضعوا تلك الورقة على ظهر القبر الخاص بصاحبها، ووضعوا فوقها حجراً .....حتى لا تطير."([2]) وإن لم يكن باستطاعة الضحايا القتال والدفاع عن أنفسهم في حياتهم، – فهم لا يحملون إلا حبهم للأرض، وشوقهم لأهلهم وحبات الزيتون التي قطفوها من حقولهم ــ لكن هذه الصورة انقلبت فأصبحوا شعلة من الجهاد والحماس، دماؤهم وجراحهم تثير الحمية والنخوة، وتوصي بالمقاومة والثبات في الأرض، وعدم المساومة مع العدو، أرواحهم تدعو إلى التكاتف والتضامن ....حتى قبورهم أخذت تمثل طوراً من أطوار الجهاد والصمود، فهي تدعو الفلسطينيين إلى الاعتزاز والافتخار بالشهداء، وعدم الرضوخ والذل للأعداء، بل الاستمرار في المقاومة، وهو ما يؤكده "محمود درويش" في قوله:

يا كفر قاسم من توابيت الضحايا ،سوف يعلو

---

[1] /سامر خير، أغاني شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 115-117

[2] / توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين، 203

علم يقول : قفوا ! قفوا !

واستوقفوا

لا لا تذلوا

دين العواصف أنت قد سدّدته

وانهار ظل

يا كفر قاسم : لن ننام ... وفيك مقبرة وليل([1])

ويتسمر الشاعر في تصويره لقبور الشهداء وما يعلوها من نصب تذكاري، يشد من عزيمة الفلسطينيين، ويعطيهم القوة والدافع الذي يغرسهم في الأرض، وفاء لذكرى ساكنيها الذين قضوا لإرضاء نزعة عنصرية حاقدة، يقول:

يا كفر قاسم .. إن أنصاب القبور يد تشد

وتشد للأعماق أغراسي، وأغراس اليتامى إذ تمد

باقون ... يا يدك النبيلة علمينا كيف نشدو

باقون مثل الضوء والكلمات، لا يلويهما ألم وقيد

يا كفر قاسم

إن أنصاب القبور يد تشد([2])

وقبور الشهداء أعلام حق تثبت أن الفلسطينيين أصحاب الأرض الشرعيون، وتتفاعل معها مظاهر الطبيعة من شجر وقمر وأمطار... لتثبت هذه الحقيقة، يقول "أسامة شواهنة":

وقبورنا أعلام حق من أوى هذا المكان

حتى الشجر!

حتى القمر !

حتى المطر !

تبكي وتصرخ إننا أبناء ذرات التراب

أبناء حبات الضباب

أبناء عهد لن يصير إلى سراب ([3])

نشأت مقبرة كفر قاسم في ليلة واحدة، فقد قام أحد رجال كفر قاسم "عبد الكريم قاسم" بحرث المقبرة القديمة سنة 1948م ،وأوجد واحدة جديدة لم يكن قد دفن فيها قبل ذلك غير عدد قليل،([4])

---

[1] / محمود درويش، الديوان ،1/ 216

[2] / نفسه، 1/ 209

[3] / أسامة شواهنة، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد، 229

[4] / أنظر توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي الفلسطيني، 203

وقيامها بهذه الطريقة المؤلمة، رسخ في قلوب أهل كفر قاسم الحزن والأسى، فسكبوا الدموع الغزيرة لوعة وحسرة، وأصبحت قبور الشهداء مزاراً يواظب الفلسطينيون الذهاب إليه، يقول "حاتم جوعية":

وقبورهم تُروى بفيض دموعنا قبل الغمـــائم أن تبلّ ثـــــــــراء

أضحت مزاراً كالحجيج لأهلنا فحنو علينـــا..نزهق الحوبـــــاء([1])

ولم تكن زيارة القبور لسكب الدموع والبكاء والعويل فقط، وإنما لاستلهام الشجاعة والقوة، وتجديد العهد للشهداء، يقول "سميح القاسم":

ولكم وقفنا بالقبور، وإننــــــا نستلهم الشهداء إذ نستلهـــــــــم ([2])

مارس الكيان الصهيوني الإرهاب على سكان كفر قاسم، ففرض منع التجول لمدة ثلاثة أيام بعد المجزرة، وبث جواسيسه بين السكان يرهبونهم من الحديث عن حقيقة ما حصل، وضربوا على القرية طوقاً، لا يسمحون للسكان بالخروج، كما لا يسمحون لأحد بالدخول إليها...، فخاف السكان وأخذوا يتحاشون كل ما من شأنه إغضاب السلطات المحتلة، خوفاً ورهبة، فتركوا القبور دون عناية إلى أن وصلت إلى حالة مزرية ألهبت مشاعر الشعراء، ومنهم "سميح القاسم" الذي قال مخاطباً القبور:

يـــــا قبور الأحباب ألف سلام من قبور عزّت عليها المعالـــــم ([3])

ويسجل الشاعر نفسه غضبه من هذا الإهمال المتعمّد لضحايا المجزرة، بقوله:

لا نصب...لا زهرة... لا تذكار
لا بيت شعر يؤنس القتلى ولا أستار
لا خرقه مخضوبة بالدم من قميص
كان على إخوتنا الأبرار
لا حجر خطّت به أسماؤهم
لا شيء....يا للعار
أشباحهم ما برحت تدور
تنبش في أنقاض كفر قاسم القبور([4])

وظل العرب في المناطق المحتلة سنة 1948 م يدارون الدولة المحتلة، ويحاولون إخفاء مشاعرهم الوطنية، خوفاً من القتل أو السجن أو التهجير، ولكن هذه المشاعر تفجرت في منتصف السبعينات فيما يعرف " بيوم الأرض" الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ العرب في الدولة الصهيونية، وعودة على تأكيد الهوية الفلسطينية لهؤلاء العرب، فقد أعلنت القيادات العربية في الأراضي التي احتلت سنة 1948م الإضراب العام يوم 1976/3/30 على خلفية استمرار سياسة مصادرة الأراضي، واتّسم هذا الإضراب بالصدامات الدموية العنيفة مع الجيش الصهيوني، وكان من نتيجة هذه الصدامات

---

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 198

[2] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 415/2

[3] / سميح القاسم، ديوان الحماسة، 61

[4] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 48/1

أن "كسر حاجز الخوف والشكوى عند العرب، بعد أن وصلوا إلى نتيجة بأنهم لن يحققوا أهدافهم إلا عن طريق عمل احتجاجي دءوب يتمثل في التظاهرات والاضطرابات والمسيرات الشعبية، وكانت هذه الأمور بمثابة خطوط حمراء يمنع تجاوزها، إلا أن ما حدث بتاريخ 1976/3/30 أدى إلى تجاوز هذه الخطوط الحمراء إلى درجات أعلى بكثير مما كانت علية".([1])

وتخلّت الجماهير العربية عن دور الضحية مسلوبة الإرادة، التي تتلقى الضربة تلوى الضربة صاغرة مستكينة، دون أن تحرك ساكناً، وترجم هؤلاء العرب هذا التغير إلى سلوك عملي في عدة مجالات، فقاموا بتخليد ذكرى مجزرة كفر قاسم "بإقامة النصب التذكاري لهم في نوفمبر1976حيث نقشت أسماء الشهداء بصورة بارزة على هذا النصب، وتمت مراسم الاحتفال بيوم الذكرى بشكل صارخ وبارز"([2]). ومن هنا بدأ الاهتمام بقبور الشهداء، وإحياء ذكرى المجزرة بطريقة أكثر جرأة وحرية وتوجيه. تقول "وفاء حزان" على لسان شهيد كفر قاسم:

شديني نحوك شديني
يا أرضا في وطني ضميني
من تحت ترابك لي كفن
وعلى كفيك تلاقيني
....
أرجوك بأن لا تنفعلي
وتثوري ثم تهزيني
فهنالك نصب تذكاري
تعلوه كل عناويني ([3])

منذ منتصف السبعينات دخلت بعض المصطلحات القومية والإسلامية في كتابات الصحف مثل نضال – شهيد – جهاد ...... وتفاعلت الجماهير العربية داخل الخط الأخضر مع إخوانهم في الضفة والقطاع، خاصة مع بداية الانتفاضة الأولى، حيث "بدأوا بتنظيم سلسلة نشاطات، مثل مظاهرات التعاطف، ونشاطات اجتماعية كان أكبرها في الناصرة سنة1987، وأصبحت كتابات الزوايا الثابتة في الصحف أيام ذكرى مجزرة كفر قاسم ويوم الأرض تستمد وحيها من أحداث الانتفاضة".([4])

ويعتبر تنظيم مسابقة شعرية عن المجزرة من المجلس المحلي للقرية، في أواخر التسعينات تعبيراً عن رفض الواقع المر الذي تعيشه الجماهير العربية في الدولة الصهيونية، وإفلاتاً من ربق الخوف والاستكانة التي سيطرت على العرب بعيد النكبة عام1948.

---

[1] / مصطفى كبها، مجزرة كفر قاسم في الرواية التاريخية العربية الفلسطينية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 100– 101

[2] / نفسه، 101

[3] / وفاء حزان،حديث الشهيد، ديوان الشهيد، 213– 214

[4] / مصطفى كبها، مجزرة كفر قاسم في الرواية التاريخية العربية الفلسطينية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 105– 106

ظلت قبور شهداء المجزرة مزاراً لأهل كفر قاسم ومن حولها، ورمزاً لظلم الصهاينة وصلفهم وملهماً للشعراء يسكبون في وصفها، ووصف ساكنيها مشاعرهم وأحساس

صور متفرقة

كانت الصور السابقة أكثر الصور تردداً على ألسنه الشعراء، ولكن هناك صور أخرى أقل وروداً أطلت بين ثنايا القصائد الشعرية، جُمعت تحت عنوان صور متفرقة.

الشهيد حي :

أتجه الشعراء إلى تصور الشهيد على أنه حي مخلد، رغم معرفتهم الأكيدة بعدم عودته مرة أخرى إلى عالم الواقع، عالم الأحياء على الحقيقة، ولكنه يصبح في لغة الشعراء وخيالهم حياً يرزق، وقد استفاد الشعراء في ذلك من تراث العقيدة الإسلامية التي أعطت للشهيد صفه الحياة (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) ([1]).

وإن حافظ الشعراء على المعنى العام، "للحياة" إلا أن كل منهم نظر إليها بقاموس لغته الخاصة، ف"سامر خير" يرى أن شهيد كفر قاسم لم يمت، بل تمثلت أعضاء جسده في مظاهر الطبيعة:

لم أمت
هل أنا عدُّت من غيبتي
لم أمت أبداً
زرعوا نجمتي في التراب
وهذي يدي في جذوع الشجر
وعيوني عليها ثمر
ودمائي مطر
لم أمت أبداً([2])

وتشير السطور السابقة إلى أن الشهيد رمز للخير والعطاء، وهو وإن انتقل جسده إلى التراب، إلا أن أعماله وتضحياته تجعله دائم الحياة في الذاكرة الفلسطينية، يحاكون أعماله ويواصلون مسيرته النضالية.

يكاد " فاروق مواسي"أن يكتب الآية القرآنية (وإن جنحوا لسلم فاجنح له)([3]) في حديثه عن شهداء كفر قاسم الذين قتلوا ظلماً وهم يطمحون إلى العيش بسلام وأمان في وطنهم، واستمرت حياة الشهداء

---

[1] / آل عمران، 169

[2] / سامر خير، أغاني شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 111

[3] / الأنفال، 61

فيمن بعدهم، يواصلون الدرب الذي قطعه الأعداء بجريمتهم المبيتة، لذلك نجد الشاعر يتوعد الأعداء بيوم أسود، ينالون فيه العقاب على جرائمهم، ويعيد للأرض جمالها وهناءها، يقول:

وشهيدي لم يـمـــــت ظـــــل يسمو، يطمــــح

بنشيد لم يـــــــــــزل نحــــو سلم يجنـــــــــح

آه يا حقد الـــــــــعدا لـــك يــــوم أكـــــــــلح

هذه الأرض غـــــــداً فــــي غنــــاء تفــــرح([1])

ويفلسف "سامر خير" صورة الموت، فيعطي الحياة للشهداء حين تستمر ذكراهم العطرة حيّة متجددة، والموت للقتلة بارتكابهم جريمة قتل الأبرياء، فقد ماتت ضمائرهم، وتخلوا عن إنسانيتهم، وأعمتهم وحشيتهم، فقتلوا الكبير والصغير والمرأة والرجل، فأصبحوا مثالاً في القسوة والهمجية، ينفر الإنسان السوي من سماع ذكرهم، فهم أموات وإن كانوا يتحركون، يقول:

قاتلي مات

هل مات أم لم يمت

عندما سال من جسدي دمه

طعنة طعنة

مات أم لم يمت

... .

قاتلي مات

لكنني لم أمت

أبداً

لم أمت([2])

وتأخذ "وفاء حزان" أحد مظاهر الحياة وهي **الحركة** لتدل على حياة الشهداء، فشهداء كفر قاسم وإن غُيبوا تحت التراب إلا أنهم يتحركون كالبركان الثائر، غضباً مما لحق بهم من ظلم، مرة بقتلهم، وأخرى بإصدار أحكام هزيلة بحق الجزارين، تقول:

في كفني، تحت، أنا باق

أتحرك مثل براكين

هل تغفو عينك يا قاض

قرشك في العتم يصحّيني ([3])

---

[1] / فاروق مواسي، يستهان المسرح، ديوان الشهيد، 93

[2] / سامر خير، أغاني شهيد كفر قاسم ، ديوان الشهيد ، 112- 113

[3] / وفاء حزان،حديث الشهيد، ديوان الشهيد ، 218

وإذا كان قرش (شدمي) يوقظ الشهداء في أكفانهم، فإن الثورة وإحياء ذكر هؤلاء الشهداء تعيد وقع الجريمة، وتجعلهم أحياء دائماً في الذاكرة الفلسطينية والإنسانية .ومن هنا يرحب "محمود درويش" بالثورة بل ويحث عليها، يقول:

أحاور ورقة توتك

ومن سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حيّة

وأن ضحيتها لا تموت ([1])

ولكي تبقى ذكرى شهداء كفر قاسم حيّة، لا بد من مواصلة الدرب بتقديم الشهداء، والتكاتف أمام العدو المتغطرس المخادع، وفضح أساليبه القذرة، ومخططاته الدنيئة أمام العالم، وهو ما يشير إليه "محمود درويش" في قوله:

سأدفع مهر العواصف

مزيداً من الحب للوردة الثاكلة

وأبقى على قمة التل واقف ([2])

وتتمثل "غادة الشافعي" الحكاية الشعبية الفلسطينية التي تذكر أن مَنْ يقتل غدراً وظلماً، يظل يُصدر أصواتاً وصراخاً كالذي صدر منه ساعة القتل ،إلى أن يؤخذ بثأره، في قولها:

هي ذي الأصوات ترتفع في كل ناحية

كأنها لم تنطفئ أبداً ،ولم يتخلل ليلها صمت مديد

كأن قرونا من الموت تعبر في وثبة واحدة([3])

ذكرى الشهداء

يذكر "سامي إدريس" الطريقة التي تحيى بها ذكرى شهداء المجزرة. ستكون بالخطب والأشعار الفاضحة لأعمال القتلة، الملهبة لمشاعر الجماهير، فيخرجون في مظاهرات وأعمال احتجاجيه تثبت للعدو الصهيوني تمسك الفلسطينيين بحقهم، وعدم رضوخهم للواقع الذي فرضته قوات الاحتلال الصهيوني بالقوة:

وكان رفيقنا " محمود" أعطى حربة سوداء

لطفلته، وصورته برأس جريدة صفراء

لتعرف كل قصته، فهذا موعد الشهداء

و ليلة حفلة الذكرى ستلقي قصة ممنوعة جداً

---

[1] / محمود درويش، الديوان ، 206/1

[2] / نفسه،207/1

[3] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمي، ديوان الشهيد،165

وتصعد في تظاهرة تهز كيان من ظنوا

بأن الدمع قد جفّا

وعانق منجل سيفا

وأن الشاعر العربي أفرغ شعره الروحا

وقد ماعت قضاياه

وبات القلب مقروحا([1])

وتترفع مجزرة كفر قاسم عن أن تكون يوماً للذكرى، يمضي بانتهاء اليوم، بل هو يوم لاستخلاص العبرة وأخذ الدروس، فهي قصة إنسانية مؤلمة. متكررة على يد العدو نفسه بصور وأشكال شتى وتحت ذرائع واهية، يقول "غسان الحاج يحيى":

كفر قاسم

لست ذكرى للشهادة

فما جرى في كفر قاسم

قصة الإنسان يكدح في الحياة ولا يزاحم

والطغاة ؟!

هم الطغاة !!

أعداء الحياة

أغلقوا باب النهار

يذهب الليل ويمضي

يذهب الظلم ويمضي

والشهادة حية تبقى

وتبقى كفر قاسم([2])

ونلحظ في نهاية القصيدة بشرى الشاعر بانتهاء الظلم، وزوال العدو الغاصب المحتل، فتشرق الحياة من جديد، وتبقى ذكرى الشهداء عطرة ندية تبعث على العزة والفخار، فإذا كان للباطل جولة، فللحق جولات.

وترى "شروق إبراهيم القيم" في ذكرى المجزرة مغذياً للمشاعر الوطنية، وباعثاً للثورة على الظلم والقهر، وملهماً للشعراء والكتّاب، يستقون منها أجمل إبداعاتهم وأبلغ خطبهم:

كفر قاسم

....

أعيدي لي عمري

---

[1]/ سامي ادريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم ، ديوان الشهيد ، 187

[2]/ غسان الحاج يحيى، كفر قاسم، ديوان الشهيد،244

ونصف ذلك القلم .....
ها هو يسجد أمام عينيك
مكسوراً
ردّيه إليّ وإلى أناشيد الحزن المشتعل
أراني وإياه نقتات
من طيات التاريخ
والزمن النرجسي
نثراً وشعراً
ثورة وذكرى ([1])

وتطلق "غادة الشافعي" على ذكرى المجزرة يوم ميلاد الشهداء، حيث يولدون من رحم المجزرة في لحظة واحدة، وينتقلون إلى حياة أوسع، وعالم أرحب بعد أن ولدوا من أمهات مختلفات في أوقات متفاوتة. وإذا كان لمولد الطفل من رحم أمه فرحة وسعادة للأهل، فإن لولادة الشهيد يوم استشهاده شعوراً يبعث الفخار والاعتزاز، وفرحة للشهيد نفسه، بانتقاله من الحياة الفانية، إلى حياة النعيم الدائمة والسعادة الغامرة، تقول الشاعرة:

ويدخل الشهداء أو يخرجون
وتحبل بهم المذبحة سنة من بعد سنة
وكما ولدتهم أمهات كثيرات في عديد من الأزمنة
يولدون من رحم واحد دفعة واحدة
ويكون لمولدهم في الجبال شعلة عالية ([2])

دوافع الشهادة

ويكون يوم الذكرى يوماً لتلمس الشهداء الذين يعلّمون مَنْ بعدهم كيف يكون الصدق في العطاء، والتضحية بالغالي والثمين، رفضاً للذل والهوان ، وإنارة الدرب لمن بعدهم،وهو ما يبدو في قول "شاكر إبراهيم خطيب":

شاء الشهيد بأن يعطي لقاتلـــــــــــــه ... درساً من العز مثل الطود والعلــم
هذا المعلم لن ننسى فضائلــــــــــــــه ... إن غاب جسم له فالروح في القمم
درب الصمود تعبدت صدقاً لنـــــــــا ... وكذاك أعيننا بالحق لم تنـــــــــــم
الروح قدّمها من أجل عزتـــــــــــــه ... من أجل أن نرتقي بالحق والقيــم
من أجل أن ينعموا أهل له وجـــــدوا ... في غابة جوفها يكتظ بالحمـــــــم

---

[1]/ شروق إبراهيم الخيام، تشرين وحل الخطيئة، ديوان الشهيد ، 250

[2]/ غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه ، ديوان الشهيد، 153

جعل الدفاع عن الأوطان مشعلـــــة فالأرض ترفض تهويداً من القــدم([1])

فلم يضحوا من أجل عرض زائل، أو هدف شخصي، بل من أجل غاية سامية رفيعة، وهو الدفاع عن الأرض، وتحريرها من دنس التهويد الذي سعى إليه القتلة، حين أقدموا على فعلتهم الإجرامية، فثبات الفلسطيني في وطنه دفاع وجهاد.

هذه دوافع الشهداء وتطلعاتهم المستقبلية، وهي تتناقض مع أهداف القتلة الصهاينة، الذين يرون في كل شيء عدواً لهم، يريدون أرضاً بلا شعب، ليتسنى لهم تحقيق حلمهم البائد في إقامة هيكلهم المزعوم، لذلك يريدون القضاء على كل أفراد الشعب من رجال وأطفال ونساء.

ويخلد "احمد يوسف" أسماء عائلات الشهداء، الذين أحبوا الوطن فضحوا من أجله بأرواحهم، واستحقوا بذلك المكانة العليا عند الله ورسوله، وأضحى يجمعهم اسم واحد جميل، يتمناه كل مؤمن بربه وهو اسم "**شهيد**"، يقول:

نحن الذين استشهدوا ودماؤهــم لا لن يبــدل مســكها تضليـــــل
نمشي إلى حتف سيبقى جائعــا ما دام يســـمع للسـيوف صليــل
إن الـــمـــنـــيــة لــلمحب نهاية يطوي كتاب في الهوى وفصــول
لكن من عشق التراب أحبــــه رب قوي في العلـــى ورســـول
فأنا الشهيد وأنت قصة حبــــي أبدية لا تــنتــهي وتـــطــــــول
طه وعيــسى عامر وبديــرنــا أضحى لنا اســـــم واحــد وجميل([2])

وإذا كانت أسماء شهداء كفر قاسم الحقيقية قد انزوت أمام اسمهم الجديد، فإنهم يستحقون بذلك تحية خاصة، مستمدة من مظاهر الطبيعة رمز الخير والعطاء والجمال، تقول "وداد البرغوثي":

لموتاها صباح الخير والزيتون والزعتر
صباح الطفل في محرابها يكبر
صباح اللوز والرمان والسكر
صباح القمح تحضنه يد الفلاح والبيدر ([3])

وتستقي الشاعرة هذه التحية من الأشجار والنباتات التي تشتهر بها فلسطين، ويقوم عليها اقتصادها.

الشعب الفلسطيني شعب حر يرفض الذل والهوان، تتناسخ فيه البطولة من الأب إلى الابن وهو وإن سكن للحظة فهو نار من تحت رماد، تتوقد بطولة وشجاعة ، تنطلق ثورة ونضالاً، ضد العدو الغاصب، وقد برع في تطوير أساليبه ووسائله القتالية، فكلما أغلقوا عليه باباً فتح عدة أبواب، وبهذا حق لفلسطين أن تتيه وتتفاخر على العالم بهذا الشعب المناضل، وهو ما يبدو في قول "سامي ادريس":

وقومي كفر قاسم عانقيه

---

[1]/ شاكر إبراهيم خطيب، الشهيد، ديوان الشهيد ، 211

[2]/ أحمد يوسف، المجزرة ، ، ديوان الشهيد ، 209 –210

[3]/ وداد عادل البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا،، ديوان الشهيد ،203

كذا بطل تناسخ في بنيه

فقد بلغ الفطام وصان عهداً

وقد درس الكفاح على أخيه

وما نسي انتفاضته ولكن

يتيه على الشعوب لئن تتيهي ([1])

فالشعب الفلسطيني شعب متجدد، مؤمن بعدالة قضيته وثبات حقه، لذلك لا يرهب الموت، يحمل روحه على كفه ويقدمها قرباناً للوطن، مستمراً في نضاله منذ أن دنّس العدو الصهيوني أرض فلسطين إلى يومنا هذا، يلبس كل يوم ثوباً جديداً يتناسب مع الحالة والواقع الذي يستخدم فيه، لا ينتهي بقتل قائد أو مؤسس، بل يزيده ذلك جذوة واشتعالاً.

مهما كان الألم الذي زرعه القتلة في نفوس الفلسطينيين عامة وأهل الضحايا خاصة، فان الحياة لا بد أن تستمر، ويتقهقر الموت أمام سلطان الحياة، فيتحامل أهل كفر قاسم على جراحهم ويتعايشون مع الوضع الجديد ،يعيشون مشاكلهم وقضاياهم ،يبنون ويتزوجون وينجبون الأطفال ،يعالجون الأرض الطيبة ،يعملون في أحلك الأوقات لكسب الرزق الحلال والصمود والثبات أمام الهجمة الاستيطانية ينتظرون الخلاص.

---

[1] /سامي إدريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم ،ديوان الشهيد، 184

الفصل الثاني

أبعاد المجزرة في الشعر الفلسطيني

تمهيد

1- البعد الوطني

2- البعد القومي

3- البعد الديني

4- البعد الإنساني

تمهيد

تعرض الفلسطينيون إلى هزة عنيفة، تمثلت في أحداث نكبة 1948م، ووقفوا مذهولين من هول الفجيعة، واكتووا بنار الحرب وما نتج عنها من مذابح وقتل وتشريد وخراب ودمار واعتقال واضطهاد.......، ولم يطل صمت الشعب، فأخذ كل واحد منهم يعبر عن مشاعره بطريقته الخاصة، فانضم بعضهم إلى صفوف المقاومة ضد المحتل الغاصب، وانطلق بعضهم يصوّر آلامه والآم شعبه وعذاباتهم في أزجال شعبية، تحث على المقاومة لاسترداد الحقوق المغتصبة،.... وترجم الشعراء أحاسيس الشعب ومشاعره، وما حلّ بالوطن من جراح، في " قصائد حارة تتفجر بالبكاء والعويل تارة، والحنين إلى الوطن ومناجاته تارة أخرى، والمراوحة بين اليأس والأمل، والحض على النضال والتحرر تارة ثالثة". ([1])

وكان لنكبة فلسطين وما سبقها من أحداث، وما لحقها من مآس أكبر الأثر في تطور الشعر الفلسطيني الذي ارتقى ليماشي عظم المصيبة، وأصبح غالبية الشعر في هذه المرحلة،" شعر النكبة أو المأساة" التي لا تعد مأساة فلسطين وحدها، وإنما مأساة العروبة والعرب والإسلام والمسلمين، لأن خطرها لا يقف عند حدود فلسطين ، بل امتد ليصل إلى مختلف الديار والأقطار العربية والإسلامية، وها نحن أولاء نشهد في هذه الأيام انفلات حبات عقد هذه الدول، وسقوطها في براثن المحتلين برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، تحت ذرائع واهية ومصطلح الإرهاب الذي لم يُحدّد مفهومه بعد، ولا أظن هذا الاحتلال الجديد، بثوبه المزيف، إلا امتداداً لمأساة فلسطين، كي تضمن أمريكا لابنها المدلل (إسرائيل) استمرار السيطرة على فلسطين ، بإضعاف الدول العربية والإسلامية ، واستنزاف خيراتها ، لتصب في الخزانة الأمريكية التي بدورها تصب في ترسانة الأسلحة الإسرائيلية والمستعمرات، لتمتد فتبتلع أرض فلسطين شبراً شبراً.

ويذكر "محمد عطوات" أن المأساة " أصبحت ينبوعاً متدفقاً من ينابيع الشعر العربي في العصر الحديث، فجّرت الشعر بفنونه المختلفة من قصيد وملحمة ومسرحية في قلوب الشعراء والكتّاب من أبنائها ، كما فجّرته في قلوب سائر أدباء وشعراء العروبة والإسلام ،"([2]) ومن هنا قلّما نجد شعراً ذاتياً وجدانياً في هذه الفترة .

وعندما حدثت مجزرة كفر قاسم ، كانت معالم النهضة الشعرية، قد ارتسمت في الشعر الفلسطيني، وسيطرت عليها أبعاد واتجاهات، لم يركز عليها الشعر العربي قبل ذلك، واستمد الشعراء الفلسطينيون من نار هذه المجزرة وعنفها، العديد من القصائد المعبرة عن جرح الوطن الصغير (فلسطين) ، وتصور آلامه وأحزانه، وتطالب برفع الظلم والضيم عنه، وتعلن إرادة المقاومة التي لا تلين، كما تعلن

---

[1] / محمد عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968 ، 154

[2] / نفسه، 156

عروبة هذا الوطن الضاربة جذورها في التاريخ، وتطالب الأقطار العربية بسرعة مداواة الجرح النازف في فلسطين.

كما ازداد البعد القومي توقداً، بظهور البطل القومي المنقذ المتمثّل في صورة الرئيس المصري (جمال عبد الناصر)، وسيطر الشعور بقرب العودة إلى فلسطين لدى المهجّرين . وتحريرها من أيدي المحتلين، بعد انتصار ثورة الضباط الأحرار في مصر بقيادة "جمال عبد الناصر" ، وما اتخذه من خطوات جريئة عززت الروح القومية التحررية، وأصبح حلم الوحدة العربية أكثر بريقاً وجاذبية.

وبما أن فلسطين أرض الديانات السماوية، لذلك ظهر البعد الديني في الأشعار التي تناولت المجزرة، حيث نظر إلى محاربة المخططات الصهيونية الهادفة إلى ابتلاع أرض فلسطين، وطرد أصحابها الشرعيين، وتشتيتهم في البلاد المجاورة، على أنه واجب ديني يتحقق عن طريق الجهاد في سبيل الله، وطالما اقتبس الشاعر الفلسطيني من القرآن الكريم العديد من الآيات والتعاليم الإسلامية التي تبين مكانة الشهيد واللجوء إلى الله في حالة الشدة، كما تبين إيمان الفلسطيني الراسخ بحقه وواجبه في الجهاد والتضحية، ولما كانت المجزرة قد حصلت لأناس أبرياء عائدين من العمل، دون تفريق بين طفل أو امرأة أو شيخ ...فقد انطلق الشعراء يستصرخون لهذه الدماء المراقة ظلماً، ويستنهضون الضمائر الإنسانية للأرواح البريئة، مركزين على الأخوّة الإنسانيّة، ومصورين ما نتج عن هذه المجزرة من زيادة عدد الأيتام والأرامل والثكالى، وحالة الحزن الشديد التي عمت أهل كفر قاسم على فقد أحبائهم بطريقة وحشية مؤلمة.

والواقع أن الشعر الذي قيل في مجزرة كفر قاسم، أشبه بنهر كبير تصب في مجراه روافد مختلفة، منها ما هو قومي، ومنها ما هو دينيّ، ومنها ما هو إنسانيّ، ....ويمكن أ ن تجتمع جميعها لتصب في رافد الشعر الوطني ، ومن هنا نرى تشابك الأبعاد الشعرية، وعدم وجود فواصل واضحة بين هذا البعد وذاك، فعلى سبيل المثال : الدعوة إلى الثبات في الأرض ، والمقاومة لتحرير فلسطين واجب وطني، وهو كذلك واجب ديني يتحقق عن طريق الجهاد الذي يصبح فرض عين على كل مسلم إذا احتل جزء من الأرض الإسلامية. وهو واجب قومي باعتبار أن فلسطين جزء من الوطن العربي الكبير يتأثر ويؤثر فيمن حوله، وما نتج عن هذه المجزرة من فُقد وألم وحزن وتجويع، وتقييد للحريات وغيرها من أمور ذات صله بالبعد الإنساني.

ومهما يكن من أمر فلا بد من تقسيم الأشعار التي تناولت المجزرة إلى الأبعاد الرئيسة: الوطني، القومي، الديني، والإنساني . لتسهل دراستها، وسيتم الاستشهاد على هذه الأبعاد بأبرز الأبيات التي تمثلها، مع الإشارة إلى أبيات ترد في مواضع أخرى تلافياً للتكرار.

1- البعد الوطني

يتناول هذا الجزء من البحث، الأشعار التي تُظهر حب الوطن والمواطن، وتهتم بأحداث المجزرة وانعكاساتها على كفر قاسم وفلسطين كلها، كما تهتم بالمشاعر الوطنية التي تنم عن الرغبة في الحرية والإباء، والدفاع عن الأرض والعرض والأهل.

ودراسة (البعد الوطني) يستدعي التعرف على المفهوم اللغوي لكلمة (وطني) ليسهل تحديد أبعادها بشكل واضح وصريح.

كلمة" وطني" منسوبة إلى "وطن" وهو:"المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحلّه، وأوطنت الأرض ووطنتها توطيناً واستوطنتها أي اتخذتها وطناً . ووطن بالمكان وأوطن :أقام"([1]) وورد في المعجم الوسيط أن الوطن هو "مكان إقامة الإنسان ومقرّه ، وإليه انتماؤه ، ولد به أو لم يولد."([2]). وعرّف الإمام الزبيدي كلمة "الوطن" بأنه "منزل الإقامة من الإنسان ومحـــــله ...... وأوطن :أقام. وأوطنه إيطاناً وتوطيناً. ونقول :استوطنه إذا اتخذه وطناً ، أي محلاً ومسكناً يقيم فيه ."([3])

من هذه المعاني يتبين أن الوطن يعني: الأرض التي يقيم عليها الإنسان وتربطه بها مشاعر المحبة والانتماء، ومنه اشتقوا كلمة الوطنية التي هي" حب الوطن، والشعور بارتباط باطني نحوه . وهي أيضاً ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الوطن ".([4]) وحب الوطن يتضمن المحافظة عليه والدفاع عنه، والقيام بكل ما من شأنه رفع مكانته وتقدمه، وهذا بطبيعة الحال يتضمن حب المواطنين والاهتمام بشؤونهم، والدعوة إلى تماسكهم وتضامنهم لينالوا حقوقهم.

ولمّا كان الشاعر أكثر فئات الشعب قدرة على التعبير الجميل عن مشاعر الشعب وأحاسيسه ورغباته وأمنياته، فإننا يمكن أن نعرّف البعد الوطني في الشعر بأنه "المنحى الذي يعرض فيه الشعر شؤون الوطن والمواطنين" ([5]) فيدعو إلى حب الوطن، والذود عنه، ويعكس مواقف النضال والبطولة، ويصور جراحه وآلامه، ويطالب بحقوق المواطن......

البعد الوطني في شعر المجزرة

كل المعاني السابقة نجدها ماثلة في القصائد التي تناولت مجزرة كفر قاسم، وإن كانت أغلبيتها لم تشر إلى الوطن بكلمة **(فلسطين)** أو المواطن بأنه **(فلسطيني)**، وربما عاد ذلك إلى الحساسية المفرطة

---

[1] / ابن منظور، لسان العرب، مادة وطن، 451/13

[2] / مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة وطن، 1084

[3] / الزبيدي، تاج العروس في جواهر القاموس، مادة وطن، 362/9

[4] / ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية،9

[5] / محمد عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر،257

تجاه هذه الكلمة من سلطات الاحتلال ، خاصة أن كثيراً ممن تناولوا هذه المجزرة، هم من شعراء فلسطين التي احتلت عام 1948م، ويُطبّق عليهم الحكم العسكري الصهيوني ، وتعرض بعضهم للسجن والتعذيب والنفي والاضطهاد، ولكن هذا لم يحل دون انتماء الشاعر لوطنه وتفاعله مع أحداثه ومعاناته، والتأكيد على اسم فلسطين على الرغم من مخاطر ذلك، كما فعل " محمود درويش" في واحدة من قصائده (يوميات جرح فلسطيني)([1])، وديوان تحت اسم (عاشق من فلسطين) .([2])

نجد الشعراء أحياناً يصورون الوطن بكل ما فيه من مدن وقرى وجبال ووهاد ، وأحياناً يخاطبون مسقط رأس المجزرة (كفر قاسم)، يقول "توفيق زياد" محدداً مكان الجرح النازف من وطنه:

وفي هذه الرقعة الساحرة
هنا...في الجليل الأبي وفي الناصرة
لنا وطن أثخنته الجراح
وروّع طيره ذات صباح
وصار كسيراً مهيض الجناح
لنا وطن راسف في القيود
وشعب تشرد عبر الحدود
ولكن سنمضي بعزم شديد
لنرجع حقاً أبى أن يبيد([3])

رسم الشاعر صورة معبرة عن نكبة فلسطين وتبعاتها، ممثلة فيما حل بإحدى قراها(كفر قاسم) المثخنة بالجراح والآلام ، تلك الآلام التي وجدت صدى لها في أشعار الشعراء.

جراحات الوطن المتجددة

يتساءل "محمود الدسوقي" متحسراً على مصير الشعب الفلسطيني، الذي أصبح فريسة للبؤس والشقاء: مَنْ هُجّر من فلسطين، تعرّض للإهانة والمذلة. ومَنْ قاوم الإعصار وثبت في وطنه، أصبح عرضة للسجن والظلم والقهر ومصادرة أرضه من حكم عسكري ظالم، وقد وصف ذلك محمود الدسوقي في قوله:

شعبي أيبقى للشقاء فريسة
رهن القيود بظل حكم جائر
الشعب، شعبي لا يزال مقيداً
ظلم، وسجن، تحت حكم عسكري([4])

---

[1] /محمود درويش، الديوان ، 342/1
[2] / نفسه، 75/1
[3] / توفيق زياد ، الديوان ، 324-325
[4] / محمود الدسوقي، ذكرى، ديوان الشهيد، 70

ويستمر الشاعر في وصف المآسي التي تعرضت لها فلسطين، كانت دائماً دموية خضّبت الأرض بدماء الشهداء الزكية، أمثال ضحايا المجزرة الهمجية في كفر قاسم، فظلت راسخة في الذاكرة الفلسطينية:

يا كفر قاسم

ما نسيت أتذكرين

مآسي الوطن المضرج بالدماء

ما زلت أذكرهم

وأنت أتذكرين([1])

يتساءل الشاعر إن كان النسيان قد تسلل إلى أهل كفر قاسم والفلسطينيين، وهو متيقن أن لا مجال للنسيان، لأن الجريمة تتكرر في كل يوم بلون وطعم جديدين، وتتزين بثوب فضفاض، ما يفتأ أن يشفّ ّعمّا تحته من ظلم وخسة وتآمر، تقلب حياة الفلسطينيين إلى جحيم دائم ، وهم يتحملون كل ذلك بصبر واحتساب ، ويزدادون تمسكاً بحقهم ، ويبذلون المزيد من الأرواح الزكية: قرباناً للوطن، ومشاعل حق تنير لمن بعدهم الدرب ليزدادوا تمسكاً وتجذّراً في أرضهم ، فهم يعلمون أن ما يصيبهم هو ضريبة حبهم لهذا الوطن، يقول "نديم حسين" واصفاً عذابات الفلسطينيين وآلامهم التي لا تزيدهم إلا حباً وتعلقاً بوطنهم:

وطن بطعم الملح والريح الغريبة والنحيب

وطن ويأكل أهله

وطن ويشرب ما تيسر من تغربنا الخصيب

وطن يؤجلنا ويذبحنا ويسلبنا معاقل عمرنا

وطن نسميه السليب

ونظل نحمله كلون جلودنا

ونظل نجمعه كطمي عذابنا

ليظل يورق كالزنابق خلف حزن سدودنا

ونظل نكرزه كمجد جدودنا

ونظل كي يبقى ...نضيع تظل أحلام الرمال تمد

كف سرابها لحشودنا

ونظل نحرسه من الصخر الذي يقتاتنا([2])

هذا الفلسطيني الذي رضع حب الوطن ، يضمّد جراحه، ويتعاظم إصراره على بذل الغالي والنفيس من أجل أرضه وتحريرها ، ويظل هذا الحب دليل صاحبه وهاديه في أحلك أوقاته، يقول سميح القاسم:

---

[1] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم.... وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد ، 71

[2]/ نديم حسين، مارش لكفر قاسم، ديوان الشهيد ، 99

وحين أسند ظهري إلى جدار السجن

حيث تفوح رائحة الاسمنت الطازج

يباركني النشيد المتدفق من زنازين وطني([1])

وإذا كان الأعداء يمعنون في الظلم والعدوان والقهر، فإن الشعراء الفلسطينيين والأحرار من الشعب الفلسطيني، يزدادون تمسكاً بالنضال والتضحية، حتى يتحقق النصر والتحرير، نجد "سميح القاسم" يبث الحماس والحميّة في أبناء شعبه، مستخدماً ضمير(أنا الشعب) الذي تعرض إلى العديد من المصاعب، واستطاع التغلب عليها ، يقول:

ولكم وقفنا بالقبور وأننـــــا نستلهم الشهداء إذ نستلهـــــــــم

ولكم نهضنا والقيود بواهــظ ولكــم سجدنا والتراب مغمغـــــم

ولكم أهبنا بالقرابين أبشــــري ولكــم عزمنـــا غير أنا الغنـــــم([2])

ويستمر الشاعر بضرب الأمثلة من أعمال الشعب البطل:

شعبي ! وكم صدعت صواعق نبضه صخراً على صدر المشيئة يجـثم

شعبي! وكم دبابة صُـدت علـــى أعقـــــابها بحجـــارة تتــرجم

شعبي!وكـــم أزرى القتيل بقــاتل وكــم انتشى يوم الفداء متيـّــم([3])

ويقف "محمود الدسوقي" محرضاً ومحذراً من نسيان آلامه ومآسيه، ويحثه على أن يأخذ دماء الشهداء وقوداً تدفعه إلى مواصلة المقاومة، لاسترداد الحقوق التي ديست تحت سمع العالم وبصره ،ولا من مجيب، يقول:

ربع قرن على المجزرة

شعبي

لا تنس ...لا تنس

لا تنس الشهداء الأبرار

عمالاً أطفالاً تجار

قتلوا سقطوا صرعى

برصاص الجند([4])

إن مرور الزمن ، وتقادم الأيام ، لن ينسي الفلسطيني غصته التي تجرّعها على أيدي أعدائه،ولا جراحه ودماء شهدائه التي سالت أنهارا، أو ليالي الغربة القاسية الباردة، بعد ما كان معززاً مكرماً في وطنه وبين أهله، فمهما ادلهم الخطب، وعظمت المأساة، فإن الفلسطيني متمسك بثوابته المتمثلة بإقامة دولته على أرضه ، وتحرير مقدساته ، وعودة اللاجئين إلى ديارهم وأرضهم، يقول "محمود الدسوقي":

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 197/2

[2] / نفسه، 2 /415

[3] /نفسه، 417/2

[4] / محمود الدسوقي، ذكرى وعهد، ديوان الشهيد، 67

مهما ادلهم الخطب

لن أنسى .... ولن أبكي

أقوم من الحطام

وأنير درب العائدين

إلى الديار من الخيام

وأعود للأقصى

وأرفع فوقه الأعلام .. يا شعبي

فلا تعجل ... ولا تيأس

فقد لاحت تباشير التحرر والوئام([1])

نجد التفاؤل والتصميم يطلان من بين ركام الجراح، التفاؤل المقترن بالعمل الجاد الفعال لحماية الأرض والدفاع عنها، باتخاذ الوسائل الكفيلة لتحقيق ذلك.

التآمر الدولي على الشعب الفلسطيني

مهما تآمر الأعداء الصهاينة على الشعب الفلسطيني، أو تفننوا في إيذائه واضطهاده، محاولين تغيير طبوغرافية الأرض، فلن يستطيعوا اجتثاثه من وطنه، لأن ما في الأرض يشهد بفلسطينيتها وعروبتها، ونصف شعبها ما زال منزرعا فيها. يقول "أسامة شواهنة" في وصف الأعداء ، وفضح أهدافهم وأحلامهم:

يتآمرون على أذى شعب أبر

بل يأملون له الرحيل

أو يشربون الكأس ترقص عند ألحان العويل

ألحان ركبان تهامس بالوداع مع الأصيل

فلتدفنوا أحلامكم في المهد هذا مستحيل

فجذورنا في الأرض أعمق من حكايات الزمن

... ...

تبكي وتصرخ أننا أبناء ذرات التراب

أبناء حبات الضباب

أبناء عهد لن يصير إلى سراب([2])

---

[1] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ....وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد ،77

[2] / أسامة شواهنة، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد ،228 ــ 229

ويذهب "عبد الناصر صالح" إلى أن وزر القضية الفلسطينية يقع على عاتق عدة قوى، وعلى رأسها أعداء التاريخ (الصهاينة)، الذين احتلوا البلاد، وطردوا العباد، ونام الحكام والسلاطين العرب عن استرداد الحقوق والدفاع عن الأرض، فلجأوا أذلاء صاغرين إلى المنظمة الدولية، منظمة الأمم المتحدة المحكومة للقوى الغربية الاستعمارية، التي تلتقي مصالحها مع مصالح الكيان الصهيوني، فقد سبق لهذه الدول أن أعطت للكيان الصهيوني وعداً بإقامة وطن قومي له في فلسطين، وبذلك يتخلصون من المشاكل التي يسببها الصهاينة في بلادهم، وجاءتهم الفرصة للمرة الثانية فاستصدروا قراراً من الأمم المتحدة يقسّم فلسطين إلى دولتين: أحداهما يهودية والأخرى عربية– وإن كانت أمريكا في هذه الأيام تحول التملص من هذا القرار – ومن هنا نجد العالم –ممثلاً بالأمم المتحدة– قد حكم على الفلسطينيين بالتشرد في البلاد وحرمانهم من أرضهم ووطنهم،يقول:

شيّدت حصوناً في فلوات الأرض الرحبة
أرسيت قلاعاً في وجه الليل
وأعلنت على سمع أعداء التاريخ
بأنك أسلحة الفقراء
... ...
وكتاب للأفكار الثورية
فليقرأ كل المنفيين بأمر الأمم المتحدة
كل المضطهدين بأمر سلاطين العصر
وكل المقتولين بسيف الأعداء ([1])

ويصور الشاعر نتائج قرارات الأمم المتحدة بقوله:

جزّأني في الوقت
فأصبحت بلاداً لا تحمل عنواناً
لغة لا تحمل معنى
أسقط في حلم يصل بلاد الشرق بأعصاب الثورة
ما ثقلت في الليل موازيني
ما ثقل جناحي
شاهدت سحاباً يحمل مطر نبوءات
فصرخت بلادي ([2])

تشير الأسطر الشعرية السابقة إلى أن الفلسطينيين مهما تكالبت عليهم الأمم، وتآمر عليهم القريب والبعيد، فإنهم سيظلون متيقظين، متخذين من المقاومة والثورة سلاحاً لهم، سيردون به حقوقهم من

[1] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 125ــ126
[2] /نفسه، 126ــ127

المحتلين. وسيظلون يحملون هموم الوطن لا فرق في ذلك بين مَنْ يقيم في وطنه فلسطين رغم القيود والظلم والقهر والقسوة... ومن هام على وجهه، ولجأ إلى البلاد المجاورة، نزيل الخيمة وبطاقة التموين التي تصدّق بها عليه من تسبب في كارثته، وحرمانه من بلاده، يقول "محمود الدسوقي":

وأعود للذكرى
مع الأيام والماضي
مع الأجداد
في الوطن المكبل بالسلاسل والقيود
وأنا مع الآمال والأحلام... أحملها
أهيم بها على وجهي
نزيل الخيمة السوداء
من خلف الحدود([1])

ويؤكد "حاتم جوعية" ضرورة عودة الحق إلى أصحابه، وإشراق شمس الحرية مهما طالت ظلمة الاحتلال، ما دام هناك من يتشبث بثرى فلسطين الطاهر ويطالب بحق العودة إلى أرضه التي ورثها عن آبائه وأجداده، محققا ذاته من خلالها، وليتخذ شجرة الزيتون مثالاً في الثبات والوفاء وتحمّل المصاعب، **فلن يضيع حق وراءه مطالب**. وهو إذ يدعو إلى كل ذلك يسجل حزنه وألمه على ما حل بوطنه من خراب ودمار وقتل وتشريد، فأصبح خراباً بلقعاً من أهله، الذين غدوا لاجئين مشردين يتجهمهم الغريب والقريب، ويتحملون كل ذلك بصبر وثبات يقول:

الحق يؤخذ لا يضيـــع هبـــــــــاء والفجر يسطع يطـــــرد الظلمـــــــاء
هذي بلادي فجرنا ومآلنـــــــــــــــا وجنان شعبي لم يــــــزل معطـــــاء
وتراب أرضي من نجيعي مخصـــب تبقى الربوع نديــــــــــة خضـــراء
زيتوننا صان العهود ولـــــم يــــزل رمــــز الوفــــــاء تشبثـــــاً وبقاء
ما للمنازل والملاعب قــد غــــدت من أهلهـــــا قفـــــراً هنا وخــــلاء
واللاجئون على المواجع والطّـوى تخذوا الخيام منـــــــازلاً وغطـــــاء
ومضت سنين بعــد عــام شتاتنـــا نسقى اللظــــا.. أنى نــروم عــــزاء([2])

الاعتزاز بفلسطين وأبنائها

يمضي "حاتم جوعية" في وصف آلام وطنه وجراحه، مصوراً هول مجزرة كفر قاسم وأبعادها على ذوي الضحايا خاصة، وعلى الفلسطينيين عامة، ولكنه رغم هذه الآلام يسجل ثقته بأبناء شعبه في

---
[1] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ....وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 73
[2] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد ، 197

النهوض من بين الركام، وعدم الاستسلام للظلم والقيد، فهم يثبتون كالطود في وجه الهجمة الصهيونية، ويقاومون الرياح العاتية التي هبت وما زالت تهب عليهم من كل جانب، يعلّمون العالم كيف يكون النضال والصمود، وبهذا حق لفلسطين أن تفتخر بأبنائها، وتطال بهم الجوزاء، يقول:

أخفوا الجريمة كي تظل دماؤنا هدراً تراق، وننحني ضعفــــــاء
لكن شعـــــبي رغم كل تآمــر كسر القيود وطاول الجـــــوزاء
قد هب من وسط الركام كمارد بشموخه قد شـــــابه العنقـــاء
وأطل من ليل المنافي فجـــره ومن الخيام لكم أطال نـــــــداء
تيهي افتخاراً يا فلسطين المنى وتألقـــي فوق الوجود سنـــــاء
....
شعبي الذي بهر الدنى بصموده صنـــــــع المحال وبدّل الأجواء
شعبي الذي هزّ العوالم عزمـــــه لـــن يستكين سيسحق الأعـــداء([1])

استطاع الفلسطينيون تذليل الصعاب ، وتحدي المستحيل من أجل فلسطين والثبات فيها، يقول "فاروق مواسي" :

كفـــــــــر قاســــــم قصـــة دمهــــــا لا يمســــــــــح
....
كـــــــم تفـــانوا للعـــــــلا كـــــل ضيـــق أفسحــــوا
كـــــــل بحــــر شربــــوا كـــــل طــــود زحزحــــوا
كـــــــل بعـــــد قربــــوا كـــــل عــــال طوحــــوا
كـــــــل شـــوك خضّـــدوا كـــــل زهــــر فوحــــوا
وفلســــــــــــطين لهم طـــير حــــــبّ يصــــــدح
ووردة فـــي رونـــــــــــق في شـــذاها تـنـفـــــــــح
نبضـــــــــــهم عشق الفــدا في هــــــواها ســـبحــــوا([2])

ألحّ الشعراء على ذكر فضائل أهل كفر قاسم، وتمجيد بطولاتهم وصمودهم على أرضهم وتمسكهم بها، فزادت مكانتهم بين الشعوب وأصبحوا مبعث فخر واعتزاز للفلسطينيين، ومحط حبهم الجارف الذي قد يصعب إيفاؤه حقه من التعبير، يقول "أحمد يوسف ياسين" :

يا كفر قاسم جنتي ما طـــــاب لي مثل لأرضك في الدنـــا وبديل
... ...
نهواك ما شمس السما قد أشرقــت ويموت جيل ذاد عنــــك فجيل
لغة العروبة لا تفي بحروفهــــــا وبديعهـــا إن المــــراد نبيـــل([3])

---

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد،199
[2] /فاروق مواسي، يستهان المسرح، ديوان الشهيد ، 91ـــ92
[3] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة، ديوان الشهيد ، 210

ويتفاءل " حاتم جوعية" بعودة أبناء الشعب المشردين إلى وطنهم وأهلهم وأرضهم، وتبتسم لهم الحياة من جديد، ما داموا متمسكين بهويتهم الفلسطينية، منتمين لأرضهم العربية، فهم الذين سيعيدون العزة والمجد والحق لأصحابه، عن طريق خوض المعارك ومقارعة الطغاة، فالشعوب هي التي تصنع التاريخ، يقول:

سيعود حتماً رغم كيد وعيدهـــم ويبدد الأهـــوال والأنـــــــواء
ويحقق الحلم الجميل بهمـــــــة والفجر يبسم.. ينشر الأضـــــواء
سيعود للأرض التي حضنت رفــا ت جدوده وسيـــــجمع الأشـــلاء
سيعود للحقل الوديع... لسهلــــــه، ولنبعه.. للسفح ذاب عنــــــــــاء
ويشيّد الصرح المهدم عنــــــوة يختال في أرض الجـــــدود رواء
طال البعاد عن الأحبة والحمــــى وعلى الحلول لكم نطيل ثـــــواء
المجد للشعب الذي خاض الوغــى لا يرهب الطغيان والأعـــــداء
لا يصنع التاريخ غير رجالـــــــه لم يحفلوا الأهــوال والأعبــــاء
فهويتي الأرض التي هي أمنـــــا وهويتي شعب يمــــوج عطــــاء
وهويتي تبقى فلسطين الفـــــــدا بترابها كم تحضن الشهــــــداء([1])

ضمت أرض فلسطين عددا كبيرا من الشهداء، بعدما سقطوا دفاعاً عن ثرى الوطن، فقد كانت فلسطين مطمع الغزاة منذ فجر التاريخ، ولكنهم جميعاً اندحروا صاغرين، وبقيت فلسطين ثابتة لأهلها، لم تبدل عهداً، ولم تغير انتماء، ثابتة ثبات الزيتون الصامد، طاهرة طهر القدس والحرم المكي، ولا بد أن يبزغ فجر الحرية والنصر مهما طال ليل الظالمين الغاصبين، وهو ما بشّر به "شاكر إبراهيم خطيب":

إن يقتلوا بطلاً في قلب صومعة أو يسلبوا الطفل ما يهواه من حلــــم
لن يخضعوا أمة بالحق سائرة حتماً سيبزغ فجر النصـــــر بالهمـــم
......
زيتون أرضي صامد لا ينثني يسمو رقياً كذا يختـــــــال بالأكـــم
رغم التآمر إن الأرض باقية كالروح في طهرها كالقــدس كالحـــرم([2])

ويستمر الشاعر في التأكيد على حتمية نصر أصحاب الأرض الشرعيين، مهما تمادى الظالم بظلمه، وتجبّر وتعسف، بل يقسم على ذلك بعد ما يأخذ الفلسطينيون بأسبابه، من التسلح بالعلم والسلاح، مصداقاً لقول الله تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل"([3]) فإذا دعمت القوة بالعلم نال المرء مبتغاه من النصر والتحرر، يقول:

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ، ديوان الشهيد ، 200
[2] / شاكر إبراهيم خطيب، الشهيد، ديوان الشهيد ، 211
[3] / الأنفال، 60

تاهت عقـــــول الظالمين لما بـــدا   من صدق عزم على التحرير والقســـم
كيـــــد العدو إلى نحر يعود غـــدا   مهما تكاثر في نـــــهب وفي ظلـــم
... ...
قسماً بذرات التــراب وما بهـــــا   لن تبدلوا العزم فـــي الأوطان بالســأم
إن تقتلوا الأعزل المرفوض في كفــر   سيخرج القاسم المغوار من عــــدم
سيعيد أمجادنا تلك التي نهبـــــت   ونعـــود نعكس ما ذقنــــاه بالغنــم
من ذا سيخبر أهل الأرض قاطبـــة   أنا سنشعلـــها بالسيف والقلـــــم([1])

وتظهر روح التحدي والإصرار واضحة جلية في الأشعار التي تناولت المجزرة والقضايا الوطنية الأخرى، كانت لها ردة فعل إيجابية حين وجدنا كثيراً من الشعراء والأدباء والسياسيين، وأعداداً غفيرة من أفراد الشعب يتحدون سلطات الاحتلال ويتجمعون لإحياء ذكرى المجزرة، من هؤلاء "سميح القاسم" الذي منعته قوات الاحتلال مع مجموعة كبيرة من سكان القرى المجاورة من الوصول إلى كفر قاسم لمشاركة أهل القرية الاحتفال بالذكرى العاشرة للمجزرة، ولكنه استطاع الوصول إلى ساحة الشهداء، وارتجل قصيدة ألقاها في المحتشدين على سمع الحاكم العسكري وجنوده المدججين بالسلاح يقول:

رغم حقد الرشاش يشهره الظالــم   أتينا.. فليلعق الــخــــزي حــاكـــم
نحن من شعبك المقيم على عــهد   الضحايا وذكريـــــات المآتـــــم
نحن أبناؤك الإباء على الضـــيم   أتينـــا من الجليـــــــل المقــاوم
من الكرمل الصمــود أتينــــا   لهباً من مرابــــع الـــبــغي حائـــم
... ...
أي شيء من العزاء نرجّـــــي   نحــــن من أسرة الحـــــداد توائـــم
نحن جئنا نهيب أن تستفيقـــــي   فلتلبي النداء ...يا كفــــــر قاســـــم ([2])

يشير الشاعر في البيت قبل الأخير إلى وحدة الشعور الوطني بين جميع الفلسطينيين ، فالحزن على ضحايا كفر قاسم لم يكن من نصيب أهلهم وحدهم ، بل نجده يعمّ كل فلسطين ، فيعلنون الحداد في كل بيت ، ويتوافد الشعراء لتقديم العزاء والمواساة، وهو ما يؤكده "راشد حسين" في قوله:

يا كفر ياسيف قد أردت لقاءنــــا   فتوافدت للقائـــك الشــــــعراء
أسرى بهم كرم الجليل فأصبحـــوا   فكأن ليلــتهم هي الإســـــــراء
وأنا أتيت من المثلث حامـــــلا   همــــّا له في خاطري ضوضــاء
يا ابن الجليل أتيت أحمل قصــــة   للموت فيها أسهم حمقـــــــاء
....
رفّ الحداد على بياض ثيابنــــا   وإذا ثياب نسائنا ســــــــوداء([3])

[1] / شاكر إبراهيم خطيب، الشهيد، ديوان الشهيد، 212

[2] / سميح القاسم، ديوان الحماسة، 3/60 ـــ61

[3] / راشد حسين، الأعمال الشعرية، 377 ـــ378

وإذا كان "راشد حسين" قد حدد موطنه بمنطقة المثلث الفلسطيني ، فإننا نجد "سهى قسيس" توحّد بين جميع الفلسطينيين في مختلف مدن فلسطين وقراها، ليبعثوا لأهل كفر قاسم –التي أطلقت عليها اسم (عروسة الملاحم)– ألف تحية وقبلة ، تقديراً منهم لصمودهم وصبرهم، ومبشرةً لهم بقرب النصر والتحـــرر، –إن شاء الله – ونجد حرص الشاعرة على إظهار اللحمة الوطنية في جميع الأسطر الشعرية في القصيدة التي قدمت لها بـــ" رسائل مع الحمام الزاجل"، تقول:

من بحر حيفا
وموجه المتلاطم
من قمم الكرمل
من أشجاره
ومن شذاه الناعم
نرسل
ألف قبلة وقبلة
إليك
يا عروسة الملاحم
من مدن الشمال
والأغوار
من صفد
من طبريا
ومن بيسان
من مدن قد هجّروها
حين جور الصبار
....
من شوارع القدس القديمة
من ثورة شبابها
ولوعة نسائها
وفرحة أطفالها
... ...
نرسل ألف قبلة وقبلة إليك يا عروسة الملاحم([1])

وتستمر الشاعرة على هذا النفس الشعري إلى نهاية القصيدة .

---

[1] / سهى قسيس، عروسة الملاحم، ديوان الشهيد، 221 ــ224

توحّدت أرواح شهداء فلسطين ، فأخذت تطوف على المدن الفلسطينية تحثها على التوحد والمقاومة، تقول "وفاء حزان":

روحي باقـــــــية طائـــــــرة

وترفــرف فـــوق فلسطيـــــــن

فمـــن النـــاصرة إلى يافـــا

ولبـــئر السبـــع ، فحطـــين

ومـــن الناقـــورة للقـــــدس

فعـــروس الـــبحر فياسيـــــن ([1])

نظر بعض الشعراء إلى الوطن القرية، فأطلقوا كلمة وطن على قرية"كفر قاسم" ، وربما رمزوا بها إلى جميع القرى والمدن الفلسطينية التي احتلت عام 1948 م، يقول "عقل ربيع":

"يا كفر قاسم" قد علوت على المدى أقمــــــار عزك ما لهن أفـــول

هذي روابيـــك الحبيبــة إنهــا وطــن لنا لا عاش فيه دخيـــــل([2])

لكي يسترد الفلسطينيون وطنهم ، وينالوا حريتهم، لا بد من المقاومة والكفاح، تقول "سهير أبو عقصة":

بلادي بلادي

يا كفر قاسم

حلفت بأني

لأجل ترابك

هذا المخضب

بالدم القاني

سآتي وأرفع راية عشقي

وسيف الشهادة

فالحلم قادم([3])

ويبعث "مجاهد ريان" روح التحدي والصمود والمقاومة في الفلسطينيين، ويذكرهم بأمجادهم وقدرتهم على مقارعة الأعداء، والثبات في الأرض. وحين يثور بركان الثورة والنضال، تتحول الحجارة في أيدي الأبطال إلى حجارة من سجيل، تحرق المعتدي الظالم. كما يحثهم على التفاؤل لأن المستقبل لهم، فكل فئات الشعب جنود تدافع عن الوطن، تقدم الشهيد تلو الشهيد دون منّة أو ندم أو خوف، وإذا كبوا

---

[1] / وفاء حزان، حديث الشهيد، ديوان الشهيد، 219

[2] / عقل ربيع، القاسمية، ديوان الشهيد ، 195

[3] / سهير أبو عقصة داوود، شهادة أطفال كفر قاسم إلى العالم، ديوان الشهيد ، 241

مرة، فسينهضون من جديد ولن يعني ذلك نهايتهم، وهنا نجد الربط ماثلاً بين حوادث القضية الفلسطينية من بدايتها إلى السنوات المتأخرة من القرن العشرين، يقول:

لا تحسبوا أنا نموت
فسنابل الحقل التي تصفرّ في عبن السما ستعود
لتزهر في عين الدجى غدنا
وكفى، فإنا أمة تتقن في الشد فن الصمود
وإننا إذا البركان فجرنا
بحجارة السجيل موعدنا
فلتخرسوا هذا الزناد
ولتخرجوا يا أيها الأبطال من ثوب الحداد
ولتهجروا نهر السواد
فالسيل جيشكم
وهذي الأرض، والأطفال، والإصرار
والنصر المعلق بالسماء وبالوهاد
وتبسموا
واستقبلوا الشهداء جيلاً بعد جيل
فإنا أمة نقشت حكايتها
بالدم في غرر الجياد وفي الجليل ([1])

مارست السلطات الصهيونية الإرهاب بكل أطيافه، لترسيخ واقع جديد يقوم على تذويّب الشعب الفلسطيني في الشعوب الأخرى، وزرع الدولة الصهيونية في قلب الوطن العربي على أنقاض الشعب المشرد المقهور، واتخذت لذلك أساليب عدة، منها مصادرة الأراضي لإقامة المستوطنات عليها، مما أثار حفيظة الفلسطينيين، فخرجوا في مظاهرات، سقط خلالها العديد من الشهداء دفاعاً عن ثرى الأرض والوطن، يقول "منيب مخول":

"عيد بأية حال عدت يـا عـــــــيد — بما مضى أم لأمر فـــــيك تجديـــــد"
إن كنت قد عدت بالماضي فلا انتظمت — فيك الأغاني ولا أحيــــاك تغريــــد
ماضيك جور وإذلال ومسغبـــــــة — وسلب أرض وتفريـــق وتبديــــــد
قد قام بين يديك النهب منصـــــلتاً — نهب لعمري بالقانــون مسنـــــــود
" فحاضر غائب" ذا منطق عجـــــب — فكيف غُيّب وهــو الآن موجــــــود([2])

---
[1] / مجاهد ريان، من ذكريات مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 281 ــ 282
[2] / منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد ، 87

ولم تكن مصادرة الأراضي عملاً فردياً، بل هي سياسة عامة للدولة الصهيونية، وظفت القانون لدعمها في ذلك

الأمل الراسخ وسبيل الحل

ظل الفلسطينيون يطالبون بحقهم في فلسطين كاملة من النهر إلى البحر، وينظرون إليها على أنها وحدة متكاملة، لن يتنازلوا عن شبر واحد منها. واعتبروا هذا المطلب ركيزة أساسية في القضية الفلسطينية،ورفضوا كل الدعوات الصهيونية إلى عقد صلح على أساس الأمر الواقع ، لكن أعوان الحكومة الصهيونية، راحوا يعملون في الخفاء ، يحاولون تليين موقف الفلسطينيين مستخدمين أسلوب الترغيب والترهيب،حتى تسلل اليأس إلى نفوس الحكومات العربية والقادة الفلسطينيين، وقبلوا بدعوة السلام مع الكيان الصهيوني سراً أو جهراً، بل أخذ بعضهم يروج لهذه الدعوة، مستندين إلى الآية الكريمة (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله). ([1]) وهم بذلك يلوون عنق الآية القرآنية، ويخرجونها عن نسقها الصحيح ، وشرطها الأساسي المتمثل في أن تكون الغلبة للمسلمين، وبعد خروج الكفار من الأرض الإسلامية . فإن مال الأعداء إلى عقد صلح مع المسلمين بعد ذلك ،يقبلوا ويتوكلوا على الله ، لا أن تكون أرضهم محتلة، وشعبهم مشرداً، ودماؤهم تنزف...، ثم يلهثون وراء سلم زائف، بل هو استسلام وإذلال.

ومهما يكن من أمر ، فإن القيادة الفلسطينية بعد ما تعرضت له من حروب ومضايقات في الدول العربية في أواخر الثمانينات وبداية التسعينات من القرن العشرين ، قبلت دعوة التفاوض مع الحكومة الصهيونية ، وإن أعادها "محمد عطوات" إلى ما قبل هذا التاريخ حيث يقول: "وما لبثت أن نشأت دعوات للمفاوضات ، وإعادة الأراضي المحتلة بعد عام 1967م مقابل السلام ، وهذا يعني الموافقة الضمنية على الاعتراف بحق إسرائيل المزعوم في الأراضي المحتلة منذ عام 1948م ، وفي ذلك قدر لا يحد من التجني على حقوق العرب عامة، والمسلمين خاصة، وملكيتهم لفلسطين كأرض ووطن".([2]) وهذه الدعوات منافية لموقف الشعوب العربية والإسلامية، ولموقف الشعب الفلسطيني بشكل خاص، الذي ما زال يقدم التضحيات الجسام من أجل هدفه الأسمى وهو حرية وطنه ومقدساته، كما يعتبرها سابقة خطيرة لها آثارها الضارة على حاضر الدول العربية والإسلامية ومستقبلها.

ورغم التغير في موقف القيادات إلا أننا نتمنى أن يكون الشعب الفلسطيني جسماً واحداً، ينطبق عليه قول رسولنا الكريم:- "مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" .([3]) فما يحدث في الناصرة ويافا وكفر قاسم ..... نجد أصداءه

---

[1] / الأنفال، 61

[2] /محمد عبد عبدالله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 471

[3] / الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، 270/4

في الخليل ونابلس وغزة . وما أن تنطلق حجارة رام الله وجنين وطولكرم حتى تساندها حجارة شفا عمرو والطيبة والمثلث..... يقول "عبد الناصر صالح":

الليلة نمت بكامل حزني
الليلة أيقظني وجعي الممتد
من النهر إلى البحر([1])

ولم يأت التغير عبثاً، كما لم يكن تخلياً من الفلسطينيين عن مبدئهم الأساس بحقهم في فلسطين كاملة. فقد بدا لهم أن هذا المطلب مثالي لا يمكن تحقيقه في هذا الوقت العصيب الذي يمرون به، لاختلال موازين القوى لصالح الأعداء، وما يمتلكونه من أسلحة تكنولوجية تحقق لهم أهدافهم بأقل الخسائر. وسط هذا التشرذم العربي، ولهث الدول العربية المستمر لإرضاء أمريكا ومن سار في ركبها. لذلك آثروا سياسة تحرير جزء من الوطن، وعقدوا اتفاقيه مع السلطات الصهيونية عام 1993م وأطلقوا عليه "غزة وأريحا أولاً" ولم تكن هذه المعاهدة منّة من الحكومة الصهيونية،بل بعد كفاح الفلسطينيين ونضالهم المستمر، حيث بهروا العالم بجرأتهم وقوتهم وقدرتهم على الجلد والتحمل، يقول "حاتم جوعية":

فانقض في ليل المنافي شعبنـــــــــا	خاض الحتوف وجلجل الأرجاء
بهر العوالم عزمه ونضـــــــــــاله	فرض الإرادة..حقق الأشيــــاء
وأقام دولته برغم مكـــــــــــــائد	جزءاً يضم بعيده الأجـــــزاء
رفع البنود "بغزة" وبكل شـــــــبر	قد تحرر ...أضرم الرمضــــاء
"والقدس" موعدنا غداً، وبنودنــــــا	فيها هناك تعانق الأنحـــــــاء([2])

ولم يكن الفلسطينيون يوماً ما؛ دعاة حرب ونزاع، إنهم يطالبون بالسلام المبني على إعادة الحقوق إلى أصحابها، ويمدون له أيديهم، ولكنهم يُقابلون بالتعنّت والظلم الصهيوني.

نحن السلام شعاره ونشـــــــيده	نحن الحمائم لا نـــــــروم عــداء
ولكم مددنا للسلام لهم يـــــــداً	قطعوا الأيادي...شوهوا الأسمــــاء
ثم استباحوا كل ما يحلو لهـــم	والأرض صارت أختها الخنســــاء([3])

والسلام الذي يطلبه الفلسطينيون يرتكز على العدل والمساواة التي طالبت بها الشرائع السماوية، "أحمد يوسف ياسين":

لسنا دعاة للحروب وإنمـــــا	دمنا يدوي عاليــــاً ويقول
نبغي سلاماً عادلاً نادى بـــه	القرآن والتوراة والإنجيـــل([4])

[1] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 132
[2] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ، ديوان الشهيد ، 201
[3]/ نفسه ، 200
[4] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة، ديوان الشهيد ، 210

والعدل يتحقق بعودة اللاجئين المشردين إلى أراضيهم وديارهم، وهذا أقل ما يعوضهم عن العذاب والذل الذي ذاقوه في بلاد الغربة، يقول "حاتم جوعية":

قالوا: السلام مـــآلنا وملاذنا ... وبه نحقق مبتـــغى ورجـــاء

لكن سلماً جاء دون كـــرامة ... وبه المهانة لن يكـــون عنـــاء

ما زال شعبي في المنافي لاجئاً ... يشكو المذلة غربـــة وشقـــاء

لا كان سلماً فيه يبقى نصـــفه ... شطراً يئن مشـــرداً مستـــاء

فالشطر باق في العذاب مخيـــم ... والعالم الوسنـــان زاد عـــواء

وعدوه..يرجع كم كلام كـــاذب ... شاب الزمان ومـــزق الإصغـــاء([1])

وكأن الشاعر ينظر بعين الصقر إلى المستقبل، فقد أعادت الحكومة الصهيونية احتلال الضفة الغربية وغزة، بعد عقد اتفاق السلام مع السلطة الوطنية الفلسطينية وعاثت في الأرض فسادا: قتلاً وتدميراً واغتيالات......ولن تستقر الأمور، وينعم الجميع بسلام حقيقي، إلا إذا أخذ الشعب الفلسطيني حقوقه الشرعية غير القابلة للتصرف وأهمها حق العودة.

ويردّ "كمال عبد الكريم الوحيدي" على الداعين إلى الصلح المذل بقوله:

ولكن السلام يـــذل قومـــي ... إذا ولوا عن الأقصى صـــدودا

فليس الحل في سلـــم مهيـــن ... به الأغلال نلقى والقيـــودا

فما جزار قبية([2]) ذا ســـلام ... ولا الأخصام نرضاها شهـــودا

إذا الرشاش لم يصنع سلامـــا ... فلن تأتي الحقوق ولن تعـــودا

إذا الأرواح لم ترجع حقوقـــا ... رضينا الذل واخترنا القعـــودا

رجال المسلمين لم استكنتـــم ... لمن خانوا الأمانة والعهـــودا

فهيا للنفير ولا توانـــوا ... أبيدوا الخصم لا تبقوا جحـــودا([3])

يؤكد الشاعر هنا مقولة " ما أخذ بالقوة فلن يسترد إلا بالقوة" ومن ظن أنه سيعيد فلسطين عن طريق المفاوضات – وهو في موقف ضعف – فهو واهم، فما جاء الصهاينة إلى هذه البلاد وحاربوا وارتكبوا المجازر،إلا للبقاء والإقامة فيها،ولن يخرجوا منها إلا بالقوة. لذا بات من المؤكد لدى الفلسطينيين أن عليهم واجب المقاومة والنضال ضد المحتل، والتركيز على السبل المؤدية إلى النصر: من الوحدة الوطنية، واستغلال ما هو متوافر لديهم من سلاح حتى الحجر، فانطلقت انتفاضة الحجر الأولى والثانية، ولسان حالهم قول" محمود درويش":

---

[1] /حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ، ديوان الشهيد ، 199-200

[2] / جزار قبية هو مناحم بيغن الذي حصل على جائزة نوبل للسلام بعد عقد الصلح مع مصر

[3] / حسني جرار وأحمد الجدع، شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، 7 / 154-155

أنا لا أكره الناس
ولا أسطو على أحد
ولكني إذا ما جعت
آكل لحم مغتصبي
حذار.... حذار......من جوعي
ومن غضبي([1])

ونخلص إلى القول بأن همّ الشعراء الفلسطينيين واحد، وشعرهم هو صوت الضمير الفلسطيني، الذي يشارك في الأحداث ويستثير الهمم ويشحذ العزائم من أجل بعث الروح الوطنية، لتحرير البلاد من أيدي المغتصبين وإرجاع الحقوق والسيادة لأصحابها الشرعيين ، عن طريق تصويرهم للأحداث والمآسي التي تصيب الشعب الفلسطيني، وما تعرض له من مجازر على أيدي الصهاينة ،وانعكاس هذه المجازر على الفلسطينيين عامة، فتغرس فيهم الدفاع عن ثرى الوطن بكل ما يمتلكونه من قوة. وإن لم يكونوا يوماً ما من دعاة الحروب،وإراقة الدماء، وهم في كل الأحوال ينظرون إلى إخوانهم العرب يأملون منهم المؤازرة.

[1] / محمود درويش، الديوان ، 74/1

2- البعد القومي

قبل الخوض في تفاصيل البعد القومي في أشعار مجزرة كفر قاسم، لابد من التعريج على مفهوم كلمة "قومي" التي هي مصدر منسوب إلى قوم،وهم "الجماعة من الرجال والنساء...وهم شيعة الرجل وعشيرته". ([1]) وورد في المعجم الوسيط معنى كلمة (قوم): "الجماعة من الناس تجمعهم جامعة يقومون لها" ([2]). فلابد أن تكون هناك رابطة قوية تربط بين أفراد الجماعة وتُوظف هذه الرابطة لما فيه خير الجماعة. لذلك يطلقون اسم (القومي):"على من يؤمن بوجوب معاونته لقومه ومساعدتهم على جلب المنفعة ودفع المضرة".([3])

والقومية هي "الانتماء إلى أمة معينة والتعلق بها، والقومية بهذا المعنى تقوم على عنصرين: عنصر موضوعي هو مجموعة الروابط المشتركة التي تجعل من شعب معين أمة بالمدلول العلمي. كالاشتراك في الأصل أو اللغة أو العقيدة. وعنصر معنوي أو شعوري وهو الحالة النفسية التي يولدها قيام تلك الروابط التي هي شعور الانتماء المتبادل".([4]) ويمكننا اختصار ما تقدم بالقول: إن القومية هي:"صلة اجتماعية عاطفية تنشأ من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والمنافع وقد تنتهي بالتضامن والتعاون إلى الوحدة".([5]) وهذه المقومات هي التي تجمع بين أقطار الوطن العربي، ومن هنا يمكننا القول: إن البعد القومي في الشعر العربي:هو البعد الذي يختص بالشؤون العربية من تضامن وتعاون ووحدة ودفاع عن الأوطان والحقوق وما إلى ذلك .

لقد ظلت الرابطة الإسلامية هي المظلة التي انطوت تحتها كل الروابط الأخرى من قبلية ووطنية وقومية .....منذ فجر الإسلام، وإن أطلق بعض الباحثين على العصر الأموي اسم الدولة العربية، إن ظهرت بعض الحركات القومية في العصر العباسي وما يليه، ولكن في كل الأحوال كان السلطان الإلهي يعلو على كل السلطات، وظل كذلك إلى أن ضعفت الخلافة الإسلامية – رمز الوحدة الإسلامية- في نهاية القرن التاسع عشر، وتم القضاء عليها في مطلع القرن العشرين، فأخذت الدول العربية تتلمس أسباب وحدة تجمعها في إطار واحد، علها تستطيع الوقوف أمام سرطان الاستعمار الزاحف عليها من كل جانب ، فوجدته في وحدة اللغة والأصل والثقافة والتاريخ والمكان ووحدة المصير والتراث الفكري. وظهرت الحركة القومية العربية التي "تنادي بحق الأمة العربية من الخليج العربي إلى المحيط

---

[1] / ابن منظور، لسان العرب، مادة قوم، 505/12

[2] / مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة قوم، 798/2

[3] / نفسه، والصفحة نفسها

[4] / محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، 1408

[5] / مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة قوم، 798/2

الأطلنطي في تكوين وحدة سياسية مستقلة".([1]) قادرة على الوقوف أمام التكتلات السياسية والعسكرية العالمية.

ويؤكد " محمد عطوات" على أن ما ساعد في ظهور الاتجاه القومي هو " تفتح القوميات وظهورها في كثير من الدول الأوروبية، فسرت الأفكار القومية إلى العرب من عدة سبل: كالبعثات الثقافية والعلاقات التجارية ومدارس الإرساليات وغيرها" ([2]) ويمكننا القول إن بداية الحركة القومية العربية الحديثة. كانت الثورة العربية على الحكم العثماني 1916م. وأبرز ثمار هذه الثورة العملية، قيام جامعة الدول العربية سنة 1945م، كما تعتبر هذه الحركة المحرك الأكبر لحركات الاستقلال ومشروعات الوحدة التي شهدها العالم العربي، وقد تبينت الجمهورية العربية المتحدة هذه الحركة وعملت على نشر فلسفتها.([3])

هذه العوامل وغيرها وجدت تربة خصبة، ونفسية مهيأة لدى الشعوب العربية التي أخذت تدعو إلى الحرية والقومية والعدل والمساواة ،... " وأصبح الشعور القومي الذي يجمع بين كل الناطقين بالضاد، هو الأساس في الوحدة العربية والتعاون العربي في المجالات المختلفة".([4])

ولما كان الشعراء العرب جزءاً من الشعوب العربية، وأقدرهم على التعبير عن آمال الأمة وآلامها وتطلعاتها، فقد ظهر الاتجاه القومي في الشعر العربي – ومنه الشعر الفلسطيني- الذي يشتمل على الأفكار والموضوعات القومية العربية، ويعبر عن الطموحات وكل ما يهم الأمة العربية.

القومية ومجزرة كفر قاسم

برز البعد القومي في الأشعار التي تناولت مجزرة كفر قاسم بشكل قوي، ويعود السبب الرئيس في ذلك إلى تنامي الشعور القومي والوحدوي، وذلك بسبب الدعوة الناصرية، وبسبب ما كانت تغذيه وسائل الإعلام التي ظل المواطن العربي يستمع إليها ويتابعها سراً وجهراً.([5])

ثم أن العدوان الثلاثي على بور سعيد بدأ في1956/10/29 وهو اليوم نفسه الذي وقعت فيه مجزرة كفر قاسم، إضافة إلى ذلك؛ فقد شعر الفلسطينيون بقلة حيلتهم في مواجهة هذا العدو المتغطرس، فأخذوا يلتمسون العون والمساندة من إخوانهم العرب ورأوا في ذلك حقاً شرعياً باعتبار فلسطين جزءاً لا يتجزّأ من الوطن العربي الكبير.

[1] / محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، 1409

[2] /محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 356

[3] / انظر، محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة، 1409

[4] /محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 356

[5] / فاروق مواسي، شاهد على حصاد الجماجم، مرايا في النقد، 41

وهناك سبب يعود إلى نشأة دولة إسرائيل، حيث قامت على خلفية "وعد بلفور" الذي أعطى فيه وزير الخارجية البريطاني (بلفور) وعداً بتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وكانت سياسة(الوطن القومي لليهود) في فترة الانتداب تعني" المضي في ترسيخ الوجود الصهيوني بفلسطين العربية لكي يتسنى للاستعمار اليهودي توطيد دعائمه والاستيلاء على المواقع التي تتيح له الوثوب نحو تهويد فلسطين، والتخلص من الأكثرية العربية بشتى الوسائل الممكنة " ([1]) من هنا نجد أن الجنود الذين ارتكبوا جريمة قتل الفلسطينيين في كفر قاسم ربوا تربية قومية شوفينية، تنظر إلى العرب على أنهم أعداء وليس لهم حقوق. ويقتبس "مصطفى كبها"– من منشور وزع بعد ارتكاب المجزرة بفترة قصيرة باسم المواطنين العرب – عبارة تبين "أن المسؤولين الحقيقيين في نظرنا هم أولئك الذين رسموا سياسة الاضطهاد القومي ضد المواطنين العرب". ([2]) فقومية الضحايا العربية هي الذنب الذي من أجله قتلوا.

وليس ذنبهم حتى يكاد لهم

غير أنهم عرب من أجل ذا كيدوا ([3])

هذه العوامل أججت المشاعر القومية لدى الشعراء، فانطلقت ألسنتهم ترسم صورة مشرقة للمستقبل العربي، وتحارب كل مظهر قد يعكر صفاء هذه الصورة، أو يقف في طريق تحقيق الوحدة العربية.

إن نظرة عجلى إلى مجموعة الأشعار التي قيلت في مجزرة كفر قاسم، تظهر أن البعد القومي نحا منحيين؛ منحى يدعو إلى الافتخار والاعتزاز بالأمجاد العربية والانتصارات، ويدعو إلى وحدة الصف والتضامن والتعاون.....وآخر يظهر فيه النقمة على القيادات التي تخاذلت عن نصرة الفلسطينيين، وتركتهم فريسة سهلة بين مخالب القتلة، يكتفون بالمراقبة عن بعد، وبعبارات الشجب والاستنكار والإدانة، بل قد يضنون بها أحياناً، وفي أحيان أخرى يوجهون اللوم إلى هذا الشعب، الذي يدافع عن نفسه وكيانه بإمكانياته المتواضعة.

الاعتزاز بالعروبة

بلغ الاعتزاز بالعروبة والدعوة إلى القومية العربية أوجها، في عهد الرئيس المصري "جمال عبد الناصر"، الذي يعتبر حامل لواء القومية، وناشر فلسفتها، لذلك أصبحت له شعبية كبيرة بين الشعوب العربية، وكانت خطاباته تسمع من الملايين من العرب –رغم ملاحقة بعض الأنظمة العربية لها–، وقد خشي الاستعمار الغربي المتمثل في بريطانيا وفرنسا، أن تأتي الدعوة القومية أُكلها بتوحد العرب تحت

---

[1] / عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، 295

[2] / كفر قاسم في الرواية التاريخية الفلسطينية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة،190

[3] / منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 88

قيادة واحدة، فقاموا بالتخطيط لضرب مصر، والقضاء على زعيم القومية العربية، واستغلوا حادثة تأميم قناة السويس، فضربوا مدينة بور سعيد في 1956/10/29، يقول " حاتم خوعية":

وتآمر الطغيان ضد عروبتـــــــــي	مصر الكنانة تكشف الأنبـــــاء
ولأجل تأميم القناة تكالبـــــــــوا	مستعمرون أتوا هنا جبنـــــاء
عدوانهم في مصر كان مبرمجـــــاً	فالغاصبون تحالفوا شركـــــاء
في "بور سعيد" هب شعب صامــــد	بركان مصر زلزل الحلفـــــاء
عاد الغزاة بخزيهم وبعارهـــــــم	أطماعهم أضحت هناك خـــــواء
"وجمال" قائدنا يظل مخـــــــلداً	والغار كلل هامه الشمـــــاء([1])

التف الشعب المصري حول قائده، واستبسل في الدفاع عن أرضه وقائده، فرد الغزاة يجرون أذيال الهزيمة والخزي والعار، وقد ساعد المصريين في ذلك وجود قطبين للسياسة العالمية في ذلك الوقت، قطب غربي بقيادة الولايات المتحدة وتنضوي تحته فرنسا وبريطانيا ...... وقطب شرقي بقيادة الاتحاد السوفييتي الذي تعاون معه "جمال عبد الناصر"، فاستطاع بذلك رد الغزاة، وحق للمصريين والعرب الافتخار به وكتابة تاريخ مشرق لهذا الزعيم القومي، الذي استطاع انتزاع نصر للعرب والعروبة بعد سلسلة هزائم أصابت الوطن العربي، وهو ما يبدو في قول "محمود الدسوقي":

سيناء تذكر غزوة وتآمراً
والنيل يضرب بالثلاثي الماكر
فشلّت مؤامرة وشل تآمر
وليّ الغزاة أمام شعب ثائر
عاد القنال لمصر رغم جيوشهم
يا شعب مصر أنعم به من ظافر
وغدت ضفاف النيل جنة شرقنا
"ومجنة" للغاصب المستعمر
يا بور سعيد مدى العصور، فخلدي
ذكرى انتصار للعروبة واذكري
أمجاد أمتنا وعزة شعبنا
تاريخنا وسط الزمان الغابر
وليكتب التاريخ في صفحاته
ما شاء ــ بالتبر ــ عبد الناصر ([2])

---

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 198- 199

[2] / محمود الدسوقي، ذكرى، ديوان الشهيد ، 70 – 71

وقعت المجزرة في اليوم الذي بدأ فيه العدوان الثلاثي على مصر، ومن هنا جاء الربط، في قول "وداد البرغوثي":

هنا في الدار مذبحة

هناك بنيلنا العدوان([1])

ولم تقف الشاعرة عند الاعتزاز برد العدوان الثلاثي، بل تابعت ذلك بذكر انتصارات أخرى على الأراضي العربية، في كل من الجزائر والعراق، وإن كان هناك جرح نازف في قلب الوطن العربي، وهو جرح فلسطين الذي سيلتئم – إن شاء الله –وتعود راية الحرية ترفرف فوق ربوعها، بعد تحريرها على أيدي أبناء أمتنا المخلصين المناضلين، الذين لا ترهبهم قوة أعدائهم المبنيّة على تكنولوجيا السلاح، تقول:

وفي كل شبر بأرض الجزائر

تدور بأعداء شعبي الدوائر

وتلتهب الأرض ذات السرائر

وتنطق بالنصر أحلى البشائر

ونكتب تاريخنا في العراق

بسيل دم للحياة مراق

ونمضي: صدوراً

تحدّت رصاصاً وناراً

وفي هذه الرقعة الساحرة

هنا في الجليل الأبي وفي الناصرة

لنا وطن أثخنته الجراح

....

ولكن

سنمضي بعزم شديد

لنرجع حقاً أبى أن يبيد

سنرجعه

سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد

ونجعله جنة من جديد ([2])

وتعد القصيدة السابقة من أوائل القصائد التي تناولت المجزرة ، "فقد نشرتها مجلة الجديد في عدد يناير 1957م".([3]) وهي تمتاز بالجرأة والتحدي والتفاؤل بالنصر، بل والتأكد من حتمية تحقيقه، وهذا ما

---

[1] / وداد البرغوثي،ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 205

[2] / نفسه، 323– 324

[3] / فاروق مواسي، شاهد على حصاد الجماجم، مرايا في النقد، 38

نجده عند "سميح القاسم" الذي ربط بين مجزرة كفر قاسم والعدوان الثلاثي على مصرفي قوله:

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى

ما بكيت

قلت: فوج أخر يمضي

ومن بيت لبيت

رحت أروي نبأ الغلة في العام الجديد

ومن المذياع، أنباء عن العام المجيد

"مصر بركان وكل الشعب يحمي بور سعيد

أيها الإخوة ..... والنصر أكيد"([1])

والشاعر ينتظر الخلاص والتحرر الذي يتمثل في الوحدة العربية، وبلغة الشعر في:(بعث النهر) و (شدو الحمائم)، يقول:

وإلى أن يبعث النهر

وتشدو في أغاني الحمائم

أوقظ الدنيا هتافاً لا يساوم

كفر قاسم ([2])

كانت نتيجة العدوان الثلاثي مبعث أمل لدى الفلسطينيين في تحقيق النصر القريب، لذلك كثرت الدعوات للأخذ بثأر الضحايا والانتقام لهم. ولكن هذا الأمل خبا وتلاشى بعد هزيمة 1967م، واحتلال الضفة الغربية وسيناء المصرية، فتراجع (موتيف) الانتقام ليحل محله (موتيف) المطالبة بمحاكمة عادلة ، وهذا المطلب تكرر كثيرا بعد إعلان وزير المعارف الإسرائيلي(يوسي ساريد) سنة 1999م عن ضرورة تدريس المجزرة في برامج التعليم الإسرائيلية ([3]). يقول "سميح القاسم":

كفر قاسم

أعطني فماً ....فلأتكلم

ولأصرخ من شدة حبي وحسرتي

واغفري لي.....لتغفر لي أماسيك الباهظة

إن لم أوسّد عنقك المذبوح، بذراعي

"ذراعي طارت مع قذيفة في سيناء"([4])

وكانت أنباء المجزرة – وإن عمد الصهاينة إلى إخفائها وتأخير نشرها– بمثابة بركان هزّ ضمير الأمة العربية وملأها بالحقد والنقمة على المعتدين الظالمين، يقول "توفيق زياد":

---

[1] /سميح القاسم، الإعمال الكاملة، 102/1

[2] /نفسه،1/ 104– 105

[3] / انظر مصطفى كبها، مجزرة كفر قاسم في الرواية التاريخية العربية الفلسطينية، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 120

[4] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 2/ 197

صراخ تفجر في أمتي
براكين بالحقد والنقمة
وباللعنة المرّة([1])

وقد أسهمت وسائل الإعلام دوراً هاماً في إخفاء الحقيقة عن الشعوب العربية، فكانت كثيراً ما تصور الهزيمة انتصاراً، والخنوع والذل سياسة وحنكة، كما غيّبت كثيراً من الأحداث التي أصابت الفلسطينيين، منها مجزرة كفر قاسم التي ظلت مغيبة عن الإعلام العربي والغربي " ولم تتصل جيداً بعلم الرأي العام العربي إلا في صيف 1964م" ([2]) هذا مع العلم أن وسائل الإعلام العربية لم تترك قضية في العالم إلا تناولتها، وبثت حولها التقارير الوافية." مع أن ما يحدث يومياً في كل قرية أو مدينة من الوطن المحتل يطرح قضية لا أريد أن أقول "قومية" بل "إنسانية" تفوق في الأهمية سائر القضايا الإنسانية الأخرى" ([3]) وكانت وسائل الإعلام العربية، الوسيلة الأولى في إيصال المعلومات للشعوب العربية، وإن تراجع هذا الدور في هذه الأيام، لانتشار الفضائيات واستحداث وسائل إعلام جديدة مثل شبكة الانترنت.

ويدعو "فاروق مواسي" الأمة العربية لتفريغ حقدها وسخطها على المعتدين الغاصبين بالاتحاد واتخاذ الأسباب الكفيلة لتحقيق النصر، يقول:

أمتـــي شدي المـــدى	نحـو نصر يكســـــح
ما نسينا قسمـــــــاً	كل وعر يصلـــــــح
كل داء لـــــــدواء	كل جرح يجـــــرح([4])

وليس غريباً على الأمة العربية أن تحقق أهدافها ومآربها، فالدم العربي- كما يقول "حاتم جوعية"- يرفض الذل والاستكانة، والشجاعة العربية مضرب الأمثال ومحط الافتخار، والإقدام العربي يتحدى المصاعب والأخطار، ويرفض المساومة على الحقوق والاستسلام.

أنا منشد الأحرار صوت كفاحهم	وأرى التحرر مطمحاً وهنـــــاء
ودم العروبة فيّ يصرخ هـــادراً	أن لا تساوم....... فانبذوا العمـــلاء
نحن العروبة فجرها ونشيـــدها	خضنا التحرر وثبة وفـــــــداء
وبنا النضال يهز كل مسامــــع	فُقنا الشعوب بسالة ومضــــــاء
وبنا طريق الحق أضحى مشرقاً	بمسيرنا لم نحفل الكـــــــأداء
....	
يا أمتي فيك المآثر والعـــــلا	خضت الخطوب معاركاً شعـــواء
وتعانقين المجد من أطرافــه	وتسددين الطعنة النجـــــلاء([1])

---

[1] / توفيق زياد، الديوان ، 308

[2] / يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتل، 19

[3] / نفسه، 15

[4] / فاروق مواسي، يستهان المسرح، ديوان الشهيد، 92

مهما تكالبت الأمم على قهر الشعوب العربية وإذلالها، فلن يخضعوها ولن ينالوا منها، بل ستنهض مرة ثانية بهمّة وعزّيمة أقوى، وستشرق شمس النصر فوق ربوعها، وتعود إليها عزتها وكرامتها،وهو ما يؤكده "شاكر إبراهيم خطيب"في قوله:

إن يقتلوا بطلاً في قلب صومعة   أو يسلبوا الطفل ما يهواه من حلم

لن يخضعوا أمة بالحق سائـــــرة   حتماً سيبزغ فجر النصر بالـــهمم([2])

كل هذه آمال وتطلعات، يتغنى بها الشعراء، يهدفون إلى بعث روح النخوة في النفوس ، وإلى زيادة الترابط بين أفراد الأمة الواحدة، والشعب الواحد، لتقف أمام مخططات الاحتلال الذي تجاوز كل الشرائع السماوية، والأعراف الدولية في تعاملهم مع العرب عامة والفلسطينيين خاصة، وداسوا على المشاعر الإنسانية بقتلهم الشيوخ والأطفال والنساء، وملاحقتهم للأحرار المناضلين، وما يصاحب ذلك من تدمير وقتل، ، فسرى الحزن والأسى في قلب الأمة العربية، التي تربطها مع بعضها مشاعر المحبة والتآلف والتراحم، ووحدة المصير. يخاطب "علا عيسى" شهداء كفر قاسم الذين رمز إليهم باسم " فاطمة"قائلاً.

يا فاطمة

....

ذكراك ادمنّا ويسري حبك المتغلغل

في طفلنا

في شيخنا

في الألف مليون وفي الخمسين([3])

ويؤكد "راشد حسين" على عروبة فلسطين، ورابطة الأخوة التي تجمع بين الشعوب العربية. لذلك أخذ يبث إليهم همّ الفلسطينيين وآلامهم وأحزانهم، وهو يتلهف إلى تغيير هذا الواقع المرّ الذي يعيشه مع أبناء شعبه تحت ظل حكم جائر محتل، يقول:

وأنا أتيت من المثلث حامـــــــلاً   همّاً له في خاطري ضوضـــــــاء

وتحية عربية من قريتــــــــــي   شرقية ألفاظهــــــا سمـــــــــراء

يا إخوتي بكت الجراح ولم تــزل   تبـــــكي فدمع عيونهن دمــــــــاء

عمّن أحدثكم وكل حياتنــــــــا   همٌ ووشك منيـــــة وشقـــــــاء

اليوم جئت وفي فؤادي لوعـــــة   فمـــتى أجيء ولكنا سعـــــــــداء([4])

---

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء ، ديوان الشهيد ، 199

[2] / شاكر إبراهيم خطيب، الشهيد، ديوان الشهيد ، 211

[3] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد ، 106

[4] /راشد حسين، الأعمال الشعرية، 377

ظل الفلسطيني يعتز بعروبته، وانتمائه إلى هذا الوطن الكبير، ويفتخر بلغته العربية وبلاغتها – خاصةً أن هذه اللغة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالدين الإسلامي – ويتطلع إلى الدول العربية بعين الأمل في مساندته والثأر له كلما داهمه الخطر، ولم ينس دعوتهم إلى التنبه، " فالحية الرقطاء تريد لحضارتنا أن تحيا على الخراب والدماء"([1]) ويؤكد هذه المعاني "سالم جبران"في استصراخه للأمة العربية، يقول:

الدم لم يجف ...والصرخة لا تزال

تمزق الضمير. والقبور

مفتوحة في فمها أكثر من سؤال

ولم يزل مدخل "كفر قاسم "

مروعا من هول تلك الليلة السوداء

يا أمتي الثكلى بنوك كلهم

في مهجتي وأكره البكاء

يا أمة أحبها ... تنبهي

فلا تزال الحية الرقطاء

عطشى إلى الدماء.. ([2])

ونرى الفلسطيني في السنوات الأخيرة يراهن على الشعوب العربية، بعد ما نفض يديه من القادة ونصرتهم، بل نجده يتعرض أحياناً للقتل والملاحقة على أيدي بعض القادة الذين يصمتون على الجرائم المرتكبة بحق الفلسطينيين في بلادهم . رغم ذلك ظل الفلسطيني ينظر إلى القومية العربية على أنها الثابت وسط المتغيرات الكثيرة التي تحيط به، وهي الإطار الذي يجمعه مع شعوب تربطه معهم اللغة والدين ووحدة المصير.

النقمة على قادة العرب

بعد أن سقطت القرى والمدن بأيدي العصابات العسكرية الصهيونية، وما قامت به من ارتكاب جرائم ومجازر في دير ياسين والقسطل وغزة وقبية وكفر قاسم.........،وما مارسوه من قتل وتهجير في أبشع صوره، ظلت أبصار الفلسطينيين شاخصة إلى إخوانهم العرب، متعلقة بآمال عراض بقرب التحرر، والخلاص من الوباء الذي حطّ بأرضهم. وبدل أن تهب الدول العربية بجيوش جرارة، دخلت بعض الكتائب العربية التي لم يكن بينها التنسيق الكامل، فتراجعت أمام زحف العدو، وبدأنا نشهد عقد الهدنة تلو الأخرى. ولم يقم الزعماء العرب بما عليهم، بل تركوا الفلسطينيين يواجهون مصيرهم المظلم

---

[1] /ذيبة زياد شما ، الموت في الشعر الفلسطيني المعاصر 1963– 1995 ، 132، رسالة ماجستير، جامعة دمشق.

[2] / يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتل، 542

وحيدين بصدور عارية. ويسجل "سميح القاسم" سخطه على الدول العربية بعد تخليهم عن كفر قاسم وقد مرت مدة وهم ينتظرون العون والخلاص.

يا كفر قاسم..... عز جرح ناغر ... في صدرك العاري وعز البلسم

ومن الأُولى تركوك صدراً عارياً ... ومن الأوُلى سفكوا دماءك.. من هم

أهم الغلاظ الغبر غل غليلهم ... أهما يداي...؟ سألت لكن أعلم

قست الثعالب والكروم مباحةً ... وقسا نواطير الكروم النوّم

لكن ناب الغدر أيقظ هاجعا ... شكراً لناب الغدر ضاء المعتم ([1])

يشكر الشاعر للنوائب وقوعها، لأنها أزالت الغشاوة عن عيون الفلسطينيين، وكشفت القناع عن المتشدقين بالعروبة، وأظهرت حقيقتهم المتخاذلة الغافلة عن حقها وأرضها.

وبعد مرور خمسين عاماً على المجزرة، نجد "محمود الدسوقي" يستنهض الهمم ويتمنى على الأمة العربية أن تصحو من غفوتها، وتعيد للأرض عزتها وكرامتها، وتأخذ بثأر الدماء التي روت الثري الطاهر، يقول:

يا كفر قاسم ما نسيت ألا أذكري

....

طالت المأساة واشتد الظلام

روي الثرى بدم الشهيد

توددت أرض البلاد

وراعني.......نامت نواطير العروبة

ليتها تصحو

مضى خمسون عام

ما زلت أذكرهم ([2])

وهذا الخنوع والصمت العربي من المحيط إلى الخليج على جرائم الأعداء يؤرق الشعراء، وكل نفس حرّة ترفض الذل والهوان، وتؤمن بقوتها على الصمود والمقاومة، لذلك نجد" عبد الناصر صالح" ينتفض عزة وكرامة، ويعلن افتخاره بأبناء شعبه الفلسطيني، الذين سيظلون رمزاً للنضال والمقاومة، ولن يسقطوا في براثن الذل والهزيمة. قد يتعثرون في مسيرتهم، لكنهم سينهضون من جديد ولن يستسلموا ويرفعوا الراية البيضاء، كما فعل غيرهم ، حين تخلوا عن إخوانهم الفلسطينيين وقت الشدة:

الليلة أيقظني وجعي الممتد

من النهر إلى البحر

وأرقني صمت الصحراء

---

[1] /سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 2- 416

[2] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم...... وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 75- 76

وصمت الشعراء

وترجلت

أنا الفارس فوق حصان الوطن الجامح

لم أسقط

قد أنزف لكن لن أسقط

قد يكبو في الليل جوادي

لكن لن يسقط ([1])

ويتناول "هشام أبو صلاح" هذا المعنى، فيصف الشعب الفلسطيني الذي لم يستسلم ولم يذل بالشموس:

لم يسقطوا وغيرهم هوى كاليبس في الهزيمة

وفي فظاظة الجريمة

لم يرحلوا وغيرهم تكرشت بطونهم خنى

وهم فقط

شموسنا الصحيحة السليمة

في زماننا الغلط([2])

ولم تقف" نزهة ناجي" عند تفضيل الفلسطينيين على غيرهم من العرب، بل سحبت هذا الحكم على فلسطين بمدنها وقراها، وهي موطن الرجال الأبطال والنساء الحرائر، لصمودهم أمام هجمات الأعداء المتكررة، يقول:

يا لؤلؤة العصر النادرة

من المحيط إلى الخليج

بحثنا عنك ولم نجدك

فلتخرجي من خلف هذه الضمائر

لتزيني بلادنا

بالرجال والحرائر

....

فلتأتنا أميرتي ....بفارس تهابه

سطوة كل الفرسان ([3])

---

[1] / عبد الناصر صالح طيور الفينيق، ديوان الشهيد ، 132

[2] /هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 169- 170

[3] /نزهة ناجي، سحر الشيطان، ديوان الشهيد ، 245- 246

وتصب الشاعرة غضبها على من ضيع كفر قاسم،والمدن الفلسطينية الأخرى ، وهي توازن بين عرب هذه الأيام وعرب العصور السالفة، الذين زرعوا البلاد عزّاً وبطولة وكبرياء، تقول:

يا عذراء باتت في مهد الطفولة
ضيعك القوم فبئس هذه الرجولة
قد مر الكرام من قومنا يوماً
فكنت لحن عزّ وبطولة
وجاء الآخرون
فصرت في شفاههم أشعاراً مصقولة([1])

تحولت اهتمامات العرب، وانقلب حالهم، كانوا سادة العالم وقادتها، فأصبحوا أذلاء صاغرين ينهشهم أعداؤهم من كل جانب، بعد أن تخلوا عن المجد الذي يخضب بالدم، ويحفظ بالقوة والسلاح، وأصبح أكبر همهم اللذة المتمثلة في الخمر واللهو والنساء.أُسود على بعضهم خراف على أعدائهم، يقول "عبد السلام محمود موسى":

يا كفر قاسم لا شانتك مخزيـــــة ... ولا سعت نحـــــوك الآفات والرهب
تقصر الهمم الأعلام عن علــــم ... جبينه بالنجيع الطـــــــهر مختضب
لم يمض عن غرر إلا إلى غرر ... في المجد يغضبها قان الدم السرب
حوِالَهُ أنفس في الـــذل مقعيـــة ... وعمرها بيد الأعـــــــداء منتهـــب
إذا انتفضن فعن عجز وفي لغب ... وإن شربن فأقصـــــــى شربها نغب
نامت ونام عن الهيجاء منفـــتق ... مشقشق همه الصهبـــــاء والعرب
لا يصطلي البغي إلا حر منطقه ... وفي التطاعن لا نبـــــع ولا غرب([2])

ونتيجة لما يراه الفلسطيني من حال الأمة العربية،أخذ ينفض يده كوحدة سياسية ينبغي أن يكون لها تأثيرها الفعال في المصالح الدولية والمعادلات السياسية، بل والغيرة على كرامتها المهانة المسلوبة، وتظل القضية الفلسطينية وفرض تحريرها... ، مطلباً لكل الفلسطينيين، وفرض عين على كل المسلمين.

ويحمّل "عبد الناصر صالح" الزعماء العرب مسؤولية نكبة فلسطين، وما تبع ذلك من مجازر ومذابح، يقول مخاطباً كفر قاسم:

ناديتك
هذا سيفك معروض للبيع على شرف الزعماء
هذا جلدك صار الموطئ للأقدام الملعونة

---

[1] /نزهة ناجي، سحر الشيطان، ديوان الشهيد ، 246

[2] / عبد السلام محمود موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 181

هذا فرسك تتقاذفه الريح

إلى مدن قاتمة سوداء ([1])

ويبلغ اليأس في قلب " فراس عمر الحاج محمد" مبلغاً عظيماً من نصرة الأمة العربية ، فقد لفّها العار ودثرها الهوان. وأصبح الزعماء لا يحملون من القيادة إلا اسمها، فهم سيوف خشبية لا تسمن ولا تغني من جوع، يقول:

يا " أمة أمة " نـــامت لطعنتـــــها بالعار دثرها الغزاة وحقـــــــــروا

رفقاً بقلب كواه اليـــــأس من زمن جاد اللئيم به والحــق مندثـــــــــر

حط الهزيمة في أعنــــاق أمتـــه سفراً يرتله في أرضهــــا القمـــر

جاد الزمان علينا سيف ذا خشـــــب والذل يمــرع في أفيائنــــا سعـــر ([2])

يتعرض الشعب الفلسطيني لمؤامرات مستمرة، ويشعر أنه يقف وحيداً في مواجهة دول العالم، فالكيان الصهيوني يرتكب الجرائم في أرض فلسطين، وفي الدول العربية الأخرى تحت سمع العالم وبصره، الذي يصمت دهاء وخسة، والعالم العربي متواطئ ومتخاذل، كل هذه المآسي تلهب قريحة الشاعر فيصب غضبه على الدول العربية والغربية أيضاً،التي لا يكفيها الصمت ، بل تجد أحياناً مبرراً لجرائم العدو . ورغم هذا فالشعب الفلسطيني شعب صامد، مرابط قوي الإرادة، مستمر على درب النضال والمقاومة. يقول "حاتم جوعية" مخاطباً كفر قاسم قلعة الأحرار وقبلة العرب يتعلمون منها الصمود والثبات:

جرحي الفلسطيني يبقى نازفاً والغرب يصمت خسة ودهـــــــاء

والعالم العربي يبقى ساكــنــاً أنّى يقاوم أو يصـــد بـــــــلاء

كم من مآسٍ أرقت أيامنــــا خضنا الخطوب عصيبة عشـــواء

كل المجازر لن تكل نضالنــا نمشي على درب اللظى عظمــــاء

يا كفر قاسم والكفاح هويـــة ونرى الكـــــرامة ســؤدداً ورداء

....

يا قلعة الأحرار دومي قبلـــة للعرب تسمو روعـــــة وبهـــــاء([3])

ويربط "عبد الناصر صالح" بين الزعماء العرب، وأجهزة القمع في الكيان الصهيوني، ويتهم الزعماء بالقرصنة والتواطؤ مع العدو، يخاطب كفر قاسم بقوله:

وتعري من قاتلك المستورد

من أجهزة القمع

---

[1] /عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد ، 126

[2] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ، ديوان الشهيد ، 226

[3] /حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء ، ديوان الشهيد ،201

ومن قرصنة الزعماء([1])

أُشبع الشعب الفلسطيني منذ نكبته عام1948م بالعهود والوعود، التي قطعها الزعماء العرب على أنفسهم، بتحرير فلسطين واسترجاع الحقوق، كما صدرت عدة قرارات دولية، تقرّ بحق اللاجئين في العودة إلى ديارهم، وفي إقامة دولة فلسطينية مستقلة........،ولكن هذا كله ظل حبراً على ورق، إذ لم تتخذ الدول العربية أو الغربية الوسائل الكفيلة لتحقيق هذه القرارات ، فكاد الفلسطيني يفقد الأمل في الأنظمة العربية الهزيلة، التي تستمرئ الذل والهزيمة، وتصم آذانها عن اعتداءات الكيان الصهيوني وجرائمه، وقد تمادى في بطشه وظلمه بعد ما رآه من ضعف الأنظمة وتخاذلها، كما يقول " فوزي عبد الله":

يا قاطع الوعد مذ كانت قضيتنا	هل في الوعود رجاء؟ هل تفي ذمم
نشك في كل وعد والظنون نهى	وغاية الشك ألا يعظم النـــــــدم
لا ينتهي أمل لولاه نعلنـــــــها	في كوننا دول صخـــرية صمـــــم
وحولنا في فيافي الشرق أنظمة	من الرمال فلا عرب ولا عجـــــم
وفي الديار شعار الغدر ترفعه	حكومة بحبال الكــــذب تعتصـــم
تزين القتل فالإرهاب ديدنـــها	والهدم منهجـــها والبطش والنهـــم
وليس يردعها من غيها عرب	في حقهم ضعفوا دوماً وما حزموا([2])

وسط هذا اليأس من تغيير الواقع المر، يبقى لدى الفلسطينيين خيط من الأمل في عودة الحكام العرب إلى رشدهم، وجمع كلمتهم، ولمّ صفوفهم، باستعلائهم على خلافاتهم الشخصية التي استغلها الأعداء أسوأ استغلال، وأذكى نار الحقد والفرقة بين الدول العربية، بل وفي الدولة الواحدة، فضاعت الحقوق، وأصبح أكبر همّ الزعماء كيفية المحافظة على الكراسي ، غير آبهين بالثمن الذي يدفعونه هم وشعوبهم.

ويتساءل "راشد حسين" مستنكراً هذه الخلافات بين القادة العرب، والأوطان تغرق في وحل الهزيمة" وجراحها دامية" والبؤس والشقاء عامّ وشامل، ويشبه هذه الخلافات التي تظلل العلاقة بين الدول العربية، بالحرب بين الألمان والحلفاء في الحرب العالمية الثانية،يقول:

مالي أرى قومي يمزّق شملـــهم	ما يطلب الرؤساء والزعمـــاء
يتحاربون ويمعنون تحاربـــــــاً	فكأنما الألمان والحلفـــــــــاء
وعلام يختلف الرجال ولم تـــزل	تدمي الجراح وكلنا بؤســـــاء([3])

[1] /عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد ، 133

[2] / فوزي عبد الله، الحزن الثائر، ديوان الشهيد ، 80

[3] /راشد حسين، الأعمال الشعرية، 379

ويضع الشاعر يده على الجرح، مبينا بين الحكام العرب، المبنية على المطامع الشخصية وحب الرياسة والحكم، والاهتمام بالمظاهر البراقة، لذلك قسموا البلاد العربية إلى أجزاء صغيرة هي بمستوى قرى أو مدن في دول أخرى، وتركوا الغرباء يتنعمون في خيرات البلاد، تاركين شعوبهم تغط في الفقر والجهل، يقول:

يتقاتلون على زعامة قريـــــــــــة	فكأنهم في حكمــــــــــــها وزراء
وإذا مهمات الرياسة أدبـــــــــرت	رفعوا الرؤوس فكلهـــــــم رؤساء
يا طالباً عرش الزعامة هات لـــــي	حقي وخذ ما يأخذ الزعمــــــــــاء
ومن الزعيم أشاربان بوجهـــــــه؟	وملابس وعبــــــاءة شقــــــــراء
ومن الزعيم أمن يبيح إنــــــــــاءه	للشاربين وفي قراه ظمـــــــــــاء
خلي الرياسة للشجاع يسوسهـــــــا	أما الجبان فشغله الإصغــــــــــاء([1])

ولما كانت تطلعات الزعماء والقادة ليست في مصلحة الشعوب،فعليهم التخلي عن السياسة والقيادة، إلى الأبطال الشجعان الأحرار الذين يعطونها حقها ويسعون للنهوض بالأوطان وتشرق على أيديهم الحرية والاستقلال.

ومهما يكن من أمر ظلت القومية مصدر إلهام للشعراء الفلسطينيين، يفرغون فيها آمالهم وأحلامهم وتطلعاتهم، عن طريق كشف اللثام عن الأمجاد العربية والافتخار بالبطولات القومية، لتكون باعثاً على استنهاض الهمم لمناصرة الشعب الفلسطيني الذي يرزح تحت نير الاحتلال، واستعادة العرب لمجدهم الذي فقدوه بأيد أجنبية وعمّقه القادة العرب، بضيق نظرتهم وتطاحنهم على كراسي الحكم والمصالح الشخصية.

---

[1] / راشد حسين، الأعمال الشعرية ، 380

3- البعد الديني

عرّف اللغويون "**الدين**" بقولهم:" الطاعة والجزاء والمكافأة والعبادة، وهو وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عن هذا الرسول أو ذاك"([1]) وهو أيضاً " الاعتقاد بالجنان والإقرار باللسان وعمل الجوارح بالأركان".([2]) وهذا يعني أن "الدين" أو " التدين" هو الخضوع والانقياد للخالق، والاعتقاد الجازم بصدق الرسالات السماوية. وعرّفة "محمد عطوات" بقوله: " طاعة الخالق والخضوع لمشيئته، والأخذ بملته الموحى بها إلى رسله وأنبيائه".([3])

ومن المعروف أن الدين الإسلامي ليس عبادة تقوم على أداء الفرائض، من صلاة وصيام وحج ... فقط، وإنما هو نظام حياة متكامل، لم يترك شاردة ولا واردة إلا عرض لها ووضع لها الأطر العامة لحل أي مشكلة قد تواجه الإنسان، لذلك نرى الجوانب الدينية تظهر في الشعر من الشعراء أصحاب الفكر الديني مثل الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي، ومن شعراء أصحاب توجهات أخرى مثل الاتجاه الوطني أو القومي أو الإنساني – بنسب متفاوتة – نتيجة للثقافة العامة السائدة في المجتمع. ويرى "محمد عطوات" أن للبعد الديني في الشعر. " دوراً مستمراً في معالجة الشؤون الدينية والدنيوية المرتبطة بمنهج هذه الحياة، ومنها الدفاع عن النفس والأرض والمقدسات، ورفض الظلم والعدوان، والجهاد في سبيل الله وتحرير الوطن".([4])

ويعرّف "أحمد محمد عليان" الشعر الديني بقوله: " الذي يُظهر فيه الشاعر إيمانه بربه، واعتقاده بأنبيائه، وإخلاصه لرسالتهم، وحب لتعاليمهم. وهو الذي يتحدث فيه عن ارتباطه بأصول الدين ودفاعه عن مبادئه التي تتعرض من حين إلى آخر لإلحاد الملحدين وجحود المشركين".([5])

يعد الشعب الفلسطيني شعباً متديناً بطبعه، لوجوده في أرض الديانات السماوية الثلاث، ولكثرة الحروب والويلات التي تعرض لها، لإقامته على أرض كانت ومازالت محط أطماع الغزاة، وهذه الأوضاع تجعل المرء دائم التقرب إلى الله، واستشعار هيبته، وطلب العون والمساعدة منه، ومن أكثر الحوادث إيلاماً للنفس، أن يحرم الإنسان من نعمة الحياة، لا لشيء إلا لإرضاء نزع عنصرية في نفس عدو متغطرس متجبر، يمارس هوايته ضد إنسان مقيد عاجز عن رد الظلم أو تفريغ شحنة الغضب ، فلا يرى أمامه إلا باب خالقه يهرع إليه داعياً متضرعاً، يقول "عقل ربيع":

سبابتان إلى السماء، ودعوة　　　عجلى وفي النجل الضعاف ذهول([6])

---

[1] / أحمد رضا، متن اللغة، مادة دان ، المجلد الثاني

[2] / مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة دان، 2/ 317

[3] / محمد عبد عبد الله عطوات،عبد الله بن المقفع، 238 رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب،بيروت، 1979

[4] / محمد عبد عبد الله عطوات ، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني من1918-1968، 409

[5] / أحمد محمد عليان، النهضة الأدبية العالمية الحديثة من خلال روادها الأعلام، 1875ــ1965، 183 ،أطروحة دكتوراه، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1986

[6] / عقل ربيع، القاسمية، ديوان الشهيد، 193

والواقع أن جميع الرسالات السماوية والأنبياء، جاءوا لتغيير واقع يعجّ بالضلال والمظالم، ليحل مكانها الإيمان والمحبة والعطف والأخوة، لذا نجد الشعر الفلسطيني يؤكد على مبادئ الرسالات السماوية التي تدعو إلى السلام والعدل، يقول "أحمد يوسف ياسين":

نبغي سلاماً عادلاً نادى بـــــــه   القـــــرآن والتـــوراة والإنجيـــــل ([1])

كما أن متتبع تاريخ الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين، يرى أنهم وقفوا صفاً واحداً، وتعاونوا لصد العدوان والمخاطر، لأن العدو الصهيوني لم يفرق بين مسلم ومسيحي، ولم يرع حرمة لمسجد أو كنيسة. فالكل عنده سواء، يسكنون على أرض يريدها لنفسه وحده. " أرض بلا شعب " لذلك وقف المناضلون من الديانتين صفاً واحداً، ضد العدو المتغطرس سواء منهم من ناضل بالكلمة أو بالسلاح. ولا يستطيع الإنسان التفريق بين هذا الشاعر أو ذاك، ولا هذا المناضل من رفاقه – ما لم يدل عليه اسمه – فالكل في خندق واحد، يؤكد ذلك " سامي إدريس"في قوله:

ستصعد في انتفاضتها هـــــلالاً   يعانــــق فـــي تضــرجــه صلــيبـــاً ([2])

والناظر إلى مجموعة الأشعار التي قيلت في مجزرة كفر قاسم، يرى أنها تناولت إشارات دينية عامة، تخص جميع الديانات، مثل ذكر الملائكة ومكانة الشهيد والجنة والنار......... وهذا لا ينفي وجود إشارات دينية خاصة منتقاة معظمها من الدين الإسلامي. ويعود ذلك إلى أن ديانة أغلبية الفلسطينيين هي الإسلام.كما أن هناك قصائد يدور محورها حول الدين الإسلامي، منها قصيدة القاسمية للشعر" عقل ربيع"التي يقول فيها:

يا ويح قومي، إن ديــــن محمـــــد   ديني وكـــل المؤمنـــيـــن قبـــيـــــل
" يا كفر قاسم" إن جرحك هدّنـــــي   هـــدّاً وجــرح المؤمنات دلــيـــل([3])

وإن كانت " لفظة المؤمنين تضم في معانيها أيضاً، حسب الديانة الإسلامية، أبناء الديانات الأخرى الذين يؤمنون بالله"([4]).

إن الإشارات الدينية التي وردت في أشعار المجزرة، غالباً ما كانت ترد في وصف الشهداء ومكانتهم، أو في الحثّ على الجهاد. كما أن التعاليم الدينية، وإن كانت عامة لجميع الأديان السماوية، إلا أن أغلبية الشعراء تناولوها من جانب إسلامي، فغلب البعد الإسلامي في هذه القصائد الشعرية على الأبعاد الدينية الأخرى – كما سيظهر من البحث – وذلك لتأثر الفلسطينيين بدعوات التجديد والإصلاح التي ظهرت في العصر الحديث،التي كان من روافدها الدعوة إلى العودة إلى الإسلام في صفائه ونقائه في الكتاب والسنة، وتخطي عصور الجمود والتقليد التي عطّلت طاقات المسلمين الفكرية، ومن هنا

---

[1] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة، ديوان الشهيد، 210

[2] / سامي إدريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم ، ديوان الشهيد ، 187

[3] / عقل ربيع، القاسمية، ديوان الشهيد ، 193

[4] / فاروق مواسي، شاهد على حصاد الجماجم، مرايا في النقد، 45

ظهر العديد من الشعراء الذين نطقوا بالشعر المعبّر عن إيمانهم وفكرهم، ونظرتهم الشاملة للدين والحياة والإنسان.([1])

ويلخص" مأمون فريز جرار" تصوره للاتجاه الإسلامي بقولـــه: " انطلاق الشاعر من تصور إسلامي في نظرته إلى الكون والإنسان والحياة، وفي نظرته إلى القضايا والأحداث، والأشخاص والمشكلات، وفي تعبيره عن العواطف والمشاعر."([2]) وإن خص الكاتب الدين الإسلامي بقوله السابق إلا أننا نرى أنه يصلح لجميع الشعر الذي ينطلق من الديانات السماوية الثلاث.

ويبدو البعد الإسلامي في الموضوعات التالية:ــ

القصص القرآنية

من أظهر المؤثرات الدينية الإسلامية في الشعر الفلسطيني المعاصر، الأثر القرآني، ولم يتوقف هذا الأثر عند حد النص القرآني، بل تعدى ذلك إلى " استلهام روح الحدث في القصص القرآني، حيث نجد تطوراً في دلالة الأثر من بُعده المباشر إلى البعد الإيحائي. فقد أصبح الحدث – في القصة القرآنية – رمزاً له إيحاءاته ودلالته الشعرية في النص الشعري".([3])

ومن المعلوم أن أول جريمة قتل اقترفت على سطح الأرض كانت بين ابني "آدم" عليه السلام، عندما اعتدا قابيل على أخيه هابيل فقتله ظلماً. وقد استدعى " معتصم توفيق الخضر" هذه الحادثة وأسقطها على مجزرة كفر قاسم، يقول:

قابيل يأتي كــفــر قـــــــــا   سم قاصداً قــتـــــل الـــــبشـــــر
متـــرصداً ومـــدجـــجـــــــاً   عـــينـــاه تــــــرمي بالــــــشـــــرر
...   .| ...
هـــابـــيـــل عاد من الحقــــو   ل وفـــي حـــقـــائــبـــه الثمــــــر
شهـــداء صرعى يصعــــــــد   ون لـــربـــهـــم ولـــهـــم غفـــــــر([4])

وقد وردت قصة "ابنيّ آدم" مفصلة في القرآن الكريم، (واتل عليهم نبأ ابنيّ آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوأ بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين)([5])

---

[1] / أنظر مأمون فريز جرار، الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث، 11-12

[2] / نفسه،9

[3] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 33

[4] /معتصم توفيق الخضر، هابيل ينتصر على قابيل في كفر قاسم، ديوان الشهيد، 239 – 240.

[5] / المائدة، 27 – 30

واستدعى " مجاهد ريان" قصة أصحاب الفيل ليسقطها على واقع الصهاينة المتغطرسين، جاعلاً من حجارة الانتفاضة حجارة مباركة، يقول :

وإننا إذا البركان فجرنا

بحجارة السجيل موعدنا([1])

ويسقط "عقل ربيع" قصة "الوليد بن المغيرة" عندما سمع القرآن على واقع المجزرة، في قوله:

ولقد وصفت الموت فيك ولم أجــد   وصف الجراح فما عساي أقول

نطقت جراحك في الدروب ورتلت   آيات مجدك والــنشيد يـــهــول

يا ابـــن الــمغيرة لا سلمت فإنـــه   ذكر وإن محــــمداً لرســـــول

هذي الـــجراح إذا أخذن فـــلا نجا   أحد هنـــاك فـــأخـــذهن وبـــيل([2])

فقد وصف الشاعر وقع الجراح في كفر قاسم على الأسماع، بحيث لم تستطع تصديقها، أو وصفها، بعبارة تكشف مدى هولها، مستعيناً لذلك بقصة "الوليد بن المغيرة" الذي قال عن القرآن الكريم إنه سحر بعد أن أجهد فكره في إيجاد صفة لهذا الكلام الذي سمعه، ونزل في ذلك قرآن يتلى :" إنه فكّر وقدّر، فقتل كيف قدّر، ثم قتل كيف قدّر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر،فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر "([3])

ويصور "راشد حسين" توافد الشعراء من جميع أنحاء الجليل الفلسطيني لإحياء ذكرى المجزرة، وقد شبه إسراعهم في الحضور، بليلة إسراء الرسول الكريم إلى القدس المشرفة.

يا كفر ياسيف أردت لــقاءنـــا   فـــتوافـــدت للــقـــائـــك الشعـــــراء

أسرى بهم كرم الجليل فأقبلـــوا   فــكأن لـــيـــلـــتــــــهـــم هي الإســـــراء([4])

ومن القصص الإسلامية التي استعارها الشعراء، قصة هجرة الرسول عليه السلام، مركّزين على الجانب المتعلق بخيوط العنكبوت، التي ضللت مشركي قريش عن رؤية سيدنا محمد عليه السلام، – بقدرة الله – ولم يأخذ" علا عيسى" هذه القصة بكل أبعادها، بل أخذ دلالة ضعف الفاصل بين شيئين متناقضين، ليبيّن أن جميع الفلسطينيين معرضون لأن يكون مصيرهم مصير ضحايا كفر قاسم، فما زال العدو جاثماً على الأرض، وما زال يختلق الأكاذيب والأعذار الواهية لارتكاب جرائمه، يقول:

يا فاطمة

حييّ معي روح الشهيد

ثم أطلقي زغرودة للعرس في

---

[1] /مجاهد ريان، ذكريات مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 282

[2] / عقل ربيع،القاسمية، ديوان الشهيد، 194

[3] / المدثر، 18-25

[4] /راشد حسين، الأعمال الشعرية، 377

وطن ينام على قيود من حديد

خيط العناكب بيننا يا فاطمة([1])

وقد أشار الله في كتابه العزيز إلى بيت العنكبوت بقوله: "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون".([2])

وبهذا نرى الشعراء يستخدمون القصص القرآني لاختزال الحدث ،وأخذ العظة والعبرة الكامنة وراء القصة، لينطلق المدافعون عن الوطن متسلحين بالإيمان والثقة بضرورة النصر مهما ادلهم الخطب.

مكانة الشهيد

يكفي الشهيد فخراً وعزاً وشرفاً، أن الله نزّل فيه الآيات القرآنية التي تبين فضله، وتضمن له التكريم والخلود في الجنة، وتصف النعيم الذي ينتظره، قال تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ([3]) كما أن الرسول الكريم أفاض في الحديث عن مكانة الشهيد وفضله وأنواع الشهداء([4])...... وهذه المكانة تريح نفس المؤمن وتخفف من مصابه الجلل، بل تجعله يتمنى الشهادة لنفسه، وتدفعه إلى نيلها. ونظراً لانطباق شروط الشهادة على ضحايا مجزرة كفر قاسم، حسب النظرة الإسلامية للشهيد، فإن الشعراء قد أسهبوا في وصف مكانة الشهداء والجزاء الذي ينتظرهم.

صور بعض الشعراء المكانة العظيمة التي يتبوأها الشهيداء عند ربه، مستقين ذلك من التعاليم الإسلامية، حيث تصطف الملائكة لاستقبال أرواح الشهداء، وتبشرهم بالنعيم الدائم والحياة الهانئة.([5]) ولا يقتصر اهتمام الملائكة بأرواح الشهداء، بل تأتي كل ليلة تزور قبورهم، وتحمل أحزان أهلهم وآهاتهم إلى الملأ الأعلى، لعل الله يقتص لهم من أعدائهم ، وهو ما يبدو في قول "غادة الشافعي":

مروا إذن بالمقبرة

حيث يتجول كل ليل سرب من الملائكة

لعل ملاكاً غير مرئي يطلع على ما في الروح من بكاء سري

فيصعد بالتنهدات إلى الملأ الأعلى ([6])

---

[1] /علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 104

[2] / العنكبوت، 41

[3] / آل عمران، 169 – 170

[4]/عرضنا لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتناول فضل الشهيد في"صورة الشهيد"،انظر ص 56-59

[5] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه،، ديوان الشهيد ، 159

[6] / نفسه، 155 – 156

ونجد لدى " سميح القاسم" نفساً دينياً قوياً في بيت الشعر الذي وازن فيه بين دم الشهيد الهادف إلى رفع الظلم وتحرير البلاد من دنس المحتلين، و الرسالات السماوية التي تهدف إلى القضاء على أتون الشر، ونشر التعاليم السامية بين الأمم، ليعم العدل والأمن والسلام والمساواة بين بني البشر:

ودم الشهيد رسالــــة نبويــــة صلوا على روح الشهيد وسلموا ([1])

حيث رفع الشاعر مرتبة الشهداء إلى مرتبة الأنبياء، من باب إظهار تكريم الشهداء .

ومن كمال فضل الله على الشهداء، أن الرائحة التي تنبعث منهم رائحة زكية، يقول "معتصم توفيق الخضر":

ريح الشهـــيـــد أشـمـــه أزكى الروائــح قـــد نشـــر ([2])

وهذه الرائحة هي رائحة المسك، تبقى متجددة إلى أن يبعث الله الناس يوم القيامة، فتكون لجروحه لون الدم ولريحه ريح المسك – كما ورد في سنة رسولنا الكريم.

الأماكن المقدسة

لم يرعوِ العدو الصهيوني عن ارتكاب جرائمه ومجازره في كل بقعة من فلسطين، حتى في أقدس الأماكن وهي المساجد، فالمسجد الأقصى يئن من كثرة ما روي بدماء العابدين الخاشعين، ومصلى أبي الأنبياء (إبراهيم) غرق في دماء الصائمين الساجدين لله رب العالمين، بعد أن نفّذ أحد المستوطنين الحاقدين جريمته بقتل المصلين وهم سجود لصلاة الصبح. فهذا دأب الصهاينة في قتل الأبرياء في "دير ياسين" وغيرها من المجازر،يقول "محمود الدسوقي":

احمرّت الغبراء من دم الشهيد
وزلزلت تلك الجبال الشامخات
" بدير ياسين "
والمسجد الأقصى يئن
عظام إبراهيم ارتعدت
وأغرقها دماء الصائمين الساجدين([3])

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 417/2

[2] / معتصم توفيق الخضر، هابيل ينتصر على قابيل في كفر قاسم، ديوان الشهيد، 240

[3] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد 74

وكما أن المسجد يرمز للإسلام والمسلمين، فإن الكنيسة ترمز إلى الديانة المسيحية، ولم يعرف في تاريخ فلسطين أن ثارت خلافات مبنية على أساس عقائدي بين الفلسطينيين، بل أن التسامح الديني يظلل العلاقة السائدة بين الجميع ، ويتوحدون في أخوة متكاملة أمام العدو المحتل.

وقد عبرت "سهى قسيس" عن هذا المعنى بأن جعلت الأقصى والكنيسة مجتمعين يرسلان بتحية إلى كفر قاسم:

من شـــوارع القدس القديمـــــة
من ثـــــورة شـــــبابها
ولـــــوعة نســـــائها
وفرحـــــة أطـــفـــالهـــا
مـــن ألـــــق الأقـــصـــى
في رحـــــابـــهـــــا
من روعة الـــكـــنـــائـــس
من ســـــورها
وبواباته ـــ المعالـــــم
نرســـــــل
ألـــف قـــبـــلـــة وقـــبـــلـــة
إلـــيـــك
يا عروسة الملاحـــم([1])

ومن الأماكن المقدسة لدى المسلمين (بئر زمزم)، الذي يعد ماؤه شفاءً ودواءً عند كثير من المسلمين، يتبرّك به حجاج بيت الله الحرام. ذلك الماء الذي أنقذ إسماعيل وأمه – بإذن الله – بعد أن بلغ بهما العطش مبلغاً عظيماً. فكما أن الحجاج يحرصون على ملء أوعيتهم من ماء زمزم طمعاً في زيادة الخير والمنفعة، فإن شهداء كفر قاسم يأملون أن تكون دماؤهم مصدر خير وبركة، ودواءً لشفاء جروح الوطن وإعادة الحياة إليه، يقول "نديم حسين" عن شهداء كفر قاسم:

رجل يموت على رغيف حياتها!!
ومشى...... مشى ميتاً لملء قدورها!!
من زمزم عند الحرم. ([2])

وجرح كفر قاسم غدا زمزما تحج إليه قلوب الشعب الفلسطيني، كما في قول "سميح القاسم":

يا كفر قاسم ...وللضحايا عيدها	والعيـد أنـت وعرقـك الـمـتـقّحم
حجت إليك قلوب شعـب نـازف	حجت إليك ...أغير جرحك زمـــزم([3])

---

[1] / سهى قسيس، عروسة الملاحم، ديوان الشهيد،222

[2] / نديم حسين، مارش لكفر قاسم، ديوان الشهيد ،101

[3] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 414/2-415

ويأمل الشاعر في أن يكون الجرح العميق الذي خلفته المجزرة، شعاعاً يبعث الأمل نحو التحرر، والخلاص من ظلم المعتدين. بعد التئام جمع الفلسطينيين وتوحدهم تحت هدف واحد، كما يتوحد الحجاج عند بيت الله الحرام.

وكفر قاسم قبلة الفلسطينيين إليها يحجون بقلوبهم، يقول "حاتم جوعيه":

يا "كفر قاسم" فانظري لصمودنا	وهتافنا ملأ الـــــــــــدّنى أصـــداء
تيهي على الدنيا فخاراً واعلـــمي	ما ضاع هدراً ما بذلـــت سخـــــــاء
يا روضة تهب الأزاهر والنـــدى	ســــــــيظل فيضك ديمـــة معطـــــاء
فيك الحجيج وأنت قبـــــلة شعبنا	كنت المنارة...كم رفـــــعت لـــــــواء([1])

يقرن الشاعر كفر قاسم بمكة المكرمة تشريفا وتعظيما، فكفر قاسم تهدي الفلسطينيين إلى طرق الصمود والتضحية، وهي منارة تعلمهم كيف يكون السخاء بأغلى ما يملك الإنسان من أجل هدف سام ونبيل.

ومما له علاقة بالأماكن المقدسة: **المدن والمعارك الإسلامية**، فقد ربط "سامي إدريس" بين المخاوف التي تنتاب الفلسطينيين في المنطقة المحتلة عام 1948م، من سياسة التطهير العرقي التي سلكتها إسرائيل عام 1948 م على نطاق واسع. بتاريخ المسلمين في الأندلس حين طردوا منها شر طردة، وهم يتوجهون إلى الله بالدعاء والصلاة ليثبتهم في أوطانهم، ويبعد عنهم شر الصهاينة الحاقدين الذين يتلذذون بإيذاء الآخرين، يقول:

يصلي الناس كي يتذكروا الربا
فيمطر روحهم حباً
ويحبوهم بأوطانهم وأرض تنبت الزيتون والقضبا
ويبعد شر من خانوا عهود مدينتي الأولى
وأندلس وحلماً جاوز السحبا
وعبد الله كم صلى لكي ينسى
ويبعد قبضة السادي([2]) في زنزانة الذكرى
ويحمي جيله الصعبا. ([3])

وإن كانت الصلاة والدعاء من خصائص الأديان السماوية جميعها، إلا أن هناك إشارات إسلامية واضحة مثل اسم " عبد الله" الذي يكثر تسميته لدى المسلمين، وهو يتوافق مع اسم آخر ولاة المسلمين في الأندلس "أبو عبد الله الصغير" الذي سلّم في لحظة ضعف مفتاح قصر غرناطة، بناء على وعود

---

[1] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفدا، ديوان الشهيد، 198

[2] / السادية: انحراف جنسي يتلذذ فيه المرء بإنزال العذاب بمحبوبه، وقد اتسع مفهومه ليشمل كل نزعة إلى إيذاء الآخرين أيا كانت الدوافع . انظر منير البعلبكي، موسوعة المورد، 184/8

[3] / سامي إدريس، الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم، ديوان الشهيد، 183

ذهبت أدراج الرياح. كما يتواصل الشاعر – في السطر الرابع– مع قصة نقض اليهود عهودهم مع الرسول الكريم، في بداية الدولة الإسلامية.

ويطلق "رفائيل بولس" على كفر قاسم اسم بلاط الشهداء، يقول:

خبرينا يا
كفر قاسم
....
خبرينا يا " بلاط الشهداء"([1])

وقد صبر الفلسطينيون على البلاء، وهذا لا يضيرهم، فالمؤمنون أشد الناس ابتلاء، فإذا صبروا وعملوا على تغيير الظلم، فازوا برضا الله وأجره العظيم، يقول "محمود مرعي" عــن كفر قاسم :

صبرت مثل غيرها لبــــــــلاء	هكذا المؤمنون ....ماذا نزيـــــــــد([2])

والصبر على الألم من صفات الفلسطيني، فرغم المجازر والجراح لم يهن ولم يذل لعبد، ولم يعط راية الولاء إلا لله خالقه، الذي اصطفاه بجملة من الأخلاق الحميدة، يقول "فوزي عبد الله":

من أنت؟هل يسأل الأحياء عن ألم	عاشوه جهراً فما هانوا وما كتموا
كانت لنا قرية كالطفل وادعــــــة	قد لفها الحب والأحلام والنغــــم
واستوطن الصفو في أفيائنا وهفــا	إلى كروم رباها الخير والكـــرم
وشدها وطن لم يشف غلــتـــــــه	إلا رجال لغير الله ما احتكـــموا([3])

وحب الأوطان والتغني بفضائلها سمة إنسانية، فكيف به إذا كان الوطن فلسطين، الأرض المقدسة المباركة، التي يعد حبها والتمسك بها واجباً دينياً، يحافظ الفلسطيني بصموده على إسلامية الأرض، ويبعد عنها خطر التهويد، وبذلك استحق حب الله ورسوله، يقول "أحمد يوسف ياسين":

لا تأبهي يا كفر قاسم أنت لــــي	جنات عدن والهــــــواء عليـــــل
من سالف الأزمان قد لحق العدى	نار كمثــــــل جهنم ورحيـــــــل
....	....
إن الــمنـــيـــــة للمحب نهايــة	يطوي كتابٌ في الهوى وفصـــــول
لكن من عشق التراب أحبـــــه	ربٌ قويٌ فــــــــي العلى ورسول([4])

---

[1] / رفائيل بولس، لا بد أن يأتي الصباح، ديوان الشهيد، 267-268

[2] / محمود مرعي،كفر قاسم جل الشهيد، ديوان الشهيد ،121

[3] / فوزي عبد الله ، الحزن الثائر، ديوان الشهيد ،81

[4] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة ، ديوان الشهيد ، 209-210

ويرى الفلسطيني في وطنه جنات النعيم بكل ما تعني الكلمة من معنى، لذلك يرفض التنازل عنه مهما واجه في سبيل ذلك من إرهاب وقتل ودمار، أو مهما عرضت عليه من إغراءات ، يقول " علا عيسى" مخاطباً شهداء كفر قاسم، وقد أُتخم حباً وفداءً للوطن، وبقي على العهد الذي قطعه على نفسه:

ناولتني طبقاً من الحلواء

صنع السماء

فأكلت حتى أُتخمت أوصاليه

حباً ... فداءً وبقيت عالعهد الذي

كنا قطعنا من سنين

ألا أخونك في دمي

حتى وإن مُلّكت جنات النعيم

حتى ولو كانت جحيم([1])

ويجهد الأعداء أنفسهم في البحث عن وطن بديل لحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في البلاد العربية، وتعويضهم بأموال عن حقولهم وبيوتهم التي هُجّروا منها، ولست أرى أن اللاجئ الذي يتلهف إلى برتقالة يافاوية، أو تفاحةٍ جليلية ويحتفظ بمفتاح بيته، يقبل ببيع ثرى وطنه بأي مال.

* * *

ورد العديد من الإشارات الإسلامية الخاصة، أو الاقتباس من آيات القرآن الكريم في الأشعار التي تناولت المجزرة، لتقريب المفهوم من ناحية، وجعل الصور ابلغ وأوضح، وقد يقتبس الشاعر ألفاظاً من القرآن والأحاديث، لترك العنان لخيال القارئ يسبح في عمق المعاني والتعبيرات، من ذلك ما نجده عند "سميح القاسم"، الذي يخاطب قاتله بأسلوب ساخر ممزوج بالألم والحسرة، وهو يتحدث عن الحكم (العادل)، ويخاطب القاتل بعبارات التبجيل، يهنئه على يوم البطولة الذي انتصر فيه على العزل الأبرياء، " وتبلغ السخرية مداها حين تصبح حياة الإنسان تساوي قرشاً،([2]) مستخدماً عبارات " رحمن رحيم" " وشيطان رجيم" لتعطي دلالات وإيحاءات مغايرة لمعناها الأصلي، يقول:

أيها القيصر عش

ثمن الخمسين...... قرش

أنت يا مولاي رحمن رحيم

والذي يغضب من عدلك يا مولاي

---

[1] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 107

[2] / فراس عمر أسعد الحاج محمد، السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم بين عامي 1948-1993، 82، رسالة ماجستير، جامعة النجاح ، 1999

شيطان رجيم([1])

فهذا العدو الذي يريد تركيع الفلسطينيين، وتخديرهم بتقمصه دور الحاكم "العادل"، وكيف له أن يعدل وهو الغريم والجاني.

ولن تنطفئ نار الحزن وتهدأ عاصفة الألم في نفوس الفلسطينيين، إلا بالانتقام لهذه الأرواح البريئة التي ذهبت ضحية الحقد والعنصرية، ونجد "مشهور إبراهيم " يستنجد بالأمة الإسلامية لتنهض وتثأر لدماء الشهداء، يقول:

عاد الرجال إلى البيوت كعهدهم   لا يحملون سوى الحنين دليـــــلا

شهداء قد سقطوا بغير خطيئـــــة   يا لهف قلبي بكرة وأصــــــــــيلا

يا أمة الإسلام هل من منـــــصف   تلك الدماء فهل نقيم عـــــــــويلا([2])

ويرسم " محمود مرعي" صورة معبرة لتتابع سقوط الشهداء الواحد تلو الأخر، وكأنهم مصلون يهوون للسجود، يقول:

وصغير طريـــــــد رعب تولى   إذ نجا صارخاً ويبكي الطريــــــــد

قد رآهم يســــــّـــاقطون تباعاً   جثة فوق جــثـــة لا تمـــــيـــــــد

لم تشاهد عيناه يوماً ضحايــــا   تتهاوى كما تـــهـــاوى السجـــود([3])

وقد أختار وضع السجود لأن العبد أقرب ما يكون إلى ربه وهو ساجد، ومن أحبه الله ربط على قلبه ولقي ربه مؤمناً خاشعاً، كما بدت نهاية واحدة من شهداء كفر قاسم، فقد لقيت ربها طاهرة في وضع السجود شاكرة لله على ما ينتظرها من حسن الجزاء، وإن كانت تشعر بالغصة من الظلم الذي ذاقته على أيدي القتلة، وهو بلغة الشعر "فرح مكسور"، كما في قول "هشام أبو صلاح":

لعجوز في الستين من العمر اليابس إلا من عشق الأرض الظمأى

....

لكن جبهتها كانت ساجدة لله كطهر رسوله

صلت تحت ظلال مقتولة

وجدها تنزف ألف صلاة من فرح مكسور ([4])

ويقتبس الشاعر نفسه ألفاظاً من القرآن الكريم، لتجسيد صورته الشعرية التي تمثل مكانة الشهداء عند لقاء ربهم، حيث الملائكة تحف بأرواحهم مسبحة باسم الله، ولتكون عباراته أشد أثراً وأعمق تصويراً، يقول:

---

[1] / سميح القاسم ، الأعمال الكاملة، 104/1

[2] / مشهور إبراهيم، كفر قاسم، ديوان الشهيد، 257

[3] / محمود مرعي،كفر قاسم جل الشهيد، ديوان الشهيد، 123

[4] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 173-174

وتعالى في الأفق الأزرق روحاً وملائكة تحمل قدسياً
يصاعد في عمق سموات النازف من خاصرة الأرض الثكلى
هذا الجسد الشاهد في اليوم المشهود
أن ملائكة الله تسبح باسم الجرح المولود
وتفيض جنائن أعراس وخلود ([1])

ونجد في السطر الثالث تناصاً مع القرآن الكريم في قوله تعالى " والسماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود"([2]) وإن كان " الشاهد المشهود" في الآية القرآنية تعني " القسم بمحمد والأنبياء الذين يشهدون على أممهم يوم القيامة، وبجميع الأمم والخلائق الذين يجتمعون في أرض المحشر للحساب".([3]) وقد أخذ هذه الدلالة لتكون أجساد الشهداء شاهداً على إجرام القتلة في المجزرة.

وفي قصيدة (كفر قاسم إلى دهر الداهرين) استوحى "سميح القاسم" دلالة وردت في قصة "يوسف"عليه السلام، لتعطي ظلالاً بعيدة وإضاءة للعقيدة، ووضوحاً ودقة في المعنى، بعد أن طال انتظار الفلسطينيين للثأر لدماء الشهداء، يقول:

القتلى يتمتعون بذكاء حاد وبصيرة نافذة
فراحوا يتصاعدون
واحداً على عنق الآخر
ويومها
شاهد عابرو السبيل المبكرون إلى أشغالهم
برجاً عظيماً يتبدد فيه البصر
ومرت سبع بقرات عجاف
وسبع عجاف. ([4])

والدلالة في السطرين الأخيرين مأخوذة من الآية القرآنية (إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف) ([5]) ونلاحظ أن الشاعر ضمن معنى الآية القرآنية، ليعطي دلالة أبعد وأعمق، ولتكون لها ظلال من المعاني شبيهة بالمعاني القرآنية.

وإن كانت الآية القرآنية تشتمل على فترة من الخير والعطاء تسبق سنوات القحط، تلك السنوات المفقودة عند الشاعر الذي طال انتظارها، المتمثلة في نصرة الفلسطينيين واسترداد حقوقهم، والانتصار

---

[1] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 175-176
[2] / البروج، 1-3
[3] / محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، 541/3
[4] /سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 159/2
[5] / يوسف، 43

للشهداء المظلومين، الذين ما يُعزّي النفس في موتهم أنهم قضوا شهداء، والموت نهاية كل حي، يقول "باسم الهيجاوي" في وصف الشهداء:

يترجلون ويحملون على جفاف شفاههم

ألق النشيد

ويرسمون خطاهمو في كل يوم ألف ذكرى

تستريح على الشفاه بأننا

لله يوماً راجعون([1])

وفي السطر الأخير اقتباس بتصرف لقوله تعالى (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا، إنا لله وإنا إليه راجعون) . ([2])

وهكذا نجد الشعراء الفلسطينيين الذين تناولوا مجزرة كفر قاسم، قد تمكنوا من الاستفادة من معطيات التراث الديني، المتمثل في النص القرآني، واستلهام الفكر الإسلامي وروح الإسلام، فوظف القصص والآيات القرآنية التي تتناول مكانة الشهداء والجهاد والفداء، والأماكن المقدسة .... كما استفادوا من مضامين الديانات السابقة على الإسلام كالمسيحية واليهودية، ووظف الشعراء معطياتها الروحية والتاريخية في أشعارهم، واستفادوا من التاريخ الإسلامي.

---

[1] /باسم الهيجاوي، مرثاة الدم، ديوان الشهيد، 191-192

[2] / البقرة، 156

4- البعد الإنساني

كثيراً ما نسمع كلمة "**إنسانية**" تتردد على ألسنة النقاد والأدباء والمحللين..... مضافة إلى معارف مختلفة مثل:- الحركة الإنسانية، المذهب الإنساني، الشعور الإنساني، البعد الإنساني، النزعة الإنسانية، التعاطف الإنساني........ وقد تباينت مدلولات هذه الكلمة حسب لون المعرفة التي ترد فيها، ولكنها جميعاً تنسب إلى كلمة "**الإنسان**" وهي الكلمة التي يذكر" ابن سيده " أنها مشتقة من "أنسَ وذلك أن أنسَ الأرض وتجملها وبهائها، أنما هو بهذا النوع الشريف اللطيف المعتمر لها والمعنيّ بها" .([1])

ويورد "ابن منظور" معاني إيجابية لتصريفات الفعل (أنس) منها:- "خلاف الوحشية، حسن الظن، الطمأنينة، الفرح....." ([2]). وهي معان فيها "مقومات الحياة الإنسانية الرامية إلى الاستقرار وبناء المجتمعات التي تكفل للحياة استمرارها على نسق سليم" ([3]) ويعلل "ابن منظور" سبب تسمية الإنسان"إنساناً" "لأنه عهد إليه فنسي"([4]).

وجاء في المعجم الوسيط معنى كلمة "الإنسان" هو :- "الكائن الحي المفكر...... والراقي ذهناً وخلقاً...... المثالي الذي يفوق العادي بقوى يكتسبها بالتطور" ([5]).

هذه المعاني اللغوية لكلمة الإنسان توحي بالرفعة والسمو والترابط والتواصل والتفضيل، ويؤكد ذلك قول الله تعالى:- " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" ([6]). تفضيل في المظهر والخِلقة، وأعطاه من العلم والمعرفة والعقل .... ما لم يعطه لمخلوق سواه، "علّم الإنسان ما لم يعلم" ([7]). فالإنسان في التصور الإسلامي "قمة الكائنات الحية التي تعيش على وجه البسيطة وأفضلها وأكرمها، لما أودعه الله فيه من مزايا، وميّزه من صفات" ([8]).

وهناك العديد من الآراء والتعريفات لكلمة " الإنسان"، وإن كانت تجمع جميعها على أنه يعلو على كل المخلوقات، ويحمل من الخصال التي جعلت النقاد ينسبون إليه كل معنى لطيف، فنجد " محمد فريد وجدي" يعرف (الإنسانية) بقوله: "ما اختص به الإنسان من المحامد من نحو الجود وكرم الأخلاق"([9]). وهذا يعني أن معناها مرتبط بالسلوك الإنساني السليم اتجاه الآخرين.

---

[1] /ابن سيدة، المخصص، 16/1

[2] /ابن منظور، لسان العرب، مادة أنس،

[3] / على يوسف أبو الرب، البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث 1967 ــ 1990، 77، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1996

[4] / نفسه، والصفحة نفسها

[5] / مجمع اللغة العربية، لسان العرب، مادة أنس، 30/1

[6] / التين، 4

[7] / العلق، 7

[8] / عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية، 15

[9] /محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، مج1، 698 - 699

ويذكر " جبور عبد النور" أن (الإنسانية) تعني " مجموع الطبائع المشتركة بين الناس ... وطبائع تجعل الإنسان متميزاً عن الحيوان"([1]). ويؤكد مجمع اللغة العربية على هذا المفهوم حين يعرف (الإنسانية) بأنها:" خلاف البهيمية ... وجملة الصفات التي تميز الإنسان أو جملة أفراد النوع البشري التي تصدق عليها هذه الصفات"([2])، وهي في نظر " أوجست كونت" " كائن جمعي لا يندمج فيه الأفراد اندماجاً عقلياً وخلقياً وحسب، بيد أنه يشترط في هؤلاء الأفراد أن يكونوا قد استطاعوا إخضاع الوظائف العضوية للوظائف العليا، فيتفوق العقل على الغريزة، والغيرية على الأنانية".([3])

وكون أن (الإنسانية) ترتبط بالإنسان بكل أبعاده ومكنوناته، فقد كثرت التعريفات وتعددت، وأصبح "من الصعوبة تحديد مدلول واحد بكلمة الإنسانية".([4]).

أما "**الإنسانية في الأدب والفن**" فقد حاول النقاد والأدباء وضع آرائهم وتصوراتهم حولها، من هؤلاء "شوقي ضيف" الذي ذكر عدة آراء، ولعل أقربها قوله:- "فقد تدل على كل ما يقترن في أذهاننا من السمو بالحياة البشرية، وأن نجتاز كل العقبات التي تقف في طريقها، بحيث تعم في العالم وحدة إنسانية لا تكيفها حواجز من وطن أو جنس، ولا تحدها عصبيات من دين وغير دين"([5])، وهذه نظرة كما يذكر شوقي ضيف نفسه: مثالية بعيدة عن الواقع "أنها تحلق في خيال بعيد لعالم لا يمكن أن يتحقق في الأرض"([6])، ذلك لأن أصحاب هذه النظرة، يريدون أن يصبح العالم وحدة واحدة، ليس هناك أبيض أو أسود، لا عربي ولا عجمي، لا شرقي ولا غربي ، مسلم أو مسيحي أو يهودي.... فالعالم كله قرية صغيرة مترابطة برابطة واحدة، فأين لهذه النظرة أن تتحقق في عالم تسيطر عليه نزعات شتى.

وهناك دلالة ترتبط بالدلالة المثالية السابقة ارتباطاً شديداً، مع ارتباطها بالحقيقة الملموسة وهي "فكرة الرحمة بالضعيف ومواساة العاجز الفقير"([7])، وأصحاب هذه النظرة يريدون أن يرتقوا بالحياة البشرية، فتعم بين الناس الرحمة والتعاطف والأخوة، فلا يوجد عاجز أو بائس أو فقير.

وقد اقترب" عيسى الناعوري" من الواقع حين عرف (الإنسانية) بقوله:- "نشر المبادئ السامية، والمثل العليا بين الناس، ومحاربة النظم التي تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان، والعمل على خلق

---

[1] /جبور عبد النور، المعجم الأدبي، 37

[2] /مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مادة أنس، 30/1

[3] / نديم مرعشلي ورفيقاه، الصحاح في اللغة والعلوم، 53

[4] / على يوسف أبو الرب، البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث 1967 ــ 1990، 80، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1996

[5] /شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر ، 58

[6] / نفسه والصفحة نفسها

[7] / نفسه، 59

مجتمع إنساني يسوده العدل والرحمة، وعلى تخفيف الشقاء الإنساني، وتصوير الحياة بصورة محببة إلى النفوس"، ويُجمل هذا المفهوم بقوله :-" المحبة الصحيحة لكل ما في الوجود بغير تفضيل أو تفريق"([1]).

وهذا يعني أن وظيفة الأدب في نظرهم عالمية وهي " أن يكون الفن تعبيراً صادقاً مخلصاً عن قضية يمكن أن يحسها الإنسان في أي مكان فوق الأرض"([2])، بل اتخذ بعض النقاد من الإنسانية مقياساً للشاعرية، فلا يكون الشاعر شاعراً إلا " بمقدار تعاطفه مع الأشياء – بمقدار حبه للبشر – بمقدار تمرده على القبح والنقص، بمقدار شمول رؤيته للتجاذب الكوني بين عناصر الوجود، بمقدار ما يرى في أي جزء – مهما كان ضئيلاً – روعة الكل وعظمته"([3]).

الاتجاه الإنساني في الشعر الفلسطيني

بإخضاع الشعر الفلسطيني الحديث لمقاييس الإنسانية، نجد أن جزءاً كبيراً منه ينضوي تحت عباءتها، وقد أجمل " علي يوسف أبو الرب"الاتجاه الإنساني في الشعر الفلسطيني بقوله : " الاتجاه الشعري الفلسطيني الذي يمثل الإنسان الفلسطيني في الوطن المحتل والمنفى، مصوراً آلامه وهمومه ومعاناته، الرافض لاستلاب حقوقه وقهره، ونفيه من المجتمع الإنساني، المبشر بولادة الإنسان الفلسطيني الجديد الثائر، من أجل إثبات وجوده الإنساني وحقه المشروع في الحياة الآمنة على تراب وطنه، المعبر عن اندغام الذات بالإنسان في كل مكان، مشاركاً إياه فرحه وحزنه وآلامه وآماله، متعاطفاً معه دون التفات إلى وطن أو قوم أو دين، جاعلاً محوره احترام إنسانية الإنسان، وحقه المقدس في الحياة"([4]). وهو إذ يرفض الواقع المؤلم الذي يعيشه، يدعو إلى تغييره وفق ما يضمن له الحق في الحياة الكريمة على أرضه ووطنه، تحت مظلة الحرية والعدل والمساواة، مصوراً آلامه وجراحاته التي نزفت بقوة وما زالت.

والشعراء الفلسطينيون " اعتبروا قضيتهم هي قضية الإنسان في كل مكان"([5])، وهناك العديد من القصائد الفلسطينية التي تعج بالمواقف الإنسانية مثل قصـــيدة (جندي يحلم بالزنابق البيضاء) ([6])، وقصـــيدة (ريتا والبندقية)([7])، "لمحمود درويش"، وتمثل الأخيرة الجوانب الإنسانية في الشعر الفلسطيني المعاصر، التي تحولت إلى موقف إنساني ساخط ثائر نتيجة لأعمال السلطة الصهيونية، التي

---

[1] /عيسى الناعوري، أدب المهجر، 94

[2] / رجاء النقاش ، أدباء معاصرون، 247، الهلال ،العدد241، 1971

[3] / انظر محمد حسن عبد الله ،الكويت والتنمية الثقافية العربية، سلسلة عالم المعرفة العدد 153، الكويت، 1991،ص 214

[4] / علي يوسف أبو الرب، البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث 1967ــ 1990، 80

[5] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 242

[6] /محمود درويش، الديوان ،189/1

[7] / نفسه،186

تحارب كل معنى إنساني في الأرض المحتلة وقد أصبحت "النزعة الإنسانية عامة في أدبنا الحديث ،ومن السهل أن يراها كل مطّلع على نفثات كتّابنا وشعرائنـــــا" ([1]) .

الشاعر الفلسطيني إنسان ينتمي إلى عصر متشابك الظروف، ويحمل الكثير من الهموم الإنسانية التي استدعتها نكبته في وطنه وشعبه، وقد اعتبر أن مأساة الشعب الفلسطيني هي "مأساة جميع الشعوب الكادحة والفقيرة والمعذبة في الأرض، الواقعة تحت نير الاستعمار، والكفاح الفلسطيني هو جزء من كفاح الشعوب في الأرض ضد جميع ألوان العنصرية والاستعمار"([2]) خاصة أنه إنسان ذاق من المآسي والجرائم والمجازر على يد أعدائه، ما يندى له الجبين، ويضيق عنه الوصف، ومع ذلك ظل الشعراء الفلسطينيون " إنسانيين لا متعصبين... دعوتهم هي الحرية والعدل، وليست هي الانتقام أو العدوان على الآخرين، أو التعالي على شعب من الشعوب"([3]).

نظرات إنسانية في شعر المجزرة

لعل من أكثر المواقف التي نُحرت فيها الإنسانية على مسرح الحياة، "مجزرة كفر قاسم" التي تعانق فيها الظلم والقهر والقتل والقسوة، ليخلف حزناً عميقاً في قلوب الفلسطينيين، وجرحاً غائراً في ضمير الإنسانية، تلك الإنسانية التي توارت عن الأنظار حين تآمرت قوى كثيرة على ظلم الشعب الفلسطيني واضطهاده، واستلاب أرضه ونفيه وقهره، فأخذ يصرخ وسط غابة من الوحوش الضارية تريد التهامه مكللاً وجه الألم، وقد انزرع الحزن في قلبه على ما أصابه وأصاب إخوانه، يقول"سميح القاسم":

بركة دكناء في قلبي
وفي وجهي سحابه
ونجيع ساخن
يصرخ في وحشه غابة
وعلى قارعة الدرب وعاءات نحاس
أيقظت بضع رصاصات
وألقت في جفون الأخوة القتلى النعاس([4])

وكانت القصيدة الأولى من وحي مجزرة كفر قاسم لشاعر بتوقيع "أ.ش" تمثل موقفاً إنسانياً مؤلماً، صور فيه الشاعر طفلاً شاهد مصرع والده.

---

[1] / أنيس الخوري المقدسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، 240

[2] / سعدي أبو شاور، ، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر،243

[3] /رجاء نقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة،234

[4] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة،101/1

سمع الطفل دويا قربـــــــــــه صاح بابا هاتفا لا من مجيـــب
راح نحو الباب يعدو مسرعا ليلاقي الموت والموت غضوب
أبصر الوالد يقضي نحبــــــه يلعن الحرب وأهوال الحـــروب([1])

تعكس هذه الأبيات حالة الهلع ممزوجة بالحزن العميق الذي أصاب أطفال كفر قاسم مما سمعوا ورأوا، ولم يكن مصير الأطفال بأفضل من آبائهم وأمهاتهم، فهذا الطفل "طلال شاكر عيسى" ابن الثماني سنوات يركض خلف عنزة هربت إلى الشارع، لم يكن يعلم بأمر منع التجول، فجاءته رصاصة تصفر جعلته جثة هامدة لا حراك فيها، ركض أبوه على صوت الرصاص وخر هو الآخر، لم تفهم الزوجة شيئاً مما حدث، ركضت نحو زوجها وابنها، رصاصة ثالثة كومتها عليهما، أما "نورة " الابنة فكان نصيبها الرصاصة الرابعة فوق والديها وأخيها، نقل الولدان والابنة إلى المستشفى حيث انتصرت فيهم إرادة الحياة على الموت، الجد الذي شاهد كل ما حدث، مات من القهر في اليوم التالي.([2])

دعت الشرائع السماوية والقوانين الوضعية- من حقوق الإنسان وغيرها- إلى حماية الإنسان المسالم الأعزل، وحرّمت قتله قبل التأكد من ارتكابه الجرائم التي تستوجب القتل، ولكن تلك القوانين ديست تحت أقدام العنصرية والنظرة العدائية إلى كل إنسان عربي قد يشارك القتلة هذه الأرض، التي استولوا عليها ظلماً وعدواناً. ويأخذ "غسان الحاج يحيى" على البعض نظرتهم إلى المجزرة على أنها ذكرى، دون أن يستلهموا منها العبرة والتصميم على انتزاع الحق الضائع، يقول:

كفر قاسم
وقفة أخرى وذكرى، ثم نمضى
والجريمة،؟ والمعالم"؟
وبسمة الإنسان في الحقل
مغدور ومقتول مسالم!!! ([3])

وتستدعي أحداث المجزرة الأحداث التي سبقتها وتعمل فيها تذكيراً وانبعاثاً من جديد. يقول "سميح القاسم":

سيدي
يا واهب النار لقلب وجديلة
سيدي
يا ساكب الزيت
على موقد أحزاني الطويلة([4])

---

[1] /صحيفة الاتحاد، ص 2 ،1956/12/28
[2] / انظر توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين، 198-199
[3] / غسان الحاج يحيى، كفر قاسم، ديوان الشهيد ،243
[4] /سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 103/1

امتد الحزن ليشمل كل ما يحيط بالإنسان الفلسطيني، وما له علاقة به، وذلك لاستمرار معاناته في ظل وجود الاحتلال الصهيوني، وما خلفه من مصائب، ظلت حاضرة في الذاكرة الإنسانية، تصرخ وتدوي مستنهضة الضمير الإنساني ليثأر لشلال الدماء النازفة، كما في قول "وداد عادل البرغوثي":

مساحة حزننا تمتد يومياً تشاطرنا
رغيف الخبز والأخبار والآه
التي تكوي حناجرنا
وتطلع في حنايا القلب
تغفو في ضفائرنا
وتمتد على صفحات كراسات أطفالي وتمتد
كما امتدت على عمري
ومما قد رأت عيناي مما قد روى الجد
غدت بحراً يحيط بنا
وكل طقوسه مد
يحاصرنا بماضينا، بحاضرنا
بأولنا بآخرنا
يرابط في ذواكرنا
يطل على دفاترنا
يعشش في ثنايا الروح
يسهر في بيادرنا
وينهض كلما هاجت مشاعرنا
ولكن كلما نعدو ونبتعد
نرى خلف السنين ظلالها تأتي
تخيم فوقنا للعمق ترتد
أسألكم أطالبكم: دمي ديني
وتصرخ صرخة دوت
بعمق في ضمائرنا([1])

يشكل العدل مطلباً إنسانياً ملحاً، فقد عاش الإنسان طيلة حقبه التاريخية يراوده حلم تحقيق المساواة وإحقاق الحق، وظل هو الهاجس الذي يسيطر على المفكرين والفلاسفة والشعراء والأدباء، يظهر ذلك في دعوتهم وإنتاجهم الفني، ولا بد لهذا الحق من قوة تؤازره وتأخذ بيده، فإذا فقدها اندثر وخلّف في

[1] / وداد عادل البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 205ـــ206

النفس الإنسانية اليأس والألم والقهر، وأصبحت بحاجة إلى من يرفق بها، يقول "فراس عمر الحاج محمد":

رفقاً بقلب كواه اليأس في زمن   جـــاد اللـــئيـــم به والحـــق مندثر([1])

والحق الفلسطيني ظاهر وبيّن، وهو أوضح من قرص الشمس لدى الإنسان العادي، فكيف به لدى قاض متمرس يبحث في بواطن الأمور، ليكشف المخفي، ويحق الحق. ومن أعظم درجات الظلم أن تمتهن كرامة الإنسان، فتقدر حياته بقرش يُغرم به قاتل مجرم غاصت قدماه في دماء الأبرياء، الباحثين عن لقمة العيش المغمسة بالعرق والتعب، وهذا ما اقترفه القضاء الصهيوني بحق شهداء كفر قاسم، وإن لم تحرك هذه القضية الضمير الإنساني للعالم فتهب وتطالب بأن ينال المجرم جزاءه الذي يستحقه، فقد أشعلت النار في قلوب الفلسطينيين، وعبّر عنها الشعراء شعراً، من ذلك ما خاطب به "سميح القاسم" القاتل – بسخرية مرة يقول:

سيدي
دعني أهنئك على يوم البطولة
عش لعدل لا يضاهى
أيها القيصر عش
ثمن الخمسين....قرش([2])

ويشبه "نزيه قسيس" حكم المحكمة الصهيونية بشأن أحداث المجزرة بحكم "الحمل والذيب" في زجل شعبي :

والـمـــــحـكـــمـــة؟ يـــــا عـيـــب
حكـــــم الـــحــــمـــل والـــذيــــــــب ([3])

ويفصّل ذلك بقوله:

دم الـــبــــــــــري مـــهـــــــــــــدور
وذنــــــــــب القتـــــيـــل مـــغـــــفـــور
صــــــــوت الـــعــــــدل محـــــظـــــور
والــــحــــكــــــم: زور بــــــــــــزور!
والمـــــجـــــرم ذنـــــوبــــــــــــو
مـــحـــفـــــــــورة ع زنـــــــــــوده
مـــعـــــذورة بـــالـــــقــــانـــــــــــون
ومغــــــفــــــورة بــــالــــقـــانــــــون

---

[1] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد، 226

[2] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 103/1ـــ 104

[3] / نزيه قسيس، كفر قاسم ـــالأم ـــ تروي حكاية المجزرة، ديوان الشهيد، 144

اسمـــــــي كفـــــــــر قـــــــاســــــــــــم([1])

ويجسدّ "هشام أبو صلاح" العلاقة بين الذئب العاوي والحمل المربوط، لتمثل سياسة الكيان الصهيوني تجاه الإنسان الفلسطيني المسالم، المنزرع في وطنه منذ زمن بعيد، يتعرض دائماً للاعتداء والقتل بطرق بشعة، تُعبّر عن تخلي الصهيوني عن الصفات الإنسانية، والتحاقه بركب الوحوش الضارية التي يهمها إشباع غرائزها بأي ثمن، يقول:

الذئب العاوي والليل
وهناك الحمل المربوط بجذع جدار مزمن
بقر الذئب الضاري بطن الحمل المصلوب
شرب الدم، امتص رحيق النبض المحلوب
ثمل الذئب العاوي
رقصت أنياب يتقاطر منها الدم اليانع
فاحمر العتم الشاسع
وكان هناك في الأفق المقمر بالصرخات المقهورة
حمل يثغو
يبحث عن أم وجدها قرب حظيرتها مبقورة ([2])

ويطالب دعاة حقوق الإنسان– والأديان السماوية قبلهم – بحفظ كرامة الإنسان دون النظر إلى لونه أو جنسه أو دينه، وفي كل الأوضاع والحالات، حتى في حال القتل. لكن أعداء الإنسانية نجدهم يبدعون في امتهان كرامة الإنسان وظلمه وقهره، فيُقتل البريء المتعب الضعيف على قارعة الطريق، وُتجر جثته وتدحرج بكل قسوة([3]) – حتى قبل أن تصعد الروح إلى بارئها – لتوضع مع رفاقه كومة واحدة.([4]) من يقم بهذه الجرائم لا يستحق صفة الإنسان بل يَسِمهم "أسامة شواهنة" بقوله:

والحاقدون على السماء
من يأكلون دم البشر([5])

ويخاطب "سميح القاسم" الضمير الإنساني في العالم، حاثاً أصحاب الضمائر الحية على المجيء ورؤية الواقع الفلسطيني، والتحقق من الادعاءات الكاذبة التي تطلقها السلطات الصهيونية:

---

[1] / نزيه قسيس، كفر قاسم ـــالأم ـــ تروي حكاية المجزرة، ديوان الشهيد، 144

[2] / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد، 177

[3] / أنظر حنا أبو حنا، نداء الجراح، 81

[4] / انظر توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبي في فلسطين، 194

[5] / أسامة شواهنه، باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد، 228

فليأت العالم

ولير كيف يتفجر رأسي الجميل كثمرة الرمان

تحت جنازير الدبابات وخرافة العصر

كفر قاسم

لم أعد أحصي جراحي فقد تعبت ([1])

هذه الصورة الرهيبة التي تهز المشاعر الإنسانية هزاً عنيفاً، تتكرر باستمرار للشعب الفلسطيني وإن اختلفت الأساليب والأسلحة، منذ أن ابتلاهم الله بعدو زرع الحزن والألم في قلوبهم، وفي قلوب الأمة العربية، فمجزرة كفر قاسم هزت ضمير البشرية، وإن كان "توفيق زياد" قد رسم صورة واضحة عما حدث في المجزرة، فإنه يرسم بذلك الصورة نفسها لأي شعب يتعرض للظلم والقتل، يقول:

وصك مسامعنا الواهمة

صراخ الثكالى

صراخ الصبايا... صرخ الحبالى

طغى وتعالى

صراخ الشباب الذبيح

ترد صدورهم العارية

وأيديهم الخشنة القاسية

بصاق الرصاص الجموح

صراخ تفجر في أمتي

براكين بالحقد وبالنقمة

وباللعنة المرة صراخ يهز ضمير البشر

ويفلق قلب الحجر([2])

هذا الصراخ يتغلغل إلى الجماد ويفتته، لكنه لا يصل إلى القتلة الذين يمتلكون قلوباً أشد قسوة من الحجارة (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) ([3])

التقطت الصورة السابقة – التي تقشّر لها الأبدان – من واقع المجزرة، متنقلة بين حشرجة الشباب الذبيح، وصراخ النساء وانين الشيوخ والأطفال، وكلهم يغالب سكرات الموت، وينقل لنا "حنا أبو حنا" الصورة نفسها في قوله:

وجحيم حشرجة مروعـــــــــة   يــهـــدر في الــــعــــــــراء

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 196/2

[2] / توفيق زياد، الديوان ، 307 ــ309

[3] /البقرة ، 74

يحبو أنين الـــطـــفـــل فيه بـــيـــن إعـــوال النســاء
تـــتـــزاحـــم الأنـــات فيه كــلــيــلـــة نـــحـــو الــفضاء
والأفـــق شـــنجه الذهـــول وهـــول ذبـــح الأبـــريـــاء (1)

انعكست صورة المجزرة على نفسية الأطفال، وتحولت إلى كابوس يلاحقهم ليل نهار، يقول "مجاهد ريان":

أرى هناك طفلاً نابها
يغفو ثم يصحو
على صور الجنود
يذبحون
خوذ، رصاص، ودم(2)

بنيت المجزرة على حقد دفين، وتربية عنصرية لا إنسانية رضعها القتلة منذ نعومة أظافرهم، وغذّوها حتى غدوا متمرسين في القتل والظلم والهمجية، وأصبحوا مثالاً يحتذى، بل يُستعان بخبراتهم في هذا المجال من دول أو مجموعات تتخذ من الظلم والقسوة مثالاً لها .

وإن كانت المجزرة بكل حيثياتها أبعد ما تكون عن الإنسانية، فإن هناك حالات تنبئ بانعدام الشعور الإنساني لدى القتلة، فقتل طفل صغير أو امرأة حامل والإجهاز على النطفة التي في بطنها(3) وقتل عجوز في الستين من عمرها تتجلى على وجهها علامات التعب والإجهاد....لخير دليل على ذلك، قول"هشام أبو صلاح":

لعجوز في الستين من العمر اليابس إلا من عشق الأرض الظمأى
كانت ملقاة في الطرق المهجورة تقبض في كفيها أضمومة زعتر
وبعينيها المشرعتين سحابات خضراء
تنم عن الغدر الموحش
لكن جبهتها كانت ساجدة لله كطهر رسوله
صلت تحت ظلال مقتولة
تلك عجوز في الستين من العمر المغدور
وجدها تنزف ألف صلاة من فرح مكسور(4)

---

1 / حنا أبو حنا، نداء الجراح، 80

2/ مجاهد ريان، من ذكريات مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 280

3 / انظر صور الشهداء في الصفحات السابقة،وانظر توفيق زياد، الديوان ،318ـ319

4 / هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد،173ـ 174

وتتساقط نفس "وداد البرغوثي" حسرة على طفل يدق رأسه في الجدران، يصرخ وينادي أمه التي خرجت منذ الصباح، ولم يعد يراها، ينتظرها فيطول انتظاره، انتظر أن تأتي وتسد جوعه وعطشه، وتدفق عليه من حبها وحنانها، وظل ينتظر ويصيح ولا من مجيب إلا الحزن والجوع والعري، وهي إذ تصور حالة خاصة لمجزرة كفر قاسم، إلا أنها تعبّر عن حال الأطفال الذين يفقدون أمهاتهم لسبب أو لآخر، تقول:

قصائدنا مدمّاة
مضرجة بلون شقائق النعمان
بلون شفاه أطفال تدق الرأس في الجدران
ينادي أمه الطفل
أيا أماه....يا أماه
أنا منذ الصباح جلست منتظراً
فعودي الآن يا أمي أنا جوعان
أنا عطشان يا أمي
جرار الماء فارغة
أنا عطشان
وقمصاني ممزقة
فمن يا أمي يرتقها يرقعها
أنا عريان
وصاح الطفل لا من يسمع الصرخات
لا أصداء رددها سوى الأحزان([1])

ويصور شاعر فلسطيني – تحت توقيع شاعر عربي – أحداث مجزرة كفر قاسم، نافياً عمن قاموا بها صفة الإنسانية والرحمة، بل هم كفار بالدين والأخلاق، كاشفاً ادعاءاتهم الكاذبة بأن من قتلوا هم من الفدائيين:

هل كفر قاسم كانت غير مجـــزرة ... أجرت بها الدم أنياب وأظفـــــار
ولطخةٌ في جبين الخصم قائمـــــةً ... أعارها من دياجي لونه الغـــــار
خمسون من أبرياء القوم قد قتلـــوا ... فلا تقولوا فدائيـون ثــــــــوار
إن الجنود الألى بالقوم قد فتكـــوا ... بالحــق بالــدين بالأخلاق كفـــار([2])

---

[1] / وداد عادل البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 204-20

[2] /هارون هاشم رشيد، الكلمة المقاتلة في فلسطين،60

وقد رسم الشعراء لوحات معبرة عن قتل المعاني الإنسانية، من خلال تصويرهم لمجريات المجزرة أو ما نتج عنها، وفي إبراز دوافعها وأهدافها، ومن خلال وصفهم لمن قاموا بهذه الأعمال المشينة، مستحضرين نماذج من الدول الاستعمارية، التي أذاقت الشعوب الأخرى ويلات الحروب، ورفضت الوجود الإنساني، فداست على كل القيم والأخلاق والمشاعر الإنسانية، يقول "عبد الناصر صالح":

رأيت الفاشيين بأقنعة سوداء
يدوسون الإنسان
ورأيت الطوفان
ورأيت جموع الشهداء متاريس
على أبوابك ([1])

ويرثي "حبيب قهوجي" شهداء كفر قاسم متسائلاً:

جنكيز خان تثاءبت أيامه ؟
أم جند هتلر للدمار ضواري ؟ ([2])

والشاعر الفلسطيني باستحضاره لأسماء جبابرة التاريخ، يسعى إلى الكشف عن خطوط تربط تجربته مع تجارب الآخرين، وتوحدها في المسار الإنساني، حيث تكون عوامل الظلم والقهر قواسم مشتركة بين المظلومين.

عانى الفلسطينيون من التمييز العنصري، وظهر ذلك من خلال الممارسات الصهيونية قولاً وعملاً، فقتل الصهيوني جريمة لا تغتفر، يستحق مرتكبها أقصى العقوبات، وتثار القضية في المحافل الدولية مستصرخين لهذا الدم الذي أريق، وقتل خمسين فلسطينياً بل آلاف الفلسطينيين بدم بارد لا قيمة له، ويرد عليهم "ابن زيدون" من الناصرة مذكراً إياهم بوحدة أصل الإنسان، وبضرورة المساواة بين جميع البشر، بقوله:

وفي كفر قاسم فيم الحصـــــــــــاد   أيرضيكم "الثمر الأحمـــــــــــر"
ألم تمتلئ كأسكم بالدمـــــــــــــاء   ومـــــن خمرة العار لم تسكروا
أتستنصرون ضمير الشعـــــوب   وبطن النساء هنا يبقـــــــــــــر
وتستصرخون لأطفالكـــــــــــم   ويحصد طفل لنا أصغـــــــــــر
أمن ذهب صيغ أبناؤكـــــــــم   ومن حجر طفلنا المزهـــــــــــر
أفيكم يسيل دم أحمـــــــــــــــر   وفينا يسيل دم أصفـــــــــــــــر ([3])

---

[1] / غسان كنفاني، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الإحتلال1948ــ1968، 90

[2] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق،ديوان الشهيد، 227ــ228

[3] / هارون هاشم رشيد، الكلمة المقاتلة في فلسطين،60

وتتخذ الدولة الصهيونية من الأصل العربي للفلسطيني سبباً في استعباده وإلغاء إنسانيته، من خلال النظرة إليه نظرة دونية لا يرقى بها إلى مستوى الإنسان الذي يظن الصهيوني نفسه أنه يمثله، والإنسان الفلسطيني الذي ذاق ألواناً من المعاناة، لم ينس الحقيقة الإنسانية الكبرى، "أن الإنسان أخو الإنسان شاء ذلك أو أبى". ([1]) وخير ما يمثل هذه النظرة، النداء الذي يطلقه "يا أخي" وهو نداء "يشعر كل إنسان على وجه الأرض بأنه أخ لنا حبيب في رابطة الإنسانية الكبرى"([2]) ومن هنا نرى "راشد حسين" ينادي أخاه الإنسان ليطلعه على ما أصابه من جراح وما زالت تصيبه ليخلق مجتمعاً تسوده المحبة والرحمة والتعاطف، يقول:

يا أخوتي بكت الجراح ولم تزل   تبكي فدمع عيونهـــن دمـــاء([3])

ويؤكد "معتصم توفيق الخضر" أن أبناء آدم أخوة، وعليه يجب أن تكون الرابطة بينهم رابطة المحبة والوفاق، يقول:

قال الشهيد قصائـــــــــداً   فيها المحبة قد نثـــــــــــر

كل ابن آدم أخـــــــــوة   حتى التقي ومن كفـــــــــــر

يا كفر قاسم أنت غصـــــــ   ن الحب أنـــت مــن انتصـــر ([4])

وينقل لنا "توفيق زياد" صورة عن الأعمال اللاإنسانية التي تعرض لها الإنسان الفلسطيني في كفر قاسم، متخذاً من صوت الضحايا دلالة عليها، بعد أن نادى الفلسطيني أخاه الإنسان ليشاركه أحزانه، ويقف معه في وجه الظالم، يقول:

أخي

إن في الأفق صوتاً يمور

هتاف الضحايا يشق القبور

هتاف يهز الفضاء الكبير

هو الشعب يذبحه المجرمون([5])

ويعلن الشاعر أن الطريقة لتحرير الإنسان، وردّ الضيم عنه هي الاتحاد وضم الصفوف، يقول:

ألا اتحدوا أيها الكادحون

ألا اتحدوا أيها المخلصون

وضموا الصفوف وشدوا العزائم

---

[1] / علي يوسف أبو الرب، البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث 1967ــ 1990، 150

[2] / عيسى الناعوري، أدب المهجر، 95

[3] / راشد حسن، الأعمال الشعرية،377

[4] /معتصم توفيق الخضر، هابيل ينتصر على قابيل في كفر قاسم ، ديوان الشهيد، 240

[5] /توفيق زياد، الديوان ، 320ــ321

لمحو نظام على الظلم قائم

نظام

الخنا

والدماء

والجرائم([1])

والشاعر في هذه القصيدة يشد من أزر شعبه الكادح، فيدعوه إلى الاتحاد وشد العزائم، وقد وجه خطابه إلى "الكادحين" انطلاقاً من الفكر الاشتراكي الذي ينتمي إليه، وأصحاب هذا الفكر يتحالفون مع الإنسان في قضاياه العادلة، ويكون تحالفهم الأساسي مع طبقة الكادحين "العمال والفلاحين"، وذلك أن هذه الطبقة تشكل أكبر فئة من فئات المجتمع، وهي مستهدفة من المستغلين لشرائح المجتمع وبعض طبقاته.([2]) لذلك فهي بحاجة إلى المساندة والعون من أجل الوصول إلى الطريق السليم المؤدي إلى تخليص الإنسان من الظلم والقهر، كما يؤدي إلى نيله حقوقه وحريته... وهذه المساندة لا تقتصر على شعب دون آخر، فالمشكلة مشكلة إنسانية عامة، والطغاة هم الطغاة في كل مكان، فما جرى في كفر قاسم مرشح أن يحصل في كل بقعة يتواجد فيها الطغاة الظالمون، يقول "غسان الحاج يحيى":

كفر قاسم،

لست ذكرى للشهادة

فما جرى في كفر قاسم

قصة الإنسان يكدح في الحياة ولا يزاحم

والطغاة؟!

هم الطغاة!!

أعداء الحياة ([3])

وقد تجتمع قوى البغي والعدوان على قهر الشعوب واضطهادها، ولعل القضية الفلسطينية مثال صارخ على تحالف الدول الاستعمارية، لإقامة الدولة اليهودية على أنقاض شعب أخر وتشريده في البلاد. يقول "عبد الناصر صالح" مخاطباً كفر قاسم رمز الظلم والقهر:

عمد تك روحي ودمي

وبنيت على شطآنك جسراً

للرؤيا المفقودة

فليدخل كل المحرومين

المضطهدين

---

[1] / توفيق زياد، الديوان ، 321

[2] / انظر جمال محمد يونس، لغة الشعر عند سميح القاسم،39، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك،1981

[3] / غسان الحاج يحيى، كفر قاسم، ديوان الشهيد، 244

المدفونين

بأمر مراسيم السادات الجبناء([1])

وعلى الرغم من أن النكبة الفلسطينية لم تقتصر على طبقة دون أخرى، فإن "مناصرة الطبقات الفقيرة في العالم عمالاً وفلاحين ليعتبر سلوكاً معبراً بصدق عن إنسانية القصيدة الفلسطينية".([2]) التي اتخذت من الطبقات الشعبية وهمومها مادتها الشعرية.

ويعلن " توفيق زياد" انتماءه إلى طبقة المضطهدين الذين أُريقت دماؤهم ظلماً وعدواناً، وإن لم يكن من دعاة الانتقام أو العدوان، إلا أنه يتوعد القتلة بالهلاك جزاء ما اقترفت أيديهم:

دمي هو ذاك الذي قد سفك

دمي هو ذاك وذاك دمك

وقد شربوا منه حتى ارتووا

فيا ويلهم

عندما يطلع الصبح

مما أتوا([3])

وهذا الصبح الذي يتوعد الشاعر المعتدين به، سيكون على أيدي الشعوب التي أخذت تعد العدة، بعد أن اقتلعت من داخلها جذور الخوف والرهبة من الحكام والزعماء، وأخذت تستعد للثورة على الظلم والظالمين، ويؤيده في ذلك "عبد الناصر صالح" في قوله:

جمهور الفقراء يعد العدة للفجر

يواصل في عمق الأرض مسيرته

اقتلع جذور الخوف الصوري

فهل أختَرِق قوانين الزعماء الأنذال

وأبني صرحاً للثورة([4])

ودعوة الشاعر إلى إشعال نار الثورة على أعداء الإنسانية، جاءت بعد طول صبر، ونفاد كل الطرق السلمية لرد الباغي عن غيّه وطغيانه، ولكن كل هذا لم يزد المجرمين إلا إجراماً وتمادياً، في انتهاك حقوق الإنسان وكرامته، لذلك دعا "سميح القاسم" إلى تجميع القوى الخيّرة في العالم لإظهار الحقيقة والدفاع عن الحق بإراقة الدماء، فالعدو لا يفهم إلا لغة القتل والدم.

لا سحر إن نطق الرماد ألابكم   تحت الرماد حرائـــق تـتـــضرم

أنموت صمتاً حين ألف جريمة   تنهال:- "يا أهل القبــــور تكلمــوا"

---

[1] /عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد ، 133

[2] / سعدي أبو شاور، ، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 244

[3] /توفيق زياد، الديوان ، 322

[4] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 129

فتفجري يا صرخة مكتومـــــة وتكسري يـــا صخـــــرة تــتـــكـــلـــم
ولتحشد الدنيا هنـــا أحقـــــادها لترى الدم المسفوك يـــتـــبـــعــــــه دم([1])

قال الشاعر هذه القصيدة في الذكرى العشرين للمجزرة، بعدما ذاق من صنوف العذاب والاعتداء والظلم ما لا يحتمل، وإذا دعا إلى حمل السلاح والثورة، فذلك من أجل عزة الإنسان، والرفع من شأنه، وتحقيق السلام العالمي.

وينثر "عبد السلام محمود موسى" باقة من الحِكم على الأحرار المناضلين، يحثهم فيها على رفض الضيم، ومقارعة الطغاة. يقول:

أنــــت المقـــــدم والدنـــيـــا مؤخرة والرأس حين طواغيت الدّنى ذنب
لا يهلك المرء عن عز ومكرمـــــــة ولا يعيش ذلـــيـــلاً أنفه تـــــرب
هل الزمان سوى يومين منتهـــــب ينفي وآخـــر فـــيه الخلد يحتجب([2])

بدأت مأساة الإنسان الفلسطيني عندما طمع الغريب في أرضه، واتخذ من أجل استلابها كل الأساليب، ضارباً بعرض الحائط كل الشرائع والقوانين الإنسانية، ولم يكتف باستلاب الأرض بل قام بتغيير ملامحها بإقامة المستعمرات، بعد أن قتل أهلها أو طردهم وضيق عليهم في العمل والحركة، وقد بلغ الصلف بإسرائيل والتحدي للمشاعر الإنسانية مبلغاً عظيماً، عندما احتفلت بإقامة مستعمرة (كرمئيل) على الأرض التي صادرتها من قرية كفر قاسم والقرى المجاورة في يوم الذكرى الثامنة للمجزرة، مما أثار الفلسطينيين وعبروا عن ذلك بأساليب مختلفة من هؤلاء "راشد حسين" الذي أرسل رسالة إلى رئيس وزراء الكيان الصهيوني، بعنوان "رسالة صريحة من شاعر عربي إلى ليفي أشكول"، في الثامن والعشرين من تشرين أول 1964م، التي يقول في آخرها، "إنني كعربي لا حدّ لسخطي وغضبي وكذلك كإنسان ....لأشعر بالخزي والعار لأنني أعيش في ظل حكومة لا تتورع أن تظهر اعتقادها بأن يوم حداد شعب هو يوم ابتهاج لدى شعب آخر" .([3]) كما عبر عن موقفه هذا شعراً تحت عنوان "إلى شعبي في الجليل" وقدّم بين يدي هذه القصيدة بقوله: "بعد غيبة طويلة أعود إلى الجليل! أعود إليه بعد يومين من تحدي أشكول لكل شعور إنساني، باحتفاله بعرس (كرمئيل) في يوم الذكرى الثامنة لمجزرة كفر قاسم كأنما لم يكفه أنه يقيم (كرمئيل) على أرض صادرها من العرب، من هنا كانت هذه القصيدة"([4])

أعود إليك وجرحي: مليــــئ خنـــــــــــــادق!
أعود إليك وجرحي: عـــــــيون بنـــــــــادق!
أعود إليك وجرحي: حبـــــال مشـــــانـــــق

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 413/2
[2] /عبد السلام محمود موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 179
[3] / انظر يوسف الخطيب،ديوان الوطن المحتل، 42ـــ43
[4] / راشد حسين، الأعمال الكاملة، 406

... ...

أعـــود إلـــيـــك وفــــي كــفــــــــر قاســـــم تـــغـــــلي القــبـــور

وفـــي كرمئيل تــــــدق الــــــطـــبــــول لــقــتـــل الزهــــــــــــور

أعــــــود إليــــــــك لأســـأل "كيــــف تـــربـــــى النســــــــــــور"([1])

فالشاعر صُدم برؤية هذه المستعمرة بعد غيبته عن الجليل، وثارت مشاعره واحتقن غيظاً وحقداً، ولكن "سميح القاسم" يطالعها صباح مساء فتذكّره بعذابات شعبه والدماء التي أريقت، وتزيده تصميماً على استرجاع الحق إلى أهله مهما حاول العدو إخفاء الحقيقة، وتغيير طبوغرافية الأرض يقول:

صباح مساء

يطالعنا ... وجهها والسماء

ونبسم ... لا بسمة الأغبياء

ولكنها بسمة الأنبياء

تحداهم صالب تافه

يغطي الشموس ... ببعض رداء!

غداً ... يا قصور رست في القبور

غداً ... يا ملاهي ... غداً يا شقاء

سيذكر هذا التراب، سيذكر

إنّــــا منحـــنـــاه لـــون الـــدمـــاء

وتذكر هذه الصخور رعاة

بنوها بأدعية مـــــــن حـــــــداء

وتذكر إنّا ...

هنا سفر تكوينهم ينتهي

هنا ... سفر تكويننا ... في ابتداء([2])

يتواصل "سميح القاسم" في الأسطر الشعرية السابقة مع التاريخ، مركزّاً على الجانب الإنساني من قصة صلب "عيسى" عليه السلام، فيصور معاناة الشعب الفلسطيني تحت نير الاحتلال الصهيوني، وما يعرض له من سلب للحرية وقهر وتعذيب ومصادرة أراض، بما قام به اليهود مع "عيسى" عليه السلام من ائتمار وتعذيب، بل ابتكروا لأنفسهم طريقة في قتله – لولا قدرة الله – تنم عن الفكر الإرهابي القائم على قهر الإنسان والحط من شأنه، ومعاداة كل دعوة للخير تتعارض مع أطماعهم، لذلك لا يترفعون عن استخدام أية وسيلة لتحقيق مآربهم، ظآنين بذلك أنهم يستطيعون قهر الحقيقة وسيطرة الباطل، ولكن

---

[1] /راشد حسين، الأعمال الشعرية، 406ــ 407

2/ سميح القاسم، الديوان ، 90

أنّى للباطل أن يسود، فما حصل في كفر قاسم من مصادرة الأرض ومحاولة إلباسها ثوباً غريباً عليها ببناء القصور والملاهي ..... لا يمكن أن ينسي هذه الأرض أصحابها الشرعيين، الذين رووا ثراها بالدماء وضحوا من أجلها بأنفسهم، وسيندثر الباطل مهما طال ويعود الحق لأصحابه، وستكون هذه الأرض نذير شؤم على مغتصبيها.

إسقاطات المجزرة على ذوي الشهداء

تعد المشاعر التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة، من أقوى الروابط الإنسانية وأصدقها، ذلك أنها بالإضافة إلى المشاعر الإنسانية العامة، تدعم بمشاعر الحب والعطف والرحمة، وقد حاول الشعراء تسليط الضوء على مشاعر ذوي شهداء كفر قاسم إبان سماعهم الخبر الأليم، فبعد أن تقضّت ساعات المجزرة، نزفت الجراح وترسبت الآلام، آلام عائلات تيتّمت بفقد آبائها، وعائلات ثكلت أبناءها، وأمهات فقدن فلذات أكبادهن، وزوجات ترملن..... آلام قرية بأكملها، تحيي كل سنة ذكرى الحوادث الدموية، فأصبحت لدى الفلسطينيين رمزاً وجرحاً ينزف على الدوام، وعم الحزن والسّواد بيوت القرية بعد أن خطفت السياسة الصهيونية الخرقاء ما يقارب الخمسين من خيرة أبنائها، يقول "راشد حسين":

خمسون غصناً حطّمت في حقلنا أودت بهن سياسة خرقـــــــــاء
في كفر قاسم وزعوا ألفاظهـــم ورصاصهم فتناثرت أشـــــــلاء
رف الحداد على بياض ثيابنـــا وإذا ثياب نسائنا ســـــــــوداء
وإذا المثلث بعد بيض ضلوعه يصحو وإذ بضلوعه حمـــــراء ([1])

ويظل الشوق والحنين متأججا في قلوب الفلسطينيين، يدعمه نار الحقد على القتلة لما جنته أيديهم وتتغلغل الآلام ليعم الوطن العربي كله، يقول "علا عيسى":

وجع القرى في غربتك
قد شفّنا شوق إليكم
يا فاطمة
نصف لديكم .... آخر يتقلى
غلمانك
هلاّ دعوت ليطفئوا ظمأ الحميم
علّ الزمان يعود بعد الوصل بالزهر في
ساحاتنا
ذكراك أدماناّ ويسري حبك المتغلغل
في طفلنا

---
[1] /راشد حسين، الأعمال الشعرية، 378

في شيخنا

في الألف مليون وفي الخمسين . ([1])

وتتوقد المشاعر الإنسانية بكل ألوانها وأطيافها، عندما يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن رد الضيم الواقع عليه أو على من حوله، فتلهج نفسه بالدعاء للشهداء والنقمة على الأعداء، ويبقى الدعاء هو السلاح والمتنفس حينما يعزّ السلاح، والوسيلة التي تعبر بها الشعوب عن حزنها ورفضها للواقع المرّ، فقد وقعت جريمة كفر قاسم بعد النكبة بوقت قصير، وكان الناس قد أُشربوا الخوف، وعاشوا في جو من الإرهاب والرعب، فكبتوا مشاعرهم ولم يبق لهم ألا باب السماء مفتوحاً، فلجأوا إليه بالدعاء وقراءة القرآن والترحم على أرواح الشهداء، كما يبدو في قول "سميح القاسم":

ومضت بضعة أيام على عيد الضحايا

وأتيت

وتلقاني بنوك البسطاء

وتلونا الفاتحة . ([2])

ويطالب "عبد الرحيم عمر" بنات كفر قاسم بأن يقرأن الفاتحة على أرواح الشهداء، ولا حلّ إلا بمقاومة الاحتلال:

ظل أن تطردن عن أجداثهم سود الطيور الجارحة

ظل أن تقرأن عن أرواحهم كل صباح فاتحة

ظل أن تؤمن أن لا حل إلا أن نقاوم ...ونقاوم

ونقاوم...يا صبايا كفر قاسم([3])

ويؤكد هذا التوجه "محمود درويش" الذي يرفض أن يكون الرد على جرائم العدو بالصمت والدعاء، والبكاء على ما فات، ولكنه بالتعالي على الجراح والصبر عليها، مع الاستمرار في المقاومة:

إنني مندوب جرح لا يساوم

علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي

وأمشي

ثم أمشي

وأقاوم ([4])

ويصور "نزيه قسيس" مشاعر كفر قاسم – الأم– على فقد أبنائها، في قصيدة زجلية طويلة، يتناول فيها المجزرة من كل أطرافها، ويشبه فيها قرية كفر قاسم بالأم الرءوم التي تستشعر الخطر قبل وقوعه،

---

[1] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 106

[2] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 103/1

[3] / عبد الرحيم عمر، رغم حصار الكلمات، 25

[4] / محمود درويش، الديوان ، 205/1

وتنهار لوعة وحسرة حين يتعرض أحد أبنائها للخطر، فكيف بها إذا رأت تسعة وأربعين منهم يسبحون في دمائهم، وهو موقف يشعل النفس الإنسانية ألماً وحسرة، بل لعله من أكثر المواقف المؤلمة رسوخاً في الذاكرة الإنسانية، يقول:

راحوا على الحقلة
نقلة ورا نقلة !
دار النهار ودار
قلبي عليهن نار !
وجه السّما تغيّر
فكري النقي تحيّر
عين الشمس تقلي
وسواس في عقلي
ما عادوا عالميعاد ؟
حتى الغنم ما عاد !
صدري لهيب النار
فكري تعب وحتار
فجأة سمعت طلقة!
وفلقة ورا فلقة
لوح القزاز انهار
مالت حِطان الدّار
بذاني سمعت صرخة
قلبي انشلخ شلخة
قلت الحرب دارت
عبوابنا صارت
دمّي حرقني وفار
قلبي سبقني وطار
حدّ البلد شفتن
عسكر بنادقهن
سودا سواد الليل
ورصاص مثل السيل
وصوت البرود يونّ

وحــدّي قــتـــــــيــــــل يـــــــــعـــــــن

وتـــشــنـــّجــــــوا عـــــصـــــــابــــــــي

وتـــقرطــــلـــــــــوا ركــــــــــــابـــــــي

خـــمـــــــســـــــــــة مـــــــــــن أولادي

خـــمـــســــــــــة مـــــــن أحـــــفــــــادي

قـــــــــدّامـــــي حـــــشـــــــــــوهــــــن

وتــفــعـــــــــفـــــــلــــــــوا بدمــــــــــن ([1])

وإذا كان "نزيه قسيس" يصور مشاعر أهل كفر قاسم جميعاً، فإن "غادة الشافعي" اقتربت أكثر بتصويرها مشاعر أم الشهيد التي لا يعدل حبها حب، ولا يوازي مشاعرها مشاعر أخرى، يبقى الشوق والحزن مؤججا في قلبها، لا يستطيع الزمن تغييره مهما جرّ عليه ذيل النسيان الطويل، وهي ترى ابنها في كل مظهر من مظاهر الحياة وفي كل وسيلة كان يستخدمها، في كل مكان كان يتواجد فيه وفي كل همسة أو لفتة، وهي تصور مشاعر الأم الثاكل في أي مكان في العالم، تقول:

حيث لا نايات تعزف ولا كلام يفتح الأبواب

يفلت نداء الأم صاعدا سلالم الغياب :

يا حبيبي الذي في كل مرآة ملامحه

في الوسادة ريش أحلامه

أين صدرك الذي أودعت فيه حشائش قلبي

أين عيناك(*[2]) اللتان في لمعانها تحوم نجوم ليالي

على بابي ليل لا يفوت

ولا يقدر على احتوائه الوقت

والمناديل التي سالت فيها أهدابي

معلقة كعويل في الشرفات

كلما جاء المساء تناثرت في الاتجاهات([3])

وهذا الحزن ينقلب نارا تلتهم أحشاء هذه الأم، فتصل ليلها بنهارها سهراً وبكاء، يقول "فراس عمر الحاج محمد":

وألام تشرق بالنار التي التهمت	أحشاءها بسواد الليل تــــــأتزر
حر الفؤاد حنين الشوق أججـــه	غدر الطغاة وطال الليل والسهـــــــر ([4])

[1] /نزيه قسيس، كفر قاسم – الأم، ديوان الشهيد، 137-138

*/ في الأصل " أين عينيك"

[2]/ غادة الشافعي، مرثية العاشق، ديوان الشهيد، 156-2157

[3]/ فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد، 226

ويضيف الشاعر أن الحزن على فقد الشهداء لم يكن من نصيب الأم وحدها، بل عم جميع أفراد العائلة: من الأب والأخ والأخت، فغرقوا في البكاء والعويل:

أختي تنوح، فذاك الحزن سيدها   ووالدي وأخي بالدّمع قد أمـــــروا([1])

تأخذ العادات العربية على الرجل اللجوء إلى البكاء للتعبير عن حزنه، وتعتبرها نقيصة من رجولته، فهو أقدر على كظم الغيظ وتحمّل الصعاب وإخراج مشاعره في أفعال مقاومة تطفئ نار حزنه وحقده، ولكن الفتاة الفلسطينية ربيبة البيت، لا تخرج إلا لسبب قاهر- خاصة قبل انطلاقها إلى العمل في ميادين متعددة في هذه الأيام- فليس لديها وسيلة إلا الدموع للتعبير عن حزنها، تقول "غادة الشافعي":

لكن الأخت في ركن البيت
كانت تهيئ الوقت
كي تأخذ بين يديها الناعمتين رأسك الجميل
وتحضن رأسك القتيل
وتوسده ثوبها الداكن
وتبلله بدموع تسيل من الليل
إلى الليل([2])

وتشير الأسطر الشعرية السابقة إلى السلوك اللاإنساني الذي سلكه القتلة، وما نتج عنه من حزن شديد انتاب أهل الشهداء، عندما لم يسمح لهم بتوديع أبنائهم قبل مواراتهم في الثرى .

ويأتي حزن أخر، حزن الزوجة التي فقدت الحبيب والمعيل والراعي والحامي، وأورثها عبئاً ثقيلاً تنوء به الجبال، فحملت دوراً فوق دورها، ومسؤولية فوق مسؤوليتها، بعد أن كان كل منهما يتمم دور الآخر في الواجبات المنوطة به، من تربية الأبناء، وجلب الرزق والصمود أمام إعصار العدوان على الأرض والإنسان الفلسطيني، وهنا تتساءل "غالية أبو شباب" مستنكرة:

هل زوجة الفلاح
تجني رزقها من شحمهم
جندية ومرابط في خندق
تترصد العصر خطى قطعانهم

---

[1] / فراس عمر الحاج محمد، عزف بسيط لذكرى أليمة ،ن ديوان الشهيد ، 226

[2] / غادة الشافعي، مرثية العاشق، ديوان الشهيد ،159

صاحت مكبرة بأمر رجوعهم ([1])

ومن الصور الإنسانية المؤثرة ما نقله لنا "هشام أبو صلاح" عن امرأة لحظة سماعها خبر المجزرة، فأخذت تبحث عن زوجها الذي لم يعد من الحقل، مرعوبة خائفة، وعندما أيقنت أنه قضى، أخذت تصرخ وتولول، صراخاً مجبولاً بالألم والحسرة، جلجل الأفاق من هول ما سمعت ورأت من وحشية العدو وغدره، يقول:

وامرأة تبحث عن بعل ما عاد من الحقل الملغوم

صرخت........ يا ولداه

فتناهت صرختها المجبولة بالوجع المسموم

صعدت في الآفاق تجلجل ذاك الزمن المرجوم ([2])

ورسمت "غادة الشافعي" صورة للمشاعر الإنسانية الجميلة التي تربط بين الزوجين، حين تصورت زوجة أحد شهداء المجزرة، وهي تنادي زوجها الحبيب الذي تراه في كل مظهر جميل من مظاهر الطبيعة، وفي كل معنى لطيف، تستذكر الأيام الخوالي، وما ظللتهما من سعادة وهناء، فتجعلهما في حب دائم، ولكن همجية الجزارين ومحاربتهم لقيم الإنسانية، حولت كل هذه المشاعر إلى ذكرى تنبع منها اللوعة والحسرة، تقول:

وما أن يهدأ نداء الأم حتى يصعد كشهقة الياسمين

نداء الحبيبة التي لوعها الحنين:

يا حبيب الأيائل الشاردة في براري الروح

طلبتك الحساسين عند هبوب الصباح

حنت إليك الحقول التي في المواسم تطرح قمح الجراح

ها هنا شجرة كنا نخبئ في جذعها الخشبي فواتح أسمائنا

نار أول لهيب مس أرواحنا

تحت ظلالها كنا نتنفس الحب

ونستعذب شرابه المسكوب في قبلات أطيب من عنب الجنات

كنا بأوراقها نستر الذكريات المقطوعة قبل الوقت أو بعده

لئلا ينتبه السوسن من نومه

ويسبق السهل خطواتنا

حيث الفراشات تلون في ثغر الابتسامة

يا حبيبي الذي في الغياب ترن أجراسه

3/غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 26

[2] /هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 174-175

في دمي يئن وخز لياليه
من سواك سيفرد لي نايه ويرعى قطيع شعري في براريه
من سيدخل في خيمة الغريبة بعدك
ويغني حتى ترقص على جانبي الملائكة
سكرى من هيام([1])

ويعود الشاعر "باسم الهيجاوي" إلى نداء العقل الذي يدعو إلى الاعتدال في الحزن على الشهداء، لأن الذي يعزي النفس بفقدهم أنهم قضوا شهداء، وهي أعلى مرتبة يتمناها الإنسان لنهاية حياته التي لا بد أنها آتية، فالموت كأس الكل واردها، يقول:

ويرسمون خطاهمو في كل يوم ألف ذكرى
تستريح على الشفاه بأننا
لله يوماً راجعون ([2])

وهكذا فإن شعر الرافد الإنساني يطرق أهم الموضوعات التي ترتبط بالوطن والمواطن، ويتناول المشاعر الإنسانية ويعالجها بعمق وموضوعية، خاصة أنها قيلت بشأن مجزرة تشكل مع ما أحاط بها من أحداث وظروف، كارثة إنسانية بكل ما للكلمة من معنى، لذلك صور الشعراء هذه المجزرة بكل جزئياتها وما نتج عنها من أحزان وآلام، ودعوا إلى المقاومة لاسترداد الحق والكرامة المداسة، والمطالبة بالعمل على تخليص العالم من هذه الأعمال الهمجية، عن طريق الاتحاد والتكاتف والإخاء والثبات. ولم ينسوا انعكاس هذه الجريمة على ذوي الشهداء والعبء الذي ألقي على عاتقهم، ومن هنا نرى أن البعد الإنساني لا يقل أهمية عن الأبعاد الأخرى، بل يصب مع البعد الوطني والقومي والديني في رافد واحد يشكل إغناء مهماً للشعر الفلسطيني.

---

[1] / غادة الشافعي، مرثية العاشق ، ديوان الشهيد ، 157-158

[2] /باسم الهيجاوي، مرثاة الدم، ديوان الشهيد ، 192

الفصل الثالث

التشكيل الفني لشعر المجزرة

- اللغة الشعرية
- الأسلوب
- الصور الشعرية.
- الموسيقى والأوزان

التشكيل الفني لشعر المجزرة

بعد عرض ودراسة صورة الجزار وصورة الشهيد في الفصل الأول، والاتجاهات الوطنية والقومية والدينية والإنسانية في الفصل الثاني، أصبح من الضروري تناول الجانب الفني لشعر المجزرة، الذي يمكن من خلاله دراسة سمات هذا الشعر وخصائصه المتعلقة بالشكل ، وما يتضمنه من تصوير وخيال وموسيقى ... . بحيث يكون لهذه العناصر مجتمعة أثرها البالغ في نفس المتلقي، فيزداد وعيه بالتجربة الإنسانية التي تتحدث عنها هذه الأشعار، ويُعد الجانب الفني عنصراً مهماً في الأعمال الأدبية بأشكالها المختلفة، لما يضفي عليها من سمات جمالية مؤثرة.

ويُجمل"يوسف حسن نوفل" مفهوم التعبير الفني بقوله: " صياغة صاغها الإنسان يسعى من ورائها إلى تصوير تجربة فنية للجمال والخير والحق في حياة البشرية وفق أسس فنية، وانفعال عاطفي وجداني منظم عميق لتجارب الإنسان في الكون وحقائقه وأحداثه، في صدق فني يتمثل فيه إخلاص الكاتب بعاطفته وتجربته الانفعالية"[(1)]، ويحاول الكاتب ربط جمال التعبير الفني واستمرار تأثيره في المتلقي بصدق العاطفة ومعايشة التجربة الإنسانية، ومن هنا نرى بعض الآثار الأدبية الخالدة، التي تصبح تراثاً إنسانياً ينتقل من جيل إلى جيل، أمثال مراثي "أبي ذؤيب الهذلي" في أولاده، ومراثي "الخنساء" في أخيها صخر ... وذلك لأن الشاعر "ينقل العاطفة الإنسانية في صدق فني وانفعال عميق بها تتقارب العواطف الإنسانية، ويزداد التخاطب والتبادل عن طريقها بين البشر، في كل مكان وكل عصر"[(2)].

وغني عن القول أن الشعر الفلسطيني مفعم بالعواطف الصادقة، والمواقف الإنسانية المعبرة عن أحداث وأهوال تهز الضمير الإنساني خاصة بعد النكبة، لذا انبرى عدد كبير من الشعراء الفلسطينيين والعرب، يصورون هذه الأحداث، ولا أخالني أجانب الحقيقة حين أذكر أنه لا يوجد شاعر فلسطيني في الداخل أو في الخارج، إلا ولديه تجربة شخصية علاوة على تجارب إخوانه التي يشهدها بأم عينه أو يصطلي بسعيرها.

لذلك ولج الشعراء باب الشعر ولديهم معين لا ينضب من الأحداث والمناسبات، ينفثون من خلال الشعر ما يعتمل في نفوسهم، فتخرج أناتهم مؤثرة خالدة تتناقلها الأجيال على اختلاف توجهاتها.

وحتى يضمن الشعراء الفلسطينيون خلود شعرهم، واستمرار تأثيره فيمن يسمعه، اعتمدوا على الموروث الديني، والمراجع العربية القديمة، وأدمجوها في مراجعهم الخاصة، فأصبحت جزءاً من تكوينهم الشخصي، كما استفادوا من الشعر العربي الحديث، والأحداث العالمية، وصاغوا كل ذلك في

---

(1) يوسف حسن نوفل، أصوات النص الشعري، 2

(2) نفسه، 2.

قوالب لغوية خاصة بهم، تعبر عن مأساتهم الوطنية، مهتمين بالجانب الفني الذي يعني " الأساليب التي سلكها هذا الشعر، وأنواعه الأدبية، وما رافقها من تصوير وخيال وعواطف جمالية وموسيقى، حتى اكتمل نضجه وبات على هذا الحال "[1] وفي هذا الفصل سنحاول كشف الجوانب الفنية للشعر الذي قيل في مجزرة كفر قاسم، من خلال دراسة الخصائص الفنية في الجوانب التالية:

1- اللغة الشعرية. 2- الأسلوب.

3- الصور الشعرية. 4- الأوزان والموسيقى.

---

[1]، محمد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968 ، 601.

1- اللغة الشعرية

تتداخل عناصر الإبداع الشعري، ويرتبط بعضها مع بعضها الآخر بروابط قوية، تجعل الدارس عاجزاً عن الفصل بينها، وتحديد العنصر الأبعد أثراً في النص الشعري، "ولولا ضرورة الإحساس ببواعث الجمال وأسرار جاذبيته، لما شرع الباحث في الفصل بين هذه العناصر مضطراً إلى تمزيق وشائجها القوية وهو لا يملك في البداية إلا أن يقر بذلك الحضور القوي للغة الشعر خاصة"(1) فالشعر ليس فكرة أو موضوعاً فقط، أو استثارة عواطف أو إمتاع الأذن بالموسيقى بل هو كل متكامل من هذه العناصر مجتمعة، " والشاعر المجيد هو الذي يستطيع أن يشحن لغته بالموسيقى والصورة، ومصهور تجربته المنبثقة من تفاعل الفكرة والحدث مع العاطفة والشعور، لتأتي لغته متميزة تميز تجربته وخاصة خصوصية ذات الشاعر، ذلك أن لكل إنسان إحساسه الخاص برموز اللغة وألفاظها التي ترتبط لحظة بلحظة، مع ظلال عديدة ترسخ في النفس تبعاً للأحداث الخاصة التي يمر بها"(2).

واللغة وسيلة من وسائل التفاهم بين الناس، ووسيلة لنقل المعلومات والأفكار من شخص إلى آخر ولكل لفظه في المدلول المعجمي معان لا تتجاوزها، فما وجد اللفظ إلا ليدل على شيء ما محدد لا يتخطاه إلى شيء آخر، أما في البناء الشعري فليس كذلك " حيث يمكن أن تتجاوز مدلولها المعجمي إلى مدلولات أكثر اتساعاً، وقد تفقد في السياق الشعري مدلولها اللغوي، لتبني مدلولاً آخر أراده الشاعر من استعماله لتلك الألفاظ بطريقة معينة، حيث تستحيل إلى خلق آخر بطبيعة أخرى"(3).

واللغة في التعبير الشعري تختلف من عصر إلى آخر، نتيجة لاختلاف الظروف والأفكار والآراء والتصورات لمشكلات كل عصر وقضاياه، وليس بسبب تغير اللغة بصفتها لغة مجردة. فألفاظ اللغة العربية الفصيحة هي نفسها من العصر الجاهلي إلى اليوم، وإن كانت بعض الألفاظ قد تراجعت بعض الشيء، وبرزت ألفاظ أخرى تتناسب مع روح العصر ومشكلاته، فمثلاً: " لم تعد عبارة (يا حادي العيس) تعني شيئاً بالنسبة للإنسان المعاصر"(4) فلا بد للشاعر أن يخاطب جمهوره بلغة تتناسب وروح العصر الذي يعيشون فيه إن أراد لشعره الخلود والتأثير فإن " مواضعات العصر لا تسمح بالتعامل مع روح اللغة الذي كان ممثلاً لعصر آخر... وأن الشعر العربي كان يحمل في كل عصر صورة للغة الناس والحياة في هذا العصر"(5) وقد تتميز اللغة لدى شعراء شعب من الشعوب عن لغة شعراء آخرين

---

(1) كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 103.

(2) نفسه والصفحة نفسها.

(3) سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 332.

(4) عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 175.

(5) نفسه، 176-177.

من الأمة نفسها والعصر نفسه تبعاً لظروف كل شعب: السياسية والاقتصادية والاجتماعية " ولعل محنة الشعب الفلسطيني، والهم الفلسطيني، والمعاناة الفلسطينية التي أوجدتها المأساة والظروف التي عاشها أبناء فلسطين قبل النكبة وبعدها قد فرضت لغة جديدة في عالم القصيدة الفلسطينية، بحيث يمكننا أن نطلق عليها لغة الشعر الفلسطيني المعاصر، والتي كانت علامة مميزة في لغة الشعر العربي المعاصر"[1] كما أن ثقافة الشاعر وقناعته بذوق المتلقي تلعب دوراً مهماً في لغة الشاعر من حيث السهولة والغموض.

لذا نجد أن حركة التطور والتجديد التي طالت الشعر العربي عامة، والشعر الفلسطيني خاصة، جعلت الشاعر أكثر ارتباطاً بوطنه وواقعه وتراثه ونضاله،... وجعلت لغته الشعرية نابضة بروح العصر، قريبة من لغة الجمهور المتلقي، على أن لا تكون هذه اللغة هي نفسها التي يستخدمها الناس في حياتهم العادية " فالمفروض في لغة الشعر أن تكون ذات طاقة تعبيرية مصفاة مكثفة"[2] معبرة بصدق عن الموضوع الذي تتناوله، وما أكثر الموضوعات والأحداث التي أصابت الفلسطينيين، وأنطقت الشعراء بقصائد معبرة عن نبض الشعب وإحساساته. وسنحاول التعرف على خصائص اللغة الشعرية في شعر المجزرة.

المضمون اللغوي لشعر المجزرة

اللغة الدارجة

استخدم الشاعر العبارات الشعبية والألفاظ الدارجة المتداولة، مما يدل على تفاعل الشاعر مع روح المجتمع الفلسطيني، وهو " أهم ما يميز لغة الشعر الفلسطيني المعاصر"[3]من ذلك ما جاء في قصيدة" توفيق زياد " (على جذع زيتونة)، يقول:

سأحفر قصتي، وفصول مأساتي
وآهاتي
على بيارتي وقبور أمواتي
وأحفر

كل مُرّ ذقته

....
وأحفر: كفر قاسم لست أنساها

---

[1] سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 333.
[2] عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 179.
[3] سعدي أبو شاور، تطور الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، 333.

وأحفر: دير ياسين تشرّش فيّ ذكراها

وأحفر: قد وصلنا قمة المأساة

لاكتنا ولكناها

لكنّا ... وصلناها!

....

سأبقى قائماً أحفر

جميع فصول مأساتي

وكل مراحل النكبة

من الحبة

إلى القبة

على زيتونة في ساحة الدار. (1)

فتعبير (تشرّش) تعني تضرب بجذورها في الأرض، وعبارة (من الحبة إلى القبة) من بداية المأساة إلى نهايتها دون ترك شيء أو إهماله ، وهذان تعبيران شعبيان دارجان وهما يعبران عما يريده الشاعر بقوة، فعبارة تشرّش تبين مدى ثبات هذه الأحداث في ذاكرته بحيث لا يمكنه نسيانها، وعبارة من (الحبة إلى القبة) تبين رصد أحداث المأساة الفلسطينية بكل تفاصيلها، لذلك استخدم الفعل (أحفر) بدل (أكتب) ليدل على الثبات والرسوخ والخلود، كما اختار مكان الحفر على شجرة زيتون بكل ما تمثله هذه الشجرة من أبعاد، وهي ليست كأي شجرة زيتون، بل هي موجودة (في ساحة الدار)، وهذا التحديد يمنحها شرف الانتماء للدار، ثم أنها " تملك حظاً أوفر في البقاء على قيد الحياة قياساً على أشجار الزيتون التي كان مصيرها الاقتلاع من قبل هذا الخصم المشترك للإنسان والأشجار "(2).

ويستخدم "عصام العباسي" عبارة (من بابها للباب) لإظهار مسؤولية الحكومة الصهيونية عن أحداث مجزرة كفر قاسم:

أو لست قائد رهطه وفريقــه	والحاكم المختار في الأحــزاب

أو لست من رسم السياسة يا	رئيس وساسها من بابها للباب(3)

ومن العبارات الشعبية أيضاً عبارة (والذي في القلب ... في القلب...) من قصيدة (ليد ظلت تقاوم) " لسميح القاسم":

---

(1) توفيق زياد، الديوان، 288-292.

2 /عبد الكريم أبو خشان، ذاكرة الزيتون، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الرابع،1997، 100.

(3) عصام العباسي، لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد، 85.

سيدي!

دعني أهنئك على يوم البطولة

عش لعدل لا يضاهى

أيها القيصر عش

ثمن الخمسين ... قرش

....

سيدي يا قيصر العصر الجليل

كل ما قلناه يا هذا قليل

والذي في القلب ... في القلب

ومن جيل لجيل[1]

والشاعر باستخدامه هذه العبارة الدارجة يعمق سخريته من قاتله "قيصر العصر الجليل" ويبين عدم تنازل الفلسطيني عن وطنه وحقه ولو طال الزمان، فكل ما قاله سابقاً قليل في قاتله، تعرفه الأجيال وتتوارثه " فيزيد بذلك من التحام القصيدة بالوعي الجماهيري والضمير الشعبي ويجعلها أقرب إلى فهم البسطاء والعامة"[2].

وينفعل الشاعر بما يراه من مظاهر التناقض في واقع الأمة، حيث يُسام الفلسطينيون الخسف ويتعرضون إلى أبشع أنواع الجرائم من قتل وتهجير وهدم بيوت ... ، يتحرقون غيظاً وألماً ولا من ينتصر لهم من أبناء جلدتهم، فأصبحت هذه الأمة في مقام الأموات لا حس ولا حركة فيها، وعبر "سميح القاسم" عن هذا المعنى بتضمينه للعبارة الشعبية (يا أهل القبور تكلموا) يقول:

لا سحر إن نطق الرماد الأبكم   تحت الرماد حرائق تتضرم

أنموت صمتاً حين ألف جريمةٍ   تنهال "يا أهل القبور تكلموا"[3]

ويستخدم "محمود درويش" عبارة الترحيب الدارجة (هلا ياهلا) في حثه على الثورة والمقاومة، بقوله:

أحاور روح الضحية

ومن سوء حظ العواصف أن المطر

يعيدك حية

....

هلا يا هلا بالمطر[4]

---

[1] سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 103/1 – 104.

[2] فراس عمر أسعد الحاج محمد، السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم بين عامي 1948–1993، 83 ،رسالة ماجستير، جامعة النجاح ، 1999.

[3] سميح القاسم– الأعمال الكاملة 413/2.

[4] محمود درويش ، الديوان ، 207/1.

ويكرر " نديم حسين" عبارة "ثقيل دم" في عدة مقاطع من قصيدته لإظهار سخطه على الواقع المرّ الذي يعيشه الفلسطينيون، يقول:

زمن الرصاص ثقيل دم

....

زمن الكلام ثقيل دم

....

زمن العذاب ثقيل دم(1)

وهناك قصيدة طويلة للشاعر "نزيه قسيس"(2) بلهجة شمالي فلسطين، وقد وردت عدة مقاطع منها خلال البحث ونقرأ في قصيدة (دم الشهيد ينادي) للشاعر "علي إسماعيل الحلبي" القول السائر الذي جرى مجرى الحكمة:

قال أهل الكرامة والشهامة:

" العرض والأرض أغلى ما نملك"(3)

وهذه العبارة تمسك بها الفلسطينيون قولاً وفعلاً خاصة بعد ما ذاقوا من ويلات الغربة والتهجير الذي فرض عليهم إبان نكبة 1948م.

أسماء ومصطلحات من وحي المأساة

ومن الظواهر اللغوية في قصيدة المجزرة، وجود العديد من الألفاظ والمصطلحات والأسماء التي توالدت نتيجة لوقوع المجزرة، وما سبقها من أحداث نكبة 1948م. فأصبحت هذه الألفاظ جزءاً من القاموس اللغوي الشعري لدى الشعراء الفلسطينيين، من هذه الألفاظ ما غدا رمزاً لغوياً للمجزرة، حيث خرج عن المعنى اللغوي الخاص إلى معنى اصطلاحي قصده منفذو المجزرة مثل (احصدوهم) في قول "عصام العباسي":

هيا احصدوهم لعلعت في كفر قــا   سم، وارتمى الخمسون فوق تراب(4)

ويظهر من البيت حرص الشعراء على ذكر عدد الشهداء على سبيل التقريب (5)ومنهم على سبيل الحقيقة والواقع (تسعة وأربعون)، كما في قول "محمود مرعي":

---

(1) نديم حسين، مارش لكفر قاسم ، ديوان الشهيد، 95-97.

(2) نزيه قسيس، كفر قاسم، الأم ، ديوان الشهيد ، 135.

(3) علي إسماعيل الحلبي، دم الشهيد ينادي، ديوان الشهيد ، 233.

(4) عصام العباسي، لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 85.

5/ انظر قصيدة محمود درويش مغنى الدم، الديوان ،1/ 203 . و محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 73.

تسعة بعد الأربعين وبلغ يا قصيد الأشهاد جلّ الشهيد[1]

وقد حرص الشعراء على تسجيل أسماء القتلة في شعرهم كما يظهر في الأبيات السابقة لإعطاء هذا الشعر بعداً واقعياً، وتحديداً للمسؤولية، وإن كان ما قام به القتلة هو سياسة دولة، وليس عملاً فردياً شاذاً ويمتلك الشعراء القدرة الواعية على اختيار الألفاظ المتناسبة، مع طبيعة الحدث، فالكلمات متناغمة مع بعضها بعضاً معبرة عن عمق الفاجعة وتداعياتها، وهناك قصائد أخذت طابعاً تسجيلياً لما جرى في ذلك اليوم المشؤوم منها قصيدة (كفر قاسم)[2] "لتوفيق زياد"، وقصيدة (كفر قاسم جل الشهيد)[3]" لمحمود مرعي"، وقصيدة (كفر قاسم الأم)[4] "لنزيه قسيس" وغيرها من القصائد.

ومن المصطلحات اللغوية التي دخلت القاموس الشعري الفلسطيني عبارة "منع التجول"، وهو الإجراء الذي تلجأ إليه الحكومة الصهيونية قبيل تنفيذها لأي تحرك عسكري، وإن كان إبلاغ أهل كفر قاسم والقرى المجاورة بأمر "منع التجول" قبيل مجزرة كفر قاسم إجراءً شكلياً يهدف إلى تحسين صورة القتلة، والتستر خلف خيوط واهية من العدالة والحرص على أرواح الأبرياء، فلو كانت هذه الحكومة تقيم وزناً للقيم الإنسانية وحياة الفلسطينيين المدنيين المسالمين الساعين وراء التقاط لقمة العيش، لقامت بإبلاغهم بأمر "منع التجول" قبل وقت كافٍ يسمح لهم بالعودة إلى بيوتهم سالمين خاصة أن أمر منع التجول اتخذ قبل أكثر من أربع ساعات من فرضه[5].فمن يعمل في الحقول والمناطق المجاورة يستحيل عليه العودة في مدة نصف ساعة، كما يبدو من قول "غالية أبو شباب":

منعوا التجول عصر ذاك اليوم – والعمال

تصدر ..... ويحهم

هل عامل في الحقل يسمع صوتهم[6]

ومن الألفاظ المعبرة عن طبيعة الحياة في المدن والقرى الفلسطينية التي وقعت تحت براثن الاحتلال (تصريح سفر) حيث أخذ الصهاينة يضيقون الخناق على الفلسطينيين ويحدون من حركتهم وتنقلهم بأن فرضوا عليهم استصدار تصريح سفر للتنقل من قرية إلى أخرى أو من مدينة إلى أخرى ... وقد حرص الشعراء على ذكر هذه العبارة لدحض ادعاءات (دهان) بتأخير إبلاغ المختار عن

---

(1) محمود مرعي، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد ، 123.

(2) توفيق زياد، الديوان ، 306

(3) محمود ملرعي،كفر قاسم جل الشهيد، ديوان الشهيد، 121.

(4) نزيه قسيس، الأم تروي قصة المجزرة، ديوان الشهيد ، 135.

(5) انظر روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 31.

(6) غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 260.

فرض نظام منع التجول "لتفادي عمليات التسلل تجاه الحدود"[1]، وإثبات أن هؤلاء الضحايا هم من الأبرياء خرجوا إلى العمل بطريقة طبيعية، يقول "محمود درويش":

وجدوا في صدره قنديل ورد ... وقمر

وهو ملقى، ميتاً، فوق حجر

....

وجدوا علبة كبريت، وتصريح سفر[2]

وتعد كارثة عام 1948م وما تبعها من مصائب ومجازر ،عاملاً من عوامل إثراء المعجم الشعري الفلسطيني، من خلال استحداث عدد كبير من الألفاظ والمصطلحات الخاصة بالوضع الفلسطيني، منها ما يتعلق بالوضع النفسي كالخوف والرعب والحزن والألم والحنين والشوق ... ومنها ما يتعلق بالوضع الاجتماعي كاللجوء والنفي والتشتت والتشرد والقيود، يقول "توفيق زياد":

لنا وطن راسف في القيود

وشعب تشرد عبر الحدود[3]

هذا التشرد فرض على الفلسطينيين حياة صعبة، فأصبحوا لاجئين مشردين عراة جياعاً تركوا أرضهم وبيوتهم، لتتصدق عليهم المنظمات الإنسانية بخيمة وكيس طحين ممزوجاً بالذل والمهانة، وحتى هذا الوضع المأساوي لم يرق لأعدائهم بل حاولوا اللحاق بهم، وقتلهم في أي مكان شُرّدوا إليه. وضرب أي دولة يظنون أنها ستساعد الفلسطينيين في استعادة حقوقهم الشرعية، لذلك شنوا الحرب على مصر في عام 1956م، كما أن بقية الحروب التي دارت مع الدول العربية تندرج تحت هذا الباب، تقول "غالية أبو شباب":

قد اعتدوا

لحقوا بقية أهلنا بخيامهم

مع عصبة الأشرار في عدوانهم

بئساً لهم!! [4]

وينتقي "عبد الناصر صالح" حفنة من العبارات والمصطلحات المعبرة عن مأساة الشعب الفلسطيني:

الآن انزلقت من أهداب الليل غصون الموت

الآن بكيت

---

[1] روبيك روزنتال، من قتل فاطمة صرصور، كفر قاسم الأحداث والأسطورة، 41.

[2] محمود درويش، الديوان ، 213/1.

[3] توفيق زياد، الديوان ، 325.

[4] غالية أبو شباب، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 259.

وشربت مرارة حزني

نادمني الحزن / السجن / الموت الميلاد

وبصقت على التاريخ المرصوف بباقات الزيف

القتل الدائم

وسياط الجلاد

الليلة زرت بلادي

الليلة زارتني كل طيور الفينيق

بأجنحة خضراء

الليلة زارتني حبات المطر الرافض

واختلجت دقات القلب الهاجف

قلبي المشلول من الحب / السجن / المنفى

ينقله الوقت إلى المجهول

إلى المنفى

ويراك

يراك

يراك

سراباً في اللون الأزرق

بيتاً مهدوماً مقفر

الرؤيا تهرم في المهجر

النظرة تهرم في المهجر[1]

من الواضح أن الشاعر قد ضمن الأبيات السابقة مجموعة من الألفاظ المعبرة عن حياة الفلسطينيين بكل أبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية، وسبك هذه الألفاظ في تشبيهات بليغة وصور معبرة من هذه الألفاظ (غصون الموت – الحزن – الموت – السجن – التاريخ المرصوف بباقات الزيف – القتل الدائم – سياط الجلاد – المنفى – البيت المهدوم المقفر – المهجر – القلب المشلول من الحب)، ولكن وسط هذا الركام الهائل من الألفاظ السوداوية نلمح بريقاً من الأمل يتمثل في الميلاد الجديد للعزيمة والإصرار يدعمه طيور الفينيق المتجددة ذات الأجنحة الخضر، المعبرة عن الأمل في عودة الحياة السعيدة إلى الفلسطينيين ولو بعد حين.

وهذه الآلام والآمال يظل الفلسطينيون يحملونها في حلهم وترحالهم من تشبث بأرضه ومن هُجّر منها فأصبح نزيل الخيام، خلف حدود وطنه، كما يبدو في قول "محمود الدسوقي":

---

[1] عبد الناصر صالح،طيور الفينيق، ديوان الشهيد، ص130-131.

وأنا مع الأحلام والآلام ... أحملها

أهيم بها على وجهي

نزيل الخيمة السوداء

من خلف الحدود[1]

ودخلت عبارة "الأقلية العربية" بعد أن أطلقها الكيان الصهيوني على الفلسطينيين الصامدين على أرضهم التي احتلت عام 1948م، يقول "توفيق زياد":

يقول الدعيون والغاصبون

بأنا أقلية سوف تجلى

وإّلا ستنفى اضطهاداً وذلاً[2]

ونجد اسم "جمال عبد الناصر" يذكر صراحة باعتباره الزعيم القومي الذي ظهر في تلك الفترة وارتبط اسمه بتأميم قناة السويس، يقول "حاتم جوعية":

ولأجل تأمــيم القــناة تكــالبوا	مستعمرون أتوا هنا جبنــاء
عدوانهم في مصر كان مبرمجاً	فالغاصبون تحالفوا شركــاء
في "بور سعيد" هب شعب صامد	بركان مصر زلزل الحلفــاء
عاد الغزاة بخزيهم وبعارهــــم	أطماعهم أضحت هناك خواء
و"جمال" قائــدنا يظــل مخــلداً	والغار كلل هامه الشــــماء
يا كفر قاســـم أنت عنوان الفدا	منك انتظرنا نملة حمراء([3])

وإن كان اسم "عبد الناصر" قد اقتضت طبيعة المأساة ذكره لذاته فإن هناك أسماء أصبحت رموزاً توحي بأبعاد جديدة حيث انطلقت من قمقم الذات إلى عالم أكثر اتساعاً. فاسم "فاطمة" في قصيدة (عيد ومأساة)[4] "لمنيب مخول" وقصيدة (معزوفة لفاطمة) للشاعر "علا عيسى" أصبح رمزاً لكل فلسطينية سقطت شهيدة في مجزرة كفر قاسم، بالإضافة إلى أنه اسم لشخصية حقيقية وهي فاطمة صرصور التي استشهدت وهي حامل في شهرها الثامن يقول "علا عيسى":

---

[1] محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 73-74.

[2] توفيق زياد، الديوان ، 322.

([3]) حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 199. وانظر محمود الدسوقي ،ذكرى ، ديوان الشهيد ، 71

[4] منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 88.

يا فاطمة
تشرين هلّ ونحن في فرح جليل
أرواحكم قد خيمت تأبى الرحيل
تأبى مفارقة الأحبة في المثلث والجليل
واستقطبت خلانها من غزة حتى الخليل
وتوحدت أرواحكم يا فاطمة[(1)]

وقد ينسب الشاعر بعض الأسماء إلى نفسه لتتخذ بعداً شمولياً حين تتحول إلى رموز أكثر عمقاً ودلالة مثل "شعبي ([2])أمتي ([3])أخي"، كما في قول "توفيق زياد":

أخي
إن في الأفق صوتاً يمور
هتاف الضحايا يشق القبور[(4)]

فالشاعر ينادي كل فلسطيني أينما وجد بل كل إنسان حر يرفض الضيم والظلم يستنهضه لرد العدوان عن شعبه المقهور المظلوم. ومن هنا نرى أن الشاعر انطلق من بوتقة الذات الضيقة إلى مجال رحب يخاطب فيه من حوله ويعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم. وهذا التغير في لغة الشاعر جاء نتيجة التطور في النظرة إلى دور الشعر في الحياة. وحتى يكون الشعر فعالاً معبراً عن روح العصر لا بد له من أن يكون واقعياً مشتملاً على ألفاظ ذات مدلولات عصرية

الألفاظ المولدة والأجنبية في لغة شعر المجزرة

ضمن الشعراء قصائدهم ألفاظا معربة، كانت نتاج التفاعل بين اللغات، والتواصل مع الموروث الأدبي واللغوي بين دول العالم، من ذلك ما قام به " منيب مخول" من تضمينه للفظة **(بوليس)** في قوله:

وما الجناة سوى البوليس واعجباً.
عليهم أمر حفظ الأمن معقود. [(5)]

وتظهر بعض الألفاظ المولدة مثل كلمة "متاريس"

---

(1) علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد نفسه، 103.

2 / محمود الدسوقي، ذكرى، ديوان الشهيد،70

3/ فاروق مواسي، يستهان المسرح، ديوان الشهيد 92

4/ توفيق زياد، الديوان ، 320-321.

5/ منيب مخول،عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 88.

وفي مدخل القرية الواجمة.
وجوم القبور.
على جانبيه وبين الصخور.
أقام الجنود متاريسهم. [1]

وقام بعض الشعراء ممن يتقنون لغات أخرى بكتابة قصائدهم بهذه اللغات، من مثل اللغة العبرية([2]) أو الإنجليزية، طمعاً في تجاوز صوتهم الدائرة العربية، وإظهار حقيقة الحكومة الصهيونية لشعوب العالم على اختلاف أجناسهم، فقد كتب "معتصم توفيق" قصيدة باللغة الإنجليزية بدأها بقوله:

Collect Flower
From Kufur Kassem.
The most beautiful Village.
And fling it with all your strength.
To be scattered every where.
Enveloping the Earth.[3]

ومما يجدر ذكره في هذا المقام، أن الأسماء والمصطلحات غير العربية في شعر المجزرة، كانت ذاتية الدلالة بشكل عام، اقتضتها طبيعة المناسبة التي قيلت فيها، وإن كانت بعض هذه الأسماء تتخذ بعداً دلالياً أعمق من خلال تمثيلها طبيعة الحياة التي يقاسيها الشعب الفلسطيني المناضل.

التناص الديني والأدبي في شعر المجزرة

عمد الشعراء إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما استعاروا تعبيرات ومفاهيم إسلامية وضمنوها أشعارهم، واقتبسوا من الديانات والكتب السماوية الأخرى، وقد تحدثنا عن ذلك مفصلاً من خلال تناولنا (البعد الديني) في الفصل الثاني.

كما تأثر الشعراء الفلسطينيون بديوان الشعر العربي القديم، وضمنوه أشعارهم، إعجاباً منهم بهذا الإنتاج الفني الرائع، أو لتمثيلها المعنى المراد أصدق تعبير، فيعمد الشاعر إلى البيت الشعري يضمنه شعره، كما فعل الشاعر "منيب مخول" في بيت شعر المتنبي المشهور:

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لأمر فيك تجديد[4]

---

[1] توفيق زياد، الديوان ، 310.

[2] /رياض مصاروة، قصيدة الموت في كفر قاسم، ترجمة علا عيسى، مجلة صوت الجماهير، ، عدد 6

[3] معتصم توفيق، Kufur Kassem's Wound ، ديوان الشهيد، 283.

[4] المتنبي،الديوان ، ، 39/2.

عندما حلّ العيد على الشاعر وهو يعاني ما يعانيه من ظلم وقهر وسلب حريات ... وتساوت حالة اليأس والحزن لدى الشاعرين، اللذين عاشا في ظل حكم جائر متسلط يقوم على رأسه حكّام من غير بني جلدتهم.

وقد يضمّن بعض الشعراء المعنى العام لأبيات شعرية مع بعض ألفاظها لزيادة التأثير في السامع والوصول إلى المعنى المراد بأقصر السبل. من ذلك تضمين الشاعر "سامر خير" لبيت "امرئ القيس" الذي يفتخر فيه بنشاطه وخروجه للصيد مبكراً:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل[1]

حيث أخذ الشاعر معنى النشاط والنهوض مبكراً وهو جزء من نمط حياة الشهداء التي اختطفها القتلة كما اختطفوا آمالهم وأحلامهم، مستخدماً بعض ألفاظ البيت السابق مع شيء من التحوير في قوله:

كم غدو إلى الخبز...

والطير في وكرها كعيالي الصغار. [2]

ويضمن "عقل ربيع" اسم الشاعر "الضليل"، في إظهار الملاحقات والمضايقات الصهيونية للشعراء الفلسطينيين الأحرار، الذين يكشفون النقاب عن جرائم هذا العدو:

والشعر أصبح حلّة مسمومة وبها يموت الشاعر الضليل•[3]

وهناك تناص في عبارة "بلغ الفطام" من بيت "عمرو بن كلثوم" المشهور:

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخرّ لــه الجبابر ساجدينا[4]

في قصيدة "سامي إدريس":

وعبد الله كم صلى لكي ينسى.

ويبعد قبضة السادي في زنزانة الذكرى.

ويحمي جيله الصعبا.

....

وقومي كفر قاسم عانقيه.

كذا بطل تناسخ في بنيه.

فقد بلغ الفطام وصان عهداً.

---

(1) امرئ القيس، الديوان ، ص19،.

[2] سامر خير،كم غدٍ سرقوا من يدي، ديوان الشهيد، ص119.

• إشارة إلى قصة وفاة امرئ القيس الذي أرسل إليه القيصر حلة مسمومة مما أدى إلى ظهور قروح على جلده أدت إلى وفاته، انظر يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف الشنتمرى، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، 7/1

[3] عقل ربيع،القاسمية، ديوان الشهيد، ، 192.

(4)الزوزني، شرح المعلقات العشر، 224.

وقد درس الكفاح على أخيه. [1]

لقد انتزع الشاعر المعنى اللغوي للعبارة دون المعنى العام للبيت، وسكبه في عبارة تدل على تفاني الشعب الفلسطيني بكل أطيافه وأجياله في الدفاع عن أرضه ورد الظلم الواقع عليه.

وفي معرض لوم "سميح القاسم" الدول العربية على تفريطها بحقها وواجبها في الدفاع عن فلسطين التي وقعت في براثن العدو الصهيوني يعيث فيها فساداً، وما كان لهذا العدو أن يستأسد لولا تخاذل العرب والمسلمين ،يقول:

قست الثعالب والكروم مباحة وقسا نواطير الكروم النّوم[2]

وفيه تناص مع قول المتنبي في هجاء كافور:

نامت نواظير(*) مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد[3]

وهناك تناص في قول "تيسير محمد فريد":

فلسطين الحبيبة كيف أنسى مجازر قد أصابت أولينا[4]

بقول أبي سلمى:

فلسطين الحبيبة كيف أحيا بعيداً عن سهولك والهضاب[5]

وضمن الشعراء بعض الحكم والأمثال ، بعد ما شاهدوه وعاشوه من تجارب قاسية أنطقتهم بدرر الحكم وروائع الأمثال، تلك الحكم تنقل السامع في أعماق النفس الإنسانية وتجعله يغوص في بحور اللغة، ومعاني التراكيب، وتعطي الشعر بعداً دلالياً جديداً، وتأكيداً للمعنى المراد. فهذا الشاعر "عبد السلام محمود موسى" يظهر دور الشعر المتأني الذي يصدر بعد دراسة المواقف ووضع الخطط اللازمة لفضح جرائم العدو وتعبئة الصفوف وتحفيز الهمم بتضمينه للحكمة القائلة:" أهون الفعل ما يأتي به الغضب":

يا كفر قاسم هذا الشعر مُرتفق على ربوعك يحدو قلبه الطّرب

---

[1] سامي إدريس،الشجا يبعث الشجا وطفل الشمس يذكر كفر قاسم، ديوان الشهيد، 183-184.

[2] سميح القاسم،الأعمال الكاملة، 416/2.

* وردت هذه الكلمة بالطاء المهملة، انظر نفسه والصفحة نفسها.

[3] المتنبي، الديوان ، 43/2.

[4] تيسير محمد فريد، مجزرة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 231.

[5] أبو سلمى، الديوان ، 173.

أطال عندك من لبث وأزعجه   جرح تسنّمه ســاداتــك النّجــب

يضجّ في نفس أباء تفور بهــا   عين القريض إذا ما استنزف القلب

سرى يشيم لكم برقاً به كــرم   وتخبرين لــه نفســاً هي الأدب

يحــث نحوك والآلام تطلبــه   وجرحه في طوايا النفس منثعــب

فقدري شامخات الفعل عن نظر   فأهون الفعل ما يأتي به الغضب[1]

وفي أبيات تسبق هذه المقطوعة، حث الشاعر الفلسطينيين على الثبات، والنهوض لاسترداد الحقوق وبعث الحمية والنخوة في النفوس، يقول:

لا يهلك المرءُ عن عز ومكرمة   ولا يعيــش ذليــلاً أنفه ترب

هل الزمان سوى يومين منتهب   يفنى وآخر فيه الخلد يحتجب[2]

ويؤكد "مشهور إبراهيم" أمله في مستقبل زاهر للفلسطينيين باستعماله حرف التوكيد "أنّ" في مطلع حكمته التي ضمنها بيت يخاطب به كفر قاسم، يقول:

لا تحرمينا أجر من سقطوا هنا   إنّ المآسي لا تدوم طويلا[3]

ومن هنا نرى أن الشعراء الفلسطينيين استفادوا من التناص الديني والأدبي، وضمنوه أشعارهم، كما ضمنوه تعبيرات لغوية من التاريخ العربي والإسلامي[4] لأخذ العظة والعبرة من هذا التاريخ، ولم يقتصروا على التاريخ القديم بل سلطوا الضوء على أحداث القضية الفلسطينية وما جرى فيها من مجازر وجرائم ومآسٍ، كما في قول "محمود مرعي

ضمدي الجرح كفر قاسم وامضي   قد مضى يقصم الطغاة الأصيد

أخت يافا، وأخت قبية، لُدّ   دير ياسين، يا دماً نســـتزيد

---

(1) عبد السلام محمود موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 181-182.

(2) نفسه،179.

(3) مشهور إبراهيم،كفر قاسم، ديوان الشهيد، ص257.

(4) انظر محمود الدسوقي، ذكرى، ديوان الشهيد، ص71.

أخت عيلوط([1])، عيلون([2]) استعدّي فالدم الغالي بالسّما معقود":([3])

الظواهر اللغوية لشعر المجزرة

فإذا انتقلنا من المضمون اللغوي لشعر المجزرة إلى أهم **الظواهر اللغوية** لهذا الشعر، فسوف نجد عدداً من الظواهر على رأسها سهولة اللغة ووضوح المعنى.

سهولة الألفاظ

من خلال استقراء للغة القصائد الشعرية التي قيلت في المجزرة ، نجد أن معظم الألفاظ واضحة سهلة مفهومة، فقلما نجد لفظة يُرجع فيها إلى المعاجم اللغوية أو تحتاج إلى أن يُعمل المتلقي فكره لاستيضاح المعنى اللغوي لهذه اللفظة، وربما يعود السبب في ذلك إلى:
أولا: من وظائف الشعر الفلسطيني الحديث، مخاطبة الشعوب على اختلاف مستوياتهم الثقافية، والتعبير عن آلامهم وآمالهم ومآسيهم، واستنهاض الهمم لتحقيق وحدة الشعور والوجدان بين جميع أفراد الشعب ولعل "محمود درويش" يلقي الضوء على الهدف من وراء قول الشعر بقوله:

قصائدنا، بلا لون
بلا طعم ... بلا صوت!
إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت!
وإن لم يفهم (البسطا) معانيها
فأولى أن نذرّيها
ونخلد نحن ... للصمت[1]

ثانيا: أن القضية التي عالجها الشعراء في هذه القصائد هزت مشاعر الشعب الفلسطيني بفئاته كافة، فتفاعلت مع من عاناها شخصياً فقال شعراً يشف عن لواعج قلبه ومشاعره، أو عاشها من خلال اكتوائه بنار مثيلاتها التي لم تنته منذ نكبة 1948م إلى يومنا الحاضر. فهذه الحوادث المؤلمة تدفع

1/ قرية عيلوط، قرية تقع إلى الشمال الغربي من الناصرة ، تعرضت لاعتداء الحكومة الصهيونية فقد ذُكر إن عدد الشهداء من أهل هذه القرية في حروبهم مع اليهود في عام 1948جاوز الخمسائة ، انظر مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين،2/ 7/116-117،

2 / عيلبون، آخر أعمال قضاء طبرية من الغرب، عاث فيها الاحتلال فسادا عندما دخلها فقد انتقوا نخبة من شبابها واغتالوهم كما أحرقوا أسرة بكاملها داخل بيتها وكانت أول عملية قامت بها منظمة التحرير الفلسطينية هي نسف قناة عيلبون وذلك في ليلة الجمعة أول كانون الثاني في عام 1965 . أنظر نفسه 421/6/2

3/ محمود مرعي ، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 124

4/ محمود درويش، الديوان ، 54/1.

الشاعر إلى التعبير عن مشاعره، دون زيف أو تكلف أو تتبع للغريب من اللغة، فتأتي ألفاظه سهلة واضحة معبرة بعمق عما يعتمل في أعماقه من آلام.

ثالثاً: يعيد "سعدي أبو شاور" لجوء الشعراء إلى السهولة والعذوبة ورقة الألفاظ، إلى أن القصيدة الفلسطينية بعد النكبة لم تعد ملكاً للشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه وهمومه وحده، بل هي ملك الشعب أيضاً، تعبر عن قضاياه وأحاسيسه وهمومه وآماله وآلامه"[1].

رابعا: هناك سبب آخر هو إظهار اللحمة الوطنية بين طبقات الشعب أمام أعداء الشعب الفلسطيني "الذين يحاولون أن يقيموا برزخاً بين الطبقة المثقفة في الأرض المحتلة وبين عامة الشعب"[2] هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشعب الفلسطيني حاول التصدي لأعدائه بكل ما لديه من وسائل وأساليب، فأصبحت الكلمة سلاحاً يتصدى بها لمحاولات تذويبه وإلغاء وجوده أينما كان لذلك استخدم الشعراء " لغة الشعب ومفرداته تحدياً للغاصب، وتأكيداً على استمرار كيان الشعب ووجوده من خلال استعمالهم للغته اليومية في أشعارهم"[3].

ومن الشواهد على سهولة الألفاظ في لغة شعر المجزرة قصيدة "توفيق زياد" (كفر قاسم) التي مطلعها:

ألا هل أتاك حديث الملاحم
وذبح الأناسي ذبح البهائم[4]

فالألفاظ في القصيدة سهلة لا غموض فيها، وإن كان ذلك لا يعني أن لغتها مبتذلة فكل سطر شعري منها واضح بذاته ولكن تتابع الأسطر وترابطها يعطي القصيدة عمقاً وبعداً إنسانياً ووطنياً جعلتها من القصائد الشعرية المميزة التي تناولت المجزرة وأثرها النفسي.

ويصور "محمود الدسوقي" المجزرة بقوله:

يا كفر قاسم ما نسيت إلا ذكرى
ذكرى لمجزرة تهز مشاعري
يا كفر قاسم ما نسيت جريمة
قامت بها أيدي لئيم غادر
سالت دماء الأبرياء غزيرة

---

[1] سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 336.
[2] نفسه، 336-337.
[3] صالح أبو أصبع، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، 201.
[4] توفيق زياد، الديوان، 306

في كفر قاسم سيلها كالأنهر

قد كان في عمر الورود شبابها

ذبلت على أرض الحصاد الماكر[1]

ويستمر الشاعر في قصيدته بألفاظ تصل إلى عقل كل من يستمع إليها وقلبه بغض النظر عن مستواه الثقافي، فكل منهم يجد ضالته في أسطر هذه القصيدة.

وأكثر ما تكون القصيدة وضوحاً حين تتناول موقفاً إنسانياً كأن يصور الشاعر طفلاً ينادي أمه التي خرجت للعمل وبقي ينتظرها ولكنها لم تعد[2]، أو يصور لحظة سقوط الضحايا.

وعلى الرغم من سهولة الألفاظ العامة إلا أن هناك بعض الصور يكتنفها الغموض، منها ما ورد في قصيدة "سميح القاسم":

القتلى يتمتعون بذكاء حاد وبصيرة نافذة

فراحوا يتصاعدون

واحداً على عنق الآخر

ويومها

شاهد عابرو السبيل المبكرون إلى أشغالهم

برجاً عظيماً يتبدد فيه البصر

....

ثم كان ذات فجر غامض بين اللون والندى

أن هبط من أعلى البرج

فارس أسمر عار كما ولدته أمه

على صهوة جواد أبيض عار كما ولدته أمه

في يد الفارس الأسمر

زهرة حمراء صغيرة[3]

فما المقصود بالفارس، أهم شهداء كفر قاسم؟ أم الأمل في مستقبل أفضل بعد هذه الدماء الغزيرة التي سالت على ثرى كفر قاسم؟ أم هو الزعيم القومي الذي ظهر في أواخر الخمسينات والستينات من القرن العشرين (جمال عبد الناصر) ؟ثم لماذا كان الفارس والجواد عاريين؟ وما العلاقة بين اللون الأبيض والجواد؟... أسئلة كثيرة تدور في الذهن حول هذه المقطوعة.

---

[1] محمود الدسوقي، ذكرى ، ديوان الشهيد ، 69.

[2] وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، ص204، وانظر 156 من البحث

[3] سميح القاسم، الأعمال الكاملة ، 195/2

التكرار

برزت ظاهرة التكرار اللغوي بشكل واضح وأخذت عدة مظاهر، فقد يكون تكرار حرف أو لفظة بعينها، أو عبارة داخل النص الشعري، لمغزى خاص قصيده الشاعر من وراء ذلك، واقتضته طبيعة النص الشعري[1]، وقد تباينت النظرة إلى التكرار باعتباره ظاهرة لغوية أو ظاهرة أسلوبية أو موسيقية، حيث تناوله النقّاد كلٌّ من زاويته وحسب طبيعة الواقع الذي من خلاله يمكن دراسة ظاهرة التكرار.

تقول "نازك الملائكة": " إنّ أسلوب التكرار يحتوي على كل ما يتضمنه أي أسلوب آخر من إمكانيات تعبيرية"[2]، وهذا يعني أن التكرار ظاهرة أسلوبية لها سماتها وخصائصها الصوتية والتعبيرية التي تميزها عن غيرها من الأساليب.

ويربط "جمال محمد قاسم يونس" بين البعد الموسيقي لظاهرة التكرار، والبعد اللغوي لهذه الظاهرة. " ويأخذ التكرار هو الأخر بعداً بارزاً من أبعاد الموسيقى الداخلية للقصيدة ... فيما يكون التكرار بعداً أساسياً – في الوقت نفسه – من أبعاد اللغة في تأكيد المعنى وترسيخه"[3] وهو بذلك يؤكد رأي الدكتور "صالح أبو إصبع" الذي يرى " أن التكرار ظاهرة موسيقية ومعنوية في آن واحد، فهو ظاهرة موسيقية عندما تردد الكلمة أو البيت أو المقطع على شكل اللازمة الموسيقية، أو التقسيم الأساسي الذي يعاد ليخلق جواً نغمياً ممتعاً، ويصبح هذا التكرار على المستوى اللغوي ذا فائدة معنوية، إذ أن إعادة ألفاظ معينة في بناء القصيدة يوحي بأهمية ما تكتسب تلك الألفاظ من دلالات، مما يجعل ذلك التكرار مفتاحاً في بعض الأحيان لفهم القصيدة"[4].

وحتى يؤدي التكرار الهدف المرجو منه، في " ترسيخ المعنى نفسياً ومعنوياً"[5] وخلق جو من الموسيقى الداخلية في القصيدة ونغمة محببة إلى السامع، لا بد له من قواعد وضوابط من أهمها "أن يكون اللفظ المكرر وثيق الارتباط بالمعنى العام، وإلا كان لفظة متكلّفة لا سبيل إلى قبولها، كما أنه لا بد أن يخضع لكل ما يخضع له الشعر عموماً من قواعد ذوقية وجمالية وبيانية"[6].

---

[1] سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 349.

[2] نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر، 253.

[3] جمال محمد يونس' لغة الشعر عند سميح القاسم، رسالة ماجستير، ص153، جامعة اليرموك، 1981.

[4] صالح أبو إصبع،الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، 1948-1975، ص338،

[5]فاروق مواسي ، شاهد على حصاد الجماجم، مرايا في النقد ، 57.

[6] نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 274.

وعلى الرغم من أهمية التكرار في الشعر إلا أن الإكثار منه " يخرجه أحياناً عن حدود الإتزان"[1]، وتعد ظاهرة التكرار تطوراً ملحوظاً في الشعر المعاصر فقد " جاءتنا الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية بتطور ملحوظ في أساليب التعبير الشعري وكان التكرار أحد هذه الأساليب، فبرز بروزاً يلفت النظر"[2]. وهذا لا يعني خلو الشعر القديم من ظاهرة التكرار، ولكنها قلما تظهر مقارنة بالشعر المعاصر، كما أنها ترد عفوية دون أن يجهد الشاعر نفسه لإدراجها في القصيدة.

مما سبق يتبين أن التكرار بالإضافة إلى أنه ظاهرة موسيقية وأسلوبية فهو أيضاً ظاهرة لغوية تتعلق بألفاظ النص الشعري كما أن لها علاقة بتطور لغة الشعر ومن هنا كان لا بد من دراسة هذه الظاهرة في لغة شعر المجزرة.

أخذ التكرار عدة مظاهر منها ما كان تكرار كلمة واحدة مثل"كلّ" التي تعني الجمع، في التأكيد على تفاني الفلسطينيين في العمل ومحاولتهم المستمرة في تذليل الصعاب التي تواجههم، والمآسي التي يتعرضون لها من أجل وطنهم فلسطين ، كما في قول "فاروق مواسي":

كل يوم أطرح　　　　من ور يدي أذبح

كفر قاسم قصة　　　　دمها لا يمسح

....　　　　............

كم تفانوا للعلا　　　　كلّ ضيق أفسحوا

كلّ بحر شربوا　　　　كلّ طود زحزحوا

كلّ بعد قربوا　　　　كلّ عالٍ طوّحوا

كلّ شوك خضّدوا　　　　كلّ زهر فوحوا[3]

ويؤكد الشاعر "فوزي عبد الله" على انقلاب حياة الفلسطينيين رأساً على عقب بعد نكبة 1948م بتكراره اسم الاستفهام "أين"[4] وإن لم يرد إجابة عن الأسئلة المتكررة بشأن مظاهر الحياة السعيدة، والفرح الغامر الذي كان يظلل الفلسطينيين في ديارهم قبل النكبة، بقدر ما يبين مدى الحزن والألم الذي يعتصر قلب الشاعر على ما آلت إليه حياة الفلسطينيين.

---

[1] محمد عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 614.

[2] نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 265.

[3] فاروق مواسي، يستهان المسرح، ديوان الشهيد، ص91.

[4] انظر: فوزي عبد الله، الحزن الثائر ،ديوان الشهيد ، ص79.

ويكرر " عمر محمود نصر الله" حرف "هل"، حيث يوحي تكرار حرف الاستفهام إلى تشويق المتلقي للحديث عن المجازر التي تعرض لها الشعب الفلسطيني ويحقق إيقاعا موسيقيا يؤكد جرائم العدو المستمرة ، يقول:

هل صليت بباب مذبحة.
أو أكملت نواح أغنية.
هل مررت بدير ياسين.
وشهدت يوم الأرض في سخنين.
هل عانقت حطين.
وعرجت على كفر قاسم. (1)

ومن مظاهر التكرار، تكرار كلمة بعينها، من ذلك كلمة "احصدوهم" التي وردت على لسان عدة شعراء ممن تناولوا المجزرة، وقد وردت مكررة في أسطر متتالية في موضع واحد(2) في القصيدة أو في مواضع مختلفة(3) لتدل على الطريقة الهمجية التي استخدمها القتلة في تنفيذ جريمتهم، وتحقيق هدفهم في القضاء على الفلسطينيين أو إرهابهم وإخراجهم من بلادهم، متخذين من كفر قاسم نقطة البداية لمرحلة جديدة من التهجير والإرهاب، لذلك كرر الشعراء اسم "كفر قاسم" لإظهار الدور البطولي الذي قامت به هذه القرية في الصمود والثبات في الأرض، والإشادة بهذا الموقف المشّرف، ومنهم "سميح القاسم" في قوله:

وإلى أن يبعث النهر.
وتشدو في أغاني الحمائم.
أوقظ الدنيا هتافاً لا يساوم.
كفر قاسم.
كفر قاسم.
كفر قاسم.
دمك المهدور ما زال ...
وما زلنا نقاوم. (4)

ويظهر في هذه المقطوعة تكرار الفعل "ما زال" ليدل على استمرارية ارتكاب الجرائم ضد الشعب الفلسطيني المستمر في المقاومة، لذا تكرر ذكر كلمة "المقاومة" عند عدد من الشعراء منهم "محمود درويش" حيث ختم مقطوعاته الشعرية التي تناولت مجزرة كفر قاسم بعبارة "أن نقاوم":

---

(1) عمر محمود نصر الله ،يا كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 270.

(2) انظر قصيدة محمود درويش مغنى الدم، الديوان ، 204/1.

(3) انظر قصيدة سميح القاسم – كفر قاسم إلى دهر الداهرين، الأعمال الكاملة، 194/2-195.

(4) نفسه، 104/1-105.

يا كفر قاسم! لن ننام ... وفيك مقبرة وليل

ووصية الدم لا تساوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم

أن نقاوم. [1]

وذلك ليبين مدى صموده ومقاومته لعدوه مهما كانت النتائج، ومهما لاقى في سبيل ذلك من صعوبات، وهو كغيره من الفلسطينيين، متيقن من حتميّة النصر، وعودة الحق الفلسطيني السليب بفعل جماعي، لذلك كرر "توفيق زياد" كلمات مثل "سنرجعه":

سنمضي بعزم شديد

لنرجع حقنا

أبى أن يبيد

سنرجعه

سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد

ونجعله جنة من حديد[2]

أو كلمة "سيعود"[3] أو عبارة "لا تنسى"[4] و"لن ننسى"[5] وغيرها كثير مما تحمل معنى الصمود والاستمرارية في المطالبة بال

وفي قصيدة "محمود درويش" (القتيل رقم 18) يكرر الفعل "قتلوني" للتأكيد على وقوع الحدث وإظهار فظاعة الجرم الذي قام به القتلة:

يا حبيبي لا تلمني

قتلوني قتلوني

قتلوني[6]

كما كرر فعل "كان" أو "كانت" على مدار القصيدة لإعطاء القصيدة بعدا زمانيا متغيرا يكشف عن التحولات التي طرأت على حياة الفلسطينيين ممثلين في أهل كفر قاسم جرّاء حدوث المجزرة الرهيبة .

وكذلك وردت ظاهرة تكرار العبارات، وجاءت على نمطين: الأول في أثناء القصيدة للتأكيد على المعنى المراد وإثارة الاهتمام نحو رؤية الشاعر وموقفه العام، من ذلك قول "أسامة أحمد شواهنة"

---

[1] محمود درويش، الديوان ، 216/1.

[2] توفيق زياد، الديوان ، 325.

[3] انظر حاتم جوعية، عُرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 200.

[4] انظر محمود الدسوقي – ذكرى وعهد، ديوان الشهيد ،67.

[5] نفسه، 69.

(6) محمود درويش ، الديوان ، 212/1.

الذي كرر عبارة " باقون مهما تفعلون"يؤكد هدف المجزرة وهو تشريد الفلسطينيين من أرضهم ووعي الشعب لهذا الهدف، في القصيدة التي تحمل العنوان نفسه، يقول:

باقون مهما تفعلون
فلتشعلوا بدمائنا حقد السنين
ولتمسحوا أسماءنا من غير لين
باقون مهما تفعلون
باقون لو صب الحديد على الوريد
أو عاجلت أسيافكم بفم الوليد
أو طاف تابوت العروس بيوم عيد
فلتفعلوا ما تفعلون
باقون مهما تفعلون[1]

ومنها ما يكون في نهاية كل مقطع كما جاء في قصيدة "محمود الدسوقي" (يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ... وأنت أتذكرين)[2] وقد كرر هذا العنوان في نهاية كل مقطع ليدل على خلود الشهداء في الذاكرة الفلسطينية.

وهناك تكرار لمقطع كامل من القصيدة، عندما يمثل هذا المقطع الحدث الأهم الذي تتبني عليه القصيدة، ويصبح هذا التكرار ذا فائدة في ايضاح المعنى،حيث يسلط الضوء على نتائجه وانعكاساته، من ذلك قول "محمود درويش" يصف اللحظة الحاسمة التي سبقت قتل كل مجموعة من الشهداء، وقدرة القتلة على التمويه والخداع، يقول:

أوقفوا سيارة العمال في منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداروها إلى الشرق ... وكانوا هادئين[3]

ثم يكرر هذا المقطع مرة أخرى لإظهار أن ما حدث دبر بليل.

ونرى من الأمثلة التي ذكرت، أن التكرار " يسلط الضوء على نقطة حسّاسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها، وهو بهذا المعنى، ذو دلالة نفسية قيّمة، تفيد الناقد الأدبي الذي يدرس الأثر ويحلّل نفسية كاتبه"[4] وهو سواء أكان تكرار كلمة أو عبارة أو مقطع يغذي الموسيقى الداخلية

---

[1] أسامة أحمد شواهنة،باقون مهما تفعلون، ديوان الشهيد، 227.
[2] محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ..وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 71.
[3] محمود درويش، الديوان ، 210/1-211.
[4] نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 276.

للقصيدة. كذلك يشير إلى سيطرة شعور توحي به الكلمة أو العبارة المكررة، وعلى الدارس الغوص في المعاني وربطها مع المعنى العام للقصيدة.

الترادف والتضاد

ظهر **الترادف** في شعر المجزرة، وهو ما يعرف في العربية "بالمشترك المعنوي" أي أن تتحد عدّة مفردات مختلفة في الدلالة على معنى واحد، أو معانٍ متقاربة جداً، ولغة شعر المجزرة حافلة بالترادفات، وقد تأتي متتالية لتعميق المعنى الذي يريده الشاعر، من ذلك كلمتا **(حزن وغيظ)** في قول "سميح القاسم":

وأنا ريشة نسر
في مهب الحزن والغيظ
إله لا يساوم. [1]

وقد يأتي الشاعر بالاسم وصفته على شكل مترادفات مثل الليل والأسحم في قول "سميح القاسم":

ربخت علينا العاديات وفرخت والليل، طال الليل، طال الأسحم[2]

وربما استخدم الشاعر كلمات ليس لها معنى واحد، ولكن معانيها المختلفة تأتلف لتشكل صورة متكاملة تعكس المعنى العام للقصيدة، كما في قصيدة " منيب مخول":

"عيد بأية حال عدت يا عيد
بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديد"
إن كنت قد عدت بالماضي فلا انتظمت
فيك الأغاني ولا أحياك تغريد
ماضيك جور وإذلال ومسغبة
وسلب أرض وتفريق وتبديد[3]

إذ تنقلنا هذه المترادفات المتلاحقة **(جور – إذلال – مسغبة – سلب أرض – تفريق وتبديد)** إلى طبيعة الحياة الفلسطينية في ظل الحكم الصهيوني الجائر.

وقد يقع الترادف بين كلمة وعبارة كما في قول "محمود الدسوقي":

---

[1] سميح القاسم،الأعمال الكاملة، 102/1.

[2] نفسه،414/2.

[3] منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 87.

لا تنس الشهداء الأبرار

عمالاً أطفالاً تجار

قتلوا ... سقطوا صرعى

برصاص الجند[1]

ومن قول "عقل ربيع":

فالقاسمية قطّعت أوصالها والقاسمي ممزق، وقتيل[2]

فعبارة "قطعت أوصالها "ترادف كلمة "ممزق" التي بدورها ترادف كلمة "قتيل" وهذا الترادف جاء لإعطاء صورة مفزعة عن جو المجزرة الذي تناثرت فيه الأشلاء، وتكدست فيه الجثث فوق بعضها، دون التفريق بين جنس أو سن.

كما برزت ظاهرة "**التضاد**" أو "**التقابلية**" في شعر المجزرة، فقد انفعل الشعراء بما رأوه من مظاهر التناقض وقلب المفاهيم لدى عدوهم الصهيوني، والعالم من حولهم، فالقاتل (رحمن رحيم)، والذي يغضب من الظلم (شيطان رجيم)،والذي يحزن لفقد أحبابه (مخدوع)، ومن يبكي (موتو لئيم)[3]، وقد برزت هذه الخاصية في قصائد "سميح القاسم" بشكل مطرد، وهو " يأتي بالدلالة المغايرة من باب التعبير عن الشيء بضده مما يكسب العبارة بعداً جديداً، يضم إلى جانب النقد والتعريض التهكم ولفت النظر إلى قلب الحقائق"[4].

وتعتمد الحكومة الصهيونية في تثبيت كيانها على قلب الحقائق، وفرض نظام الأمر الواقع، تقتل الفلسطينيين المسالمين بدعوى الدفاع عن النفس، تسلب الأرض وتهجّر أصحابها، وتدّعي أنهم أقلية ليس لهم حق في هذه الأرض، فالأرض أرض إسرائيل يحق لها تغيير طبغرافيتها بما يخدم أهدافها العدوانية،يقول "منيب مخول":

"فحاضر غائب ذا منطق عجب

فكيف غُيّب وهو الآن موجود[5]

---

[1] محمود الدسوقي،ذكرى ... وعهد، ديوان الشهيد ، 67.

[2] عقل ربيع' القاسمية، ديوان الشهيد ، 194.

[3] انظر: سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 104/1.

[4] رقية زيتون، التغير الدلالي في شعر سميح القاسم، 223.

[5] منيب مخول، عيد ومأساة، ديوان الشهيد، 87.

ومنه نعت "القرش" بأنه ثمين وثروة طائلة تعادل أرواح تسعة وأربعين من الشهداء، في قول "علا عيسى":

يا فاطمة

هل ساءلوا القرش الثمين

عن كفر قاسم أين ذاكرة السنين. (1)

ويستمر الشاعر في إبراز الموازين المقلوبة حين يرقّى الجاني، ويُعين قاتل العرب الفلسطينيين مسؤولاً عن ملف العرب في مدينة الرملة، ويُستقبل استقبالاً حافلاً في تلك المدينة، يقول :

هل ساءلوا القرش اللعين

ماذا جرى للمجرمين

كم ترقيات نال جانيهم وكم

ديمونة لعنت حاميها الأمين

والرملة العربية

فتحت لشدمي بابها

منحته حباً ثم دفئاً

وكأنه الفتح المبين(2)

وتبرز ظاهرة التضاد بين مجموعة من الألفاظ، فما أن يذكر الشاعر لفظة حتى يستدعي اللفظة المخالفة لإعطاء المعنى صفة الشمولية والانتشار كما يظهر في المقطع التالي من قصيدة" وداد البرغوثي":

مساحة حزننا تمتد يوماً تشاطرنا

....

غدت بحراً يحيط بنا

وكل طقوسه مد

يحاصرنا بماضينا، بحاضرنا

بأولنا بآخرنا

يرابط في ذواكرنا

يطل على دفاترنا(3)

---

(1) علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 107.

(2)نفسه والصفحة نفسها.

(3) وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد ، 205.

يلاحظ من الأسطر الشعرية السابقة أن الحزن يسيطر على حياة الفلسطينيين بكل مظاهرها، ولتأكيد معنى الشمول أتى بالكلمات المتضادة (حاضرنا – ماضينا، أولنا – آخرنا) ويندرج تحت هذا المفهوم استعمال "فوزي عبد الله" كلمتي (عرب وعجم) في قوله:

وحولنا في فيافي الشرق أنظمة　　　من الرمال فلا عرب ولا عجم[1]

ويظهر **الجناس** في بعض المقطوعات الشعرية. وقد جاء يخدم الموسيقى الشعرية، كما يظهر من المقطوعة التالية بين كلمتي (بكيت – بيت) و(جرحى – مرحى) من قصيدة "سميح القاسم":

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى

ما بكيت

قلت: فوج آخر يمضي

ومن بيت لبيت

....

يوم قالوا: سقطوا قتلى وجرحى

صحت والأدمع في عيني: مرحى

ألف مرحى[2]

وأمثلة هذا الجناس كثيرة في شعر المجزرة، ومنه ما كان تاماً ومنه ما كان ناقصاً أو قائماً على الاختلاف في أنواع الحروف أو ترتيبها كما يظهر في قول "محمود درويش":

ماذا حملت لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم

غير المزيد، من النشيد، عن الحمائم والجماجم

هي لا تريد ولا تعيد[3]

فالألفاظ (مزيد، نشيد، تريد، تعيد) متفقة في النغمة الموسيقية وإن اختلفت في الحرفين الأولين، وكذلك كلمتي (حمائم، جماجم) اختلفتا في نوع الأحرف وترتيبها.

وإن كان الجناس ظاهرة صوتية تخدم الموسيقى الشعرية، إلا أنها تعتمد على الألفاظ وترتيبها وترتيب الأحرف فيها. ومن هنا قمنا بدراسة الجناس على أنه ظاهرة لغوية شعرية

---

[1] فوزي عبد الله، الحزن الثائر، ديوان الشهيد ، 80.

[2] سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 102/1.

[3] محمود دروش، الديوان ، 215/1.

ترتيب الألفاظ وأنواعها

أن نظرة إحصائية لأكثر الألفاظ وروداً في شعر المجزرة، تكشف منذ الوهلة الأولى أن "الموت والحزن" وما يتصل بهما من معان ومشاعر، هما محور قصائد المجزرة، وجوّها العام، ولا غرابة في ذلك، فطبيعة الحدث تنتزع المعاني وتفرضها على الشاعر، وتولد من هذين المعنيين معناً ثالثاً يدعو إلى الثورة والثبات واسترداد الحقوق، وقد ورد هذان المعنيان بعدة صور ومستويات دلالية: صور واضحة مباشرة – صور رمزية – صور انفعالية تشي بحالة الشاعر ورجع الحدث عليه.

ومن الألفاظ التي تدور في فلك كلمة الموت (الضحية – الشهيد – جثث– القبور – اللحد – الدم – الأرواح – فقيد الروح – القتيل – الذبيح – سقطوا صرعى – الذين مضوا...) وهذا المعنى استدعى ذكر الفاعلين وما يتصفون به من صفات، فكثر ذكر (القاتلون – المجرمون – الغلاظ الغبر – السفاحون – الرجعيون – الغاصبون – الغزاة – الكذّابون –الفاشيون – الطغاة ...).

ونرى الصراع النفسي الذي ولّده هذا الحدث لدى الشاعر، فانطلق يعبر عن مشاعر الحزن والألم والغضب المحتقن داخله بصورة لغوية مختلفة، منها: (الأسى – الحداد – الصراخ – الحقد – النقمة – الهموم – الردى – الغربة – الوحدة – التعاسة – الظلم – القيود – السجن – النفي – البلاء – الوطن المكبل ...) وغيرها الكثير من التعبيرات اللغوية المشحونة بالعواطف الجياشة المسيطرة على الفلسطينيين جرّاء ما ذاقوه من ويلات ومصائب.

وإذا انتقلنا إلى **الأفعال** وأزمنتها، يتبين من النظرة العامة في القصائد التي تناولت المجزرة، التقارب في عدد ورود **الأفعال الماضية والمضارعة**، ويأتي فعل **الأمر** في الدرجة الثانية، ويقف الفعل الماضي مرشداً ومناراً حينما يتصل الأمر بتجسيد المجزرة والأحداث التي سبقتها، أو يتصل بتجسيد الأرض والبشر من خلال ماضيهما ليكون دافعاً للسير والحركة باتجاه إعادة الماضي المشرق الذي يحتاج إلى الاستمرارية والديمومة في الحركة اتجاه هذا الهدف، وهو ما يمثّله الفعل المضارع ، ويُضاعف التأكيد على الحركة والحث عليها بإدخال أحد حروف الاستقبال أو الأمر أو النفي:" سأقاوم، سأبقى واقفاً – سنمضي– سنرجعه – لن ننس، لن أسقط – سنذكرهم، لا تساوم...".

ونلاحظ أن الدلالة التركيبية لفعل الأمر تصب في نهر استمرارية الحركة وديمومتها، ويعكس الاضطراب والتوتر النفسي الذي ينتج عن توقفها، فالشاعر الفلسطيني يرنو إلى تحقيق هدف سامٍ، يتمثل في تحرير بلاده واسترداد حقوقه، لذلك يعمد إلى اللغة التي تحمل في مضامينها الدعوة والحث على العمل، وعادة ما تبدأ بفعل الأمر، فيستنهض همم الفلسطينيين من خلال خطابه للبلاد كفر قاسم في قوله:" انهضي– افتحي– أعينيني– فدعيني استعر...).

ونجد أكثر أفعال الأمر تكراراً الفعل (احصدهم) ولكنه خرج من دائرة أفعال الأمر السابقة، فهو يمثل الأمر العسكري الذي ألقاه الضابط على جنوده منفذي المجزرة.

ونلاحظ من ترتيب الكلمات داخل النص الشعري تركيز الشعراء على اللغة الفاعلة، حيث نجد الكثير من الأبيات أو الأسطر الشعرية التي تبدأ بأفعال تدل على الحركة والعمل. من ذلك قصيدة: جمرة تحت رماد الذاكرة "لأحمد أبو مرشود"، يقول:

وتكتمل فصول المؤامرة
يجثم "شيلوك"([1]) على صدر الأرض
ويعد العدة لحفلة قتل عبيثة
شرب "شدمي" نخب الانتصار الآتي
ويتهيأ لوليمة الدم العربية
يشد "تسور" حبلاً على عنق المرحلة
ويسن أسنانه لنهش جسد الضحية
يشعل "ميلنكي" جذوة الحلم البائد
ويتكئ على زيف الأكاذيب العدمية
يشيد "دهان" حلماً من ركام الأكاذيب
ويعد التراب كفناً
لضحايا المجزرة الهمجية
ينشئ في مساحات الحلم الأسود دولة
وعلى أنقاض الحقيقة
يعلن ميلاد الأسطورة الحجرية[2]

وقد تكون الحركة داخل النفس الإنسانية – كما في الأسطر الشعرية السابقة – أو حركة ظاهرة كما في قول "سميح القاسم":

صعد الفارس من ملكوت الردم
جمع صدأ الأسلحة القديمة في خندق عديم الفائدة
تعج أعشابه بالحشرات المتوحشة
ذوّب الصدأ القاني في الدموع الكثيرة المغلوبة على أمرها[3]

---

[1] / شيلوك: بطل مسرحية تاجر البندقية لشكسبير، اشتهر بحقده وتعطشه للانتقام من الآخرين.

[2] أحمد أبو مرشود، جمرة تحت رماد الذاكرة، ديوان الشهيد، 275-276.

[3] سميح القاسم ،الأعمال الكاملة، 198/2.

يظهر مما سبق أن الشاعر يبدأ بالأفعال التي تدل على الحركة والعمل. وقد يبدأ بالاسم ومع ذلك يدل على الحركة، كم في قول "محمود الدسوقي ":

الكون أظلم والرياح عواصف

والبحر يقذف بالمراكب ... تملأ الدنيا

وفوق الأرض يشتد الزحام[1]

هذه الأبيات تصور حالة اليأس التي وصل إليها الشاعر، بعد ما تخلى عنه بني جلدته وتركوه نهباً للأطماع الصهيونية، وقد بدأ بالأسماء لأهميتها فهي تجسد الطبيعة في أسوأ حالاتها، التي هي حالة الشاعر المضطرب لما آلت إليه أحوال الفلسطينيين المشتتين المضطهدين.

ومن الأنماط اللغوية التي ظهرت في شعر المجزرة ورود الصيغ المزيدة للأفعال لزيادة المعنى المراد والتأكيد عليه، كما يظهر في قصيدة (ذكرى مذبحة كفر قاسم)، "لغالية أبو شباب":

واللص يرصد ظله

ويلف راعي الجرم حول ضحيته

فتملعنوا وتجبروا

شدّوا الحصار. تدججوا بالنار بالبارود[2]

فالأفعال المزيدة (تملعنوا – تجبروا – تدججوا) تنبض بالحركة والاستعداد، وتشع بروح العداوة والبغضاء التي رُبّي عليها القتلة، فأصبحت أسماؤهم عنواناً للغدر والإجرام، فهذا "سميح القاسم" يشتق الفعل "يتشدم" من اسم أحد الجزارين. وليس لهذا الفعل معنى بمعزل عن معرفة الخلفية التاريخية للقاتل "شدمي" يقول:

ما غاب "شدمي" والزمان شهيدنا   في كل يومٍ سافل يتشدم[3]

كما أضافت "غالية أبو شباب" اسم أحد القتلة إلى الدولة الصهيونية، وهي تتساءل مستنكرة عن مفهوم السلام لدى هذه الدولة:

أسموه شالوم – فهل شالومهم

أن يذبح العمال

غدراً إذ يراهم عزلاً[4]

---

[1] محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 76.

[2] غالية أبو شباب ، ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 259.

[3] سميح القاسم ،الأعمال الكاملة، 415/2.

[4] غالية أبو شباب،ذكرى مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 261.

هذه الخصائص اللغوية المختلفة لشعر المجزرة، تحمل في طياتها قيماً متعددة، فهي تزيد النصوص الشعرية جمالاً وروعة، من خلال تلوينها بأنماط مختلفة من الألفاظ والتعابير ذات الدلالات الخاصة، والأبعاد المتعددة. ففي الوقت الذي يحرص فيه الشاعر على مخاطبة شعبه، والتواصل معه، والمحافظة على كيانه ووجوده من خلال استخدامه للغة الدارجة، يحرص كذلك على التواصل مع موروثه الديني والأدبي بتضمين عدة أنماطٍ لغوية مستقاة من الدين الإسلامي والمسيحي ومن ديوان الشعر العربي القديم والحكم والأمثال، ليضفي ثوباً من الأصالة على شعره، وينطلق من أسس راسخة ثابتة تدل على رسوخه وثباته في أرضه، كما استقى الشعراء ألفاظاً وتعابير وأسماء من وحي المأساة ترتبط بالواقع وتعطي الشعر إيحاءات وقوة تأثير، مستخدمين في ذلك لغة سهلة واضحة بعيدة عن الابتذال والركاكة، متخذين من الأنماط اللغوية المختلفة وسيلة للتأثير والخلود في الذاكرة، من تكرار– ترادف – تضاد –تجانس – والمراوحة في استخدام الأفعال والأسماء.

فالأفعال مثلاً تحمل بين طياتها مفاهيم العمل والحركة سواء أكانت ماضية أو مضارعة أو آمرة، وخاصة الفعل المضارع والأمر من خلال ما يحملانه من استمرارية الحركة وديمومتها، والفعل الماضي الذي يصور الحوادث السابقة، ويستمر تأثيره لينتقل إلى الزمن الحاضر والمستقبل الذي يمثله المضارع والأمر، وهو في شعر المجزرة يصور الماضي المشرق ليكون دافعاً إلى العمل في الحاضر والمستقبل، للسير نحو الهدف المرجو. وقد سلك الشعراء في قصائدهم من أجل ذلك أساليب متنوعة في بنية القصيدة و طرائق التعبير.

2- الأسلوب

الأسلوب في اللغة هو"الطريق والجهة والمذهب، والطريق تأخـــذ فيه، والأسلوب بالضم: الفن ".([1])وفي المعجم الوسيط ورد بمعنى "الطريق... والفن، يقال أخذنا في أساليب القول: أي فنون متنوعة" ([2]).

أما الأسلوب الأدبي فقد تعددت وجهات النظر في معناه، وإن كانت تصب جميعها في بوتقة أنه " طريقة الكتابة أو طريقة تناول الكلمات للتعبير عن موضوع معين"([3]) فقد عرّفه مجمع اللغة العربية بقوله: " طريقة الكاتب في كتابته"[(4)]

ويرى "مصطفى الفار" أن الأسلوب هو "منحى الكاتب العام، وطريقته في التفكير والتأليف والتعبير والإحساس على السواء، وليس طريقة الأداء اللغوي فحسب"[(5)]، فمن الواضح أن جودة التعبير والجمال الفني لا يتوقفان على الدلالة المعنوية فقط، بل تتضافر عدة عناصر يكتمل بها العمل الفني مثل جمال التصوير والخيال والإيحاءات والمعاني التي يشعها اللفظ في موقعه، وطريقة تناول الموضوع وتنسيق الألفاظ والعبارات... ليخرج العمل الأدبي متناسقا معبرا عن فكر الكاتب وأحاسيسه.

ولكل كاتب أسلوبه الخاص، تتحكم فيه عوامل عدة، أهمها الطبع والبيئة والثقافة والتربية، فيمزج الكاتب بين مادة فكره ومادة إحساسه، فيصبح الأسلوب معبرا عن صاحبه، ويتبين أن الكاتب الجيد يفكر بقلبه ويحس بعقله.[(6)]

وبنظرة في شعر المجزرة، يتبين تنوع الأساليب وتعددها، سواء كان ذلك في بنية القصيدة أم في طريقة التعبير أو الموضوع.

1- بنية القصيدة

عرف الشعر الفلسطيني أنماطاً مختلفة للبناء المعماري للقصيدة، أنتجتها طبيعة الأحداث والمناسبات ويمكن أن نجملها في ظاهرتين هما:

---

[1] / ابن منظور ، لسان العرب ، مادة سلب ، 473/1

[2] / مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ، مادة سلب ، 457/1

[3] / كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، 165

[4] /مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ، مادة سلب ،457/1

[5] / مصطفى الفار،الشاعر أبو سلمى أديبا وإنسانا ، 135

[6] / انظر محمد مندور ، في الأدب والنقد ، 27

المطولات الشعرية

ظهرت المطولات الشعرية في الشعر الفلسطيني في المرحلة التي سبقت مجزرة كفر قاسم، ذلك الطول الذي قد يربو على المائة بيت من الشعر، كقصيدة "إسحاق النشاشيبي" التي قالها في تأبين "أحمد شوقي" ليوم الأربعين في بيت المقدس، ونابلس وحيفا، ، فقد بلغت قصيدته من الطول الصفحات العشر.([1])

وهذه الظاهرة برزت في شعر المجزرة، فهذا "حاتم جوعيه" ينظم قصيدة من الشعر العمودي تبلغ سبعة وتسعين بيتاً، بدأها بنصيحة حماسية مغلفة بالتفاؤل:

الحق يؤخذ لا يضيع هبــــــاء والفجر يسطع يطرد الظلمـــــــــاء([2])

ثم ينتقل إلى تصوير مأساة الشعب الفلسطيني، إثر نكبة 1948، وإثبات حق الفلسطينيين في بلادهم، متخذاً من كفر قاسم وأهلها مثالاً للفداء والتضحية والثبات، أمام الهجمة الشرسة التي يقوم بها عدو حاقد، ثم ينتقل إلى وصف المجزرة وتداعياتها والأسباب الكامنة وراءها، ويربط هذه الأسباب بالعدوان الثلاثي على مصر، الذي كانت نتيجته مشرّفة للعرب أصحاب المآثر الأحرار، خاصة الفلسطينيين الذين لا يقيمون على ضيم يراد بهم، لذلك سيستمر نضالهم ليستردوا حقهم المسلوب، ويأخذ الشاعر على العرب تقصيرهم في حق إخوانهم الفلسطينيين .

وهذه القصيدة رغم طولها، إلا أننا نجد أنها مترابطة، تؤدي كل فكرة إلى التي تليها بسلاسة ويسر، وإن كرر الإشادة بكفر قاسم وأهلها في عدة مواقع من القصيدة وهي نقطة إيجابية في ربط أجزاء القصيدة تحت موضوعها الأساسي.

ومن ذلك أيضا قصيدة "توفيق زياد" (كفر قاسم) التي بلغت مائة وخمسة وتسعين سطراً شعرياً ومطلعها:

ألا هل أتـــاك حديث الملاحم
وذبــــح الأنــــــاس ذبح البهـــــائم([3])

وهي من أوائل القصائد التي قيلت في وصف المجزرة، تقطر أسطرها الشعرية ألما ولوعة من ذكرى ذلك الغروب الدامي، ولكن الشاعر لم يبق واقفا عند حدود الندب والنواح، بل انتفض من عباءة حزنه، ليدعو الفلسطينيين إلى الثبات والصبر والاتحاد، والتمسك بوشائج قوية تمكنهم من استرجاع حقهم في

[1] / لمزيد من المعلومات انظر عبد الرحمن ياغي ، حياة الأدب الفلسطيني ، 222- 227
[2] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء ، ديوان الشهيد ، 197
[3] / توفيق زياد ، الديوان ، 306

أرضهم ووطنهم، ويختم قصيدته بأسطر تشف عن إصراره على استرجاع حقه، وتيقنه من حصوله على ذلك ، في قوبله:

سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد
ونجعله
جنة
من جديد([1])

ومن المطولات الشعرية، مطولة "نزيه قسيس" (كفر قاسم- الأم) التي كتبها باللغة المحكية الفلسطينية ومطلعها:

اســــــــمـــــي كـــــــفــــر قـــــــــــــــاســم
قــــــلـــــبــــي طـــــــفـــــل بـــــــــــــــــاســـــم([2])

والقصيدة تربو على السبعة أبيات بعد المائتين، جاعلاً من قرية كفر قاسم أماً رؤوما تعيد مجريات ذلك اليوم المصبوغ بالدم والعويل، منذ الصباح الباكر إلى انتهاء المجزرة بعد الغروب، محللة لصفات القتلة، ومنبهة للهدف من وراء هذه الأعمال الهمجية.

وهناك مطولات جاءت على شكل لوحات متتابعة، منها قصيدة "محمود درويش" (أزهار الدم)([3]) التي جعلها في ست لوحات متناغمة، وأعطى كل واحدة منها عنواناً، اللوحة الأولى بعنوان "مغنى الدم" والثانية "حوار في تشرين" والثالثة "الموت مجاناً" والرابعة "القتيل رقم 18" والخامسة "القتيل رقم 48"، وختمها بلوحة "عيون الموتى على الأبواب" نفث من خلالها مشاعره الملتهبة وثورته على الظلم، والنهج الذي على الفلسطينيين انتهاجه لرد العدوان، بعد أن مهد لهذه الخاتمة في اللوحات السابقة، بوصف يمطر دمعا،ويغرس اللوعة في قلب هذا الشعب الثاكل المشرد.

ومن القصائد التي سارت على هذا النهج مطولة "غادة الشافعي" بعنوان (طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه) "وهذه القصيدة نثرية تتميز بابتكار المعاني والانزياحات في التراكيب الجذابة مما يصل بالقارئ إلى ذرا فيها مناطق إشراقية تشع علينا بوميضها وألقها"([4]) وهي تربو على المائتين وثلاثين سطراً شعرياً مقسمة إلى عناوين فرعية -بعد العنوان الرئيسي- تصب جميعها في الحالة الوجدانية المتألمة "مرثية العاشق" – "مرثية الفتى" – "مرثية امرأة القمح" – "وجه" و "جثة" خاطبت فيها المشاعر الإنسانية، وكشفت عن مكنون النفس البشرية، خاصة في اللوحات الثانية والثالثة والرابعة. وقد

---

[1] /توفيق زياد، الديوان ، 325-326

[2] /نزيه قسيس، كفر قاسم- الأم تروي حكاية المجزرة ، ديوان الشهيد ، 135

[3] / محمود درويش، الديوان ، 201/1 – 216

[4] / فاروق مواسي ، ديوان الشهيد – المقدمة ، 16

بدأت القصيدة بتساؤل يحث الأحياء على دوام تذكر الشهداء بالعمل على استرداد الحقوق: تقول في مطلعها:

من يصغي إلى الشهداء
أو يلتفت إلى سهام أرواحهم وهي تعرج في فضاء لا تسعه مرآة؟([1])

وهناك قصائد عديدة تنحو إلى الطول مثل قصيدة("أوراق) ([2]) " هشام أبو صلاح"، وتقع في مائة وثمانية وأربعين سطرا وقصيدة (إلى شهيد كفر قاسم) ل" عبد السلام محمود موسى" ([3])، وهي من الشعر العمودي وتبلغ اثنان وستين بيتاً، وغيرها من القصائد.

وربما تعود هذه الظاهرة إلى طبيعة الحدث الذي ألهب مشاعر الشعراء، فانطلقوا يعبرون عنها بفيض من الكلمات والأسطر الشعرية، وأن كان جزء من هذه القصائد، قد قيل بعد مرور ما يزيد عن الأربعين عاماً من وقوع المجزرة، إلا أن المآسي مستمرة على الشعب الفلسطيني، مما يجعل مثل هذه المحطات في حياة الشعب الفلسطيني حية على الدوام.

القصائد القصيرة

القصائد التي لا تتجاوز العشرة أبيات، وهي قليلة جدا مقارنة مع القصائد الطويلة، منها قصيدة "سميح القاسم" (كفر قاسم) التي مطلعها:

رغـــم ليل الخنى ونيــر المظالم   حلّ وفد الكفـــاح يا كـــفر قـــاسم([4])

وتبلغ هذه القصيدة تسعة أبيات، وربما يعود السبب إلى أنها قيلت ارتجالا.

وقصيدة "عصام العباسي" بعنوان "لذكرى كفر قاسم" التي لا تتعدى ست أبيات مطلعها:

هيا احصدوهم لعلعت في كفر قا   سم، وارتمى الخمسون فوق تراب([5])

والتي ركزها الشاعر في موقف واحد يرمي إلى استهجان ما أقدمت عليه الحكومة الصهيونية، التي تصرخ دائما من الظلم والاضطهاد، تدّعي أنها ذاقته على أيدي الشعوب الأخرى.

ومن ذلك أيضاً قصيدة "مشهور إبراهيم" بعنوان (كفر قاسم) وتبلغ ثمانية أبيات، ومطلعها:

---

[1] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه،ديوان الشهيد ، 149
[2] /هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 169
[3] / عبد السلام محمود موسى، إلى شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 179
[4] /سميح القاسم، ديوان الحماسة، 60/3
[5] / عصام العباسي،لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد، 85

تيهي على هـــام الزمـــان وتاجــه   وتقلـــــدي سيفـــا كريمـــا لم يزل مسلولا([1])

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الظاهرة قصائد من الشعر الحر، لا تزيد عن الثمانية عشر سطراً، منها قصيدة (دم الشهيد ينادي) ل"علي إسماعيل الحلبي"([2])، وقصيدة (شهادة أطفال كفر قاسم إلى العالم) ل" سهير أبو عقصة"([3]) وغيرها.

وإذا انتقلنا من بنية القصيدة إلى أساليب التعبير، فسوف نجد تنوعاً في تلك الأساليب.

2 – التعبير:

القصة الشعرية:

برز الأسلوب القصصي في العديد من القصائد الفلسطينية التي تناولت المجزرة، "وهي تعمد إلى السرد والتفاصيل متكئة على الحقائق والوقائع آنا، وعلى الأجواء والرموز آنا آخر"([4]) . ولعل أكثر القصائد تمثيلاً لهذا الجانب، قصيدة (كفر قاسم– الأم تروي حكاية المجزرة)، ومن العنوان يتضح الجانب القصصي في القصيدة، حيث تسلسل في عرض أحداث ذلك اليوم المأساوي منذ بزغت أول خيوط الصباح ،وخرج العمال في نشاط وهمة إلى عملهم:

قـــــبــــل الـــــــفجـــــر مــيــطـــــــــل

والـــنـــــــــور خـــــيطـــــو يهـــــــــــــل

راحـــــــــــوا عـــــــــــلى مـــــــــهـــلـــــــن

تـــــــا يــــــــحـــــرثـــــــــوا سهــــــلـــــن([5])

ويستمر الشاعر في عرض أحداث القصة –على لسان تلك الأم– بكل تفاصيلها، من عودة العمال في الوقت المعتاد، وما حصل لهم على يد القتلة، وما تبع المجزرة من ظلم في ساحة القضاء، مركزاً على التفاصيل الدقيقة للقصة، مثل وصف الجنود أثناء تنفيذ المجزرة، والأسلحة التي يحملونها، وصورة الشهداء عندما أطلقت عليهم النار... بحيث يستطيع من يقرأ هذه القصيدة –دون أن يكون لديه معرفة بمجريات المجزرة– تكوين تصور واضح عنها.

---

[1] /مشهور إبراهيم، كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 257

[2] /علي إسماعيل الحلبي، دم الشهيد ينادي، ديوان الشهيد ، 233

[3] /سهير أبو عقصة، شهادة أطفال كفر قاسم إلى العالم، ديوان الشهيد ، 241

[4] / فاروق مواسي، حصاد الجماجم، مرايا في النقد، 56

[5] / نزيه قسيس، كفر قاسم– الأم تروي حكاية المجزرة ديوان الشهيد، 136

ونجد الشاعر في هذه القصيدة يهتم أيضاً بالصراع، سواء أكان خارجياً يتمثل في اعتداء الجنود الصهاينة على العمال الفلسطينيين، أو الصراع الداخلي المشتعل في نفس هذه ألام، التي استشعرت الخطر قبل وقوعه يقول:

دار النـــــــهـــــــار ودار
قــلــبــــي عــلـيــهـــــن نار
وجـــــه السمـــــا تـــغـــيــــر
فــكـــري الـــنــقـــي تــحــيـــر
عـــيـــن الشــمـــس تـــغـــلــــي
وســـــواس فـــــي عـــقــلـــــي
مــــا عـــــادوا عــــالمـيـعـــــاد
حتــــــى الغنـــــم مـــــا عـــــاد!
صــــــدري لهيـــــب النـــــــار
فكـــــري تعـــــب واحتـــــــار
فجـــــأة سمعـــــت طلقــــــة([1])

يتصاعد الصراع النفسي ليصل إلى النهاية المتوقعة التي تشي بها الأسطر الشعرية، تتمثل في إطلاق النار على العمال العائدين من عملهم، لينتج عن ذلك مجزرة رهيبة تصيب أهل كفر قاسم بالألم والفجيعة:

والمجــــــــــزرة اشتـــــــــدت
والمذبحــــــــة امتـــــــــدت
قلـــــب البلــــــد مذبــــــوح
ودم الأهـــــــل مسفـــــــوح
والبلـــــــد مــأســـــــورة
بالجيـــــش محصـــــــورة([2])

وإذا كان في هذه القصيدة سهولة وعفوية ووضوح وكثرة تفصيلات، وهو ما يضعف مستواها الفني، فقد نجد للشاعر عذراً في أنه قصد إلى حفظ التاريخ بكل تفاصيله، ونشره بين جميع طبقات الشعب، ليظل هادياً للأجيال اللاحقة، حول أساليب العدو الصهيوني، ومن هنا اختار اللغة الدارجة لتكون وسيلته في ذلك.

---

[1] / نزيه قسيس، كفر قاسم– الأم تروي حكاية المجزرة ديوان الشهيد، 137

[2] / نفسه، 139

ويضعنا "توفيق زياد" في جو المجزرة، بذكره لعناصر القصة منذ البداية، ثم يتدرج في الأحداث ليصل إلى النهاية المأساوية وكأننا نشاهد شريطاً سينمائياً، يقول:

لقد كان ذلك ذات أصيل
وفي مدخل القرية الواجمة
وجوم القبور
على جانبيه وبين الصخور
أقام الجنود متاريسهم
على أهبة للقتال
لسحق "العدو اللعين"
كأن بهم لوثة من جنون
وسارت إلى الفخ تلك الضحايا([1])

ويجيد الشاعر نسج خيوط الحبكة، التي تتصاعد إليها الأحداث وتتطور معها الشخصيات، ليصل إلى النهاية التي مهد لها في بداية القصة بقوله "لسحق العدو اللعين" يقول عن الضحايا:

مشت بعد كدح النهار
محملة بالطعام لبعض الصغار
ومثقلة بالهموم الكثار
وأجسام أطفالها العارية
وأكتاف شعب بأثقاله حانية
...
وما رفعت كفها الصلبة البانية
وكدح السنين المخبأة الآتية
تفكر في من وراء الحدود
يجوب الدروب شقياً شريد
وهل هو حي؟؟
وهل سيعود..؟؟
...
وتومض في فكرها المرهق
أمان رطاب
ومستقبل باسم ريّف

---

[1] / توفيق زياد، الديوان، 310-311

...

وإذ بالرصاص / يشق / الفضاء

يحيل / الضياء / بأعينهم / ظلمة / وفناء

ويبصق... يبصق مدفع قاتل

ليحصد أجسامهم كالسنابل([1])

فالشخوص واضحة من خلال النص، والمشكلة تبدأ من البداية منذ تمترس الجنود مشحونين بالحقد والضغينة، تظهر في أفعالهم، ضد الضحايا المسالمين الذين يتجاذبهم صراع نفسي مزدوج ،همّ شعبهم وأهلهم في فلسطين الذين يتعرضون للاضطهاد والمحاربة في لقمة العيش، والتفكير في مصير إخوانهم الذين شُردوا خارج الوطن. ووسط هذه الهموم تبرز آمال في العيش بسلام وأمان، والشاعر إذ يتناول نفسية الشهداء بالتحليل والتوضيح، يهدف إلى زيادة عنصر التشويق الذي يدفع المتلقي إلى تتبع الأحداث في تصاعدها، حتى تصل الذروة المتمثلة في إطلاق الرصاص على الضحايا، فيصبحون كومة واحدة، وحتى يركز الشاعر أثر هذه النهاية في نفس المتلقي، ويزيد من تعاطفه مع الضحايا، يستمر في وصف أحداث المجزرة برسم صورة منفرة للجنود المتفاخرين بفعلتهم، يقول:

وخيم صمت ثقيل مديد

على حلبة المجزرة

وتقطعه قهقهات الجنود

لنصر بمعركة ظافرة

ويصرخ ضابطهم صرخة آمرة

يشير لكومة الضحايا

"كفى! إنهم سقطوا كالنشارة.."

كفى

فالرصاصة

فيهم

خسارة

ويمشي الجنود بكل إباء

مشي الأوزّة في خيلاء

فتغطس أقدامهم في الدماء([2])

1/ توفيق زياد، الديوان، 311- 316

[2] / نفسه،317- 318

ومن القصائد التي اعتمدت الأسلوب القصصي، قصيدة (كفر قاسم جلّ الشهيد)([1]) "لمحمود مرعي"، وقصيدة (أوراق)([2]) "لهشام أبو صلاح" والتي قسمها إلى تسع لوحات، بدأها باستهلال لما بعدها من لوحات، يتناول في كل لوحة قصة جزئية، لتشكل مجتمعة صورة متكاملة للمجزرة. وقد استخدم في إحدى هذه القصص شخوصاً رمزيـــــــــة (الحمل والذئب)، يقول:

الحمل المربوط بجذع جدار مزمن
بقر الذئب الضاري بطن الحمل المصلوب
شرب الدم، امتص رحيق النبض المحلوب
ثمل الذئب العاوي
رقصت أنيابٌ يتقاطر منها الدم اليانع
فاحمرّ العتم الشاسع
وكان هنالك في الأفق المقمر بالصرخات المقهورة
حمل يثغو
يبحث عن أم وجدها قرب حظيرتها مبقورة([3])

وهذه الشخوص بإيحاءاتها العميقة، تعبر عن طبيعة العلاقة التي تربط الفلسطينيين المسالمين العزل مع ذلك العدو المدجج بالسلاح، الذي امتص دم الفلسطينيين وسلب أرضهم، وتتوالى الأفعال لتشكل الحدث المتصاعد ليصل إلى النهاية المعبرة عن استهداف الشعب الفلسطيني بكل أطيافه وطبقاته.

ويبرز الأسلوب القصصي في قصيدة" محمود درويش" (أزهار الدم) خاصة اللوحة الرابعة " القتيل رقم 18"([4]) واللوحة الخامسة " القتيل رقم 48"([5]) وهي من القصص الغنية بالإيحاءات وعمق التعبير.

ويبرز الحوار بجانب السرد القصصي وهذا ما أضاف إلى القصائد بعداً درامياً واضحاً. ويظهر جلياً في قصيدة" طيور الفينيق" للشاعر عبد الناصر صالح.

شاهدت سحاباً يحمل مطر نبؤات
فصرخت: بلادي
وفتحت نوافذ عشقي السرية
أبحرت بأعماق النفس المكنونة

---

[1] /محمود مرعي، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 121
[2] /هشام أبو صلاح، أوراق، ديوان الشهيد ، 162
[3] / نفسه، 177
[4] /محمود درويش، الديوان، 210/1
[5] / نفسه، 213/1

فاكتشفتني نفسي

ناديتك

ماذا قالت أسراب الفينيق المحروقة

فوق ترابك

ماذا قالت عنقاء الجثث المصلوبة

في رئة الجرح

وماذا قالت أرواح الشهداء؟

ماذا قالت؟

قالت

يلجمني الحزن العصري

ودقات الساعات الأولى منذ الميلاد ([1])

رغم استخدام الشاعر تعبيراً حوارياً " قالت" إلا أن هذا الحوار جاء تحت باب السرد.

ولكل من السرد والحوار أهمية في بناء معمارية القصيدة. " فالسرد يعمل على إيجاد الانسياب في طرح المضمون، ويبني علاقة بين الشاعر والمتلقي بعيداً عن الجمود"([2]) ويدعم هذه العلاقة الحوار الذي يعطي القصيدة حيوية وحركة تزيد من عنصر التشويق في القصة.

وقد يكون الحوار داخلياً معبراً عن الصراع الدرامي والحركة الدرامية داخل النص الشعري من ذلك الحوار الذي دار في نفس الشهداء عن سبب تلقيهم هذا المصير على يد القتلة، كما يبدو في قصيدة "سامر خير":.

كنت في ذلك اليوم

يقتلني الشوق يا وردتي

كي أعود إلى حضن ليلك

لكنهم قتلوني

عند مدخل قريتنا انتظروني

لم أكن حجلاً كي أخاف الرصاص

ولا ظبية في الفلاة

لماذا إذاً قتلوني؟

لم أكن داخلاً غير بيتي الحزين

---

[1] /صلاح عبد الصبور، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 127

[2] / صادق عيسى الخضور، التواصل بالتراث في شعر عز الدين المناصرة، ص 113، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، 2003

كما يدخلون منازلهم

عائدين من الشغل

هل شغلهم

كان

أن يقتلوني؟

كنت في ذلك اليوم أقتلهم بعيوني([1])

هذا الحوار الداخلي يذكي الصراع النفسي، الذي ظل يتصاعد إلى أن وصل إلى القمة في السؤال " لماذا إذاً قتلوني؟" ليأتي بالجواب " كنت في ذلك اليوم اقتلهم بعيوني" وهي نهاية مفاجئة لا تتناسب مع المقدمات التي ذكرها الشهيد، ولكن المفاجأة تزول عندما نعلم أن السبب الحقيقي من وراء المجزرة هو طرد الفلسطينيين من أرضهم ووطنهم وبذلك يكون وجودهم في هذه الأرض هو سبب مقنع لنيلهم هذه النهاية المأساوية. وهذا النوع من الحوار يتكرر كثيراً في قصائد المجزرة.

الغنائي

يظهر الأسلوب الغنائي في معظم قصائد مجزرة كفر قاسم، وهذه سمة عامة للشعر الفلسطيني ، إذ" أن غالبيته ينهج الطابع الغنائي"([2]) ، وهو بذلك امتداد للشعر العربي القديم، الذي يكاد يخلو من الفنون الشعرية الأخرى، كالتمثيلي والقصصي.....، إلا من بعض البدايات القصصية البسيطة، كالتي ظهرت في شعر عنترة، وعمر بن أبي ربيعة.

وتشكل قصائد المجزرة بصراعها وحركتها وإيقاعاتها، وتفاعلها مع العالم الخارجي بعداً درامياً، وهي بذلك تكون قصائد غنائية ودرامية في الوقت نفســــــه، " وغالبا ما يمكن للتجربة ، الواحدة أن تكون غنائية ودرامية معا "([3])، وقد تنوعت أساليب هذه القصائد ضمن الإطار الغنائي، فجاء بعضها على شكل لوحات متتابعة كما في قصيدة "محمود درويش" (أزهار الدم) ([4])،وقصيدة (يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ... وأنت أتذكرين)([5]) "لمحمود الدسوقي"

.

---

[1] / سامر خير، أغاني شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 113- 114

[2] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 366

[3] / علي جعفر العلاق، البنية الدرامية في القصيدة الحديثة، مجلة فصول، م. 7، ع.1- 2، 1986- 1987، ص39

[4] /محمود درويش، الديوان ، 1/ 202

[5] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم ....وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 71

وقد يتخذ الشاعر أسلوب الفقرات الشعرية ،كقصيدة "وفاء حزّان" (حديث الشهيد) التي تتحدث فيها على لسان شهيد كفر قاسم تقول:

شدّيني نحوك شدّيني

يا أرضاً في وطني ضميني

من تحت ترابك لي كفن

وعلى كفيك تلاقيني

أهواك يا أمي أم البشر

فيك تلقيت ترانيمي

* * * *

في الصيف غطاؤك ينعشني

في البرد القارص يحميني

ومع الأتراب مع الأهل

أو مع جيراني ،أبقيني

بتراب أحمر وافتعلي

في العتمة ضوءاً سلّيني

* * * *([1])

وتستمر الشاعرة على هذا النمط الذي يصلح للغناء والتلحين لما فيه من هدهدة موسيقية واضحة

وقد تأتي القصيدة على شكل ثلاثيات ،كما في قصيدة "تيسير محمد قدري" (مجزرة كفر قاسم)([2])،أو على أسلوب الأناشيد مثل قصيدة (شهادة أطفال كفر قاسم إلى العالم):

بلادي بلادي

يا كفر قاسم

حلفت بأني

لأجل ترابك

هذا المخضب

بالدم القاني

سآتي وأرفع راية عشقي

وسيف الشهادة فالحلم قادم([3])

---

[1] /وفاء حزان، حديث الشهيد، ديوان الشهيد، ، 213

[2] /تيسير محمد قدري ، ديوان الشهيد ، 231

[3] / سهير أبو عقصه،شهادة أطفال كفر قاسم إلى العالم، ديوان الشهيد ، 241

وقد يستعين الشاعر بأسلوب الرسائل والخطابات ،كقصيدة (عروسة الملاحم) "لسهى قسيس":

من بحر حيفا
وموجه المتلاطم
من قمم الكرمل
من أشجاره
ومن شذاه الناعم
نرسل
ألف قبلة وقبلة
إليك
يا عروسة الملاحم([1])

ويمكن أن يتجه الشاعر إلى أوزان تصلح للرثاء والندب على وزن بحر "البسيط" كما في قصيدة "عزف بسيط لذكرى أليمة":

لحن غريب تحدث شؤمــه الفكـــــر والحزن ينشـــده في ذكره الوتـــر
لولا الدماء التي في الأرض فجرهـــا غـــدر العدو لما كانت لنا ذكـــر
يا كفر قاسم ضمينا علـــى مهـــــــل واروي العيون بأطلال لها صور([2])

إلى غير ذلك من الأساليب التي تقع ضمن دائرة الفن الغنائي .

الخطابي والتقريري

اعتمد الشعر الفلسطيني في مرحلة الانتداب والنكبة على الأسلوب الخطابي والتقريري ،ولعل الظروف الحوادث المتلاحقة ،والتحولات السياسية السريعة التي أحاطت بفلسطين وشعبها،جعلت الشعراء الفلسطينيين ، يتوجهون بأشعارهم إلى الشعب كمرشدين ومصلحين ، بهدف إيقاظه وتنبيهه، وإثارة الحماس والحمية فيه،وكان الأسلوب الخطابي والتقريري المباشر هو أسهل الأساليب التي يمكن تقبلها أو فهمها من قبل عامة الشعب([3]).

[1] / سهى قسيس، عروسة الملاحم، ديوان الشهيد ، 221
[2] / فراس عمر الحاج محمد،عزف بسيط لذكرى أليمة، ديوان الشهيد ، 225
[3] / انظر سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 374- 375

إضافة إلى ذلك ، فإن الشعراء الفلسطينيين في تلك الفترة لم يتسن لهم الإطلاع على الآداب العالمية ذات الأساليب المتنوعة، كالأسلوب الرمزي والإيحائي...، لذلك استمر هذا الأسلوب لدى عدد من شعراء الخمسينات والستينات، وحتى يومنا هذا، فإننا نجد الشعر الخطابي ينفض عن نفسه غبار النسيان بين الفينة والأخرى خاصة عند وقوع حدث جسيم يهز المشاعر ، فينطلق الشاعر معبراً عن مشاعر الشعب وإحساساته ،أو ليبث فيهم الحماسة والحمية والنخوة ،ولا يجد لذلك أفضل من الأسلوب الخطابي

ومن الحوادث التي ألهبت مشاعر الشعب الفلسطيني عامة، والشعراء خاصة،مجزرة كفر قاسم ، حيث وقف الشعراء في طليعة المنافحين عن الوطن ،الصامدين على أرضه ،رغم المضايقات والمؤامرات التي تحاك ضدهم ،مصورين حوادث المجزرة، ومنبهين الشعب إلى خطورة هذه الجريمة، وإلى المصير الذي ينتظرهم إن لم يتداركوا أمرهم، ويجمعوا كلمتهم، للوقوف في وجه أعداء البلاد وأطماعهم وسياساتهم التوسعية،التي تقف خلف المجازر والحوادث الدموية،وقد مثّل هذه المعاني "توفيق زياد" في قصيدته (كفر قاسم) ومنها:

أخي
إن في الأفق صوتاً يمور
هتاف الضحايا يشق القبور
هتاف يهز الفضاء الكبير
هو الشعب يذبحه المجرمون
ألا اتحدوا أيها الكادحون
ألا اتحدوا أيها المخلصون
وضموا الصفوف وشدوا العزائم
لمحو نظام على الظلم قائم
... ...
لنا وطن راسف في القيود
وشعب تشرد عبر الحدود
ولكن/ سنمضي بعزم شديد
لنرجع حقاً / أبى / أن يبيد
سنرجعه
سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد([1])

---

[1] / توفيق زياد ، الديوان ، 320- 325

فبعد أن رسم الشاعر بكلماته صورة مفصلة عن المجزرة ومجرياتها، التفت إلى الشعب ، يلهب فيه الحس الوطني، من خلال الدعوة إلى الاتحاد والتضامن، وتمجيد البطولة في سبيل الوطن، وخلص إلى تأكده من تحقيق الهدف المنشود، وهو تحرير البلاد،وعودة الحق إلى أصحابه الشرعيين.

ونجد الدعوة إلى الثبات والصمود والمقاومة، ماثلة في كثير من قصائد المجزرة .

وقصيدة "محمود درويش" (أزهار الدم) التي بدأها بالرثاء، وأنهاها بالدعوة إلى الثورة والمقاومة ضارباً على وتر المقاومة رافضا المساومة والتنازل:

يا كفر قاسم! لن ننام وفيك مقبرة وليل
ووصية الدم لا تساوم
ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم ([1])

ويبرز الأسلوب الخطابي في القصائد التي ألقيت في ذكرى المجزرة، مثل قصيدة (كفر قاسم) ([2]) "لسميح القاسم" التي ارتجلها في حشد من الوفود جاءت لإحياء الذكرى العاشرة للمجزرة، وقصيدة (دم الشهيد رسالة نبوية) ([3]) للشاعر نفسه التي ألقاها في الذكرى العشرين للمجزرة، وقصيدة (كفر قاسم) ([4]) "لتوفيق زياد"، وقصيدة (نداء الجراح) "لحنا أبي حنا" التي أنشدها بعد عامين على المجزرة، وصدور قرار المحكمة العسكرية بشأنها، يقول في بعض مقاطعها:

وتنـــوء بالغدر الوبيـــل منـــاكـــب وكـــواهـــــــــل
إن السبيـــل إلـــى العـــزاء تكـــاتـــف وتـــكافــــــــل
ونـــــــداء أرواح الضحـــايـــــا " فـــليهـــب الـــغافــل"([5])

وقصيدة (ذكرى) ([6]) "لمحمود الدسوقي" التي يربط فيها بين المجزرة والعدوان الثلاثي على مصر، كما ظهر الأسلوب الخطابي في قصائد المسابقة الشعرية التي أجريت في الذكرى الخامسة والأربعون للمجزرة مثل قصيدة (عرس الشهادة والفداء)([7]) "لحاتم جوعيه" وغيرها.

---

[1] / محمود درويش، الديوان ،1/ 216
[2] / سميح القاسم، ديوان الحماسة، 60/3
[3] / سميح القاسم،الأعمال الكاملة، 413/2
[4] / توفيق زياد، الديوان، 306
[5] / حنا أبو حنا، نداء الجراح، 77
[6] / محمود الدسوقي،ذكريات... ونار، 34
[7] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد، 197

ونجد الرنين الخطابي والأسلوب التعبيري المباشر، جلياً في قصيدة "راشد حسين" (اليوم جئت) ([1]) التي تناول فيها عدة موضوعات وكلها تصب في باب الشعر الوطني. فقد توجه إلى الشعب الفلسطيني والأمة العربية خطيباً سياسياً واجتماعياً، يسجل ما يراه من حوادث وهنات اجتماعية، منبهاً ومحذراً من تلك الحوادث، يقول في بعض مقاطعها:

ورأيت قوما يصبرون على الأذى ... وكــأنهم في صمتهـــــم حكمـــــاء
يتسلحـــون بحكمـــة ممجوجـــة ... كالموميـــاء عيونهــــــا عمـــيــــاء
الصبر من شيم الكرام يقول لي ... شيخ ويسند قولـــــــه الــفقهــــــاء
يا سيدي ألصبر أصبح علقمـــا ... عصفت بعقلــــك حكمـــــة بلهـــاء
لا صبر إلا للعبيـــد فـــأيّنـــــا ... عبـــد وأيــــن الســــــادة الأمـــراء
اليــــوم تنفجر النفوس تمردا ... وظلام درب الثائريــــــن يضـــــاء
خلّي الشباب الحرّ يرفع صوته ... ولينتحــــر أو يغـــض الكبــــــــراء
لا يوقظ الشعب النؤوم عجائـــز ... شمط لهـــــن أميــــرة شمطــــــاء
بل فتيـــة روى الشباب نفوسهم ... فلهم على قمـــم السمـــــاء سمــــاء
... ...
لن تشرق الآمال في أوطاننا ... إن لم تساعـــد آدم حـــــــــــواء
فلأمة حواؤها مســـــجونـــة ... هــــي أمـــة في سيرها عرجـــــاء
قد أوشك الأموات أن يستيقظوا ... فمتـــى سينهـــض عندنا الأحيـــاء
يا ابن الجليل رسالتي بلّغتهــــا ... فتحيـــة مــــن قريتـــــي وإخـــاء
اليوم جئت وفي فؤادي لوعـــة ... فمتـــى أجـــيء وكلنـــا سعـــــــداء ([2])

وسيظل الأسلوب الخطابي أكثر الأساليب ملاءمة لاستنهاض الهمم،وبث الحماس، وتوجيه النصائح،وإن كان أثره لا يدوم طويلا في نفس المتلقي، الذي ينفعل به ساعة سماعه، ثم يبدأ بالتلاشي والخفوت، بخلاف أساليب أخرى تظل عالقة في وجدان المتلقي ، يُعمل فيها فكره وعقله، وتشده إيحاءاتها ورموزها .

الإيحائي

(رب ضارة نافعة) مقولة يمكن أن تنطبق على الشعب الفلسطيني، الذي تعرض للتهجير والاضطهاد، فتفرق في البلاد العربية والأجنبية، هذا الانتشار جعله يركز اهتمامه - بالإضافة إلى القضايا الوطنية - على التعليم والثقافة، فأصبح في طليعة الشعوب المثقفة، وأصبح الشعراء أكثر

---

[1] / راشد حسين، الأعمال الشعرية، 377

[2] / نفسه، 382- 384

إطّلاعا على الثقافات العربية والأجنبية، وأكثر اتصالا بالحركات والاتجاهات والأساليب الأدبية العالمية،"فمنذ منتصف الخمسينات بدأت ملامح الأسلوب الإيحائي والرمزي تظهر في أعمال عدد من الشعراء الفلسطينيين "([1]) فهذا "سميح القاسم" يوحي لنا بمدى تمسكه بوطنه ودوره في إيقاظ الشعوب:

وإلى أن يبعث النهر
وتشدو في أغاني الحمائم
أوقظ الدنيا هتافا لا يساوم([2])

فالشاعر يرى أن دوره يتطلب منه الاستمرار في توعية الشعب ،وإنارة دربه ، إلى أن يسترد حقه، وقد رمز إلى التحرر بقوله" يبعث النهر"،" وتشدو الحمائم" ، كما رمز في القصيدة نفسها إلى الحكومة الصهيونية "بقيصر العصر الجليل" بكل ما تحمله كلمة قيصر من ظلم وجـــبروت:

سيدي يا قيصر العصر الجليل. ([3])

أما "محمود درويش" فيوحي بمدى حبه لكفر قاسم، وبالدور المنوط به كشاعر ومثقف:

سأدفع مهر العواصف
مزيداً من الحب للوردة الثاكلة
وأبقى على قمة التل واقف
لأفضح سر العواصف للقافلة
أحاور روح الضحية
ومن سوء حظ العواصف أن المطر
يعيدك حية([4])

الشاعر هنا يمدنا بعدد من الرموز الموحية، " العواصف " رمز للحوادث والمجازر التي أصابت الفلسطينيين على يد الحكومة الصهيونية،و"الوردة الثاكلة" هي قرية كفر قاسم التي فقدت من أبنائها تسعة وأربعين شهيداً خلال ساعة واحدة،و" قمة التل" رمز للدور الطليعي الذي يطّلع به الشاعر في الدفاع عن الحق الفلسطيني المغتصب، و" القافلة" رمز للشعوب والعالم من حوله ، أما " المطر" فقد رمز به إلى الثورة وكل الأعمال الوطنية لإحياء ذكرى الشهداء التي تُبقي قصة الدم المراق ظلماً، حيّة في الذاكرة على الدوام.

ويرمز "محمود مرعي" لشهداء كفر قاسم بـــ " الطيور":

يومهـــا طيــر كفر قاسم كانت　　　رهــن أرزاقهـــا وكـــــان الجحـــــود

---

[1] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 375

[2] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 104/1- 105

[3] / نفسه، 104/1

[4] / محمود درويش ، الديوان ، 207/1

قــد أقروا منـــع التجول ليـــلا دون علم الطيور بئس العبيـــــــــــــد([1])

كما أسبغ الشعراء عدداً من الرموز على القَتَلة ،منها " غرابين البين" "الخفافيش" " الذئب العاوي" " الفاشيين"،وغيرها من الرموز التي مر ذكرها في الفصل الأول(صورة القتلة)،وكل واحد من هذه الرموز يكشف جانبا من شخصية القَتَلة وتفكيرهم.

واستخدم الشعراء الرموز والإيحاءات الدينية، وتواصلوا مع التراث، لإعطاء أشعارهم عمقاً في المعنى وقوة في التأثير، وقد وردت عدة أمثلة على ذلك في (الاتجاه الديني).

ويستحضر "عبد الناصر صالح" أسطورة (طائر الفينيق)([2]) كي يحول معاناة الشعب الفلسطيني إلى أمل، ويعزز إرادة الصمود والثبات والمقاومة، رغم كثرة العراقيل والصعاب التي يواجهها هذا الشعب .

يوحي الشاعر في هذه الأسطر إلى كثرة العراقيل والمصاعب التي تقف في وجوه أبناء فلسطين، المصممين على تحرير بلادهم، من محتل يمعن في القتل والسلب والظلم لهذا الشعب الصامد، ورمز إلى كثرة الجرائم بحق الشعب الفلسطيني بـــ" أطفال في الشمس" " وأشباح في النيران " ومن وسط هذه المآسي سينهض جيل جديد من الفلسطينيين يعيدون الحق إلى نصابه. ورمز لهم بطائر الفينيق.

الإنشائي

نوّع الشعراء في أساليبهم الشعرية، ذلك التنوع الذي ينم عن ثقافة الشاعر ووعيه بقضيته التي يعالجها، ومن الأساليب التي استخدمها الشاعر الفلسطيني الأسلوب الإنشائي بكل جزيئاته. فنجد **النداء** ماثلاً في شعر المجزرة، نداء القريب الذي تسقط فيه أداه النداء، كما في قول "محمود درويش":

كفر قاسم

إنني عدت من الموت لأحيا، لأغني

فدعيني استعر صوتي من جرح توهج([3])

---

[1] / كفر قاسم، جل الشهيد ، ديوان الشهيد ، 121

[2] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد ،125

[3] /محمود درويش، الديوان ، 205/1

طوى الشاعر المسافات، ونادى كفر قاسم بأسلوب مباشر، حيث شعر أنها قريبة من فكره وروحه، وهو جزء منها ومن شهدائها، الذين سيبقون أحياء في الذاكرة الفلسطينية، ووصمة عار في جبين الحكومة الصهيونية.

وتختفي المسافات المادية والمعنوية في الإخوة الفلسطينية والعربية، فيأخذ الفلسطيني يناجي أخاه الفلسطيني والعربي في أي مكان، يستلهم منه العون والمساندة، ويبثه أحزانه وأفراحه وكأنه يقف أمامه، كما يبدو في قصيدة "توفيق زياد":

أخي
إن في الأفق صوتاً يمور
هتاف الضحايا يشق القبور
...
دمي هو ذاك الذي قد سفك
دمي هو ذاك وذاك دمك([1])

كما استخدم الشعراء أدوات النداء خاصة " يا" التي تستخدم للقريب والبعيد، كما لم يقتصر نداؤهم على العقلاء مثل " يا فاطمة"([2]) " يا حبيبي"([3]) " يا راحلاً"([4]) ... بل قاموا بتجريد الجماد ومناداته، وأكثروا من عبارة " يا كفر قاسم" كما نادوا قبور الشهداء على سبيل المجاز.

واتجه بعض الشعراء إلى أسلوب **النفي**، ليعبروا عن الثورة والتمرد ورفض الواقع المهين الذي وصل إليه الشعب الفلسطيني تحت ظل الاحتلال، وعبروا عن استمرارهم في الثبات والصمود أمام العاصفة الهوجاء التي تجتاح بلادهم، بعبارات مثل " لا نساوم" " لن ننسى" " لن نسقط" وغيرها. يقول "عبد الناصر صالح":

أنا الفارس فوق حصان الوطن الجامح
لم أسقط
قد أنزف لكن لن أسقط
قد يكبو في الليل جوادي
لكن لن يسقط
لن نسقط يا حاضنه الشهداء([5])

---

[1] /توفيق زياد، الديوان ، 320-322

[2] / علا عيسى، معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 103 وما بعدها

[3] / غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ، 156 وما بعدها

[4] / عمر محمود صالح، يا كفر قاسم، ديوان الشهيد ، 269

[5] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 132-133

وقد يأتي النفي للتعبير عن استمرار العدو في جرائمه، كما في قول "سميح القاسم":

لا مدية الجزار كـُف غليلهـــــا   عنـــا ولا شبـــع الهلوك المتخـــــــــم([1])

ويراوح "محمود درويش" بين **الأمر والنهي**، في مقطوعة يعبر فيها عن رفضه وتمرده واعتزازه بصمود كفر قاسم وتضحيتها:

فلترفعي جيداً إلى شمس تحنّـــــت بالدمـــــــــــاء

لا تدفني موتاك! ... خليهم كأعمـــدة الضيـــــــــاء

خلي دمي المسفوك لافته الطغاة إلى السمـــــــــاء

خليه ندا للجبال الخضر في صدر الفضـــــــــاء([2])

ونجد العديد من **صيغ الأمر** المعبرة عن الرفض والمقاومة، تخاطب الوجدان العام، لتحثه على التمسك بالحقوق الشرعية، وعدم الانخداع بشعارات السلام المزيفة التي تخفي وراءها ضياع الوطن، –وهذه الدعوة برزت بقوة في الأشعار التي قيلت قبل عقد (معاهدة أوسلو) بين الفلسطينيين والحكومة الصهيونية عام 1993م ـــ. كما نجد صيغ الأمر في جانب آخر تذكي في نفوس الفلسطينيين الاعتزاز والافتخار بمواقفهم البطولية.

وسط هذه المشاعر المتداخلة والأحاسيس المتنوعة يبرز أسلوب **التمني**، تمني حياة سعيدة، وعيش بسلام ورخاء وهناء، حياة تقوم على العمل والنشاط بعيداً عن التسلط والحقد واغتصاب الحريات والملاحقة من قبل القوات المحتلة، التي حوّلت الوطن إلى سجن كبير، يقول "محموددرويش":

آه يا سنبلة القمح على صدر الحقول

ومغنيك يقول:

ليتني أعرف سّر الشجرة

ليتني أدفن كل الكلمات الميتة

ليت لي قوة صمت المقبرة

يا يداً تعزف، يا للعار! خمسين وتر

ليتني أكتب بالمنجل تاريخي

وبالفأس حياتي

وجناح القبرة([3])

ومن الأساليب الإنشائية التي ظهرت في شعر المجزرة، أسلوب **الاستفهام**، وهو يعبر عن القلق والخوف من استمرار ارتكاب الجرائم بحق الفلسطينيين، وحالة الضياع التي فُرضت عليهم، فظهرت

[1] / سميح القاسم، الأعمال الشعرية، 414/2

[2] / محمود درويش، الديوان، 208/1

[3] / نفسه، 204/1-205

قصائد تزدحم بالأسئلة التي تنبض بالحزن العميق على تبدل حال الشعب الفلسطيني، بعد أن امتدت إليه يد الغدر والعدوان، وسلبت كل معنى جميل، وحولته إلى ضده. يقول "فوزي عبد الله" مستخدماً اسم الاستفهام " أين" للتعبير عن انقلاب الحال:

بيادر الحزن في العينين تتهـــــــم وفي القـــلـــوب جراح ليس تلتئـــــم
أنى الذين مضوا في غير موعدهــم؟ أين الأماسي؟ والأحباب أين هـــــم؟
أين المواسم تهفو في مرابعـــهـــم يزينهـــا قمر والكون يبتســــــم
في كل أمسية تتّهــــل أغنيـــــة ويسهر الحب والسمّار والنعـــــم
ويكبر الصفو...والأطفال يطردهــم صوت الوجود ويحلو في الصبا حلــم
أين الصبا الغض والأسحار تلثمه؟ أين العذارى وسحر طاهـــر يســم
أين الطفولة؟ والذكرى ملوعـــة! فـــي طيها عبر، في طيهـــا ألـــم!
يجيب تشرين؟! أم أيلول ينقذهـــا من الضياع؟ أم الدنيا؟ أم الأمــــم؟([1])

ويرى الشاعر في أفعال الحكومة الصهيونية ما يثير الاستغراب والاستهجان والاستفهام، عن حقيقة الموقف الذي يعرفه الشاعر جيداً ولكنه يستنكر ذلك على حكومة ألصقت الجريمة بحفنه من الجنود، وبرأت ساحة القادة الذين خططوا لمثل هذه المجازر. في الوقت الذي تستصرخ فيه ضمير العالم وتبتز الدول التي تدّعي أنها قامت بقتل اليهود إبان الحكم النازي، يقول "عصام العباسي":

أشغوف قتل كان " دهان" تـــرى أم حربة في كفك الضـــــرّاب؟
أولست قائد رهطه وفريقـــــه والحاكم المختـــار في الأحزاب
أولست من رسم السياسة يا رئيس وساسها من بابهـــا للبـــــاب
أيجوز قتل الأبرياء وأنت مــــن شعـــب تمـــرغ بالدم المنســـاب([2])

كما استخدم الشعراء أدوات استفهام أخرى مثل " هل" للتعبير عن استحالة نسيان الحق الفلسطيني .([3]) أو التشوق إلى معرفة ما آلت إليه حال الشهداء ([4])، إلى غير ذلك من الأسئلة التي تدور في الذهن وتخاطب الوجدان.

إلى جانب هذه الأساليب الإنشائية، برز أسلوب الخبر، وهي سمة واضحة في شعر المجزرة.

.

---

[1] /فوزي عبد الله، الحزن الثائر ، ديوان الشهيد ، 69

[2] / عصام العباسي، لذكرى كفر قاسم، ديوان الشهيد، 85

[3] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد ، 207

[4] / غادة الشافعي، طعنته أم زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ، 153

الوحدة الموضوع

بعد استقراء الشعر الفلسطيني الذي تناول مجزرة كفر قاسم، تبين أن أسلوب الأغلبية العظمى منه هو **أسلوب الوحدة الموضوعية** ، سواء أكان ذلك للقصائد التي قيلت بُعيد المجزرة، أم التي باعد بينها وبين المجزرة قرابة نصف قرن، فلا نجد شاعرا جمع في قصيدته بين موضوعين أو أكثر، وأن حصل في بعض القصائد، فإنه يظل تحت مظلة الشعر الوطني، من ذلك قصيدة "راشد حسيـــن" (اليوم جئت) ([1])، فبعد أن بدأ بتحية كفر قاسم وتأبين شهدائها،توجه إلى الحكام العرب يأخذ عليهم تنازعهم وتفرق كلمتهم، لينتقل بعد ذلك إلى الشعب ينعى له بعض شبابه المخنثين ، الذين قصرت همتهم عن الدفاع عن الوطن، وماتت لديهم النخوة والحميّة، وأصبح أكبر همهم غادة يتصيدون أخبارها. ثم يدعو الشعب إلى الثورة والتمرد لتغيير الواقع المرّ الذي يعيشونه ، كما يدعو إلى تحرير المرأة، ويخلص إلى العودة إلى تسليم القيادة إلى الشباب لأنهم الأقدر على العمل والنهوض بالبلاد.

كل موضوع من هذه الموضوعات يفضي إلى الآخر، وتصب جميعها في إطار الشعر الوطني.

وثمة ظاهرة أخرى من الظواهر الموضوعية في أسلوب شعر المجزرة ألا وهو **أسلوب الشعر المأساوي** ، حيث ينتهي النص نهاية حزينة ، وهي نهاية منطقية نظراً لطبيعة الحادثة التي تناولتها هذه الأشعار، وما آلت إليه من استشهاد قرابة خمسين مابين رجل وطفل وامرأة، إضافة إلى الذين جرحوا وأصبحوا يعانون من إعاقات دائمة.

ويتسلل وسط هذه المأساوية خيوط من الأمل في النهوض مرة أخرى ، وتجاوز المأساة بعودة الحقوق إلى أصحابها ،ليحّل السلام، وترفرف أعلام الحرية على ربوع الوطن.

ولعلنا نكون في هذا البحث قد عرضنا أهم خصائص أسلوب شعر المجزرة، من خلال تنوع الأساليب في القصيدة الفلسطينية، ذلك التنوع الذي ينم عن ثقافة الشعراء وسعة إطلاعهم على أساليب الشعر المعاصر وتأثرهم بها، فقد تعاملوا مع القصيدة الطويلة التي تأخذ بعداً ملحمياً ، وقد تأتي متكاملة أو على شكل لوحات متتابعة، كما تعاملوا مع المقطوعات الشعرية ذات الموقف المركّز، ونوعوا في الجانب التعبيري في القصيدة ، فظهر الفن الغنائي بأشكاله المختلفة، وتعاملوا مع فن القصة الشعرية بشكل مكثّف، وأسلوب الدراما، وألقوا قصائدهم من خلال الأسلوب الخطابي والتقريري المباشر، وبرز –على استحياء–الأسلوب الإيحائي والرمزي، والأسلوب الإنشائي بفروعه المتعددة، كما تبدت الوحدة الموضوعية في قصائد المجزرة، وركزوا على البعد الوطني ، وغلب الأسلوب المأساوي على نهاية القصائد ، وفي هذا ما يؤكد على تأثر الشعراء الفلسطينيين بحركات التجديد والتطور في الآداب العربية والعالمية.

---

[1] / راشد حسين،الأعمال الشعرية، 377،

3 - الصورة الشعرية

للصورة الفنية دور في الشعر منذ أقدم العصور، فعودة إلى قصيدة **(الإلياذة)** تظهر اهتمام هذه الأشعار بالتشبيهات، كما أن الشعر الجاهلي يزخر بالتشبيهات والاستعارات التي أصبحت مجالا للتمايز بين الشعراء، وقد اهتم النقد العربي القديم بالصورة من خلال التحليل البلاغي للصورة القرآنية، والتركيز على دراسة الصورة الشعرية عند الشعراء الكبار أمثال" أبي تمام" و"البحتري" و"ابن المعتز". وظلت الصورة تفرض نفسها على وعي الناقد القديم في أثناء بحثه القضايا الأساسية التي شغلته، مثل الموازنة والسرقات، كما كانت تفرض نفسها عليه في تتبعه لما حققه الشعراء من إبداعات جديدة.([1]).

واحتفظت الصورة الفنية بدورها في الشعر، فأصبحت " من السمات الأساسية للشعر في العصر الحديث"([2]) وهي وسيلة من وسائل الشاعر للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه ونقلها إلى المتلقي، " من خلال إيجاد علاقة بين شيئين أو أشياء مختلفة، يربط بينهما رابط ما" ([3]). ولا بد للشاعر من توافر القدرة على التصوير والتخيل، لاستجلاء مشاعره وإبرازها ." لأن الشعور يظل مبهما في نفس الشاعر فلا يتضح له إلا بعد أن يتشكل في صورة ".([4]) وبمعنى آخر أن يكون لدى الشعراء القدرة على تجسيد عواطفهم وأفكارهم باستخدامهم طاقات لغوية، والربط بين ألفاظ تخرج عن دلالاتها المعجمية لتعطي دلالات إيحائية متميزة.

والصورة في الأدب هي الصوغ اللساني المخصوص الذي بواسطته يجري تمثيل المعاني تمثيلا جيداً ومبتكراً بما يحيلها إلى صور مرئية معبرة . أي أنه " رسم بالكلمات وتجسيد لأحاسيس الشاعر وأفكاره المجردة بشكل حسي".([5])

اعتمدت الصورة قديماً على وجود تشابه حسي بين شيئين أو أكثر، وأن تكون العلاقة بين المشبه والمشبه به قائمة على وجود تقارب ، إما على سبيل الحقيقة أو المجاز، وقام النقد بدراسة الصورة معتمدا على الفصل بين جزأيها، وهما المشبه والمشبه به، " بينما يتعامل النقد الحديث مع الصورة بشكل متكامل، قائم على ظهور معان جديدة تنبثق من التداخل بين طرفي الصورة، بعيدا عن اشتراط تقارب المشبه والمشبه به وواقعيتهما، أو وجود شبه حقيقي بينهما".([6]) وهذا يعني أن الشاعر لم يعد يقف عند

---

[1] / انظر ، جابر أحمد عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، 5- 6

[2] / كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، 205

[3] / سعدي أبو شاور ، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 381

[4] / عز الدين اسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ، 136

[5] / نبيل خالد أبو علي، عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية ، 97

[6] / كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 206

حدود المحسوس المجسم فقط، لأن الهدف من الصورة الشعرية تعدى الإفصاح والتوضيح، إلى الإيحاء الذي يبعث في المتلقي الرغبة في التأمل والتمعن في المعنى، وربط جزّئيات الصورة كي تشف عن فكرة الشاعر حول الموضوع الذي يعالجه، كما تعطي المتلقي أفقا واسعا من التحليل والربط والتخيل، فتخرج آراء ووجهات نظر مختلفة حول الصورة الواحدة، " ومما لا شك فيه أن الصورة التي تعتمد على الإيحاء أجمل وأقوى أثرا من الصورة التي تعتمد الوصف والتقرير المباشر" ([1]). وبهذا نرى أن الصورة قد تجلّت فيها حداثة القصيدة العربية ، "فلم تعد الصورة الشعرية مجرد علاقات بين الأشياء يقبع تحت إهابها منطق عقلي جاف... بل صارت رؤية جديدة لأشياء العالم وموضوعا ته ، وأصبحت أداة توحيد بين أشياء الوجود ... وصهر وإعادة تركيب بها تمتلك الأشياء امتلاكا كليا "([2])

ويُجمل "جابر عصفور" مفهوم الصورة في النقد الحديث بأنها " ابتكار ذهني خاص ناتج عن التركيب والجمع بين عدة حقائق وأشكال واقعية، تتفاوت في البعد قلة وكثرة؛ ومبلغ تأثيرها النفسي حاصل من أن علاقات الأفكار فيها بعيدة وصحيحة في العقل والنفس، وهي إحدى وسائل التعبير ووجه من وجوه الدلالة تنحصر أهميتها فيما تُحدثه في الفكر من خصوصية ومن تأثير "([3]).

ومع أنه لا يشترط وجود ترابط بين أطراف الصورة، إلا أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال الإغراق في الغموض والإبهام بحيث يغلق على الفهم، ومعرفة الأبعاد التي ترمي إليها الصورة. ومن أسس جودة الصورة " الإغراب فيها والخصوبة والتنامي والجدة والتأثير النفسي والاتساق في الإطار الكلي، سواء أكانت القصيدة سوق معنى في صورة أم عرض صورة في سياق معنى. ولذلك يعيبها الافتقار للعلاقات وللتناسق والظلال النفسية بين أطرافها وفي محيط العمل الأدبي كله"([4]). فكلما كانت الصور الجزئية متلائمة مع الجو النفسي للقصيدة، متكاملة مع الصورة الكلية، زاد من قيمتها وجمالها وقوتها. وفي هذا البحث سوف نتعرف إلى الصور الشعرية في شعر المجزرة، وأنواعها ومدى توافقها مع المعايير العامة للصورة الفنية .

أولا – الصورة المفردة الجزئية

وهي الصورة التي تتناول جانبا مفردا من التجربة الشعرية، وإن كانت غير منعزلة بذاتها عن باقي الصور، فهي تتضافر مع ما تمتلكه من طاقات لغوية لتشكل الصورة الكلية المعبرة عن التجربة

---

[1] / كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 206

[2] / محمد فكري الجزار ، الخطاب الشعري عند محمود درويش ، 154

[3] / جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، 392

[4] / علي عبد الخالق علي دومة ، في الأدب ومذاهبه المعاصرة ، 184

الشعرية بكل أبعادها، فالصورة المفردة الجزئية ما " هي إلا شريحة من القصيدة تحمل سماتها النفسية ودلالاتها المعنوية".([1]) ويمكن بناء الصورة الجزئية بعدة أساليب منها:

التشبيه

وهو من الصور التقليدية القديمة التي حفل بها الشعر العربي، وأفاض النقاد في دراسته ومعرفة أنواعه، وغالبا ما يعتمد على الخيال الحسي، خاصة في الشعر العربي القديم، واحتفظت الأشعار الفلسطينية التي قيلت في الخمسينات والستينات بهذه الخاصية، من ذلك ما رسمه "سميح القاسم" بكلماته حين شبه ما يتعرّض له الفلسطينيون من جرائم وانتهاكات، وما ينتج عن ذلك من تقطيع للأشلاء وتحطيم للروؤس بثمرة الرمان المتفتتة :

كــفــــــر قـــــــاســـم
يا شجرتي المحتقنة بالبــــارود والدم
جذّرت ركبتاي من طــول ما جثوت عليهما
فليــــأت العـــــالم
وليرَ كيف يتفجر رأسي الجميل كثمرة الرمان
تحت جنازير الدبـــــــابات وخرافة العصر([2])

وعاش "سميح القاسم" مثل غيره من الشعراء الفلسطينيين قسوة الحياة تحت ظل الاحتلال، فالليل نصل يقطّع أوصالهم، والنهار عقارب تلدغ الأحرار الشرفاء، يقول:

لا مدية الجزار كفّ غليــلها — عنا... ولا شبع الهلوك المتخــــــم
والليل نصل والنهار عقارب — والموت لا يطغى ولا هو يــحجــم ([3])

ولدى "علي اسماعيل الحلبي" نظرة مختلفة إلى المجزرة، فالموت بعث وحياة، ودم الشهيد ورد يعطر الجو ويشرح النفس، وهو أيضا قمح وخبز ونبع للماء يغذي مَن بعدهم بغذاء الثورة والحماس ، ورفض الذل والهوان، غذاء متجدد متدفق، يقول :

علمت أن دمي صار ورداً
صار قمحاً ...... صار خبزاً
علمت أن دمي ينبوع في حقل
فلمـــــاذا تحزنوا يا أولادي([4])

---

[1] / كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 208
[2] / سميح القاسم ، الأعمال الكاملة، 196/2
[3] / نفسه ،414/2
[4] / علي إسماعيل الحلبي،دم الشهيد ينادي، ديوان الشهيد، 233

وقد يتعدد المشبه به والمشبه واحد، في محاولة من الشاعر للإحاطة بخصائص المشبه، وجلاء صورته، فشهداء كفر قاسم: مرة لحن عذب وأغنية جميلة، ومرة بدر يضيء ليل كفر قاسم ويمحو ظلمتها، وهم شمس مشرقة بالأمل انطفأت فسالت الأدمع حسرة عليها، كما في قول " حاتم جوعية" :

يا كفر قاسم فانظري لصمـــودنا   وهتافنا ملأ الدنـــــى أصـــــداء

....

خمسون لحنا في ثراك مُضـــرّج   والورد أضحى عوسجا ودمـــــاء

خمسون بدرا كـــم أضاءوا أفقنـــا   خاضوا الفدا ....نهلوا الردى شرفاء

خمسون شمسا غيّبت تحت الثرى   فبكى الأحبة أدمعا خرســـــــاء ([1])

وإن كان التشبيه من وجوه الصورة الشعرية التقليدية، إلا أننا نجد في شعر المجزرة عددا من التشبيهات المبتكرة، وهو ما يعطيها القيمة الفنية في النص الشعري. من ذلك تشبيه الدموع بريح صرصر ([2]).والشهيد بالوتر تُعزف عليه ألحان الدم،والعيون السوداء بليل القرى، تقول "غادة الشافعي" :

بلى أيها الفتى ذي العينين السوداويين كليل القرى

لم تكن لك ليلى تطرز بالدمـــــــــوع مناديلها

وترسل في نسائمك شعرها الفاحــــــــم الطويل ([3])

وهناك بعض التشبيهات يغلب عليها الطابع المعنوي مع احتفاظها بأنماط البلاغة وقواعدها، من وجود تقارب في العلاقة بين المشبه والمشبه به، وربما عمد الشاعر إلى هذا النوع من التشبيهات لإعطاء أفق أرحب للمتلقي حتى يُعمل فكره، ويستوحي معانيا وصورا تجسد الموقف النفسي للشاعر، الذي هو انعكاس للحدث والجو النفسي العام ، يقول "فوزي عبد الله":

بيادر الحزن في العينين تتهـــم   لا الصحو يطفئه ، لا الفجر، لا النسم

آت من العمق من تاريخ رحلتنا   من ليلة في ضواحي العمر تنـــــهزم

يمتد حتى شغاف القلب يمـــلأه   كأنه التيه ، ألقى ظله القــــــــــدم([4])

يٌعمل الشاعر خياله حين يجعل الحزن المتجذّر في قلوب الفلسطينيين – نتيجة ما يعانونه من آلام، وما يشاهدونه من زعماء العرب المتخاذلين المتآمرين مع العدو– يشبه التيه، ذلك المعنى الذي يرسل ومضاته نحو الضياع والفرقة والحزن والخوف.

---

[1] / حاتم جوعية ، عرس الشهادة والفداء ، ديوان الشهيد، 198

[2] / مجاهد ريان، من ذكريات مذبحة كفر قاسم ، ديوان الشهيد ، 280

[3] / غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ، 158

[4] /فوزي عبد الله ، الحزن الثائر ، ديوان الشهيد ، 81

وهناك بعض التشبيهات تهدف إلى تحويل غير المرئي إلى محسوس، الأمر الذي يغذي المعنى ويقرّب الصورة، تقول "غادة الشافعي":

الملائكة احتشدوا كسرب من الأجنحة

في انتـــظار صعـــــــــــــودك([1])

فقد شُبهت الملائكة تلك المخلوقات النورانية بسرب من الأجنحة – على سبيل المجاز– اصطفت لاستقبال ضيوف أعزاء ألا وهم أرواح الشهداء.

الاستعارة

الاستعارة نوع من التشبيه حذف أحد طرفيه، وهي" صورة فنية تتكون من أطراف حسية مشحونة بمشاعر إنسانية..... وإن الإدراك الحدسي هو مرتكز الصورة الاستعارية وقوتها الفاعلة في البحث عن أوجه التشابه بين الأشياء "([2]) وقد استعان بها الشعراء في شعر المجزرة لرسم صورهم، وإضفاء مسحة من الجمال الفني على أشعارهم، ومن الصور الاستعارية ذلك المشهد الذي رسمه "محمود درويش" يمثل فيه مقاومته وصموده أمام الممارسات الهمجية. والمؤامرات الإجرامية التي تحاك ضده، يقول:

كـــــفر قـــــــــــاســـــــــم

إني عدت من الموت لأحيا لأغنــــي

فدعيني أستعر صوتي من جـــــرح تـــــوهـــج

وأعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج

إننـــــي مندوب جـــــــرح لا يســـاوم

علمتنـــــي ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي

وأمــــشـــــــــــــــي

ثـــــم أمـــشـــــــــــي

وأقـــــاوم([3])

فالشاعر يستعير صوته من الجرح، والحقد يزرع عوسجاً يظل يخز في القلب ينبهه إلى الخطر الجاثم في أرضه، وهو يمشي على جرحه متحاملاً على نفسه وآلامه لرد كيد عدوه. وهذا المشهد متمم للمشاهد السابقة التي رسمها الشاعر للمجزرة، ومتكاملة مع المشاهد اللاحقة التي تصور تنامي الأحداث

[1] / غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 159

[2] / ناصر علي، بنية القصيدة في شعر محمود درويش ، 192

[3] / محمود درويش، الديوان ، 205/1

العدوانية، وتُعد المقاومة نتيجة طبيعية لها. وقد حشد لها الشاعر ألفاظا، وأعطاها من طاقات لغوية أخرجتها عن معناها الأصلي إلى معان جديدة موحية إلى المعنى المراد، يقول:

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليل الخميلة

شرف الطفـــــــــــولة أنهــــــا

خطـــــــر علـــى أمـــن القبـيـلة

إني أباركهم بمجد يرضع الدم والرذيــــلة

وأهنئ الجلاد منتصراً على عين كحيـــلة

كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديلة

مرحى لفاتح قرية!...مرحى لسفاح الطفولة([1])

هذا المشهد يصور (بطولات) العدو المزيفة، المبنية على الخسة والنذالة، فمجدهم يرضع الدم والرذيلة، وهم يستعيرون كساءهم من شعر جديلة ضحاياهم، فليس لهم نصيب من الكرامة والأخلاق الإنسانية. ولا مجال أمام الفلسطيني إلا المقاومة. لذلك ختم القصيدة بقوله:

ووصية الـــدم لا تســـــاوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم([2])

ومن الصور الاستعارية التي اُستعين على تشكيلها بألفاظ مجازية قول "سميح القاسم":

وعلى أعين أطفـــالك

يا أم العيون الجارحـــة

يبس النهر وماتـــت في أغاني الحمائم

وأنا يا كـــفر قاســـم

أنا لا أنشد للموت... ولكن ليد ظلت تقاوم!

ســـيــــدي!

يا واهب النار لقلـــب وجديلــــــة

ســـيـــدي

يـــا ســـاكـــــب الزيـــــــت

على مـــوقد أحــــــزاني الطــــويلة([3])

فقد استعار الشاعر أعضاء من جسم الإنسان على سبيل المجاز، لتصوير فيض من عواطفه القوية التي تندرج تحت عاطفة الحزن والألم. فالنهر يبس وجف على أعين أطفال كفر قاسم واللحن الجميل

---

[1] /محمود درويش، الديوان ، 209/1

[2] / نفسه، 116/1

[3] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة ، 103/1

المطرب المعبر عن السلام والأمان اختفى في أشعار الشاعر، وبرز مكانه اللحن الحماسي الثوري الذي يغني لليد المقاومة ضد من وهب النار للقلب والجديلة، وأشعل أحزان الفلسطيني، وقد جعل الشاعر لهذه الأحزان موقداً يزداد تأججاً كلما غذّاه العدو بجرائمه.

واستعار "عبد الناصر صالح" للثورة اسم (المطر)، وأضاف إليها صفة من الصفات الإنسانية(يلثمني) لإظهار مدى تغلغل رفض الخنوع والهوان في نفس الفلسطيني، ونزوعه إلى الثورة لتغيير وجه الحياة المظلم، يقول:

يحرقـــني نبـــض العشـــق
وحبات المطر الرافض تقرع نافذتي
تنهمر على جســدي المـــغترب
وتلــثمـــنــــي
هذا المطــر الرافض يـــــلثمني([1])

الكناية

يلجأ الشاعر إلى الكناية للتعبير عما بنفسه، ولرسم ملامح الصورة التي يريد عرضها، من ذلك قول "سميح القاسم":

بركة دكنـــاء في قلبي
وفي وجهي ســحابة
ونـــجيع ساخـــن
يصرخ في وحشة غـــابة
وعلى قارعة الدرب وعاءات نحاس
أيقظت بضع رصاصـــات
وألقت في جفون الأخوة القتلى نعاس
وعلى روث المواشـــي
بقع حمــــــر
وفي الدوار تعديد مآتـــم
كفر قاســــم([2])

[1] / عبد الناصر صالح،طيور الفينيق ، ديوان الشهيد، 129- 130
[2] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 101/1

يرسم الشاعر هذا المشهد المأساوي، جاعلاً من بعض مظاهر الطبيعة كناية عن تأثره بالحدث الذي وصل إلى مسامعه. فهذا الحدث المحزن أحال الحياة في عينيه إلى ظلام دامس يداهم قلبه، فبدأ القصيدة بقوله:" بركة دكناء..... سحابة" وجاءت هذه المقدمة أرضية ممهدة للحديث عن المجزرة وانعكاساتها على نفسية الشاعر. كما جعل من البقع الحمر على روث المواشي كناية عن سقوط الشهداء على قارعة الطريق. كما كنى" وفي الدوار تعديد مآتم" عن تأبين الشهداء وبكائهم.

وفي موضع آخر من شعر "سميح القاسم"، نجده يكني عن الإهمال المؤلم لضحايا المجزرة وعدم إعطائهم التكريم الذي يستحقونه بقوله:

لا نصب ...لا زهرة... لا تذكـــار
لا بيت شعر ....لا ستـــار
لا خرقة مخضوبة بالدم من قميـــص
كان على إخوتنا الأبـــــرار
لا حجر خطت به أسماؤهم... أشباحهم ما برحت تدور
تنبش في أنقاض كفر قاسم القبـــور([1])

كنى "محمود درويش" عن عدد الشهداء"بخمسين وتر"([2]) وعن قرية كفر قاسم "بالوردة الثاكلة " ([3]) وأطفال كفر قاسم"بزغاليل الخميلة" ([4])، وغيرها من الكنايات الموحية لما في نفسه من مشاعر الألم والتصميم على الاستمرار في طريق النضال والتحريض على المقاومة.

ويعلن "علا عيسى" ثورته وسخطه على وجهاء القرية الذين تنازلوا عن حق الشهداء مقابل ثمن بخس، جاعلا من تبدل ثيابهم كناية عن تبدل مواقفهم وانهزامهم، كما كنى عن هؤلاء الوجهاء باسم الحجاج مع فارق في المواقف

يا فاطمـــة
تشرين هلّ ونحن في فرح جليل
....
وتوحّدت أرواحـــــــكم يا فاطمة
حَجّاجنا خلع العمامة وارتـــــدى
ثوباً حريرياً بتوقيع هزيـــــــــل
ما كان نقص في الثريد ولا القديد([5]).

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة ، 48/1

[2] /محمود درويش، الديوان ، 203/1

[3]/ نفسه، 206/1

[4] / نفسه، 209/1

[5] /علا عيسى،معزوفة لفاطمة، ديوان الشهيد، 103

وكنى "هشام أبو صلاح" عن جرائم العدو بقوله:

كسروا محـــــراث أبـــي

ورموا عكازه جدي في الريح المجنونـــة

سرقوا زوادة أمي المدهونة بالزيت والبهم وبالنور

سرقوا من وطني ورد الأســـــرار

قضموا تفاحة قلبي الـــغضـــــة

سقطت منتفضـــــة

داسوا بالقدم المحقونة بالورم المنتـــــن

وانتشروا في الليل خفافيش خـــراب

ينتعلون جماجم أطفال القرية رقصاً مهووســـــاً([1])

ويمضي شعراء المجزرة بتوظيف الكناية لإضاءة النص بإيحاءات جديدة تعمق المعنى وتثير مدارك المتلقي، ليترجم ذلك إلى عمل ثوري رافض للموازين المقلوبة السائدة في بلادهم.

وقد يجمع الشاعر بين أكثر من لون من ألوان الفن الأدبي في الصور الجزئية، فنجد التشبيه متداخلاً مع الاستعارة مع الكناية، ونجد الكناية مع التجسيد والتشخيص.

التجسيد والتشخيص والتجريد

لجأ الشعراء إلى أساليب عدة للتعبير عن تجاربهم الشعرية، ورسم صورهم الفنية من ذلك لجوؤهم إلى التجسيد الذي يعني" تقديم المعنى في جسد شيء، أو نقل المعنى من نطاق المفاهيم إلى المادية الحسية"([2]) بمعنى أن المعنويات تأخذ صفات محسوسة مجسمة، وفي التشخيص " ترتفع الأشيـــــاء إلى مرتبة الإنسان مستعيرة صفاته ومشاعره "([3]) فمن خلال التشخيص تدب الحياة في المحسوسات والمعنويات، وتأخذ السمات الإنسانية سبيلها إلى عناصر البيئة المعنوية في مجال التعبير الدقيق عما يختلج في النفس.

وقد أكثر الشعراء من تجسيد المعنويات، حيث جعلوا النجيع([4])يصرخ في وحشه غابة([1]) والحقد يتطاير من عين الجند([2])، والهمجية سلاح قاتل له نصل([3])، والخزي مادة تلعق ([4]) واليأس له

---

[1] /هشام أبو صلاح، أوراق ، ديوان الشهيد ، 176

[2] /عبد النور جبور، المعجم الأدبي ، 59

[3] / نفسه، 59

[4] / النجيع : دم الجوف ، انظر المعجم الوسيط ، مادة نجع 943/2

عمق([5])،والغد يُسرق([6])، العدل يُذبح والسلام قتيل([7])، والعزم على تحرير البلاد وعودة الحق سياج([8])، ومن ذلك ما قاله" فوزي عبد الله" مخاطباً الحزن:.

من أنت؟ قل أيها الحزن الجليل	هنا ماض بدا وهناك الحاضر الهرم
من أنت؟ هل يسأل الأحياء عن ألــم	عاشوه جهراً فما هانوا وما كــتموا
كانت لنا قرية كالطفل وادعـــــــة	قد لفها الحب والأحلام والنغــــــم
واستوطن الصفو في افيائنا وهــــفا	إلى كروم رباها الخير والكــــــرم
حتى أثارها رصاص الغدر فانتفضت	والغدر في كل أرض قاهر قــــزم([9])

يجسد الشاعر حالة الحزن التي انتابته جرّاء الحوادث المؤلمة التي تعرضت لها بلاده، عن طريق المقابلة بين حالتين خضعت لهما كفر قاسم، حالة الصفاء والخير والعطاء والحب الذي يلف أهلها قبل أن يعيث الاحتلال فسادا فيها، وينقلب الضياء ظلاما دامسا، وحالة الحاضر المعاش المجسد بالكائن الحي الهرم المتعب الذي لا يوحي بالأمل.

ومن الملاحظ أن الشاعر أكثر من تشخيص المعنويات من ذلك ما أسبغه من صفات إنسانية على قرية كفر قاسم ،فهو يخاطبها على أنها إنسان عاقل يسمع ويجيب، والصفو يستوطن ويهفوا إلى أهل الكرم .

وقد راح الشعراء يسبغون الحياة والصفات الإنسانية على العديد من الأشياء والمعاني، فالرماد ينطق ويتكلم، وأهل القبور" الجثث الهامدة" يخاطبون ويطلب منهم الكلام([10]). والردى له ذراع يمدها ليقصف أرواح الشهداء([11])،وسيف أهل الحق صائم([12])، وزيتون فلسطين صان العهد وبقي رمزا للوفاء ببقائه متشبثا بالأرض ([13])، والليل الذي وقعت فيه المجزرة ملثما متحفزا يخفي الحراب والنصول ([14])، وشهر تشرين له أنامل ([1])، والفراغ لا يسمع ولا يرى.([2]). ومن ذلك قول "محمود درويش" :

---

[1] / سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، 101/1

[2]/ محمود الدسوقي ، ذكرى وعهد ، ديوان الشهيد ، 68

[3] / سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، 194/2

[4] /سميح القاسم ، ديوان الحماسة ،60/3

[5] / علا عيسى ، معزوفة لفاطمة ، ديوان الشهيد ،105

[6] / سامر خير ، كم غد سرقوا من يدي ، ديوان الشهيد، 118

[7] / أحمد يوسف ياسين ، المجزرة ، ديوان الشهيد ، 209

[8] / فوزي عبد الله ، الحزن الثائر ، ديوان الشهيد ، 82

[9] / نفسه، 81

[10] / سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، 413/2

[11] / توفيق زياد ، الديوان ، 316

[12] / نديم حسين، مارش لكفر قاسم، ديوان الشهيد، 99

[13] / حاتم جوعية، عرس الشهادة والفداء، ديوان الشهيد ، 197

[14] / أحمد يوسف ياسين، المجزرة، ديوان الشهيد ، 209

يا كفر قاسم من توابيت الضحايا سوف يعلو

علـــم يقول:قفوا ! قفـــوا !

واستـــوقفـــوا !

لا لا... تذلـــوا

دين العواصف أنت قد سددتـــه

وأنـــهار ظل

يا كفر قاسم ! لن ننام ... وفيك مقبرة وليل

ووصية الدم لا تســـاوم

ووصية الدم تستغيث بأن نقـــاوم

أن نقـــــاوم([3])

ويبرز التشخيص في الأسطر السابقة في كلمة (العَلم)- رمز تابوت الشهداء- الذي يوحي بالمقاومة وعدم المساومة، وقد خلع على هذا العلم العديد من السمات الإنسانية، فهو يقول ويأمر وينهى ويعلل ما يأمر به ، والدم يوصي ويستغيث، لرؤيته الواضحة بأن حقه لن يعود إلا بالمقاومة.

ومن الصور التشخيصية المكثفة ــ تشخيص الشاعر لمشاعره وآلامه حيث ألبسها العديد من الصفات الإنسانية يقول "عبد الناصر صالح" مخاطبا كفر قاسم:

يحرقني نبض الشوق إليـــك

ونبض الثـــورة

يحرقني نبض العشـــق

وحبات المطر الرافض تقرع نافذتي

تنهمر على جسدي المغترب

وتلثمنـــي

هذا المطر الرافض يلثمنـــي

يلثمنـــي

لا أذكر كيف بكـــيت

وعانقت المطر الرافـــض

لا أذكر كيف تسلقت حبال الـــحزن

وأعلنتك أيقونة هذا العـــصر

الآن انزلقت من أهداب الليل غصون الموت

الآن بكيـــت

---

[1] / شروق إبراهيم القيم، تشرين وحل الخطيئة، ديوان الشهيد ، 249

[2] / غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ، 164

[3] /محمود درويش، الديوان ، 216/1

وشربت مــرارة حزني
نادمني الحزن/السجن /الموت /الـــــميلاد ([1])

فالشوق والثورة والعشق لهم نبض، وحبات المطر رافضة (الثورة على الأعداء لاسترداد الحقوق) وهي تلثم الشاعر، والليل له أهداب ويتفاعل الشاعر مع واجب الدفاع عن الوطن مجسدا استجابته لهذا الواجب كلمة (عانقت)، مما جعله عرضة للملاحقة والاضطهاد بشتى أنواعه، وقد شخّص وسائل ونتائج ما تمارسه قوّات الاحتلال ضد الشعب الفلسطيني بأن جعلها نديم له وملازمة، وهنا تظهر المفارقة التي تشف عما في نفس الشاعر من سخرية مرة وألم قاتل حين أستخدم كلمة(نديم) ــ التي تحمل معنى الانسجام والراحة النفسية لدى المتنادمين ــ ليصف بها الحزن والموت والسجن...، وكأن الفلسطينيين أصبحت لديهم ألفة مع هذه المآسي، ولكنها ألفة في الصبر عليها مع استمرار المقاومة، لذلك ختم المقطع بكلمة (الميلاد) الموحية بالتجدد والاستمرار.

ويلجأ الشاعر أحيانا إلى **التجريد** من ذلك قول "وداد البرغوثي" عن كفر قاسم:

ولكن كلما نعدو ونبتعـــــــد
نرى خلف السنين ظلالها تأتي
تخيم فوقنا للعمق ترتـــــــد
أسائلكم أطالبكم.....دمـــي ديني
وتصرخ صرخــــــــة دوّت
بعمق في ضمـــــــــــائرنا ([2])

فقد جرّد كفر قاسم وجعلها ظلالا وخيالا يطارد الأحياء ويصرخ في ضمائرهم يطالبهم بضرورة الثأر للدماء المراقة، جاعلا هذا الثأر واجبا دينيا قبل أن يكون أخلاقيا.

وتستمر الشاعرة في استخدم التجريد للتعبير عن أفكارها ومشاعرها حين جعلت الشهداء يتحولون إلى أصوات تروي قصة المجزرة، يظهرون في الحلم واليقظة، يطالبون من بعدهم بعدم الركوع والتنازل عن الحقوق، بل وتصف من نسي ذكرى الشهداء بالكفر بحق الشهداء ودورهم (وليس الكفر العقائدي) تقول :

كأني أشهد الشهداء قد عادوا من المهجع
كأني أسمع الأصــوات
هدوءا .. صوتهم أسمــع

---

[1] / عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد، 129- 130

[2] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 206

فهذا صوت أولهــم :
أنا طلقاتهم خرقت فؤادي قبل أن أصرع
وهذا صوت ثانيهــم:
أنا امرأة أفكر في صغير جـــاع
طوال اليوم لم يرضـــع
....
فماذا سوف يمحو كفر قاسم من ذواكـــرنا
فـــإن الكفر أن ننسى وأن نخضـــع ([1])

تراسل الحواس

تراسل الحواس أو تبادل معطياتها يقوم على وصف مدرك حاسة بما يوصف به مدرك حاسة أخرى، حيث يوصف المرئي بصفات المسموع، والمشموم بصفات الملموس... فتختلط الصورة، مشكلة نوعاً من التحدي والاستفزاز لذهن المتلقي([2]) وقد يجري التبادل بين معطيات الحواس لتكون الصورة أكثر عمقاً وأبعد أثراً. ويمكن تسويغ هذه الظاهرة البلاغية لأن "حواس السمع والرؤية والتذوق... لها مصدر وجداني واحد هو عالم النفس الباطني "([3]).

لم يركز الشعراء في شعر المجزرة على التصوير بتراسل الحواس، وربما يعود إلى ميلهم إلى السهولة والوضوح والواقعية، واستخدامهم رموزاً قريبة من الأذهان، مختزله لتداعيات وأفكار يمكن استحضارها لدي المتلقي.

وقد وظّف الشعراء تراسل الحواس لإبراز الفجيعة التي ألمت بكفر قاسم. يقول "سميح القاسم" في قصيدة (ليد ظلت تقاوم).

وزهيرات من البرقوق في صدر امرأة
وعيون مطفـــأة
وعـــويل غارق في رهبة المأساة عائم
وأنا ريشة نســـر
في مـــهب الحزن والغيـــــــــــظ

---

[1] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 206

[2] / انظر كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 213

[3] / علي عبد الخالق دومة، في الأدب ومذاهبه المعاصرة، 183

إلـــه لا يساوم([1])

حيث يرسم صورة حزن أهل كفر قاسم لما حل بهم من قتل، فالعويل المدرك بالسمع يدرك بالنظر، حين جعله يغرق ويعوم. وقد جسد المأساة بجعلها سائلاً يغرق فيه العويل.

وفي قصيدة (من ذكريات مذبحة كفر قاسم) يقول "مجاهد ريان" :

الليل ظلام جـــــــــارح مرّ

عزف على أوتار سيف وزناد([2])

فالليل الذي يدرك بحاسة البصر جعله يدرك باللمس والذوق وهو بذلك يريد تصوير الاحتلال وأثره المدمّر على حياة الفلسطينيين بكافة نواحيها. ومن الصور المعتمدة على تراسل الحواس قول "سهى قسيس":

من بحر حيفـــــا

وموجة المتلاحـــم

من قمم الكرمـــل

من أشجـــــــاره

ومن شذاه الناعـــم

نرســـــــــــل

ألف قبلة وقبلـــــة

إلـــــــــــيك

يا عروسة الملاحم ([3])

فما يُدرك بالشم يدرك باللمس، هادفة إلى توحيد مشاعر الفلسطينيين وأحاسيسهم تجاه كفر قاسم.

ثانيا – الصورة الكلية

أصبحت الصورة الكلية محط اهتمام الشعراء في العصر الحديث، بحيث يمكن أن يقال أنها من نتاج هذا العصر، وارتدت أثواباً عدة وأساليب مختلفة منها:

الصورة المركبة

---

[1] /سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 1/101-102

[2] / مجاهد ريان، من ذكريات مذبحة كفر قاسم، ديوان الشهيد، 279

[3] /سهى قسيس، عروسة الملاحم ، ديوان الشهيد ،221

يحاول الشاعر تصوير فكرة أو موقف معين، ويجد أن الصورة الجزئية تقصر عن جلاء ذلك، فيلجأ إلى الصورة المركبة التي" هي مجموعة من الصور الجزئية المترابطة"([1]). بحيث تكون الصور الجزئية عبارة عن مكونات للصورة المركبة، " فليست الصورة المركبة في نهاية الأمر سوى مجموعة من الصور البسيطة المؤتلفة والتي تستهدف تقديم عاطفة أو فكرة أو موقف على قدر من التعقيد أكبر من أن تستوعبه صورة بسيطة، فيلجأ الشاعر آنئذ إلى خلق صورة مركبة لتلك الفكرة أو العاطفة أو الموقف"([2]) من تآزر مجموعة الصور الجزئية أو البسيطة.

وقد برزت الصورة المركبة في شعر المجزرة كون أنه يتناول حدثاً مؤلماً ترك أثراً بالغاً على الحياة الفلسطينية بكل أبعادها، فهذا "محمود درويش" يمزج بين الصور الجزئية، بشكل مترابط متناغم ليعبر عن الواقع المرير الذي يعيشه الفلسطينيون تحت الاحتلال مما يقود إلى نتيجة حتمية تنسجم مع هذا الواقع وهي التمرد ومقاومة الأعداء، يقول:

وجدوا في صدره قنديل ورد ... وقمر
وهو ملقى ميتاً، فوق حـــجر
وجدوا في جيبه بعض قـــروش
وجدوا علبة كبريت، وتصريح سفـــر
على ساعده الغض نقـــوش
قبلته أمـــه
وبكت عاماً عليـــه
بعد عام، نبت العوسج في عينيه
واشتد الظـــلام
عندما شب أخـــوه
ومضى يبحث عن شغل بأسواق المـــدينة
حبســـوه
لم يكن يحمل تصريح سفـــر
إنه يحمل في الشارع صندوق عنفوانه
وصـــناديق أخـــــر([3])

فالشاعر هنا يستعين بمجموعة من الصور الجزئية المترابطة، تتكامل لتمنح المتلقي صورة مركبة واحدة، الصورة الأولى عن الشهيد اليافع الذي وجدوه ملقى فوق الحجارة، تتآزر معها صورة ثانية للام الثكلى الحزينة لتأتي صورة الأخ الثائر التي تعبر عن الأمل في استرداد الحقوق على يد الأجيال الشابة الرافضة للخنوع والمهانة.

---

[1] / كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 218

[2] / صالح أبو إصبع، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، 60

[3] / محمود درويش، الديوان، 1/213-234

ومن الصور المركبة صورة أحد شهداء كفر قاسم حيث تتآلف الصور الجزئية وتتمازج لتشكل لوحة فنية واقعية، كما يبدو في قصيدة "غادة الشافعي":

يثقب الرصاص رأســـــــــك
والمرآة لم تعد تـــــــــــــراك
حين ارتمت يـــــــــــــداك
بقيت العينان مفتوحتان بلا نهاية
تحدقان هكذا فـــــي فراغ شأنك ([1])

وقد شكلّ الشاعر الصورة الكلية التي تعبر عن الوضع الجسدي والنفسي للشهيد، من تآلف الصور الجزئية وتسلسلها، فصورة الرصاصة التي تخرق الرأس توحي بأن الشخص لا محالة هالك ولن يعود إلى بيته وأهله. وهذه النتيجة الحتمية تنعكس على أعضاء الجسم من استرخاء للأطراف إلى بقاء العينيين مفتوحتين مذهولتين تتساءلان عما يحدث. وتتكامل هذه الصور الجزئية لتعبر عن عظم الجريمة التي تعرض لها الشهداء.

ومن الصور المركبة قول "هشام أبو صلاح"، مصوراً صباح يوم المجزرة في كفر قاسم:

القرية والشمس على ميعـــاد
خرج المشغولون بعشق الأرض كعادتهـــم
اسمع موالاً يرسم ذاك الفجر بأغنية من آهٍ حلـــــواً
القرية والشمس على ميعـــاد
وندى الطيّون ترقرق في الأغصــــان
والحجل البري تكحل بالسمرة والحمرة والألحان
وغيوم من تشرين تشكل لوحات رائعة في الأفق الفتان
فـــي ذاك اليوم
أجمل ما في الدنيا كـــان
ذات صباح مبتل بصبايا الحنطة
بغناء الفلاحات السمـــراوات ازدان
لكن الطـــوفان
اجتاح مواويل الشجر المثقل بالعطـــر
غربت شمس القرية وانتشرت أسراب الغربان

فالشاعر يستعين بمجموعة من الصور الجزئية البسيطة، تتكامل مع بعضها في رسم صورة مركبة لصباح يوم بدا فيه كل شيء جميل، من خيوط الشمس المشرقة ــ خروج الفلاحين بنشاط وحيوية –

---

[1] /غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 161

الأغاني في الحقول –عبق الأزهار– طيور الحجل رائعة الجمال – تشكيل لوحات فنية من الغيوم في السماء.... فهذه صور جزئية أراد الشاعر من خلال تآزرها وتجميعها أن يرسم صورة مركبة لحال القرية قبل أن يعيث فيها العدو فساداً. وقد ركز على كل الصور الجزئية ليظهر قسوة الاحتلال، وإفساده لحياة الفلسطينيين، لذلك ختم الفقرة بصور جزئية تناقض الصور الأولى. وتبين قتامه الوضع. فهذا التناسق والتوافق بين الصور الجزئية منح المتلقي صورة كليه مركبة مترابطة لا تفكك فيها، فيها توازن نفسي ومعنوي.

وإذا كانت الصورة المركبة تستوعب عاطفة الشاعر اتجاه فكرة معينة فإن الموقف العام أو الفكرة العامة في القصيدة بحاجة إلى نوع أخر من الصور أكثر إحاطة وشمولاً.

التعددية المتسلسلة

وهى الصور التي تتآزر في تكوينها مجموعة كبيرة من الصور الجزئية والبسيطة، أو عدد من الصور المركبة لتكوين صورة شاملة لموقف عام أو فكرة عامة، تدور حولها القصيدة.([1])

وتتسلسل الصور التعددية المتسلسلة من المقدمة إلى العرض، ومن ثم إلى النتيجة العامة التي تكونت من خلال التجربة التي عاناها الشاعر، وفي الغالب تتكون الصورة التعددية المتسلسلة من مقطعين أو عدة مقاطع، وكل مقطع منها يكوّن صورة مركبة، من ذلك قصيدة "توفيق زياد" (كفر قاسم).([2]) التي تتكون من أربعة مقاطع، يصور فيها مجريات المجزرة، حيث بدأ في المقطع الأول بمقدمة عامة، رسم من خلالها صورة مركبة عن هول الجريمة، ومكان وقوعها، وصراخ الضحايا المسالمين العائدين من أعمالهم، وما توّلد عن هذه الجريمة من مشاعر الحزن والنقمة على الأعداء.

أما المقطع الثاني فقد صور الحوادث الواقعية التي حصلت يوم المجزرة من خلال مجموعة أخرى من الصور الجزئية، صورة مكان وزمان المجزرة، استعداد الجنود لسحق (العدو) الضحايا، العائدين إلى بيوتهم بعد يوم شاق في العمل، المثقلين بالهموم على ما حلّ في بلادهم من خراب وقتل وتهجير...... وتفكير في أبنائهم المهجرين اللاجئين، ويبزغ لديهم أمل في تغيير الواقع المر، وهو إذ يبني هذه الصورة المسالمة للضحايا، يجّسد فظاعة ما حدث عندما قطع الرصاص على الضحايا حياتهم وأفكارهم.

---

[1] / انظر سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 391

[2] /توفيق زياد، الديوان، 305

ويأتي المقطع الثالث متمماً للمقطع الثاني، حيث يصور حلبه المجزرة بعد اغتصاب حياة الضحايا، من خلال عدة صور جزئية بسيطة. صورة الصمت المخيم على حلبة المجزرة – تقطعه قهقة الجنود – استهتار الجنود بأرواح الضحايا – النشوة التي حلت بالجنود – صورة دماء الشهداء المتجمعة– سرقة ممتلكات الضحايا– قتل المرأة الحبلى والإجهاز على الجنين....، وكل هذه صور واقعية تفصيلية مستقاة من مجريات المجزرة كما رواها الناجون من الضحايا.

ويخلص الشاعر في المقطع الرابع إلى النتيجة العامة المتمثلة في ضرورة إعادة الحق إلى أصحابة الشرعيين، من خلال مجموعة أخرى من الصور الجزئية، يغلب عليها الجانب التقريري: الاتحاد– التمسك بالحق الشرعي – قدرة العرب على استرداد حقهم عند الإخلاص في العمل لذلك – ليختم القصيدة بقوله:

سنمضي بعزم شديـــد

لنرجع حــقاً

أبـــي / أن يبيد

سنرجعه/ سنرجعه رغم أنف اللظى والحديد([1])

ومن الصور التعددية المتسلسلة قصيدة (جمرة تحت رماد الذاكرة) للشاعر "أحمد أبو مرشود" يصور فيها الموقف العام للمؤامرة التي حيكت ضد الفلسطينيين عامة، وأهل كفر قاسم خاصة. متخذاً من المجزرة نموذجاً لخطط العدو. يبدأ المقطع الأول بقوله :.

وتكتمل فـــــــصول المؤامرة ...

يجثم " شيلوك" على صدر الأرض

ويعد العدة لحفلة قتل عبثية...

.... ([2])

يرسم الشاعر صورة مركبة عن استعداد قادة العدو الصهيوني للمجزرة من خلال صور جزئية بسيطة: اكتمال خيوط المؤامرة– قلب الحقائق التاريخية وتطويعها لأغراضهم العدوانية– تحضير الأسلحة لقتل الضحايا– الاعتماد على زيف الأكاذيب في تحقيق أهدافهم .... ثم يأتي بالمقطع الثاني الذي يصور فيه الهدف من المجزرة:

كـــــــــــــل الأشياء مستهدفه

فالأرض ليقيم عليها المعبد والوثن

والأشجار خطـــــــــــــــراً

قد تصبح يوماً شاهداً ووصيـــــاً

والرجال قد يملأون الأرض

---

[1] / توفيق زياد، الديوان ، 325

[2] / أحمد أبو مرشود، ديوان الشهيد، 275–276 . وانظر ص 202 من البحث

ثورة ورفضا ودويـــــــــا
والنساء قد تجدد في بطونهـــا
دورة الحياة والزمـــــــن
والأطفال سيكــــــــبرون
وينبشون في رماد الأسئلـــة
ليزيلوا قشور الزيف والعفــن
والطيور قد تعيد بناء أعشاشها
وتعلن بصمتها الكئيــــــب
موسم الخراب والحــــزن([1])

هذه الصورة التي اتخذوها مبرراً لمحاولة تغيير طبوغرافية الأرض العربية، رسمها الشاعر من خلال إعطاء كل عنصر من عناصر الطبيعة، وكل فرد من أفراد الشعب الفلسطيني دوراً في ترسيخ الهوية الفلسطينية، لذلك أحكم العدو خطته واستعد لوليمة الدم والقتل، يقول:

واكتملت فصول الجريمـــة
فشحذ القاتل سيفـــــــه
وتحفز منتظراً عودة الضحية([2])

وجاء هذا المقطع كنتيجة طبيعية بعد ما قدمه من استعداد فطري لدى الجزارين لعملية القتل ناشئ من التربية الشيفونية، واعتمادهم على الأكاذيب والتاريخ المزيف الذي برر لهم القضاء على كل ما من شأنه إثبات عروبة الأرض أو المطالبة بها.

التفصيلية

" وهي التي تلم بالحدث من جميع جوانبه "([3])، بحيث يقدم الشاعر تقريراً مفصلاً عن الموضوع الذي يتناوله. وقد برز هذا النوع من الصور في شعر المجزرة فأخذ الشعراء يعبرون عن الحدث، متخذين من أدق التفاصيل مادة لقصائدهم الشعرية.

---

[1] / أحمد أبو مرشود، ديوان الشهيد ، 276–277

[2] / نفسه، 277

[3] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 399

من ذلك قصيدة (كفر قاسم جل الشهيد) للشاعر "محمود مرعى"، التي من خلالها يستطيع المتلقي أن يعيش في جو المجزرة ويلم إلماماً واسعاً بمجرياتها. فهو يذكر زمان وقوع المجزرة ومكانها ومقدماتها.

واحة الخير كفر قاسم كـــــانت   كلّ حب مع العطاء تجـــــــود

....

فلقد ذاقت المآسي قريـــــــــباً   يوم أن جاس في الوريد المريــد

صبرت مثل غيرها لبـــــــلاء   هكذا المؤمنون .. ماذا نــزيـــــد

سائل الشعر بعد هذا عن التـــ   ـــاسع والعشرين الذي نستعيـــــد

شهر تشرين الأول المرّ مـــــن   ست وخمسين فهو يــوم فريـــــد

يومها طير كفر قاسم كانـــــت   رهن أرزاقها وكان الجحـــــــود

قد أقروا منع التجول لـــــــيلاً   دون علم الطيور بئس العبيـــــــد

حين قاموا على المداخل ســداً   ولصوص الموت البئيس تســــود

أغلقوا الدرب، كفر قاسم ويـــلي   خبري، أين الكهل أين الولـــــيد؟

والنسا والرجال، قولي أعادوا؟   فغرابين الموت حطت تصيــــــــد

كل من لم يعد وقد حان وقــت   تفصح الرشاشات عما تريـــــــد

....

ويل " شـــدمي" وويل من أمروه   ويل " ميلنـــكي" كيف لم يستعيدوا

كيف قالـــوا " الله يرحمهم" كيف   ولم يذكروا قريـــــــــــباً أبيدوا([1])

فقد حصلت المجزرة يوم التاسع والعشرين من تشرين الأول عام 1956م على المدخل الغربي لقرية كفر قاسم. بعد الإعلان عن منع التجول بوقت قصير، دون علم الفلاحين والعمال خارج القرية، وقام القتلة باغتيال كل من عاد بعد الساعة الخامسة مساءً من رجال ونساء وأطفال .....

كما أشار إلى العبارة التي أصبحت رمزاً للمجزرة، التي أطلقها" شدمي" عندما سأله أحد قادته عن مصير العائدين من الحقول فقال " الله يرحمهم".

ويكمل الشاعر تفصيله لمجريات المجزرة مركزاً على الأوامر التي أطلقها القتلة، والحالة التي كانت عليها الضحايا ساعة وقوع المجزر.

ساعة الصفر صفّرت واستقـــرت   والغروب الغريب فيها وئيـــــد

وبدا الغائبون رحلة عـــــــــود   وبدا إعصار الفناء يــــميـــــد

قف:، صاح الغرب نعقاً على شـــ   ـــاحنة بالغفاة ملاى تنـــــــود

---

[1] / محمود مرعي ، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 121-122

بلغ الجهد مبلغاً فاق وصـــفــــاً فإذا هم على الحديد رقـــــود

احصدوهم خروا بطرفة عيـــن جثث فوق بعضها والبليــــــد([1])

وعن صفات القتلة يقول:

يطلق الضحك، والرصاص يعلو وجهه الأربد الغليظ الجليـــد

وأتم الرصاص قولاً وفـــــعلاً وتردى فوق الشـــهيد الشهيــد([2])

ويصف الحالة النفسية للأطفال الناجين من المجزرة.

وصغير طريد رعب تولـــــــى إذ نجا صارخاً ويبكي الطريـــد

قد رآهم يساقطون تـــــــباعاً جثة فوق جثة لا تميــــــــد

لم تشاهد عيناه يوماً ضحايـــــا تتهاوى كما تهاوى السجـــــود

ينحني عن سقف الرصاص ويعدو ليس يدري الجهات يهدي الجنود

وعلا صوت طفله في جـــــوار هاتفاً، يا أبي، أبــــــي لا ردود

زهرة غضة رأتهم عيانـــــــــاً فمضى عقلها وهامـــت تريــد ([3])

ويبين عدد شهداء المجزرة وكيف أنهم سقطوا على دفعات حسب وصولهم إلى مكان المجزرة.

قف، وقف، والفناء يطوي ويطوي ونعيق الغــربان يطغي يزيد

تسعة بعد الأربعين وبـــــــــلّغ يا قصيد الأشهاد جلّ الشهيد([4])

ويستمر في تفصيل أحداث المجزرة كاشفاً النقاب عن آخر فصل من فصولها، المتمثل فيما يسمى بمحاكمة المتهمين، فساحة القضاء أضحت مسرحاً للظلم والاستهانة بالأرواح البريئة، يقول:

سائل الشعر بعد هذى الضحايا ما جرى فالقضاة فصل جديـــــد

زعموا أن العدل أسياف حـــق كيف هذا والمجرمون الغمــــود

أمن العدل يا قضاة زمــــــان ضوعفت باسم العدل فيه اللحــود

أمن العدل أن يُغرّم قرشــــاً بدم الأبرياء " شدمي" الكنـــــود([5])

ويواصل الحديث عن صفات القتلة والمجازر التي ارتكبوها، ولا ينسى الإشادة بالفلسطينيين والافتخار بهم على صمودهم وإفشالهم لمطامع العدو

وبهذا كانت القصيدة تقريراً مفصلاً لجميع جوانب الحدث، وملامح الضحايا وصفاتهم، مقابل صفات القتلة اللاإنسانية.

---

[1] / محمود مرعي ، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد، 122

[2] / نفسه

[3] / نفسه، 123

[4] / نفسه،123

[5] / محمود مرعي ، كفر قاسم جلّ الشهيد، ديوان الشهيد ، 123-124

النفسية المتحركة

يتناول هذا النوع من الصور، الدفقات النفسية الشعورية، حيث يعتمد الشاعر على" طاقات التفجير النفسي التي تحملها الشحنات الانفعالية من خلال حركة الصورة وحيويتها"([1]) وعندما كانت الأشعار تصور حادثة مأساوية. فإننا نجد الصور النفسية متخللة في ثنايا معظم الصور الشعرية الفردية والمركبة. من ذلك قصيدة "غادة الشافعي" التي تصور الحزن الشديد على فقد الشهداء ، تقول:

حيث لا نايات تُعزف ولا كلام يفتح الأبواب
يفلت نداء الأم صاعداً سلالم الغيـــــــاب
يا حبيبي الذي في كل مرآة ملامحـــــــــه
في الوسادة ريش أحلامـــــــــــــــه
أين صدرك الذي أودعت فيـــه حشائش قلبي
أين عيناك اللتان في لمعانها تحوم نجوم ليالي
على بـــــــــــــــــابي ليل لا يفوت
ولا يقدر على احتوائه الوقـــــــــــــت
والمناديل التي سالت فيها أهدابـــــــــــي
معلقة كعويل في الشرفـــــــــــــــات
كلما جاء المساء تناثرت في الاتجاهـــــات ([2])

فالشاعرة قد رسمت صورتها مستعينة بالانفعال النفسي المصاحب لوجع الأم المنتظرة عودة ابنها في آخر النهار فيأتيها خبر اغتياله فتأخذ في الندب والعويل. وزاد من قوة تأثير هذه الصورة تلك اللغة العاطفية الانفعالية التي استخدمتها الشاعرة.

وتستمر الشاعرة في رسم الصور النفسية. فبعد نداء الأم يأتي نداء الحبيبة التي فجعها خبر فقد زوجها، فأخذت تناديه متذكّرة الأيام الخوالي حيث كانا يستظلان بظل السعادة والهناء. ويستعذبان الحياة في أحضان الطبيعة الخلابة:

يا حبيب الأيائل الشاردة في براري الـــــروح
طلبتك الحساسين عند هبوب الصبـــاح ([3])

وكأن الشاعرة من خلال هذه الصورة تنقل الانفعال الداخلي والتفجير النفسي الذي يتدفق في نفس كل زوجة فقدت زوجها.

---

[1]/ سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر،386

[2] /غادة الشافعي، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 156-157

[3] / غادة الشافعي،طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ، 157-158 . وانظر ص 171-170 من هذا البحث

ويعتمد مدى نجاح الشاعر في رسم الصورة النفسية، على مدى قدرته في توليد الانفعال والتأثير لدى المتلقي. ولعل الصورة السابقة تجعل المتلقي يعيش لحظات الصراع النفسي والحزن الذي عاشته الأم الفلسطينية التي ثكلت ابنها والزوجة التي فقدت زوجها.

المكثفة

ذكر "عز الدين اسماعيل" في دراسته للصورة الشعرية: " مـــن الحقائـــق الأساسية الخاصة بالصورة في الشعر الجديد ظاهرة التكثيف الزماني والمكاني في انتخاب مفردات الصورة وتشكيلها. ففي الصورة الشعرية تتجمع عناصر متباعدة في المكان وفي الزمان غاية التباعد، لكنها سرعان ما تأتلف في إطار شعوري واحد"([1]) ويقول في مكان آخر:" قد يلجأ الشاعر إلى عملية التكثيف الزماني والمكاني في تشكيل الصورة، وقد يستغل رواسب الصور الشعبية التي تنقلها القصص بعد أن يضيف إليها من عنده بعض الألوان، وقد يستمد الصورة كما هي من تراث الإنسانية الزاخر والمستقر في الضمائر، وفي أي من هذه الحالات يعبر الشاعر عن نهج جديد في تشكيل الصورة الشعرية، ووعى سليم بدورها الفني"([2])

ومن هنا نرى الصورة المكثفة: هي التي يقوم الشاعر من خلالها بتكثيف المعاني والربط بين أبعاد زمانية ومكانية متباينة، من خلال توظيف التراث الإنساني والموروث الشعبي، بعد إضفاء لمسات فنية عليها. مما يجعل الصورة أكثر قوة وترابطاً. ومن ذلك قول "محمود درويش":

لمغنيك، على الزيتون خمسون وتـــــر
ومغنيك أسيراً كان للريح، وعبداً للمطر
....
آه يا خمسين لحنـــــــــــــــــاً دموياً
كيف صارت بركة الدم نجوماً وشـــجر؟
الذي مات هو القاتل يا قيثـــــــــاري
ومغنيك انتصـــــــــــــــــــــر([3])

حيث نجد الشاعر يكثف بعدي النجوم في السماء والشجر في الأرض، وهما بعدان مكانيان متباعدان، ألفّ الشاعر بينهما ليرسم لنا مكانة دم الشهداء الذي أصبح منارة لمن بعدهم وشجراً يثمر

---

[1] / عز الدين إسماعيل،الشعر العربي المعاصر، 161

[2] / نفسه، 165

[3] /محمود درويش، الديوان، 203/1

صموداً وثباتاً. وهذه المقطوعة بالإضافة إلى احتوائها على صورة مكثفة تأخذنا بصورها الجزئية التي تتآلف لتشكل صورة مركبة من تلك الآلة الموسيقية التي تشتمل على خمسين وتراً، كل واحد منها يعزف نغماً خاصاً، فما يعزفه الطفل الصغير لا يماثل ما يعزفه الشيخ الجليل أو المرأة الحامل أو الشاب اليافع. ولكنها تتناغم جميعها لتؤلف لحناً دموياً. وموتاً فاجعاً فبدل أن تشجي الآذان وتشيع البهجة والفرحة في المكان، يعم الحزن والترح ويُسمع العويل وحشرجة الأرواح. فتنطلق كلمه " آه" التي تجرح الصدر للألم الذي زرعته هذه المجزرة في قلوب الفلسطينيين، وقلة الحيلة في نجده الشهداء. ويقول في مكان أخر من القصيدة نفسها:

كان الخريف يمر في لحمي جنازة برتقـــــــال
قمراً نحاسياً تفتته الحجارة والرمـــــــــــــال
وتساقط الأطفال في قلبي على مهج الرجـــــال
كل الوجوم نصيب عيني ... كل شيء لا يقال
ومن الدم المسفوك أذرعه تناديني تعـــــــــال
فلترفعي جيداً إلى شمس تحنّت بالدمـــــــــاء
لا تدفني موتاك!... خليهم كأعمدة الضـــــياء
خليّ دمي المسفوك ... لافته الطغاة إلى السماء
خليه نداً للجبال الخضر في صـــــــدر الفضاء([1])

فقد قام الشاعر بتكثيف عدة أبعاد زمانية ومكانية متباعدة، ليرسم الصورة التي يريد تشكيلها ففصل الخريف الذي وقعت فيه المجزرة وهو بعد زماني تمثله جنازة برتقال تلك الصورة المجازية، والقمر الذي مكانه السماء يفتت بالحجارة والرمال الذي مكانها الأرض، وكذلك الشمس والضياء الذي مكانهما الفضاء والسماء، يؤلف الشاعر بينهما وبين الدماء والأعمدة واللافتة التي مكانها الأرض......، كل تلك الأبعاد الزمانية والمكانية المختلفة المتباعدة، كثفها الشاعر داخل النص الشعري ليرسم من خلالها صورة مركزة عن الألم الذي عاشه الشاعر وعاشه الفلسطينيون معه نتيجة المجزرة الرهيبة التي جرت في كفر قاسم.

ونرى في الصورة المكثفة التركيز على عناصر البيئة التي تخلّت عن حيادها في أشعار كفر قاسم وتفاعلت مع الحدث.

---

[1]/ محمود درويش، الديوان ، 208/1

تعاطف الطبيعة

تعاطفت الطبيعة مع الإنسان الفلسطيني، وشاركته حزنه وأساه وغضبه، لم تعد وديعة كما كانت، لم تعد سعيدة راضية، بل تسرب إليها ما أصاب الإنسان من الم، وصبغتها جراح الشهداء بلون الدم، يقول "محمود درويش"::

غابة الزيتون كانت مرة خضراء
كانت... والسمـــــــــــــاء
غابة زرقاء .. كانت يا حبيبـــي
ما الذي غيّرها هذا المســـــاء؟
... ...
غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبـــــــــــــي
إن خمسين ضحيـــــــــــة
جعلتها في الغـــــــــــروب
بركة حمراء.... خمسين ضحية([1])

الصورة الكلية مكونة من جزأين، الأول يحدد وصف الطبيعة بالزمن الماضي عبر التكرار لفعل الكينونة (كانت) فالأرض غابة خضراء، والسماء غابة زرقاء، ويمتد هذا الوصف من الزمن الماضي إلى الحاضر، فتغيب هذه الألوان ويكون هناك لون مؤجل تكشف عنه الصورة الثانية التي تعلل سبب هذا التحول، وتطل الطبيعة بلونها الأحمر الذي يختصر نتيجة المجزرة وتظهر في مشهد وحشي بعد ما تحول العمال إلى خمسين ضحية.

وتشارك الطبيعة الإنسان أساه، وهي بذلك تساهم في تجسيد الحدث وخلق الجو النفسي للقصيدة، يقول "محمود الدسوقي":

رُوي الثرى ... واحّمرت الغبراء من دم الشهيد
وناحــت الأشجار
وارتعدت شعــاب الأرض ([2])

وعناصر الطبيعة تغبط الشهيد على مكانته، كما في قول " غادة الشافعي"::

الشهداء ما بين دم وسماء تهب نسائمهـــم
طيور لا تحصى تتبعهـــم

---

[1] / محمود درويش، الديوان ، 1/210 - 212

[2] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين ، ديوان الشهيد ، 72

عسى أن يمسها شعاع هارب من مرايـــاهم
وأشجار لا حصر لها تصحو قبل اندلاع الفجر لتقطف من فاكهتهم
فيما الأنهار تجري على طول المدى لتروي ظمأها مـــــن ينابيع
لا تنقطع في شرايينهـــم([1])

فالطيور تتبع أرواح الشهداء لتتبرك بها، وتقتبس شيئا من جمالهم وبهائهم، وأي جمال ذاك الذي يهرب منه شعاع منعكس من المرآة فتتصارع الطيور والكائنات الحية على امتلاكه. والأشجار والأنهار تستمد عطاءها من دماء الشهداء. فلم تعد الطبيعة جامدة مسالمة، بل أخذت تشارك الإنسان مشاعره وإحساسه، وآماله وآلامه، وجنّدها الشعراء في إقامة الفكرة وخدمتها، لزيادة التأثير في المتلقي وتحفيز ذهنه للغوص فيما وراء الألفاظ، وإنقاذا للشاعر من الوقوع في المباشرة والسطحية.

لعبت الصورة الشعرية في شعر المجزرة دورا بارزا في إضاءة المعاني وإغناء النص بفيض من التخيلات والتشبيهات والاستعارات والكنايات....، تعطي العقل مجالا واسعا للربط والغوص في أعماق المجزرة ومدلولاتها، وهي وإن تناولها الشعراء قديماً إلا أنها أتت بثوب جديد يستطيع نقل رسالة موحية بعيدةً عن التقريرية والمباشرة. وجاءت الصورة الشعرية على أنماط متعددة ، فقد اشتملت بالإضافة إلى الصور البلاغية القديمة على الصور الجزئية التي تعتمد على تراسل الحواس والتجسيد والتشخيص، الذي كان له دور في نقل الصور بكل أبعادها وإبراز موهبة الشاعر الشعرية.

كما كان لتجميع الصور الجزئية والبسيطة وارتباطها بما قبلها وما بعدها، ما يضفي على القصيدة أو المقطوعة نوعاً من الانسجام والتلاحم، ويكوّن صورة أكثر شمولاً إحاطة، وذات مواقف عامة وشاملة، من خلال الصورة الكلية التي تأخذ ألواناً عدة من المركبة والتعددية المتسلسلة والتفصيلية والنفسية والمتحركة والمكثفة، وغيرها من الصور التي تعتمد على عدد كبير من الصور الجزئية أو البسيطة في رسم ملامحها.

ولعبت الطبيعة دوراً فاعلاً في شعر المجزرة. فلم تعد محايدة جامدة، بل تفاعلت مع الحدث وتسلل إليها الحزن والألم الذي أصاب كفر قاسم عشيه المجزرة الرهيبة.

---

[1] / غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد ،150

4- الموسيقى والأوزان

تحتل الموسيقى جانباً هاماً من جوانب الشعر العربي قديماً وحديثاً، وتمثل سمة جمالية لها أثر عميق في وجدان الناس، ودوراً عظيماً في إثارة أحاسيسهم، ونقلهم إلى أجواء نفسية جديدة، وقدرة فائقة على مخاطبة أرواحهم وعقولهم ([1])، من خلال الأنغام والألحان التي تنساب لتخاطب أحساس المتلقي، وتوقظ فيه المتعة الفنية حين يتجاوب النغم مع الفكرة المطروحة.

وقد نالت الموسيقى الشعرية اهتمام القدماء، لما يمتلكونه من أذن موسيقية، تستعذب النغم المنبعث من المقطوعات الشعرية وتمايز بينها، وتنوعت أبحاثهم وآراؤهم في مصادر الموسيقى الشعرية ومقوماتها " وتوزع اهتمامهم على الموسيقى الخارجية { الوزن والقافية}، والموسيقى الداخلية، فكما اهتم علماء العروض والقافية بالموسيقى الخارجية، اهتم علم البديع وبعض علوم اللغة بالموسيقى الداخلية، والبحث في مقوماتها وأسباب جمالها"([2]) وجعلوا الموسيقى الخارجية الفارق الرئيس بين الشعر والنثر، وبهذا يكون الوزن والقافية عنصرين هامين من العناصر المكونة لموسيقى الشعر العربي، فقد قالوا في تعريف الشعر أنه " كلام موزون مقفى"([3]). وعلى الرغم من التحفظات على هذه المقولة، إلا أنها تظهر دور كل من الوزن والقافية في الموسيقى الشعرية.

خرج الشعراء المحدثين على القواعد الصارمة الخاصة بالوزن في الشعر التقليدي، " وهو ما يتخذه شعراؤنا الجدد من شكل جديد يقوم على وحدة التفعيلة"([4]) – كما في شعر التفعيلة – ونوعوا في القافية أو تخلوا عنها أحياناً، إلا أنهم ظلوا محافظين على الإيقاع والموسيقى الشعريين، خاصة الموسيقى الداخلية " وعدّوه أساس التمييز بين الشعر وباقي الأجناس النثرية"([5]) ومن هنا نرى أهمية الموسيقى الشعرية حيث أن " للموسيقى ــ كما للصور –أهمية كبرى عند الرمزيين. فالشعر عندهم صور موسيقية لها قوة الموسيقى التعبيرية وتأثيرها، مع أن بعض الشعر الرمزي حر لا يتقيد بوزن. ومن هنا نرى أن

---

[1] / انظر كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 265

[2] / نبيل خالد أبو علي، عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، 86

[3] / قدامة بن جعفر، نقد الشعر، 54

[4] / محمد النويهي، قضية الشعر الجديد، 91

[5] / نبيل خالد أبو علي، عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، 86

الشعر لا ينفصل عن الموسيقى والإيقاع، وإن هو انفصل عن الوزن"([1]) وإن كان هذا الانفصال في حدود معينة ضمن ما يطلق عليه بالشعر النثري.

ويرى "كمال أحمد غنيم" أن " الموسيقى إشارة إلى طبيعة عاطفة الشاعر ونوعية انفعاله الداخلي، ومقياس لا يمكن تجاهله في تقدير العمل الإبداعي الناجح" ([2]) فكلما كانت موسيقى الشعر متسقة مع عاطفة الشاعر منسابة مع أحاسيسه ووجدانه ومتفاعلة مع ما حوله، كانت القصيدة مؤثرة وناجحة في إثارة المتلقي، فكل موسيقى شعرية لا تفجر في الكلمات أقصى طاقاتها الدلالية والإيحائية، لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطاقة الانفعالية التي تثيرها القصيدة، هي موسيقى خارجية مفتعلة، قد تكون جميلة في ذاتها، ولكنها بأي حال لن تكون عنصراً من عناصر البناء الشعري ،ومن هنا نرى أن لموسيقى الشعر دوراً فعالاً في جودة الشعر وحيويته.

ويقسم النقاد موسيقى الشعر إلى قسمين:

– الموسيقى الخارجية: وهي تتألف من الأوزان الشعرية المعروفة ومن القافية

– الموسيقى الداخلية: وهي تتألف من النغم الذي يجمع بين الألفاظ والصورة، أو بين وقع الكلام والحالة النفسية للشاعر، وهذه مزاوجة تامة بين المعنى والشكل، بين الشاعر والمتلقي([3])، وتنطوي على عدة إمكانيات من تناغم الحروف وائتلافها، وتكرار الكلمات والمقاطع، واستعمال المحسنات البديعية، واختيار الكلمات الموحية المعبرة عن صدق العاطفة... إلى غير ذلك من العناصر التي تتآلف فتعطي نغماً ترتاح له النفس وتتفاعل معه.

الموسيقى الخارجية:

أولاً: الوزن

تتشكل أوزان الشعر العربي من مجموعة التفعيلات التي تتكون منها بحور الشعر، وهي خمسة عشر بحراً ذكرها "الخليل بن أحمد" ، وزاد عليها "الأخفش" بحراً آخر. ويحصرها العروضيين في ثماني صور هي:(فعولن، فاعلن، مفاعيلن، مفاعلتن، مستفعلن، مفعولات، فاعلاتن، متفاعلن)بصورها

[1] / روز غريب، النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، 93

[2] / كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 265

[3] / انظر عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، 252،254

الأصلية والفرعية." فالوزن هو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت" ([1])،وينفرد كل بحر بتفعيلاته كما وكيفا.

وقد طرأ على موسيقى الشعر العربي نوع من التطور والتجديد أجملها "عز الدين اسماعيل" في ثلاث مراحل:

1- مرحلة البيت الشعري.

2- مرحلة التفعيلة أو السطر الشعري، الذي فتتت فيها البنية العروضية للبيت، واكتفى منها بوحدة واحدة من وحداتها الموسيقية هي " التفعيلة" تقوم وحدها في السطر أو تتكرر في عدد غير منضبط في بقية السطور.

3- مرحلة الجملة الشعرية([2]).

وسنعرض في هذا البحث لموسيقى شعر المجزرة ومدى توافقه مع مراحل تطور الشعر العربي .

الشعر العمودي

" **الموسيقى التقليدية**" : وهي الموسيقى التي تعتمد على وحدة البيت، بحيث يتكون البيت من شطرين متساويين في عدد التفعيلات، وتتكون القصيدة من عدد من الأبيات المتساوية في الوزن. وهذا النوع من الوزن له سحره الخاص المتمثل في تلك الوحدات الموسيقية المتكررة بانتظام. حيث " يتحقق الوزن من خلال الإيقاع المنتظم"([3]) الذي يدركه المتلقي ويدرك ما في الشعر من جمال الجرس وتناغم الألفاظ قبل أي عنصر من عناصر الشعر الأخرى ــ وإن كان تذوق النغم الموسيقي للشعر يعتمد على ذوق المتلقي وثقافته ومرانه .

ويذكر "إبراهيم أنيس" أن" للشعر نواح عدة للجمال ، أسرعها إلى نفوسنا ما فيه جرس الألفاظ، وانسجام في توالي المقاطع، وتردد بعضها بعد قدر معين منها، وكل هذا هو ما نسميه بموسيقى الشعر"([4])، وهو بذلك يضع الوزن في الشعر العمودي في مقدمة عناصر جمال الشعر وأسرعها في الوصول إلى التلقي حيث يدرك جمال الجرس ومتعة الإيقاع قبل أن يدرك ما في الشعر من دقة التصوير وإبداع الخيال وجمال الفكرة. ولا يعني هذا بأي حال من الأحوال أن جمال الموسيقى الشعرية

---

[1] / عبد القادر أبو شريفة وآخر، مدخل إلى تحليل النص الأدبي، 76

[2] / انظر عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،79

[3] / محمد عبد عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 628

[4] /إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، 8- 9.

تغني عن جودة المعنى وطرافة الفكر. فإذا أريد للشعر الخلود والتأثير جمع إلى جمال الموسيقى " الخارجية والداخلية " دقة التعبير وبراعة التصوير وصدق المعنى...

وقد كتب العديد من شعراء المجزرة قصائدهم على النمط التقليدي، ولم يقتصر على فترة زمنية بعينها. فهناك قصائد عمودية قيلت بعيد وقوع المجزرة، كما أن هناك قصائد قيلت في الذكرى الخامسة والأربعين للمجزرة. ويبدو أن القصائد التي يراد بها استثارة الهمم وبعث الحماس في نفوس المتلقين تلجأ إلى الوزن التقليدي لما فيه من قوة تأثير، من ذلك قصيدة "سميح القاسم" التي ارتجلها في الذكرى العاشرة للمجزرة،. يقول:

رغم ليل الخنى ونير المظالـــــم   حل وفد الكفاح يا كفر قاســـــــم

رغم عسف الطاغوت يزبد سمـــاً   رغم سد الأسلاك في الدرب جاثم

رغم حقد الرشاش يشهره الباغي   أتينا فليلعق الخزي حاكـــــــــــم

نحن مـــن شعـــبك المقيم علـــى   عهد الضحايا وذكريات المآتـــم([1])

والقصيدة من(البحر الخفيف) الذي يتكون من ست تفعيلات هي :

فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن   فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

وقد جاءت تفعيلة" فاعلاتن " على صورة زحافية " فعلاتن" (تفعيلة العروض في البيت الثاني) وجاءت تفعيلة "مستفعلن" على صورة زحافية "متفعلن"، (كما في التفعيلة الثانية والخامسة في البيت الأول)، وتظهر ظاهرة التدوير في كل من البيت الثالث والرابع من القصيدة حيث يتصل صدر البيت مع عجزه ، ويقول في قصيدة أخرى:

لا سحر أن نطق الرماد الأبكـــم   تحت الرماد حرائق تتضـــرم

أنموت صمتاً حين ألف جريمـــة   تنهال:"يا أهل القبور تكلموا" ([2])

وهي من (البحر الكامل) الذي يتكون من تفعيلة (متفاعلن) مكررة ست مرات في البيت الشعري بصورتها الأصلية أو الصور الفرعية. وهذا يدحض الفكرة السائدة عند بعض النقاد القائلة أن الشاعر

---

[1] / سميح القاسم، ديوان الحماسة، 3/60

[2] /سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 2/413

يختار أوزاناً بعينها ليصب فيها ألفاظه في موضوع معين. ويرى "كمال أحمد غنيم" أن "الحالة النفسية هي التي لها الدور الأكبر في تحديد الوزن"([1])

وهناك قصائد كتبت على شكل أسطر شعرية وهي في الواقع شعر عمودي كما في قصيدة "ذكرى" للشاعر "محمود الدسوقي" :

يا كفر قاسم ما نسيت ألا اذكري

ذكرى لمجزرة تهز مشاعري

يا كفر قاسم ما نسيت جريمة

قامت بها أيدي لئيم غادر([2])

فهذه القصيدة يمكن كتابتها على الشكل التالي:

يا كفر قاسم ما نسيت ألا اذكري	ذكرى لمجزرة تهز مشاعـــــري
يا كفر قاسم ما نسيت جريمـــة	قامت بها أيدي لئيم غـــــــادر

وهي من (البحر الكامل)، وتحت هذا الباب تأتي قصيدة "منيب مخول" (عيد ومأساة)([3]) وهي من (البحر البسيط) الذي يتكون وزنه الشعري من نوعين من التفعيلات

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن	مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

ونرى عند بعض الشعراء تعدد الأوزان في القصيدة الواحدة، أو زيادة وحدات صوتية في الشطر من البيت الشعري. وربما كان ذلك نتيجة المزج بين النمطين العمودي والحر (البيت الشعري والسطر الشعري). من ذلك ما جاء في قصيدة "وفاء حزان" (حديث الشهيد) وهي على النمط العمودي كتبتها على شكل أسطر شعرية:

شدّيني نحوك شدّينـــــــــــي

يا أرضاً في وطني ضميني

من تحت ترابك لي كفـــــن

---

[1] / كمال أحمد غنيم،عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 267

[2] / محمود الدسوقي، ذكرى، ديوان الشهيد، 69

[3] / منيب مخول عيد ومأساة، ديوان الشهيد ،87

وعلى كفيك تلاقيـــــــــنـــــــــي

أهواك يا أمي أم البـــــــــــشر

فيك تلقيت ترانيمـــــــــــــــي([1])

ويمكن إعادة كتابة القصيدة بجعل كل سطرين متتاليين بيتاً شعرياً. حيث جاءت الأبيات الشعرية هنا من تفعيلة (البحر المتدارك) الذي يتكون من ثمان تفعيلات أربع منها في كل شطر. ولكنا نجد زيادة مقطع صوتي في تفعيلة الضرب في البيت الأول. وزيادة تفعيلة كاملة في الشطر الأول من البيت الثالث – إذا أشبعت حركة الكاف في كلمة أهواك– بينما جاءت التفعيلة الأولى في الشطر الثاني من البيت نفسه خارج إطار تفعيلة هذا البحر وهذا البيت " البيت الثالث" أقرب إلى الشعر النثري منه إلى الشعر العمودي. وتكمل الشاعرة القصيدة كاملة على تفعيلة البحر المتدارك دون خلل أو زيادة.

ويرى "سعدي أبو شاور" أن تعدد الأوزان في القصيدة الواحدة يكون "تبعاً للجو النفسي وتقلباته لدى الشاعر، وتبعاً للموجات العاطفية والانفعالية التي تتلون داخل النص الشعري"([2]) ولكن إن جاز تعدد التفعيلات في الشعر الحر فإنه يعتبر خللاً موسيقياً في الشعر العمودي.

الشعر الحر

مر الشعر العربي بعدة محطات من التغير والتطوير، طالت جوانب من النمط التقليدي الذي يعتمد على وحدة البيت. فظهرت الموشحات والرباعيات والخماسيات... ولكنها ظلت ــ تقريباً ــ محتفظة بالإطار العام للشعر العمودي، هذا الإطار الذي تعرض إلى هزة عنيفة في الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين، عندما ظهر الشعر الحر. وهو الذي يعتمد على وحدة التفعيلة لا على وحدة البيت، " وهو شعر ذو شطر واحد ليس له طول ثابت، وإنما يصح أن تتغير عدد التفعيلات من شطر إلى شطر، ويكون هذا التغير وفق قانون عروضي"([3]). فالشعر الحر لم يلغ الوزن. ولكنه أدخل علية تعديلاً جوهرياً " يحقق به الشاعر من نفسه وذبذبات مشاعره وأعصابه ما لم يكن الإطار القديم يسعف على تحقيقه"([4])

---

[1] /وفاء حزان ، حديث الشهيد، ديوان الشهيد ، 213

[2] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر،411

[3] / نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 74

[4] / عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 65

وللشعر الحر موسيقاه الخاصة التي يُفضّلها كثير من النقاد على الموسيقى التقليدية ، لما توفّره للشاعر من "حرية أكبر في اختيار ما يناسبه منها "([1]) وفقا لدفقاته الشعورية، وطول نفسه الشعري وتشكل الأسطر الشعرية بنغمتها المتكررة "التفعيلة" وحدات موسيقية تتناغم مع بعضها داخل القصيدة الشعرية ، لتجعل منها وحدة موسيقية تعبر عن إحساس الشاعر ومشاعره .

ويرى "عز الدين إسماعيل" أن موسيقى القصيدة الجديدة تقوم أساسا على فرض" أن القصيدة بنية إيقاعية خاصة ،ترتبط بحالة شعورية معينة لشاعر بذاته، فتعكس هذه الحالة لا في صورتها المهوشة التي كانت عليها من قبل في نفس الشاعر ، بل في صورة جديدة منسقة تنسيقا خاصا بها، من شأنه أن يساعد الآخرين على الالتقاء بها وتنسيق مشاعرهم المهوشة وفقا لنسقها" ([2])

وقد اتخذ الشعر الحر الذي قيل في مجزرة كفر قاسم نمطين من الأوزان – كما ذكر سابقاً –السطر الشعري والجملة الشعرية.

1/ السطر الشعري:

" السطر الشعري تركيبة موسيقية للكلام، لا ترتبط بالشكل المحدد للبيت الشعري، ولا بأي شكل خارجي ثابت، وإنما تتخذ هذه التركيبة دائماً الشكل الذي يرتاح له الشاعر، ويتصور أن الآخرين من الممكن أن يرتاحوا له عن طريق تكرار الوحدة الموسيقية (التفعيلة) التي هي أساس النظام الصوتي الذي يقوم بتكرار الشعر "([3]).

وليس للسطر الشعري عدد محدد من التفعيلات، ومن الشواهد على ذلك، قول "محمود درويش":

افتحي الأبواب يا قريتنا

افتحيها للرياح الأربع

ودعي خمسين جرحاً يتوهّج

كفر قاسم

قرية تحلم بالقمح، وأزهار البنفسج

---

[1] / كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 268

[2] / عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 64

[3] / انظر نفسه، 83

وبأعراس الحمائم ([1])

حيث نرى ستة اسطر شعرية وتفعيلاتها على التوالي:

فاعلاتن، فاعلاتن، فعلا

فاعلاتن فاعلاتن فاعلا

فعلاتن فاعلاتن فعلاتن

فاعلاتن

فاعلاتن فعلاتن فعلاتن فاعلاتن

فعلاتن فاعلاتن

وهذه القصيدة من (بحر الرمل) الذي يتكون من ست تفعيلات صافية، ثلاث منها في كل شطر. ولكن الشاعر طوّر في نظام البيت ذي الشطرين ليخرج بمقطوعة تعتمد على السطر الشعري .

وتطول بعض الأسطر الشعرية لتصل إلى تسع تفعيلات من ذلك قول "تديم حسين":

في كفر قاسم قرية ألقت خطاب رياحها للوائها

ألقت خطاب ولائها لسمائها

ولدت وبين رصاصتين توالدت

خرجت على طرقاتها

خرجت من الجلد العتيق وراقبت وترقبت وتأملت

وتعثرت بشوارع فرغت من الخطوات واكتظت بصرخة لائها

وتمرست بالموت ما صفحت معذبة وكم طفحت مشردة بحزن ندائها ! عسلية العينين يا

أخت الزهور ونحلتي هرم الهرم ([2])

جاءت الأسطر الشعرية على تفعيلة (البحر الكامل)، ولم يتقيد الشاعر بعدد معين من التفعيلات، فالسطر الأول والخامس مكونين من خمس تفعيلات، والثاني والثالث والثامن من ثلاث تفعيلات،

---

[1] / محمود درويش، الديوان ، 204/1

[2] / نديم حسين، مارش لكفر قاسم، ديوان الشهيد، 95- 96

والرابع من تفعيلتين، السطر السادس من ست تفعيلات، أما السابع فقد تكوّن من تسع تفعيلات وهو أكثر عدد يمكن أن يأتي علية السطر الشعري([1]). وتسمى الأوزان الفردية بالأوزان العرجاء "وهي ليست عرجاء لأن فيها نشوزاً وإنما لكونها فردية العدد"([2]).

ولا شك أن عدم التقيد بعدد معين من التفعيلات أعطى الشاعر حرية في استخدام العدد الذي يتناسب مع دفقدته الشعرية، وساعده على "خلق إمكانيات إيقاعية للسطر غير منتهية، كما أن البنية الموسيقية لكل سطر وإن كان لها استقلالها الخاص قد صارت جزءاً من تنويع موسيقي يشمل القصيدة كلها" ([3])

2/ الجملة الشعرية:

وهي "مرحلة أكثر تطوراً من السطر الشعري"([4])، حيث تمتد الجملة الشعرية عبر أكثر من سطر، وتنتهي تفعيلتها بانتهاء الجملة الشعرية وليس بانتهاء السطر الشعري. والذي يتحكم في طول الجملة الشعرية هي طبيعة الدفقة الشعورية في النفس. فقد تمتد إلى حد لا يستطيع البيت الشعري التقليدي المحدد الطول والمحكوم بالقافية استيعابها. كما لا يكفيه السطر الشعري بأقصى امتداده.

والجملة الشعرية هي صورة من صور التشكيل الموسيقي للشعر الجديد، فإذا كان للسطر الشعري بنية موسيقية تشغل من حيث الحيز سطراً من القصيدة، وإذا كانت هذه البنية مكتفية بذاتها وإن مثلت جزئية ترتبط موسيقياً بباقي الجزئيات وتتفاعل معها، فإن الجملة الشعرية بنية موسيقية أكبر من السطر، وأن ظلت محتفظة بكل خصائصه([5]).

وقد كتب العديد من الشعراء الفلسطينيين –الذين تناولوا موضوع مجزرة كفر قاسم– بطريقة الجملة الشعرية، وربما يعود ذلك إلى الدفقات الانفعالية والحركات العاطفية في نفسية الشاعر.. من ذلك قول "سميح القاسم" في قصيدته (ليد ظلت تقاوم):

بركة دكناء في قلبي

وفي وجهي سحابة

ونجيع ساخن

---

[1] / انظر عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 108

[2] / نفسه، 104

[3] / انظر عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 108

[4] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر، 409

[5] / انظر عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، 108

يصرخ في وحشة غابة

وعلى قارعة الطريق وعاءات نحاس

أيقظت بضع رصاصات

وألقت في جفون الأخوة القتلى النعاس([1])

هذه المقطوعة مكونة من ثلاث جمل شعرية. تنتهي الجملة الأولى بنهاية السطر الثاني وقد جاءت تفعيلات الجمل على الشكل التالي:

فاعلاتن فاعلاتن ف

علاتن فاعلاتن

والجملة الثانية تنتهي بنهاية السطر الرابع وتفعيلاتها على الشكل التالي:

فاعلاتن فعلا

تن فعلاتن فعلاتن

أما الجملة الثالثة فقد انتهت بنهاية السطر السابع ــ بعد أن فصل بينها وبين الجملة الثانية سطر شعري مكون من أربع تفعيلات ــ وجاء وزن الجملة الثالثة على النحو التالي:

فاعلاتن فعلاتن ف

علاتن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن

وقد امتدت الجملة السابقة خلال سطرين شعريين، وهناك جمل شعرية تمتد في عدد أكبر من السطور الشعرية من ذلك قول "محمود الدسوقي":

وأعود للذكرى

مع الأيام والماضي

مع الأجداد

في الوطن المكبل بالسلاسل والقيود ([2])

---

[1] / سميح القاسم، الأعمال الكاملة، 1/ 101

[2] / محمود الدسوقي،يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 73

حيث جاء وزن الجملة الشعرية على النحو التالي:

متفاعلن متفا

علن متفاعلن متفا

علن متفاع

لن متفاعلن متفاعلن متفاعلات

وفي القصيدة نفسها يقول:

وأنا مع الأحلام والآلام ... أحملها

أهيم بها على وجهي

نزيل الخيمة السوداء من خلف الحدود([1])

وهي على الوزن التالي:

متفاعلن متْفاعلن متْفاعلن متَفا

علن متفاعلن متْفا

علن متْفاغلن متْفاع

لن متفاعلات

فالجملة الأولى مكونة من أربعة أسطر وثمان تفعيلات.بينما الثانية من أربعة أسطر وتسع تفعيلات، وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن مدى الجمل الشعرية متساوٍ في القصيدة الواحدة، ففي القصيدة السابقة نرى جملاً شعرية ممتدة عبر سطرين شعريين مثل:

تحت النصائب أسمع الأرواح

تروى قصة الحقد"أحصدوهم"([2])

ويقول:

روى الثرى ...واحمرت الغبراء من دمِّ الشهيدِ

[1] / محمود الدسوقي،يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 73/ 74

[2] / نفسه، 72

وناحت الأشجار

وارتعدت شعاب الأرض

نار ' الحقد والبغضاء

فاختلط الرصاص

مع الدماء مع التراب مع الأنين([1])

فنجد الجملة الأخيرة تشغل ست أسطر شعرية ووزنها على النحو التالي:

متَفاعلن متْفاعلن متْفاعلن متْفاعلن م

تفاعلن متْفاع

لن متفاعلن متْفاع

لن متْفاعلن متْفاع

لن متفاعلن م

تفاعلن متفاعلن متفاعلات

ومن هنا نرى أن الجملة الشعرية وفرّت للشاعر إمكانيات أوسع في التعبير عن أفكاره ومشاعره،وأعطت للقصيدة إيقاعاً موسيقياً بعيداً عن الرتابة والتكرار، ولكنها ظلت محتفظة بقواعد موسيقية مبنية على البحور الشعرية المعروفة،

ومن خلال استعراض مجموعة كبيرة من الشعر الحر الذي قيل في المجزرة، كانت البحور الصافية هي الأكثر حضورا في هذه الأشعار، وهذا منسجم مع معطيات موسيقى الشعر العربي المعاصر الذي " توجه في معظمه إلى استخدام البحور الصافية"([2])

الشعر المنثور

برز في القرن العشرين لون من الشعر لا يحكمه وزن أو قافية، وهو ما يسمى بالشعر المنثور. "وقد تمرد فعلا بعض شعرائنا الفلسطينيين حتى على وحدة التفعيلة ، فمزجوا بين التفعيلات في قصيدة

[1] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد ،72

[2] / كمال أحمد غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر،271

واحدة، ولم يتقيدوا بالتفعيلة نفسها من حيث بنائها ، ولم يلتفتوا كثيرا للقافية" ([1]) ورغم ما على هذا اللون من الشعر من تحفظات، وما يلاقيه من معارضات، إلا أن هناك عدد من الشعراء ظلوا يتخذون هذا اللون وسيلتهم في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم دون إعارة الموسيقى الشعرية الاهتمام المطلوب. خاصة الخارجية منها.

وقد ظهر هذا النمط في شعر المجزرة، من ذلك قول "غادة الشافعي" في قصيدة (طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه) وهي قصيدة طويلة نذكر منها:

من يصغي إلى الشهداء

أو يلتفت إلى سهام أرواحهم وهي تعرج في فضاء لا تسعه مرآة؟

من يحدق في عتمة الحجر الداكنة

كي يلمح الطعنة التي يطفو عليها الرمل

ثم تومض في ضجة الليل

كقطيع أجراس ترتعد في جنازة ([2])

فهذه القصيدة تخلو من الموسيقى الخارجية، لا وزن يضبطها، ولا قافية تتكرر تعطي ركيزة نغمية تحدث توازنا موسيقيا في القصيدة كلها. وتقوم الموسيقى في هذه القصيدة على الاستعارات والمجازات التي اكتظت بها، وعلى تناسق الحروف داخل النص وترتيبها، وهو جزء من الموسيقى الداخلية في القصيدة الشعرية.

ثانيا ــ القافية

القافية هي إيقاعات صوتية تتكرر في أواخر الأبيات أو السطور الشعرية، وقد حاول العروضيون والباحثون تحديد القافية. فهي عند "الخليل بن أحمد" تبدأ " من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع حركة ما قبله"([3]). ويربط بعضهم بين القافية وحرف الروي، ولكن "عز الدين اسماعيل" يرى أن هناك فرقاً كبيراً بينها " إن القافية شيء وحروف الروي شيء آخر، إن كل من يقرأ في كتب العروض يعرف أن القافية وحدة موسيقية لها أشكال مختلفة، أي أنها تنسيق معين لعدد من

---

[1] / واصف ابو الشباب، شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 210

[2] / غادة الشافعي ، طعنته أو زهرته الطالعة في براري دمه، ديوان الشهيد، 149

[3] / ابن السّراج الشنتريني، الكافي في علم القوافي ،98

الحركات والسكنات... أما الروي فلا بد أن يكون حرفاً من حروف الهجاء لا يدخل الإطار الموسيقي إلا من حيث صفاته الصوتية وما له مـــــــن جرس "([1]). ويذكر في مكان آخر من الكتاب أن قافية، الشعر الحر: " هي أنسب صوت أو كلمة ينتهي بها السطر الشعري بحيث يمكن الوقوف عندها والانتقال منها إلى السطر التالي، والقافية الجديدة: كلمة تتيح للقارئ الوقوف والحركة في آن واحد"([2])

وما ينطبق على السطر الشعري، ينطبق على الجملة الشعرية، بحيث يكون الوقوف والانتقال إلى جملة أخرى في نهاية الجملة الشعرية.

وللقافية دور رئيس في موسيقى القصيدة، وقد ظلت محط اهتمام الشعراء على امتداد مراحل تطور القصيدة العربية، فرغم التحلل من قيود القافية التقليدية التي تلزم الشاعر بروي واحد، فإنها قد أخذت شكلاً آخر في القصيدة المعاصرة، وهو في الحقيقة أصعب مراساً من القافية القديمة([3]). وتشير "نازك الملائكة" إلى أهمية القافية بقولها:" ومهما يكن من فكرة نبذ القافية وإرسال الشعر فإن الشعر الحر بالذات يحتاج إلى القافية احتياجاً خاصاً. وذلك لأنه شعر يفقد بعض المزايا الموسيقية المتوافرة في شعر الشطرين الشائع" ([4]). فإن التخلص من القافية يعني زوال النغمة الموسيقية المنبعثة من آخر البيت أو السطر الشعري، ويفقد القصيدة كثيراً من عناصر التأثير وجمال الإيقاع. وقد ظهرت أنماط متعددة من القافية في شعر المجزرة،منها:

* القافية العمودية الموحدة " المتكررة "

وهي" توحيد القافية في القصائد ذات النمط التقليدي العمودي الذي يسير على نظام البيت ذي الشطرين" ([5]) ويرى بعض الباحثين ــ ممن يحصرون القافية في حرف الروي ــ أن القافية العمودية " هي التي يتكرر فيها حرف الروي على امتداد القصيدة كلها "([6]). وقد نسج العديد من الشعراء قصائدهم على هذا المنوال، منهم "أحمد يوسف ياسين" في قصيدة (المجزرة) وهي من (البحر الكامل التام) ، يقول:

الجرح ينزف والدماء تسيل   والدمع يذرف والعذاب طويل

---

[1] /عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،113

[2] / نفسه،114

[3] / انظر نفسه، 113

[4] /نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 190

[5] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر العربي المعاصر، 414

[6] / محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 641

تهوي عليّ بحملها أقدارنا فالخطب مر والمصاب جليل

تشرين جاء محملاً بمصائب جعلت ظهور الشامخات تميل

....

يا كفر قاسم بالدماء ألا اغرقي في كل بيت صرخة وعويل

لا تأبهي يا كفر قاسم أنت لي جنـــــات عدن والهواء عليل([1])

نجد الشاعر يلتزم بقافية واحدة هي (اللام المسبوقة بالياء الساكنة)، ويتهم بعض النقاد القافية العمودية المتكررة بالرتابة والإملال ،وأن حرف الروي الذي يتكرر في نهاية كل الأبيات عامل تعطيل من حيث أنه يفرض نفسه على القافية ([2])، ولكن هذا يعتمد على الشاعر نفسه، فإذا امتلك الشاعر حصيلة لغوية واسعة مكّنته من اختيار الكلمة " القافية" التي تتناسب موسيقياً مع موسيقى البيت ومعناه، بحيث تصبح عفوية بعيدة عن التكلف والتعسف، كانت هذه القافية المتكررة عنصر إطراب وتنغيم، يضفي على القصيدة قوة تأثير وإثارة لمشاعر المتلقي وعقله.

وقد جاء في القرآن الكريم ما يسند هذا القول (مع الأخذ بعين الاعتبار الفارق بين القرآن والشعر) ففي سورة البروج " **والسماء ذات البروج، واليوم الموعـــود، وشاهد ومشهـــود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقـــود، إذ هم عليها قعـــود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** " ([3]). فقد تكررت قافية (الدال المسبوقة بالواو الساكنة) في هذه الآيات، وكان الجرس المتولد من تكرارها عنصر قوة داعم في زيادة تأثيرها وإثارة المتلقين، ولا يشعر القارئ لهذه الآيات وأمثالها بالملل أو الرتابة مهما تكررت. والقافية في الشعر الجيد المتقن شأنها في الموسيقى الداعمة للمعنى وقوة التأثير شأن القافية في الآيات.

* العمودية المتعددة

" وهي التي تتعدد فيها أحرف الروي بالتتابع" ([4]) حيث تتنوع القوافي في القصيدة الواحدة، من ذلك قصيدة (نداء الجراح) ل "حنا أبو حنا" يقول:

ضمدوا الجراح على الصديد فكيف تلتئم الجراح

---

[1] / أحمد يوسف ياسين ، المجزرة ،ديوان الشهيد، 209

[2] / انظر عز الدين اسماعيل، الشعر العربي المعاصر 113- 114

[3] / البروج 1- 7

[4] / محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 641

فإذا أمنا للضماد تغلغل العفـــن المتـــــــاح

وتنفس الغدر المقنّع بالعدالـــة واستـــــراح

وتناومت " بعض الضمائر" عند أعتاب الكفاح

....

ما زال يرتعد المساء لهول ذكرى المـــجزرة

صور المآسي بالرصاص ... بمقلتيه مصـــورة

كتل من الأشلاء فاغرة الدماء معـــــــفرة

....

ما زال يرتعد المساء لهول ما شهد المســاء

فإذا سألته أن يحدث راح يخنقه البكـــــاء

خمسون ثغراً دونه فغرت نواجذها الدمـــاء([1])

فالشاعر قد بنى قصيدته على خمس قوافٍ، بدأها بالحاء المسبوقة بالألف الممدودة، ثم بالراء المتبوعة بالتاء المربوطة، تليها قافية الهمزة بعد ألف المد، والقافية الرابعة كانت النون المسبوقة بالياء الساكنة، ويختم القصيدة بقافية اللام.

والقصيدة من (مجزوء الكامل) ، وتظهر فيها ظاهرة التدوير التي تخدم الموسيقى الشعرية، والتنوع في القافية يعطي الشاعر " مجالاً رحباً في التعبير عن مشاعره وانفعالاته، وفق الحالة الشعورية والتجربة الشعرية "([2]) وهو بذلك يكسر الرتابة التي تنتج عن تكرار قافية واحدة طوال القصيدة، وينوع في الموسيقى الشعرية.

* الحرة الموحدة

[1] /حنا أبو حنا، نداء الجراح، 77- 82

[2] / محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 642

وهي القافية التي تتكرر في نهاية السطر أو الجملة الشعرية في المقطع الواحد، ثم تتغير في كل مقطع جديد. ومن هنا يطلق عليها " القافية الحرة المقطعية "([1]) وهي ظاهرة من الظواهر الجديدة في الشعر الفلسطيني المعاصر، وقد نسج عليها شعراء المجزرة عدداً من قصائدهم، من ذلك قصيدة "محمود درويش" (أزهار الدم) يقول في المقطع الثالث والرابع من لوحة " الموت مجاناً":.

لا تسألي الشعراء أن يرثوا زغاليل الخميلة

شرف الطفولة أنها

خطر على أمن القبيلة

لأني أباركهم بمجد يرضع الدم والرذيلة

وأهنئ الجلاد منتصراً على عين كحيلة

كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديلة

***

يا كفر قاسم ! ... إن أنصاب القبور يد تشدّ

وتشد للأعماق أغراسي ... وأغراس اليتامى إذ تمد

باقون... يا يدك النبيلة، علمينا كيف نشدو

باقون مثل الضوء، والكلمات، لا يلويهما ألم وقيد

يا كفر قاسم !

إن أنصاب القبور يد تشد..! ([2])

نجد الشاعر قد التزم بقافية موحدة في كل مقطع، فقد تكرر المقطع الصوتي " يله" في جميع سطور المقطع الثالث من القصيدة، والتزم بقافية(الدال) في المقطع الرابع. كما التزم بقافية(اللام المسبوق بالألف) في المقطع الأول و(الهمزة المسبوقة بألف المد) في المقطع الثاني.

ومن ذلك أيضاً قصيدة "وداد البرغوثي " (ستتكرنا ذواكرنا) تقول:

---

[1] / نفسه ، 643

[2] / محمود درويش، الديوان ، 209/1

أحبائي

إذا ما كانت الأيام تمحو من ذواكرنا

هدير الريح في الغابات

إذا مرت بنا يوماً زوابعهم

تجفف من عيون الناس

حتى آخر الدمعات

إذا ما الدهر مزقنا وشتت جمعنا

يوماً على الشطآن والطرقات

إذا مرت بساطير لتمحو موطئ الخطوات

***

لموتاها صباح الخير والزيتون والزعتر

صباح الطفل في محرابها يكبر

صباح اللوز والرمان والسكر

صباح القمح تحضنه يد الفلاح والبيدر ([1])

في هذه القصيدة نجد القافية في نهاية الجمل الشعرية موحدة وهي (الغابات، اللامعات، الطرقات، الخطوات) إي التاء المسبوقة بالألف الممدودة. وفي المقطع الثاني يتكرر(حرف الراء) في نهاية جميع الأسطر الشعرية. وتنتقل إلى قافية أخرى في كل مقطع من مقاطع القصيدة مما يضفي على القصيدة ألواناً موسيقية مختلفة، بالإضافة إلى الموسيقى المنبعثة من تكرار بعض الكلمات والأحرف.

ويرى "صالح أبو إصبع": " أن هذا التنويع في القافية، يكسب القصيدة إيقاعات مختلفة، ويلاحظ أكثر استخدامها في القصائد الدرامية، مما يتيح مع تنوّع القوافي، اليسر في التعبير عن المواقف الدرامية"([2])

---

[1] / وداد البرغوثي، ستتكرنا ذواكرنا، ديوان الشهيد، 203

[2] / صالح أبو إصبع، الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة، 252

ولم يكن هذا التطور الوحيد الذي أصاب قافية الشعر. فقد تبعته مراحل أخرى، وأنماط مختلفة من التغيير في المقاطع الصوتية التي تختم بها الأسطر أو الجمل الشعرية ومنها القافية الحرة المتعددة والقافية المرسلة

* الحرة المتعددة

وهي " القوافي التي تتنوع داخل القصيدة التي تسير على نمط الأوزان الحرة في موسيقاها" ([1]) حيث يقوم الشاعر باستخدام العديد من القوافي في القصيدة الواحدة دون نظام ثابت " وهذا النوع هو أكثر الأنواع دوراناً في الشعر الحر" ([2]). من ذلك لوحة "محمود درويش " (القتيل رقم {48}) يقول:

وجدوا في صدره قنديل ورد... وقمر

وهو ملقى، ميتاً فوق حجر

وجدوا في جيبه بعض قروش

وجدوا علبة كبريت وتصريح سفر

على ساعده الغض نقوش

***

قبّلته أمه

وبكت عاماً عليه

بعد عام، نبت العوسج في عينيه

واشتد الظلام

عندما شب أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينة

حبسوه

لم يكن يحمل تصريح سفر

---

[1] / سعدي أبو شاور، تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر، 419

[2] / محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 645

إنه يحمل في الشارع صندوق عنفوانه

وصناديق أُخر

آه أطفال بلادي

هكذا مات القمر! ([1])

ونلاحظ في هذه اللوحة عدة قوافٍ محورية وهي (قمر- حجر، سفر، آخر) و (قروش، نقوش) – (عليه، عينيه) ، (أخوه، حبسوه) وبعض هذه القوافي تتكرر حرفياً. وهذا التلوين في القوافي والتكرار يضفي على القصيدة إيقاعاً موسيقياً خاصاً يتفاعل مع الدفقات الشعورية للشاعر.

* الحرة المرسلة

حيث يرسل الشاعر قصيدته دون التزام بقافية إلا ما جاء عفو الخاطر " وقد شاعت هذه القافية تقليداً للشعر الغربي" ([2]) من ذلك قصيدة (تشرين وحل الخطيئة) "لشروق إبراهيم القيم" تقول :

كفر قاسم

ردّي إليّ عينيك

حين يفيض الدمع المستباح

على أروقه الخدود

لملمي بأنامل تشرين

أسرار الموت القادم

واسكني هناك

مع كل غيمة صيف

تعمّق جرحاً ينزف صبراً([3])

ويظهر أن الشاعرة قد أهملت القافية تماماً، وهذا النوع من الإهمال للقافية في كل القصيدة قليل في شعر المجزرة، ولكننا نجد إهمالاً للقافية في مقطع أو جزء من القصيدة ثم العودة إلى القافية المتعددة في

---

[1] / محمود درويش، الديوان ، 1/213- 214

[2] / محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968، 645

[3] /شروق إبراهيم القيم، تشرين وحل الخطيئة، ديوان الشهيد، 249

مقاطع أخرى من ذلك قصيدة "سامر خير" (أغاني شهيد كفر قاسم) ([1]) ، وقصيدة (طيور الفينيق) ([2]) "لعبد الناصر صالح" وغيرها.

ومهما يكن لدى أنصار هذا اللون من الشعر من مسوغات، فإن القافية تظل عنصراً أساسياً في موسيقى الشعر، تثير نغماً موسيقياً ترتاح إليه نفس المتلقي، وتشكل فواصل نغميه بين الأسطر. ويرى "محمد عبد عطوات" " أن شعراً بلا قافية يصبح كالنثر، وتضعف الموسيقى فيه" ([3]).

وقد وقف العديد من النقاد ضد هذا اللون من الشعر، فهذه "نازك الملائكة" تصف من أهملوا القافية بقولها :" لم يكفهم أن يوردوا في شعرهم تشكيلات متنافرة، وأن يخرجوا عن الوزن، وأن ينتقلوا من بحر إلى بحر، وأن يرتكبوا الأخطاء النحوية، وأن يأتوا بالعامي والسقط. وكأن لم يكفهم ذلك كله، فأهملوا القافية، وهي لو يدرون سند شعرهم وحيلته المتبقية " ([4]). وتقول في مكان أخر :" إننا لا نملك إلا أن نلاحظ أن الذين ينادون اليوم بنبذ القافية، هم غالباً الشعراء الذين يرتكبون الأخطاء النحوية واللغوية والعروضية، ولذلك نخشى أن تكون مناداة بعضهم بها تهرباً إلى السهولة، وتخلّصاً من العبء اللغوي الذي تلقيه القافية على الشاعر "([5]).

الموسيقى الداخلية

تتناغم الموسيقى الداخلية في النص الشعري مع الموسيقى الخارجية، وهي موسيقى تعطي تشكيلاً خاصاً لكل قصيدة، بحيث يعكس الوضع النفسي للشاعر والموضوع الذي تعالجه، " والموسيقى الداخلية تنطوي على العديد من الإمكانيات، من تناغم الحروف وائتلافها، وتقديم بعض الكلمات على بعض، واستعمال أدوات اللغة الثانوية بوسيلة فنية خاصة، واستعمال المحسنات البديعية، وتوظيف صدق العاطفة في اختيار الكلمات الموحية والصور الجميلة والأفكار الجيدة الواضحة " ([6])، وقد أشرنا إلى العديد من هذه العناصر خلال البحث.

---

[1] / سامر خير ،أغاني شهيد كفر قاسم، ديوان الشهيد، 111

[2] /عبد الناصر صالح، طيور الفينيق، ديوان الشهيد ، 125

[3] /محمد عبد عبد الله عطوات، الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968،646

[4] / نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، 192

[5] / نفسه، 189

[6] / كمال أحمد أبو غنيم، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، 276

من أبرز عناصر الموسيقى الداخلية في شعر المجزرة ظاهرة **التكرار**، من تكرار الحروف إلى الجمل والعبارات والمقاطع مروراً بالكلمات، ورغم أننا عرضنا لهذه الظاهرة في موضوع الأسلوب، إلا أننا سنعرض لبعض النماذج التي تخدم موسيقى الشعر.

من ذلك تكرار بعض الحروف في قصيدة بعينها، مما يثري الإيقاع الداخلي بلون من الموسيقى تستريح إليها الأذن وتقبل عليها. ويرى بعض الباحثين أن التأثير الموسيقي ينبـــــثق " من وقع أصوات الحروف المنسجمة مع الحالة النفسية للمبدع في أذن المتلقي" ([1]) من ذلك قول "محمود الدسوقي":

أنا ما نسيت... فكيف أنسى... لست أنسى

قصة الشعب المشرد من سنين

احمرّت الغبراء من دم الشهيد

وزلزلت تلك الجبال الشامخات

" بدير ياسين "

والمسجد الأقصى يئن

عظام إبراهيم ارتعدت

وأغرقها دماء الصائمين الساجدين([2])

حيث نجد تكرار حرف "السين" المهموس ونظيره حرف "الصاد" منسجمين مع حرف "الشين" لتكون مع بعضها إيقاعاً ينسجم مع نفسيه الشاعر المتألمة واشتعال نفسه حسرة على ما آلت إليه أوضاع الفلسطينيين.

ويرى " نبيل خالد أبو علي" أن التكرار يعمق الإحساس بالموسيقى ، في حديثه عن مقطوعة شعرية " تقابل فيها سريان صوت السين والحاء مع ضجيج حرف القاف والضاد، كذلك يعكس أثر تكرار اللفظة الواحدة وصداها الإيقاعي الذي يعمق الإحساس بالموسيقى، ويلفت انتباه القارئ إلى أهميتها"([3])

وقد يكون التكرار في كلمة بعينها من ذلك قول "نديم حسين":.

وطن بطعم الملح والريح الغريبة والنحيب

---

[1] / نفسه276

[2] / محمود الدسوقي، يا كفر قاسم ما زلت أذكرهم وأنت أتذكرين، ديوان الشهيد، 74

[3] /نبيل خالد أبو علي، عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية، 94

وطن ويأكل أهله

وطن ويشرب ما تيسر من تغربنا الخصيب

وطن يؤجلنا ويذبحنا ويسلبنا معاقل عمرنا

وطن نسميه السليب ([1])

كرر كلمة " وطن" جاعلاً منها مطلعاً موسيقياً لكل سطر. ويلاحظ أنها تشكل النغمة الأساسية التي تدور حولها المقطوعة، وتضرب على وتر القضية الفلسطينية التي تقوم على سلب الوطن من أهله الشرعيين، ليخلص لقمة صائغة للعدو الصهيوني. ومن هنا أكمل القصيدة بتكرار كلمة أخرى تدور حول التصميم على المقاومة والتمسك بثرى الوطن :

ونظل نحمله كلون جلودنا

ونظل نجمعه كطمي عذابنا

ليظل يورق كالزنابق خلف حزن سدودنا

ونظل نكرزه كمجد جدودنا

ونظل كي يبقى... نضيع تظل أحلام الرمال تمدُّ

كف سرابنا لحشودنا

ونظل نعبده ولو أسرا بعاد حياتنا لثمودنا

ونظل نحرسه من الصخر الذي يقتاتنا

ونسن أسنان الحليب ([2])

فقد كرر كلمة " نظل " في مطلع كل سطر شعري تقريباً مشكلاً بذلك مطلعاً موسيقياً، ونغمة متكررة يدور حولها المعنى، عن الإصرار والحث على المقاومة بكل الوسائل والثبات على الحق.

وقد يختم الشاعر كل فقرة من قصيدته بتكرار مقطع بعينه كصدى يتردد لمعنى يود أن يرسخه في نفس المتلقي، من ذلك قول "سهى قسيس" من قصيدة (عروسة الملاحم):.

---

[1] / نديم حسين ، مارش لكفر قاسم ، ديوان الشهيد،99

[2] / ن،99ه

من بحر يافا

وموجه المتلاطم

من أشجاره

ومن شذاه الناعم

نرسل

ألف قبله وقبله

إليك

يا عروسه الملاحم([1])

حيث كررت المقطع الأخير " نرسل ألف قبلة وقبلة إليك يا عروسه الملاحم" لتشكل بذلك فاصلة موسيقية متكررة بين كل الفقرات، منسجمة مع المعنى الذي تريده.

ويعمل **الجناس والطباق والاستعارة والكناية...** على تغذية الموسيقى الداخلية للقصيدة. كما أن استخدام اللغة المعبرة الموحية، واستخدام الألفاظ الشعبية والاقتباس والتضمين إلى غير ذلك من عناصر تخدم الموسيقى الشعرية، وقد عرضنا إلى هذه العناصر في موضع أخر من البحث،([2])

وهكذا نرى أن الموسيقى الشعرية تلعب دوراً بارزاً في الشعر، وقوة تأثيره في المتلقي. وقدساير شعر المجزرة التطورات التي مر بها الشعر العربي عامة، والشعر الفلسطيني خاصة. فظهرت فيه أنماط مختلفة من الموسيقى والإيقاعات المتنوعة. من خلال تعامله مع الأوزان المختلفة العمودية التقليدية والحرة بأنواعها: السطر الشعري والجملة الشعرية، ومن خلال تعامله مع أنواع مختلفة من القوافي الموحدة والمتعددة والمرسلة، كما لعبت الموسيقى الداخلية دوراً هاماً في الموسيقى الشعرية متمثلة في اللغة والتكرار والترادف والجناس والصور الشعرية... وغيرها من العناصر التي ترفد الموسيقى الشعرية.

إن التخلي عن أي عنصر من عناصر الموسيقى الشعرية الخارجية " الوزن والقافية" أو الداخلية ينعكس سلباً على قيمة الشعر ودورة في التأثير وإيصال المعنى المراد في القصيدة.

---

[1] / سهى قسيس، عروسة الملاحم، ديوان الشهيد،221

[2] / انظر " الصورة الشعرية والأسلوب".ص ..

خاتمة البحث

انتهجت الحركة الصهيونية منذ قيامها في فلسطين ، سياسة التطهير العرقي ضد العرب ، وكان الهدف – وما زال – تأسيس دولة إسرائيلية نقية من أي عنصر غير يهودي ، وعلى هذه الخلفية العرقية، قامت العصابات الصهيونية بارتكاب المجازر ، وطرد سكان القرى العربية وترويعهم ، وتدمير قراهم بقوة السلاح، فجرت الدماء الزكية في دير ياسين وقبية والدوايمة وكفر قاسم والسموع ونحلين وعشرات المجازر التي تبرهن على أن سياسة ارتكاب المجازر سياسة مرسومة من الحكومة الصهيونية ، لتطبيق الأيديولوجية التي تنادي بشعار (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض).

وقد تعرضت الشعوب العربية والإسلامية على مر العصور ، إلى العديد من المجازر المروعة، على أيدي أعداء الحضارة الإنسانية ، ولكن ما يميز مجزرة كفر قاسم عن غيرها من المجازر أنها ارتكبت بحق مدنيين مسالمين عائدين من أعمالهم ، بأيدي أفراد من قوة عسكرية تقع عليها مسؤولية حمايتهم والدفاع عنهم .

أدرك الشاعر الفلسطيني أن علية واجبا أخلاقيا تجاه أمته ووطنه ، وأن التعبير عن قضايا مجتمعه والتواصل مع الأمة العربية والإسلامية لحظة إشراقها، ولحظات محنتها، هو هدف سام وواجب مطلوب ، لذلك كان لا بد من استعمال طاقته الإبداعية والفنية وتوظيفها في الذود عن قضايا الأمة ومقارعة الظلم والعدوان ، والحض على الثبات والصمود والمقاومة ، وتغذية روح الثورة في النفوس ، ومن هنا كان موضوع المجازر الصهيونية وعلى رأسها كفر قاسم، أحد الموضوعات الرئيسة التي تناولها الشعر وأفاض فيها.

وبعد استقراء أشعار مجزرة كفر قاسم تم استخلاص النتائج التالية:

1- اهتم الشعراء الفلسطينيون بمجزرة كفر قاسم، لما رأوه في الحدث من نذير شؤم يهدد كيانهم ، ويحطم مصيرهم . فالقتل الجماعي وترويع الآمنين هو امتداد لنكبة وقعت قبل ثمان سنوات من المجزرة، كان نتيجتها القتل والظلم والتهجير واللجوء......

2- أن الشر والقسوة والظلم والحقد صفات موروثة في الشخصية الصهيونية، غذتها التربية (الشيفونية) ، والأيدولوجية الصهيونية التي تقوم على قتل الآخرين ، واغتصاب حقوقهم .كما كان للمذابح التي

يدعي اليهود أنهم تعرضوا لها إبان الحكم النازي، دور بارز في تثبيت هذه الصفات ، وتفريغها في الشعوب المغلوبة.

3- اتجه شعر المجزرة اتجاها قوميا، مدفوعا بانتمائه للأمة العربية، فوقف مدافعا ومفتخرا بأمجاد الأمة ومآثرها، ومعتزا بالشعوب العربية المناضلة والمنافحة عن حقوقها، وكان للدعوة الناصرية ، والوحدة العربية، أثر بالغ في تغذية الروح القومية، إضافة إلى أن مجزرة كفر قاسم كانت من تداعيات العدوان الثلاثي على مصر.

4- بدت النقمة واضحة على الزعماء والحكام العرب في شعر المجزرة، وحمّلهم الشعراء مسؤولية ما أصاب الشعب الفلسطيني ، من تشريد وقتل وتهجير، وأظهر بعض الشعراء امتعاضه من الموافقة على الصلحة المبنية على الظلم واغتصاب الحقوق، محمّلا القيادة المحلية لكفر قاسم إثم ذلك.

5- برز الاتجاه الوطني في شعر المجزرة من غير الإشارة إلى فلسطين بالاسم، في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، ثم ما لبث أن تردد في الأشعار التي تدعو إلى الصمود والثبات في الأرض، وتفتخر بفلسطين شعبا وأرضا.

6-كشفت الدراسة النقاب عن عدد كبير من الشعراء الفلسطينيين غير المعروفين الذين لا يُستهان بشعرهم،مما يدعونا إلى ضرورة دراسة الشعر الفلسطيني كله، وعد الوقوف عند حدود المشهورين منهم .

7- غاص شعر المجزرة في أعماق النفس الإنسانية من خلال تحليله صفه لمشاعر الشهداء وأهلهم، جرّاء المجزرة الهمجية، ونظر إلى إنسانية الإنسان لا إلى لونه أو دينه أو طبقته، ودعا إلى الاتحاد والتكاتف بين الشعوب لدرء الخطر، وقد كان لبعض اليهود اليساريين دور في الكشف عن المجزرة والظلم الواقع على الفلسطينيين ، ومن هنا نرى خلو شعر المجزرة من العنصرية.

8- عُني شعر المجزرة بالطبقات الكادحة، وصور كفاحها، وما هي فيه من بؤس في ظل الاحتلال الصهيوني، كما وضع الشعراء نصب أعينهم مآسي الأهل خارج الوطن وداخله، وأشادوا بتمسكهم بأرضهم ، وصمودهم في مواجهة كل أساليب الظلم والعسف والاضطهاد التي يمارسها العدو الصهيوني

9- طغت نغمة الجهاد والمقاومة في رد الشعراء على ما يحاك ضد الأمة ، والتي مثلت المجزرة فصلا من فصولها، وإن تراجعت هذه النغمة في الفترة الأخيرة، ليحل محلها المطالبة بإجراء محاكمة عادلة، مع ضرورة الاعتذار للشعب الفلسطيني عامة ولأهل كفر قاسم خاصة عن هذه الجريمة.

10- ظهر في شعر المجزرة عمق الارتباط بالأرض ، وأصالة الانتماء للشعب العربي الفلسطيني، وعاش الشعراء بأعماقهم آمال الأمة ومآسيها، وأفراحها وأعيادها، واكتسبوا من خلال معايشتهم هذه خبرة واسعة أغنت فنهم ، وأمدتهم بشحنات جديدة من وجدان الشعب وآماله وآلامه، فاتجه بعضهم إلى اتخاذ لغة الشعب ، وما فيها من إيحاء ، زاوية أساسية في بناء القصيدة، وهذا الاستخدام إنما يُعد وسيلة من وسائل المواجهة الفعّالة للعدو الصهيوني، عن طريقه تُحفظ الجذور الفلسطينية حيّة نامية ، ويجعل من الشعر أغنية يشدو بها الناس.

11- يغلب على لغة المجزرة السهولة والوضوح والواقعية، ذلك لخدمة الهدف الذي نسجت من أجله، وهو مخاطبة الشعوب العربية على اختلاف طبقاتها، والضرب على وتر الصمود والمقاومة،من هنا كان الأسلوب الخطابي جليا في كثير من القصائد التي تدعو إلى الثورة ورفض الخنوع والاستكانة، كما ظهر- على استحياء- الأسلوب الإيحائي والرمزي ، وغلب الأسلوب الغنائي في كثير من قصائد المجزرة.

12- اختلف الشعراء في تناول المجزرة ، فبينما غاص بعضهم في مشاعر الشهداء ، ودخل إلى أعماقهم أمثال " محمود درويش" .اكتفي آخرون بالوصف الحي الدقيق وذكر أدق التفاصيل، أمثال " توفيق زياد" ومحمود الدسوقي "و "محمود مرعي". كما صور بعضهم فداحة المأساة ، ومشهد المجزرة بوجه عام ، مثل " حنا أبو حنا" و "سميح القاسم" وهشام أبو صلاح". ولكنهم جميعا استخلصوا نتيجة واحدة ، وهي أن هول الجريمة ، وتعاظم الاضطهاد والوحشية ، يعاظم الإصرار والصمود، ويغذي نار الثورة والمقاومة.

13- صاغ الشاعر مضامينه بأساليب مختلفة ومتنوعة ، ذلك التنوع الذي ينم عن ثقافته وسعة إطلاعه على أساليب الشعر المعاصر، وتأثره بها، وصب أفكاره في قوالب لغوية متسقة مع الموضوع المطروح، واختار من الأوزان الشعرية ما يضمن لها قوة التأثير ، وجمال الإيقاع، فضمت بالإضافة إلى الوزن العمودي التقليدي ، الشعر الحر ، والقصيدة النثرية والزجل الشعبي، وكانت البحور الصافية هي الأكثر حضورا في هذه القصائد، وبرز الأسلوب القصصي مشحونا بالسرد لدى الكثيرين، كما عمد كثير من الشعراء إلى التكرار لترسيخ فكرته وإثارة المتلقي ليصل إلى فعل المقاومة.

14- اهتم شعر المجزرة بالصورة الشعرية ، فتنوعت بين الصورة المفردة والمركبة والتفصيلية والمتعددة، وهذا يضفي أبعادا جمالية على النص حين تتضافر الصور الفردية ، واللوحات الفنية ، لتؤلف صورة متكاملة تعبر عن هول الكارثة.

15- لم تقم الدراسة على المفاضلة بين قصائد الجيل الأول والثاني، وإن كانت كفة الميزان تميل إلى الجيل الأول من الناحية الفنية، من حيث جمال اللغة ، ودقة التعبير وعمق الصورة، رغم صدق العاطفة

الذي نلمحه في كل قصائد المجزرة ، ويعود ذلك إلى استمرار مسلسل المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، ومعايشة الشاعر للحدث بألوان وأشكال مختلفة.

17- تخلت الطبيعة عن حيادها وسكونها، حين تعاطفت مع الشهداء وأهل كفر قاسم، فهي تتألم وتندب ويتغير لونها من هول الجريمة، وتغبط الشهداء على مكانتهم ، والجزاء الذي ينتظرهم ، وقد كان للطبيعة حضور بارز في شعر المجزرة.

وبعد ، فلعل هذا الدراسة تسهم في إبراز شعر المجزرة، ولعل الدارسين والباحثين ينتفعون بها، وأستبيحهم عذرا إن وجد هناك قصور غير مقصود، فإن الكمال لله وحده.

ملحق (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله محمد رسول الله

الفاتحة

على ارواح شهداء الخلود الذين سقطوا ظلماً في المأساة الأليمة بدون اي ذنب اقترفوه يوم ٢٩/١٠/١٩٥٦م

ابراهيم عبد الهادي حماد عيسى	محمود خضر صرصور	عبد الله عبد الغفار بدير	آمنة قاسم طه
أحمد محمد جوده عامر	محمود محمد حبيب مصاروه	عبد الرحيم سمير بدير	بكرية محمود اسماعيل طه
أحمد محمد صوص افريج	محمود عبد الغافر ريان	عطا يعقوب صرصور	زينب عبد الرحمن طه
جمال سليم محمد طه	محمود عبد الرازق صرصور	علي نمر نواره افريج	زغلول احمد بشير
جمعه محمد عبد صرصور	سليم احمد بشير بدير	علي عثمان علي طه	خميس فرج عامر
جمعه توفيق احمد عيسى	غازي محمود درويش عيسى	عثمان عبد حماد عيسى	حلوه محمد المقبول بدير
طلال شاكر عيسى	عبد محمد عبد الهادي عيسى	صالح مصطفى احمد عيسى	لطيفه داوود خمران عيسى
يوسف محمد اسماعيل صرصور	عبد سليم نواره افريج	صالح محمود نصار عامر	فاطمه داوود صرصور
موسى ذياب عبد افريج	عبد سليم صالح عيسى	صالح سلامه احمد عامر	فاطمه مصطفى خمران عيسى
محمد عبد سمحان عاصي	عبد الله احمد حماد عيسى	فتحي عثمان عبد حماد عيسى	فاطمه محمود درويش عيسى
محمد سليم خضر صرصور	عبد الله محمد عبد صرصور	رياض رباح حمدان	فاطمه صالح احمد صرصور
محمد علي اذياب صرصور			صفه عبد الله عيسى صرصور
			رشيقه فائق بدير

كفر قاسم، في ٦ ذو القعدة ١٣٧٦هـ الموافق ٢٩/١٠/١٩٥٦م

ملحق "2 ". ([1])

قائمة الشهداء والجرحى:

– عدد الشهداء 49

ذكور 36

إناث 13

– عدد أبناء الشهداء 101

ذكور 54

إناث 47

– عدد أفراد عائلات الشهداء 793

ذكور 390

إناث 403

شهداء المجزرة ...

الاسم	العمر	الوضع الإجتماعي
1/ إبراهيم عبد الهادي حماد عيسى	35	متزوج
2/ أحمد محمد صوص فريج	35	متزوج
3/ جمعة محمد عبد صرصور	17	عزب
4/ طلال شاكر عبد الله عيسى	8	طفل
5/ موسى ذياب عبد حمد فريج	21	عزب
6/ محمد سليم خضر صرصور	15	عزب
7/ أحمد محمد جودي عامر	17	عزب
8/ جمال سليم محمد طه	11	طفل
9/ جمعة توفيق أحمد عيسى	18	عزب
10/ يوسف محمد اسماعيل صرصور	52	متزوج
11/ محمد عبد الرحمن عاصي 12/ محمد عبد الرزاق صرصور	50 16	متزوج عزب

[1] / ما ورد في هذا الملحق أخذ من كتاب ديوان الشهيد ص 295-300

13/ سليم أحمد بشير بدير	51	متزوج
14/ عبد محمد عبد الهادي عيسى	29	متزوج
15/ عبد سليم صالح عيسى	29	متزوج
16/ عبد الله محمد صرصور	9	طفل
17/ عبد الرحيم محمد أحمد بدير	25	متزوج
18/ علي نمر نواره فريج	17	عزب
19/ غازي محمود درويش عيسى	20	عزب
20/ عبد سليم نواره فريج	16	عزب
21/ عبد الله أحمد عيسى	15	عزب
22/ عبد الله عبد الغافر بدير	16.5	عزب
23/ عطا يعقوب صرصور	26	عزب
24/ علي عثمان علي طه	30	متزوج
25/ عثمان عبد حماد عيسى	34	متزوج
26/ صالح محمود نصار عامر	40	متزوج
27/ بكرية محمود اسماعيل طه	14	طفلة
28/ رياض رضا حمدان	8	طفل
29/ زينب عبد الرحمن طه	45	متزوجة
30/ صالح مصطفى أحمد عيسى	17	عزب
31/ صالح محمد – سلامة– أحمد عام	40	عزب
32/ فتحي عثمان عبد حماد عيسى	12	عزب
33/ آمنه قاسم سعيد طه	50	متزوجة
34/ زغلولة أحمد بشير عيسى	45	متزوجة
35/ خميسة فرج عامر	50	متزوجة
36/ لطيفة داوود حمران عيسى	18	عزباء
37/ فاطمة مصطفى حمران عيسى	18	عزباء
38/ فاطمة صالح أحمد صرصور 39/ رشيقة فائق إبراهيم بدير	14 14	عزباء عزباء
40/ حلوة محمد عودة بدير	60	متزوجة
41/ فاطمة داوود أحمد صرصور " حامل"	30	متزوجة

42/ فاطمة محمد سليمان بدير	40	متزوجة
43/ فاطمة محمد سليمان بدير	45	متزوجة
44/ عبد الله سليمان عيسى	90	متزوج
45/ محمود خضر صرصور	27	متزوج
46/ محمود عبد الغافر ريان	35	متزوج
47/ محمود عقل جابر	12	طفل
48/ محمد علي ذياب صرصور	35	متزوج
49/ محمود محمد حبيب مصاروة " الطيبة"	25	متزوج

جرحى المجزرة ...

1- جمال نمر فريج
2- اسماعيل عقاب بدير
3- عبد الرحيم سليم طه
4- كامل تايه عامر
5- صالح خليل عيسى
6- هناء سليمان عامر
7- سلمان عثمان عامر
8- عبد الرحمن يعقوب صرصور
9- أخرس يعقوب
10- توفيق حمودة بدير
11- عبد الله اسمير بدير
12- محمود صوص فريج
13- مصطفى عبد القادر صرصور
14- عثمان سليم بدير
15- صالح لطيفة صرصور
16- أسعد سليم عيسى " أبو فتحي"
17- مصطفى خميس عامر " أبو نجيم"
18- رجا حمدان
19- صالح خضر صرصور

قائمة المصادر و المراجع

- **القرآن الكريم**

أولا: المصادر

1. أبو حنا، حنا- **نداء الجراح** ، منشورات مكتبة عمان، ط1، عمان، (1969م).
2. درويش، محمود درويش- **ديوان محمود درويش**، دار العودة، ط14، بيروت، (1996م)1-2.
3. زياد، توفيق- **ديوان توفيق زياد** ، دار العودة، (د.ط)، بيروت، (2000م).
4. القاسم، سميح- (1) **الأعمال الكاملة**، دار سعاد الصباح، الكويت،(1993م)، 1-6.
   (2) **ديوان الحماسة**، منشورات مكتبة الأسوار، ط1، عكا،(1981م).
   (3) **ديوان سميح القاسم** ، دار العودة، (د ط)،بيروت، 2000
5. عيسى، علا (إعداد وتنسيق)- **ديوان الشهيد**، كفر قاسم،(1999م).
6. حسين، راشد- **الأعمال الشعرية**، مركز إحياء التراث العربي، ط1، الطيبة، (1990م).

ثانيا: المراجع

1. ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630هـ)- **الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، ط2، بيروت، (1967م)، 1-10.
2. إسماعيل، عز الدين- **الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية**، دار العودة، ط3، بيروت ، (1981م)
3. أبو اصبع، صالح- **الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة منذ عام 1948- 1975**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، (1979م).
4. أنيس، إبراهيم- **موسيقى الشعر**، مكتبة الآنجلو المصرية، ط4، القاهرة، (1972م).
5. البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد (ت 280هـ)- **ديوان البحتري**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، (د.ط) القاهرة، (1973م)، 1-4.
6. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت 256هـ)- **صحيح البخاري**، دار المعرفة للطباعة و النشر، ط1، بيروت، (1998م)، (1-5).
7. البعلبكي، منير- **موسوعة المورد**، دار العلم للملايين، (د.ط)، بيروت، (1981م).
8. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874)- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، المؤسسة المصرية العامة للتأليف و الطباعة و النشر، (د.ط)، مصر(1963)،1-12.
9. التل، عبد الله- **كارثة فلسطين**، دار القلم، ط1، القاهرة، (1999م).
10. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (ت 421هـ)- **ديوان الحماسة**، تحقيق عبد المنعم احمد صالح، دار الجيل، ط1، بيروت، (2002م)، 1-4.

11. التميمي، أبو النصر– **شموخ النخيل**، (د.ط)، (1995م).

12. جرار، حسني ، والجدع، أحمد– **شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث**، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، (1978م).

13. جرار، مأمون فريز– **الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث**، دار البشير، ط1، عمان، (1984م).

14. جريسي، صبري– **العرب في إسرائيل**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط2، بيروت، (1973م).

15. الجزار، محمد فكري– **الخطاب الشعري عند محمود درويش**، (2001م).

16. ابن جعفر، قدامة (ت326هـ)– **نقد الشعر**، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، القاهرة، (د.ت).

17. الجنباز، محمد منير– **الوظيفة الإعلامية للشعر الإسلامي المعاصر في قضية فلسطين**، عالم الكتب للنشر و التوزيع، ط1، الرياض، (1984م).

18. الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت 393هـ)– **تاج اللغة و صحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفار عطّار، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، (1984م)، 1–6.

19. جيدة، عبد الحميد– **الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر**، مؤسسة نوفل، ط1، بيروت، (1980م).

20. حبيبي، إميل– **كفر قاسم المجزرة السياسية**، منشورات عربسك،(د.ط)حيفا، (1976م).

21. الحصري، ساطع– **آراء و أحاديث في الوطنية و القومية**، مركز دراسات الوحدة الوطنية،(د.ط) بيروت، (1984م).

22. الحمد، جواد– **المجازر الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني 1948 – 2000**، مركز دراسات الشرق الأوسط، ط3، عمان، (2000م).

23. ابن حنبل، أحمد أبو عبد الله الشامي (ت 241هـ)– **مسند احمد**، المكتب الإسلامي للطباعة و النشر، دار صادر، (د.ط) بيروت، (د.ت).

24. الخالدي، دلال العلمي– **الأقصى الجريح**، دار الفرقان، (د.ط)، (1987م).

25. الخالدي، صلاح عبد الفتاح– **الشخصية اليهودية من خلال القرآن**، دار القلم، ط1، دمشق، (1998م).

26. الخالدي، وليد– **كي لا ننسى، قرى فلسطينية دمرتها إسرائيل عام 1948**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط1، بيروت، (1997م).

27. الخضراء، محمد طارق– **المجازر الصهيونية المرتكبة بحق الشعب الفلسطيني خلال القرن العشرين**، (د.ط)، (2003م).

28. الخطيب، يوسف– **ديوان الوطن المحتل**، دار فلسطين، المطبعة التعاونية، (د.ط)، دمشق، (1968م).

29. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ)- **تاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة و النشر، (د.ط)، بيروت، (1979م)، 1-7.

30. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت 68هـ)- **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، (د.ط)، بيروت، (1977م)، 1-8.

31. ابن الخياط، أبو عبد الله أحمد بن علي التغلبي- (ت 517هـ)، **ديوان ابن الخياط**، تحقيق خليل مردم بيك، دار صادر، ط2، بيروت، (1994م).

32. الدباغ، مصطفى- **بلادنا فلسطين**، دار الهدى، ط - 2003، كفر قرع، (2003م)، 1-10

33. درويش، محمود - **يوميات الحزن العادي**، دار العودة، ط3، بيروت، (1981م)

34. الدسوقي، محمود- **ذكريات... و نار**، ط1، (1970م).

35. دومة، علي عبد الخالق علي- **في الأدب و مذاهبه المعاصرة**، (د.ط) قطر، (1990م).

36. رشيد، هارون هاشم- **الكلمة المقاتلة في فلسطين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مصر، (1973م)

37. رضا، الشيخ أحمد- **معجم متن اللغة**، دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت، (1958م).

38. رنسيمان، كاستيفن- **تاريخ الحروب الصليبية**، نقلة إلى العربية السيد الباز العريني، ط3، القاهرة، (1993م).

39. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج (ت283هـ)- **ديوان ابن الرومي**، تحقيق حسين نصار.

40. الزبيدي، الحافظ أبو العباس أحمد بن عبد اللطيف- (ت 893هـ)، **مختصر صحيح البخاري**، اعتنى به كمال بن بسيوني الأبياري، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، بيروت - لبنان، (1993م).

41. الزبيدي، محمد مرتضى- **تاج العروس في جواهر القاموس**، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)، بيروت - لبنان، (د.ت)، 1-10.

42. زياد، توفيق - **عن الأدب و الأدب الشعبي في فلسطين**، دار العودة، (د.ط)، بيروت، (د.ت)

43. الزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد الحسين-**شرح المعلقات العشر**، منشورات دار مكتبة الحياة، (د.ط)بيروت لبنان، (1991م)

44. زيدان، رقية- **التغير الدلالي في شعر سميح القاسم**، مؤسسة الأسوار، ط1، عكا، (2001م)

45. سرحان، نمر- **الحكاية الشعبية الفلسطينية**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، (د.ط)، بيروت، (1974م).

46. ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي (ت 458هـ)- **المخصص**، دار الفكر، (د.ط)، عمان، (د.ت)، 1-5.

47. شاكر، محمود- **موسوعة تاريخ اليهود**، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط1، عمان، (2002م).

48.أبو شاور، سعدي- **تطور الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، (د.ت).
49.أبو الشباب، واصف- **شخصية الفلسطيني في الشعر الفلسطيني المعاصر**، دار العودة، (د.ط)، بيروت، (د.ت)
50.أبو شريفة، عبد القادر، **مدخل إلى تحليل النص الأدبي**، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، (1990م).
51.شوقي، أحمد- **ديوان أحمد شوقي**، مداخلة و تحقيق أميل كبا، دار الجيل، ط2، بيروت،(1999م)، 1-4.
52.الشنتريني، ابن السراج(ت549هـ)- **الكافي في علم القوافي**، تحقيق محمد رضوان الداية، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، (1972م).
53.الشنتمري، يوسف بن سليمان بن عيسى(ت476هـ)- **أشعار الشعراء الستة الجاهليين**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط3، بيروت، (1983م).
54.الشيوخي، حجازي إسماعيل-**المجزرة**، مركز الإعلام والأبحاث الفلسطينية، (د.ط) ، القدس، (د.ت)
55.الصابوني، محمد علي- **صفوة التفاسير**، دار الصابوني للطباعة والنشر و التوزيع، ط9، مدينة نصر - مصر، (1976م).
56.الضبي، المفضل بن محمد بن يعلى(398هـ)- **ديوان المفضليات**، تحقيق محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، مطبعة الآباء اليسوعيين، ط6، بيروت، (1920م)، 1-2.
57.ضيف، شوقي- **دراسات في الشعر العربي المعاصر**، دار المعارف، ط8، مصر، (د.ت)
58.الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير(ت310هـ) - **تاريخ الطبري**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، (د.ط)و مصر، (1960م)، 1-8.
59.ظاظا، حسن- **الشخصية الإسرائيلية**، دار القلم، ط3، دمشق، (1999م).
60. العارف، عارف- **النكبة**، منشورات المكتبة العصرية للطباعة و النشر، (د.ط)، صيدا- بيروت،1-4.
61.عبد النور، جبور- **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، (1982م).
62.العبسي، عنترة بن شداد (ت615م)- **ديوان عنترة**، بيروت للطباعة والنشر، (د.ط)، بيروت، (1958م).
63.عثمان، عبد الكريم- **معالم الثقافة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت، (1981م).
64.عراق، عبد البديع - **صورة الشهيد في الشعر الفلسطيني المعاصر**، مؤسسة الأسوار، ط1، عكا، (2002م)
65.عصفور، جابر أحمد- **الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي**، دار المعارف، (د.ط)، القاهرة، (1980م).

66.عطوات، محمد عبد الله- **<u>الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من 1918-1968</u>**، دار الآفاق الجديدة، ط1، بيروت،(1998م).

67.علي، ناصر- **<u>بنية القصيدة في شعر محمود درويش</u>**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت،(2001م).

68.أبو علي، نبيل خالد- **<u>عناصر الإبداع الفني في شعر عثمان أبو غربية</u>**، إصدار اتحاد الكتاب الفلسطيني، ط1، القدس، (1999م).

69.عمر، عبد الرحيم- **<u>رغم حصار الكلمات</u>**، مخطوط.

70.عيسى، علا (ترجمة و إعداد)- **<u>كفر قاسم الأحداث و الأسطورة</u>**، منشورات الطلائع، ط1، يافة الناصرة،(2000م).

71.العيني، بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد- **<u>عمدة القاري في شرح صحيح البخاري</u>**، دار الفكر للطباعة و النشر، ط1، بيروت،(1998م).

72.غربال، محمد شفيق- **<u>الموسوعة العربية الميسرة</u>**، دار الشعب و مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، (د.ط)، بيروت، (د.ت).

73.غريب، روز- النقد الجمالي و أثره في النقد العربي، دار الفكر اللبناني، ط2، بيروت،(1983م).

74.غطاشة، أحمد عبد الفتاح- **<u>اشتعالات النار و الزنابق</u>**، د.ط، (1984م).

75.غنايم، محمود، (إعداد و تقديم)- **<u>مرايا في النقد</u>**، مركز دراسات الأدب العربي و دار الهدي، ط1، القاهرة، (1998م).

76.غنيم، كمال أحمد- **<u>عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر</u>**، مكتبة مدبولي، ط1، بيروت، (1985م).

77.الفار، مصطفى- **<u>الشاعر أبو سلمى أديباً و إنساناً</u>**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1985م.

78.الفراهيدي، عبد الرحمن الخليل بن أحمد (ت 150هـ)- **<u>العين</u>**، تحقيق مهدي الخروبي و آخرون، مؤسسة دار الهجرة، ط2، إيران، (1409هـ)، 1-9.

79.الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817هـ)- **<u>القاموس المحيط</u>**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط6، بيروت،(1998م).

80.القاضي، محمد- **<u>الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية</u>**، الدار العربية للكتاب، (د.ط)، ليبيا – تونس، (1982م).

81.القيس، امرؤ(ت 540م)- **<u>ديوان امرئ القيس</u>**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط2، مصر، (1964م).

82.ابن كثير، أبو الفداء الحافظ (ت 774هـ)- **<u>البداية و النهاية</u>**، مكتبة المعارف، ط1، بيروت، (1966م)، 1-14.

83.**الكتاب المقدس**، شتوتغارت- ألمانيا، (1991م)
84.الكرمي، عبد الكريم (أبو سلمى)- **ديوان أبي سلمى**، دار العودة، (د.ط)، بيروت، (1974م).
85.كنفاني، غسان- **الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال 1948 – 1968م**، مؤسسة الأبحاث العربية، ط3، بيروت، (1987م).
86.الكيالي، عبد الوهاب- **موسوعة السياسة**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، (1994م)، 1-7.
87.المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين (354هـ)- ديوان أبو الطيب المتنبي،شرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه مصطفى السقا وآخرون، (د.ط)، (د.ت) ، 1-4
88. مجلس كفر قاسم المحلي- **كفر قاسم في الذكرى الـ 44 لمجزرة**، (د.ط)، مطبعة الزهرة، كفر قاسم، (2000م).
89.مجمع اللغة العربية- **المعجم الوسيط**، ط3، (د.ت)، 1-2.
90.محمد، شهاب- **شعراء فلسطينيون**، شركة عنان للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، رام الله، (1998م).
91.محمود، معروف رفيق- **القدس قصيدتي**، دار أسامة للنشر و التوزيع، ط1، عمان – الأردن، (1974م).
92.مرعشلي، نديم ورفيقاه- **الصحاح في اللغة و العلوم**، دار الحضارة العربية، ط1، بيروت، (1974م).
93.المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين- (ت346هـ)، **مروج الذهب و معادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط5، بيروت، (1973م)، 1-4
94.المسيري، عبد الوهاب- **موسوعة اليهود و اليهودية و الصهيونية**، دار الشروق، ط1، القاهرة، (1999م)، 1-8.
95.المقدسي، أنيس الخوري- **الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث**، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، (1982م).
96.الملائكة، نازك- **قضايا الشعر المعاصر**، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، (1983م).
97.مندور، محمد- **في الأدب و النقد**، دار النهضة، ط3، مصر، (د.ت)
98.ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم- **لسان العرب** ،دار صادر، ط1، بيروت، (1990م)، 1-16.
99.النابلسي، شاكر- **مجنون التراب**، دراسة في شعر و فكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1، بيروت، (1978م).
100. الناعوري، عيسى- **أدب المهجر**، دار المعارف، ط3، القاهرة، (1977م).
101. نقاش، رجاء- **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة**، دار الهلال، ط2، القاهرة، (1971م).

102. نوفل، يوسف حسن- **أصوات النص الشعري**، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، الجيزة – مصر، (1995م).

103. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف(ت 674هـ)- **رياض الصالحين**، تحقيق جماعة من العلماء، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط1، بيروت، (1992م).

104. النويهي، محمد- **قضية الشعر الجديد**، المطبعة العالمية، (د.ط)، القاهرة، (1964م).

105. النيسابوري، مسلم بن الحجاج(ت261هـ)- **صحيح مسلم**، شرح الإمام محيي الدين النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيخا، دار المعرفة، ط5، بيروت، (1998م)، 1-8.

106. ابن هشام، أبو محمد عبد الملك (ت 213هـ)- **سيرة النبي**، مراجعة محمد محيي الدين بن عبد الحميد، دار الفكر.

107. هيئة الموسوعة الفلسطينية- **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، ط1، دمشق، (1984م)،1-4.

108. هيكل، يوسف- **فلسطين قبل وبعد**، دار العلم للملايين، د.ط، بيروت، (1971م).

109. الواقدي، محمد بن عمر- **كتاب المغازي**، تحقيق مارسون جيونس عالم الكتب، (د.ط)، بيروت، (1964م).

110. وجدي، محمد فريد- **دائرة معارف القرن العشرين**، دار المعرفة، ط3، بيروت، (1971م).

111. ياغي، عبد الرحمن- **حياة الأدب الفلسطيني**، دار الآفاق الجديدة، ط2، بيروت، (1981م).

الدوريات والصحف

1. **الاتحاد**، 1956/12/28 ،ص2

2. حسني، جواد- **المجزرة علامة الإعصار**، مجلة فلسطين الثورة، عدد(449)، (1983م)، ص92.

3. أبو خشاف، عبد الكريم- **ذاكرة الزيتون** ، مجلة فصول، مجلد(15)، عدد (4) سنة (1997م)

4. **شؤون فلسطينية** ، عدد(138-139)، أيلول، ، بيروت (1984م)، ص64-65 / 92.

5. عبد الله ، محمد حسب- **الكويت والتنمية والثقافة العربية**، سلسلة عالم المعرفة، عدد(153) ، الكويت، (1991م).

6. العظمة، نذير- **بدر شاكر السياب والمسيح**، مجلة الفكر العربي، عدد(26) سنة (1982م)ص 171.

7. العلاق، علي جعفر- **البنية الدرامية في القصيدة الحديثة**، مجلة فصول، مجلد(7) عدد(201) سنة(1986-1987م).

8. أبو عليان، ياسر- **صدى مجزرة الحرم الإبراهيمي في الشعر الفلسطيني المعاصر**، قضايا الأدب واللغة والتحديات المعاصر ،الجز الثاني، الجامعة الإسلامية- غزة، (2001م) ، ص487

9. مصاروة،رياض- **قصيدة رقصة الموت في كفر قاسم**، مجلة صوت الجماهير، عدد(6)، ترجمة علا عيسى.

10. نقاش، رجا- **أدباء معاصرون**، **الهلال**، عدد(241) سنة(1971م).

رسائل جامعية

1. الحاج محمد، فراس عمر أحمد- السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم بين عامي 1948-**1993**، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، نابلس، (1999م).
2. الخضور، صادق عيسى- **التواصل بالتراث في شعر عز الدين المناصرة**، رسالة ماجستير، جامعة الخليل، الخليل- فلسطين، (2003م).
3. أبو الرب، علي يوسف - **البعد الإنساني في الشعر الفلسطيني الحديث 1967-1990**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد-الأردن، (1996م).
4. شما ، ذيبة زياد- الموت في الشعر الفلسطيني المعاصر 19963-1995، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، دمشق-سوريا.
5. عطوات، محمد عبد عبدالله - **عبد الله بن المقفع** ، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، لبنان، (1979م).
6. عليان، أحمد محمد- النهضة الأدبية العالمية الحديثة من خلال روادها الأعلام 1875-1965 ، أطروحة دكتوراة، جامعة القديس يوسف، بيروت،(1986م).
7. أبو غيث، أسماء- **صورة العدو في شعر محمود درويش** ،رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، الأردن، (1999م).
8. يونس، جمال محمد قاسم- **لغة الشعر عند سميح القاسم**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد - الأردن، (1981م)

الانترنت

1. www.qudsway-com/link /felisteenyiat/4/html-felisteeniat 4/4hse-htm.
2. www.palestineinfo-info/arabic/terrot/alfikr/altatbigat-htm/4
3. www.geocities.com/albayan-2ynus/html.

massacres due to its connection without the Triple Aggression on Egypt.
The poem "Man and Land" includes two important subjects; the first is the proudity of the Arab and the encouragement to keep up the Arab morals. On the other hand; the anger against the Arab governments which have left Palestine for the enemies.

And, as a consequence of the great relationship between the Palestinians and the main religions, the Religious dimension, particularly the Islamic one was focusing on the martyrs' position in Quran and Sunna. The poets have also dealt with the massacres from a humanistic porspective.

This research is divided into three parts preceded by a preface "an introduction". The first part talking about the pictures of the murderers and the martyrs. The second about the dimensions of these massacres in the Palestinian poem. And the last one was an artistic study dealing with the style "use of language", poetic pictures, music and rhythms.

The poems about massacres have exemplified the Palestinian poem with all its orientations and progression, which is a true reflection for the painful Palestinian situation as a result of their occupation by a malicious enemy who is using all the artistic means of criminality and terror, and at the same time describing the Palestinian people who are refusing to accept these situation and as such inviting for the Resistance as a sole way to restore their stolen rights.

Abstract

The military power was the most important strategy way to achieve the goals of Zionism and Israel, and to apply their expanding programs in Palestinian and the Arab region. As such, a lot of organized massacres were carried out against the Palestinians who a lot of them were forced to leave their lands to make a space for the invaders. The Zionist government continued to carry out such massacres and terror even after the achievement of its dependence, one of the most important ones is Kufr Qasem Massacre which was committed after the catastrophe of 1948 to serve the goal of Zionism which stands on "A land without people for people without land ".

The so called "Border's guards' came to implement the order for the prevention of Al_Mothalath villagers (including Kufr Qasim) from leaving their houses, shortly before the beginning of the triple aggression against Egypt on 29/10/1956. And at the same time the Palestinian workers where returning homes from their farms and the neighboring settlements at 5:00 p.m. the machine of malice and discrimination started to harvest the soils of people without discrimination between a men or a women, a baby or an old men. 49 persons where killed at the west entrance of Kufr Qasim and among houses. The only crime of these murdered was their nationality to a country for which the Zionist thirst to its people's blood didn't stop even after what was done to it in Nakbah.

The various Palestinian poems had expressed this continuous tragedy of the Palestinians through these years. That poetry came profuse, new and detailed to reflect the picture of murders and they drew a bright picture for the martyrs which focus on the blood, injuries, alienation and the suffering of martyrs' families.

The poems had taken different dimensions, one of which is the patriotic dimension along without its constituents (Man and land)

The national dimension was also prominent in the poems of the

Hebron University
Faculty of higher studies
Department of Arabic Language

Title

“Kufr Qasem massacre in the Palestinian poem”

Prepared by
Sara Mahmmoud Saleh

Supervised by
Dr.Yasser Abo E’layan

This Thesis has been submitted in Partial fulfillment or the requirements of M.A degree in the Arabic language and literature at the faculty of higher studies, Hebron University.

2005